مجمع البيان

في تفسير القرآن

تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن

الطبرسي

طبعة جديدة منقحة

دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

مجمع البيان

في تفسير القرآن

مجمع البيان في تفسير القرآن

تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

طبعة جديدة منقحة

الجزء التاسع

دار المرتضى
بيروت

دار المرتضى

طباعة ,نشر ,توزيع

لبنان –بيروت , ص.ب :٢٥/١٥٥ الغبيري

هاتف فاكس : ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢

E-mail:mortada14@hotmail.com

DAR AL-MORTADA

Printing –Publishing –Distributing

Lebanon –Beirut
P O Box: 155/25 Ghobiery
Tel –Fax: 009611840392
E-mail:mortada14@hotmail.com

Printed In Lebanon

جميع حقوق الطبع والاقتباس محفوظة
ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة طباعة
أو ترجمة الكتاب أو جزء منه إلا بإذن
خطي من المؤلف والناشر

الطبعة الأولى

1427 هجرية

2006 ميلادية

سُورَةُ فُصِّلَتْ

مكية/آياتها (٥٤)

● **عدد آيها:** أربع وخمسون آية كوفي، ثلاث حجازي، آيتان بصري شامي.

● **اختلافها:** آيتان ﴿حمٓ﴾ كوفي، ﴿عَادٍ وَثَمُودَ﴾ حجازي كوفي.

● **فضلها:** أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ حم السجدة، أُعطِيَ[1] بعدد كل حرف منها عشر حسنات». وروى ذريح المحاربي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ حم السجدة، كانت له نوراً يوم القيامة مَدّ بصره، وسروراً، وعاش في هذه الدنيا مغبوطاً محموداً.

● **تفسيرها:** ختم الله سورة المؤمن بذكر المنكرين لآيات الله، وافتتح هذه السورة بمثل ذلك، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ
أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ
۝٥﴾.

● **الإعراب:** قال الزجاج: ﴿تَنزِيلٌ﴾ رفع بالابتداء، وخبره ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ﴾، هذا مذهب البصريين. وقال الفراء: يجوز أن يكون ﴿تَنزِيلٌ﴾ يرتفع بـ﴿حمٓ﴾ ويجوز أن يرتفع بإضمار: هذا، والمعنى: هذا تنزيل، أو هو تنزيل. وقوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: نصب ﴿قُرْءَانًا﴾ على الحال بمعنى: بُيِّنت آياته في حال جمعه، و﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ من صفته.

● **المعنى:** ﴿حمٓ﴾ قد تقدّم القول فيه، وقيل: في وجه الاشتراك في افتتاح هذه السور السبع بـ﴿حمٓ﴾ أنه للمشاكلة التي بينها بما يختص به وليس لغيرها، وذلك أن كل واحدة منها استفتحت بصفة الكتاب، مع تقاربها في الطول، ومع شدة تشاكل الكلام في النظم. ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ نزل به جبرائيل على محمد ﷺ. ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ وصف الكتاب بالتفصيل دون الإجمال، لأن التفصيل يأتي على وجوه البيان، أي: الذي بينت آياته بياناً تاماً، والتبيين فيه على وجوه، منها: تبيين الواجب مما ليس بواجب، وتبيين الأولى في الحكمة مما

(١) [من الأجر].

ليس بأولى، وتبيين الجائز مما ليس بجائز، وتبيين الحق من الباطل، وتبيين الدليل عن الحق مما ليس بدليل، وتبيين ما يرغب فيه مما لا يرغب فيه، وتبيين ما يحذر منه مما لا يحذر منه، إلى غير ذلك من الوجوه.

وقيل: فُصِّلَتْ آياته بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والحلال والحرام، والمواعظ والأمثال.

وقيل: فُصِّلَتْ، أي: نظمت آياته على أحسن نظام وأوضح بيان.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: وصفه بأنه قرآن لأنه جمع بعضه إلى بعض، وبأنه عربي لأنه يخالف جميع اللغات التي ليست بعربية، وكل ذلك يدل على حدوث القرآن ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اللسان العربي ويعجزون عن مثله فيعرفون إعجازه. وقيل: يعلمون أن القرآن من عند الله نزل، عن الضحاك. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يبشّر المؤمن بما فيه من الوعد، وينذر الكافر بما فيه من الوعيد. ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني أهل مكة عدلوا عن الإيمان بالله والتدبر فيه، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يسمعونه سَمْعَ تَفكُّر وقبول، فكأنهم لا يسمعونه حقيقة. ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾ أي: في أغطية، عن مجاهد والسّدي. ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ فلا نفقه ما تقول، وإنما قالوا ذلك ليؤيسوا النبي ﷺ من قبولهم دينه، فكأنهم شبهوا قلوبهم بما يكون في غطاء فلا يصل إليه شيء مما وراءه. ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: ثقل عن استماع القرآن وصمم، ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: بيننا وبينك فرقة في الدين، وحاجز في النِّحْلَة، فلا نوافقك على ما تقول، عن الزجاج. وقيل: إنه تمثيل بالحجاب ليؤيسوه من الإجابة، عن علي بن عيسى. ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ قيل: إن أبا جهل رفع ثوباً بينه وبين النبي ﷺ فقال: يا محمد، أنت من ذلك الجانب، ونحن من هذا الجانب، فاعمل أنت على دينك ومذهبك، إننا عاملون على ديننا ومذهبنا، عن مقاتل. وقيل معناه: فاعمل في هلاكنا إنا عاملون في هلاكك، عن الفراء. وقيل: فاعمل به في إبطال أمرنا إنا عاملون في إبطال أمرك، وهذا غاية في العناد.

●●●

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَاسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: «سواءٌ» بالرفع، وقرأ يعقوب: «سواءٍ» بالجر، والباقون: «سواءً» بالنصب.

● **الحجة:** من قرأ: «سواءٌ» بالرفع جعله خبر محذوف، أي: هو سواء، ومن قرأ: «سواءٍ» بالجر جعله صفة ﴿أَيَّامٍ﴾، التقدير: في أربعة أيام مستويات تامات، وأما النصب فعلى المصدر على معنى: استوت سواء واستواء.

● **المعنى:** ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ من ولد آدم، لحم ودم، وإنما خصني الله تعالى بنبوته، وميزني منكم بأن أوحى إليّ، ولولا الوحي ما دعوتكم، وهو قوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له في العبادة. ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: لا تميلوا عن سبيله، وتوجهوا إليه بالطاعة، كما يقال: استقم إلى منزلك، أي: لا تعدل عنه إلى غيره، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ من الشرك واطلبوا المغفرة لذنوبكم من جهته. ثم أوعدهم فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: لا يعطون الزكاة المفروضة، وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالشرائع، وهذا هو الظاهر. وقيل معناه: لا يُطهِّرون أنفسهم من الشرك، بقول: لا إله إلا الله، فإنها زكاة الأنفس، عن عطاء، عن ابن عباس. وهذا كما يقال: أعطى فلان من نفسه الطاعة، أي: ألزمها نفسه. وقد وصف سبحانه الكفر بالنجاسة بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، وذكر الزكاة بمعنى التطهير في قوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾. وقيل معناه: لا يُقِرُّون بالزكاة، ولا يَرَوْنَ إيتاءها، ولا يؤمنون بها، عن الحسن وقتادة. وعن الكلبي: عابهم الله بها وقد كانوا يَحِجُّون ويعتمرون. وقيل: لا ينفقون في الطاعة ولا يتصدقون، عن الضحاك ومقاتل، وكان يقول: الزكاة قنطرة الإسلام. وقال الفراء: الزكاة في هذا الموضع أن قريشاً كانت تطعم الحاجّ وتسقيهم، فحرَّموا ذلك على من آمن بمحمد ﷺ. ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وهم مع ذلك يجحدون بما أخبر الله تعالى به من أحوال الآخرة. ثم عقَّب سبحانه ما ذكره من وعيد الكافرين، بذكر الوعد للمؤمنين، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدَّقوا بأمر الآخرة من الثواب والعقاب، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الطاعات ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: لهم جزاء على ذلك غير مقطوع، بل هو متصل دائم. ويجوز أن يكون معناه: إنه لا أذى فيه من المن الذي يكدر الصنيعة.

ثم وبخهم سبحانه على كفرهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم على وجه الإنكار عليهم ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ وهذا استفهام تعجيب، أي: كيف تستجيزون أن تكفروا وتجحدوا نعمة من خلق الأرض ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾، أي: في مقدار يومين، ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي: أمثالاً وأشباهاً تعبدونهم، وفي هذا دلالة على أنه سبحانه إنما يستدل على إثبات ذاته وصفاته بأفعاله، فهي دالة على إثبات صفاته إما بنفسها كما يدل صحة الفعل على كونه قادراً، وإحكامه على كونه عالماً، وإما بواسطة كما يدل كونه قادراً عالماً على كونه حياً موجوداً سميعاً بصيراً. ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ذلك الذي خلق الأرض في يومين خالق العالمين، ومالك التصرف فيهم. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي: في الأرض، ﴿رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً راسيات ثابتات ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ أي: من فوق الأرض، ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ بما خلق فيها من المنافع. وقيل: بأن أنبت شجرها من غير غرس، وأخرج نبتها من غير زرع وبذر، وأودعها مما ينتفع به العباد، عن السدي. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ

﴿أَقْوَٰتَهَا﴾ أي: قدّر في الأرض أرزاق أهلها على حسب الحاجة إليها في قوام أبدان الناس وسائر الحيوان. وقيل: قدّر في كل بلدة منها ما لم يجعله في أخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد. ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في تتمة أربعة أيام من حين ابتداء الخلق، فاليومان الأولان داخلان فيها، كما تقول: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً، أي: في تتمة خمسة عشر يوماً. ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: مستوية كاملة من غير زيادة ولا نقصان، للسائلين عن مدة خلق الأرض. وقيل معناه: للذين يسألون الله أرزاقهم ويطلبون أقواتهم، فإن كلا يطلب القوت ويسأله، عن قتادة والسدي.

واختلف في علة خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام. فقيل: إنما خلق ذلك شيئاً بعد شيء في هذه الأيام الأربعة، ليعلم الخلق أن من الصواب التأني في الأمور وترك الاستعجال فيها، فإنه سبحانه كان قادراً على أن يخلق ذلك في لحظة واحدة، عن الزجاج . وقيل: إنما خلق ذلك هذه المدة ليعلم بذلك أنها صادرة عن قادر مختار، عالم بالمصالح وبوجوه الأحكام، إذ لو صدرت عن مطبوع أو موجب لحصلت في حالة واحدة.

وروى عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى خلق الأرض في يوم الأحد والإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق الشجر والماء والعمران والخراب يوم الأربعاء، فتلك أربعة أيام، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة الشمس والقمر والنجوم والملائكة وآدم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

● **الإعراب:** ﴿طَوْعًا﴾ و﴿كَرْهًا﴾ مصدران وضعا موضع الحال، التقدير: ﴿ٱئْتِيَا﴾ تطيعان إطاعة أو تُكرَهان كرهاً، و﴿طَآئِعِينَ﴾ يدل على ذلك، وهو منصوب على الحال. ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ أيضاً منصوب على الحال بعد الفراغ من الفعل.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه خلق السماوات، فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي: ثم قصد إلى خلق السماء وكانت السماء دخاناً، وقال ابن عباس: كانت بخار الأرض، وأصل الاستواء: الاستقامة والقصد للتدبير المستقيم تسوية له. وقيل معناه: ثم استوى أمره إلى

السماء، عن الحسن. ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾: قال ابن عباس: أتت السماء بما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وأتت الأرض بما فيها من الأنهار والأشجار والثمار، وليس هناك أمر بالقول على الحقيقة، ولا جواب لذلك القول، بل أخبر الله سبحانه عن اختراعه السماوات والأرض، وإنشائه لهما من غير تعذر ولا كلفة ولا مشقة، بمنزلة ما يقال للمأمور: افعل فيفعل من غير تلبث ولا توقف، فعبَّر عن ذلك بالأمر والطاعة، وهو كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وإنما قال: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ ولم يقل: أتينا طائعتين، لأن المعنى أتينا بمن فينا من العقلاء(١)، فغلب حكم العقلاء، عن قطرب. وقيل: إنه لما خُوطِبْنَ خطاب من يعقل جُمِعْنَ جمع من يعقل، كما قال: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. ومثله كثير في كلامهم، قال:

فَـأَجْـهَـشْـتُ لـلْـبَـوْبـاةِ(٢) حِـيْـنَ رأيْـتُـهُ ... وكَـبَّـرَ لِـلـرَّحْـمٰـنِ حِـيـنَ رآنـي
فـقـلـت لـه: أيـن الـذيـن رأيـتُـهُـمُ ... بِـجَـنْـبِـكَ فـي خَـفْـضٍ وَطِـيـبِ زمـانِ؟
فـقـال: مَـضَـوْا واسـتـودَعُـونِـي بـلادَهُـمْ ... ومـن ذا الـذي يـبـقـى عـلـى الـحَـدَثـانِ؟

وقال آخر:

ألا أَنْعِـمْ صـبـاحـاً أيـهـا الـرَّسْـمُ وانـطـق ... وَحَـدِّثْ حـديـثَ الـحَـيِّ إن شـئْـتَ واصْـدُقِ

وقد ذكرنا فيما تقدم من أمثال ذلك ما فيه كفاية. وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يفيد أنه خلق السماء بعد الأرض، وخلق الأقوات فيها. وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾. وعلى هذا فتكون الفائدة فيه أن الأرض كانت مخلوقة غير مدحوة، فلما خلق الله السماء دحا بعد ذلك الأرض وبسطها، وإنما جعل الله السماء أولاً دخاناً، ثم سماوات أطباقاً، ثم زينها بالمصابيح ليدل ذلك على أنه سبحانه قادر لنفسه لا يعجزه شيء، عالم لذاته لا يخفى عليه شيء، غني لا يحتاج، وكلّ ما سواه محتاج إليه سبحانه وتعالى.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ أي: صنعهن وأحكمهن وفرغ من خلقهن، ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ يوم الخميس والجمعة. قال السدي: إنما سمي جمعة لأنه جُمع فيه خلق السماوات والأرض. ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: خلق فيها ما أراده من ملك وغيره، عن السدي وقتادة. وقيل: معناه وأمر في كل سماء بما أراد، عن مقاتل. وقيل: وأوحى إلى أهل كل سماء من الملائكة ما أمرهم به من العبادة، عن علي بن عيسى.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ سمّى الكواكب مصابيح، لأنه يقع الاهتداء بها، كقوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾. ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: وحفظناها من استماع الشياطين قيل(٣): بالكواكب

---

(١) «وغير العقلاء».

(٢) جهش وأجهش إليه: فزع إليه هامّاً بالبكاء، ومتهيئاً له، كالطفل يفزع إلى أمه. والبوباة الفلاة، والضمير في رأيته راجع إلى المكان.

(٣) ليس في بعض النسخ لفظة (قيل) وهو الصواب.

حفظاً، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكره ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه لا يمتنع عليه شيء، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بمصالح خلقه لا يخفى عليه شيء.

ثم عقَّب سبحانه دلائل التوحيد بذكر الوعيد لأهل الشرك والجحود من العبيد، فقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ عن الإيمان بك بعد هذا البيان، ﴿فَقُلْ﴾ يا محمد لهم مُخَوِّفاً إياهم ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: استعدوا للعذاب، فقد خوَّفتكم عذاباً مثل عذاب عاد وثمود لما أعرضوا عن الإيمان. والصاعقة: المهلكة من كل شيء، وهي في العرف اسم للنار التي تنزل من السماء فتحرق. ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: إذ متعلقة بقوله: ﴿صَٰعِقَةً﴾، والتقدير: نزلت بهم حين أتتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم، عن ابن عباس. يعني به الرسل الذين جاءوا آباءهم، والرسل الذين جاؤوهم في أنفسهم لأنهم كانوا خلف من جاء آباءهم من الرسل، فيكون الهاء والميم في ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ للرسل. وقيل معناه: إن منهم من تقدم زمانهم، ومنهم من تأخر. قال البلخي: ويجوز أن يكون المراد: أتاهم أخبار الرسل من هاهنا ومن هاهنا. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أي: أرسلناهم بألا تعبدوا ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وحده ولا تشركوا بعبادته غيره، ﴿قَالُواْ﴾ أي: فقال المشركون عند ذلك ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ أن نؤمن ونخلع الأنداد ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ تدعونا إلى ذلك، ولم يبعث بشراً مثلنا، وكأنهم أنفوا من الانقياد لبشر مثلهم، وجهلوا أن الله تعالى يبعث الأنبياء على حسب ما يعلمه من مصالح عباده، ويعلم من يصلح للقيام بأعباء النبوة. ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: أظهروا الكفر بهم والجحود. ثم فَصَّل سبحانه أخبارهم، فقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ أي: تجبروا وعتوا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وتكبروا على أهلها ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بغير حق جعله الله لهم بل للكفر المحض والظلم الصراح. ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اغتروا بقوتهم لما هدَّدهم هود بالعذاب، فقالوا: نحن نقدر على دفعه بفضل قوتنا، إذ لا أحد أشد منا قوة، فقال الله سبحانه رداً عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أولم يعلموا أن الله الذي خلقهم وخلق فيهم هذه القوة أعظم اقتداراً منهم، فلو شاء أهلكهم، ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بدلالاتنا ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ينكرونها ولا يعترفون بها.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن عامر وأهل الكوفة: «نحِسات» بكسر الحاء والباقون: «نحْسات» بسكونها. وقرأ نافع ويعقوب: «نحشر» بالنون «أعداءَ الله» بالنصب، والباقون: «يُحشَر» بالياء على ما لم يسم فاعله، «أعداءُ الله» بالرفع.

● **الحجة:** قال أبو علي: النحس: كلمة يكون على ضربين:

أحدهما: أن يكون اسماً.

والآخر: أن يكون وصفاً. فمما جاء فيه اسماً مصدراً قوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾، فالإضافة إليه تدل على أنه اسم ليس بوصف(١) لا يضاف إليه الموصوف. وقال المفسرون في «نحِسات» قولين:

أحدهما: الشديدة البرد.

والآخر: إنها المشؤومة عليهم. فتقدير قوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾: في يوم مشؤوم. وقالوا: يومٌ نحسٌ، ويومُ نحسٍ، فمن أضافه كان مثل ما في التنزيل، ومن أجراه على الأول احتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون وصفاً مثل: فسْل(٢) ورذْل.

والآخر: أن يكون مصدراً وصف به نحو: رجل عدْل.

فمن قرأ: «في أيام نحْسات» فأسكن الحاء، أسكنها لأنه صفة، مثل عَبْلات(٣) وصَعْبات. ويجوز أن يكون جمع المصدر وتركه على إسكانه في الجمع كما قالوا: زوْرة وعدْلة. قال أبو الحسن: لم أسمع في النحس إلا الإسكان. وقال أبو عبيدة: نحِسات ذوات نحْس، فيمكن أن يكون من كسر العين جعله صفة من باب فرِق ونزِق(٤)، وجمع على ذلك.

ومن قرأ: «نحشر أعداء الله» فحجته أنه معطوف على قوله: ﴿وَنَجَّيْنَا﴾، ويقويه قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾. ومن قرأ: «يُحْشر» فبنى الفعل للمفعول به، يقويه قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، وكلا الأمرين حسن.

● **اللغة:** اشتقاق الصَّرصر من الصَّرير، ضوعف اللفظ إشعاراً بمضاعفة المعنى، يقال: صرَّ صريراً، وصرصر يصرصر صرصرة، وريح صرصر: شديدة الصوت، وأصله: صرَّرَ، ثم قلبت الراء صاداً كما يقال: نهَّهه ونهْنهه، وكفْكفه وكفَّفه، قال النابغة:

أكـفـكـفُ عَـبـرَةً غـلـبـتْ عـزائـي   إذا نـهـنـهْـتُـهـا عـادت ذُبـاحـا(٥)

الخزي: الهون الذي يستحي من مثله خوفاً من الفضيحة. والهون: الهوان. والوَزَع: المنع والكف، ومنه قول الحسن:

---

(١) [لان الوصف].

(٢) الفَسْل: الضعيف الرذل.

(٣) العَبْلة: الضخمة. وامرأة عَبلة أي تامة الخلق.

(٤) فرق فَرَقاً: فزع فهو فَرِق ونزق نزقاً ونُزُوقاً: طاش وخفّ عند القبب، ونشط فهو نزق.

(٥) كفكف الدمع: مسحه مرة بعد مرة ليردّه. والعبرة: الدمعة قبل أن تفيض. وقيل: تردد البكاء في الصدر. والعزاء: الصبر. والذباح بالضم والكسر: وجع في الحلق. مقصوده: أمنع عَبرة غلبت صبري عن ظهورها ولكن إذا دفعتها صارت وجعاً، وشجى في الحلق.

لا بـــد لـــلنـــاس مـــن وَزعـــة

● **الإعراب:** قوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ انتصب الظرف بمدلول قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، لأن يوماً بمنزلة إذا. ولا ينتصب بقوله: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأنه ماض، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ مستقبل فلا يعمل فيه الماضي.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن إهلاكهم بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: عاصفاً شديدة الصوت، من الصرَّة: وهي الصيحة. وقيل: هي الباردة من الصِّر: وهو البرد، عن ابن عباس وقتادة. وقال الفراء: هي الباردة تحرق كما تحرق النار. ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي: نكدات مشؤومات ذوات نحوس، عن مجاهد وقتادة والسُدّي. والنحس: سبب الشر، والسعد: سبب الخير، وبذلك سميت سعود النجوم ونحوسها. وقيل: نحسات ذوات غبار وتراب، حتى لا يكاد يبصر بعضهم بعضاً، عن الجبائي. وقيل: نحسات باردات، والعرب تسمي البرد نحساً، عن أبي مسلم. ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فعلنا ذلك بهم لنذيقهم عذاب الهون والذل، وهو عذاب الذين يُجزَوْن في الدنيا فيوقنوا بقوة مُعَذِّبهم، وبقدرته عليهم، ويظهر ذلك لمن رأى حالهم. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وأفضح من ذلك ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يدفع عنهم العذاب الذي ينزل بهم.

ثم ذكر قصة ثمود فقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: بيّنا لهم سبيل الخير والشر، عن قتادة. وقيل: دللناهم وبيّنا لهم الحق، عن ابن عباس والسدي وابن زيد، ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فاختاروا العمى في الدين على قبول الهدى، وبئس الاختيار ذلك، عن الحسن. وقيل: اختاروا الكفر على الإيمان، عن ابن زيد والفراء. ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أي: ذي الهون، وهو الذي يُهينهم ويُخزيهم. وقد قيل: إنّ كل عذاب صاعقة، لأن كل من يسمعها يصعق لها. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من تكذيبهم صالحاً، وعقرهم الناقة. ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الشرك، أي: ونجّينا صالحاً ومن آمن به من العذاب.

ثم أخبر سبحانه عن أحوال الكفار يوم القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ولا يتفرقوا. والمعنى: إذا حشروا وقفوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي: جاءوا النار التي حشروا إليها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: شهد عليهم سمعهم بما قرعه من الدعاء إلى الحق فأعرضوا عنه ولم يقبلوه، وأبصارهم بما رأوا من الآيات الدالة على وحدانية الله فلم يؤمنوا، وسائر جلودهم بما باشروه من المعاصي والأفعال القبيحة. وقيل في شهادة الجوارح قولان:

أحدهما: إن الله تعالى يبنيها بُنية الحيّ(١)، ويلجئها إلى الاعتراف والشهادة بما فعله أصحابها.

والآخر: إن الله يفعل فيها الشهادة، وإنما أضاف الشهادة إليها مجازاً.

---

(١) وفي نسخة: ينبّهها تنبيه الحي.

وقيل في ذلك أيضاً وجه ثالث، وهو أنه يظهر فيها أمارات دالّة على كون أصحابها مستحقين للنار، فسمى ذلك شهادة مجازاً، كما يقال: عيناك تشهدان بسهرك. وقيل: إن المراد بالجلود هنا الفروج على طريق الكناية، عن ابن عباس والمفسرين.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة الحسن وعمرو بن عبيد: «وإن يُستعتَبوا» بضم الياء وفتح التاء، «فما هم من المعتِبين» بكسر التاء.

● **الحجة:** قال ابن جني: معناه: لو استعطفوا لما عطفوا، لأنه لا غناء عندهم ولا خير فيهم فيجيبوا إلى جميل.

● **اللغة:** الإنطاق: جعل القادر على الكلام ينطق، إما بالإلجاء إلى النطق، أو الدعاء إليه، والنطق: إدارة اللسان في الفم بالكلام، ولذلك لا يوصف سبحانه أنه ناطق وإن وصف بأنه متكلم. والإرداء: الإهلاك، يقال: أراده فردِي يردَى فهو ردٍ، قال الأعشى:

أفي الطُّوف خِفتَ عليَّ الرَّدى ... وكم من رَدٍ أهلَه لم يَرِمِ(١)

والاستعتاب: طلب العتبى، وهي الرضا. وهو الاسترضاء، والإعتاب: الإرضاء، وأصل الإعتاب عند العرب: استصلاح الجلد بإعادته في الدباغ، ثم استعير فيما يستعطف به البعض بعضاً لإعادته إلى ما كان من الألفة. وأصل التقييض: التبديل، ومنه المقايضة، وهي مبادلة مال بمال، قال الشماخ:

تذكرت لما أثقل الدين كاهلي ... وعاب يزيدٌ ما أردت تعذُّرا
رجالاً مضوا مني فلست مقايضاً ... بهم أبداً من سائر الناس معشرا(٢)

---

(١) رام بالمكان: أقام وثبت. يقول: أتخاف عليَّ الردى في الطوف، وعدم القرار في مكان، مع أن كثيراً ممن هلك أهله لم يقم بالمكان، وسار معه ولم ينفعه المنية، ولم تمنعه عن الردى.

(٢) رجالاً: مفعول تذكرت. ومعشراً: مفعول مقايضاً. يتأسف على فوت رجال أجواد كان يرجوهم لرفع ثقل الدين عنه ويقول: لا أبادل بهم معشراً من سائر الناس.

● **الإعراب**: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ﴾: ذلكم مبتدأ وظنكم خبره. و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبر بعد خبر، وإن أضمرت قد فجعلته حالاً جاز، أي: ذلكم ظنكم مردياً إياكم، ويجوز أن يكون ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأ و﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدلًا منه، و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبر المبتدأ.

● **المعنى**: ثم حكى سبحانه عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني الكفار ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ أي: يعاتبون أعضاءهم فيقولون لها: لم شهدتم علينا، ﴿قَالُوٓا﴾ أي: فتقول لجلودهم في جوابهم: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: مما ينطق، والمعنى: أعطانا الله آلة النطق والقدرة على النطق، وتم الكلام. ثم قال سبحانه: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة، أي: إلى حيث لا يملك أحد الأمر والنهي سواه تعالى، وليس هذا من جواب الجلود. ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ﴾ أي: أن يشهد ﴿عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ معناه: وما كنتم تستخفون أي: لم يكن يتهيأ لكم أن تستروا أعمالكم عن هذه الأعضاء، لأنكم كنتم بها تعملون، فجعلها الله شاهدة عليكم في القيامة. وقيل معناه: وما كنتم تتركون المعاصي حذراً أن تشهد عليكم جوارحكم بها، لأنكم ما كنتم تظنون ذلك. ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لجهلكم بالله تعالى فهان عليكم ارتكاب المعاصي لذلك. وروي عن ابن مسعود أنها نزلت في ثلاثة نفر تساروا، وقالوا: أترى الله يسمع سِرارنا؟ ويجوز أن يكون المعنى: إنكم عملتم عمل من ظن أن عمله يخفى على الله، كما يقال: أهلكت نفسي، أي: عملت عمل من أهلك النفس. وقيل: إن الكفار كانوا يقولون: إن الله لا يعلم ما في أنفسنا، ولكنه يعلم ما يظهر، عن ابن عباس. ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأ، و﴿ظَنُّكُمُ﴾ خبره، و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبر ثان، ويجوز أن يكون ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدلاً من ﴿ذَٰلِكُمْ﴾، ويكون المعنى: وظنكم الذي ظننتم بربكم أنه لا يعلم كثيراً مما تعملون أهلككم إذ هَوَّن عليكم أمر المعاصي، وأدى بكم إلى الكفر. ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: فظللتم من جملة من خسرت تجارته، لأنكم خسرتم الجنة وحصلتم في النار، قال الصادق عليه السلام: ينبغي للمؤمن أن يخاف الله خوفاً كأنه يشرف على النار. ويرجوه رجاء كأنه من أهل الجنة، إن الله تعالى يقول: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ الآية. ثم قال: إن الله عند ظن عبده به، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم أخبر سبحانه عن حالهم، فقال: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: فإن يصبر هؤلاء على النار وآلامها، وليس المراد به الصبر المحمود، ولكنه الإمساك عن إظهار الشكوى، وعن الاستغاثة، فالنار مسكن لهم. ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ أي: وإن يطلبوا العتبى ويسألوا الله تعالى أن يرضى عنهم، فليس لهم طريق إلى الإعتاب، فما هم من يقبل عذرهم ويرضى عنهم. وتقدير الآية: إنهم إن صبروا وسكتوا وجزعوا فالنار مأواهم، كما قال سبحانه: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾. والمعتَب: هو الذي يُقبل عتابه ويجاب إلى ما سأل. وقيل معناه: وإن يستغيثوا فما هم من المغاثين.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ أي: هيأنا لهم قرناء من الشياطين، عن مقاتل. ومعناه: بدَّلناهم قرناء سوء من الجن والإنس، مكان قرناء الصدق الذين أُمِرُوا بمقارنتهم، فلم يفعلوا. بيَّن الله سبحانه أنه إنما فعل ذلك عقوبة لهم على مخالفتهم، ونظيره: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾. وقيل معناه: خلينا بينهم وبين قرناء السوء بما استوجبوه من الخذلان، عن الحسن. ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: زينوا لهم ما بين أيديهم ما أمرنا من أمر الدنيا حتى آثروه وعملوا له، وما خلفهم من أمر الآخرة بدعائهم إلى أنه لا بعث ولا جزاء، عن الحسن والسدي. وقيل: فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة، فقالوا: لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب، وما خلفهم من أمر الدنيا من جمع الأموال وترك النفقة في وجوه البر، عن الفراء. وقيل: ما بين أيديهم: ما قدموه من أفعالهم السيئة حتى ارتكبوها، وما خلفهم: ما سنوه لغيرهم ممن يأتي بعدهم. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم الوعيد والعذاب ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي: صاروا في أمم أمثالهم كذبوا لتكذيبهم، قد مضوا قبلهم، وجب عليهم العذاب بعصيانهم. ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ خسروا الجنة ونعيمها.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

● **اللغة:** اللغو: الكلام الذي لا معنى له يستفاد، وإلغاء الكلمة: إسقاط عملها، يقال: لغَى يلغَى ويَلغُو لغواً، ولغِي يلغَى لُغاً، قال:

عن اللُّغاء ورَفَثِ التكلم

● **الإعراب:** ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. و﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ خبره. و﴿ٱلنَّارُ﴾ بدل من قوله: ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾، ويجوز أن تكون ﴿ٱلنَّارُ﴾ تفسيراً، كأنه قيل: ما هي؟ فقيل: يقول[1]: هو النار. قال الزجاج: قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: لهم في النار دار الخلد، والنار هي الدار، كما تقول: لك في هذه الدار دار سرور، وأنت تعني الدار بعينها، كما قال الشاعر:

(١) كذا في النسخ، ولا حاجة إلى لفظة يقول.

أخـو رغـائِبَ يُـعـطـيـهـا ويَـسـألُهـا   يـأبى الـظُّلامَـةَ مِـنهُ الـنَّـوفَـلُ الـزُّفَـرُ[١]

فيكون ذلك من باب التجريد. وموضع ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ نصب، تقديره: تتنزل عليهم الملائكة بألا يخافوا، فلما حذف الباء وصل الفعل فنصبه.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم من ذكر الكفار، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: قال رؤساؤهم لأتباعهم، أو قال بعضهم لبعض، يعني كفار قريش ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الذي يقرأه محمد ولا تصغوا إليه، ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي: عارضوه باللغو الباطل، وبما لا يعتد به من الكلام ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي: لتغلبوه باللغو والباطل، ولا يتمكن أصحابه من الاستماع. وقيل: الغوا فيه بالتخليط في القول والمكاء والصفير، عن مجاهد. وقيل معناه: ارفعوا أصواتكم في وجهه بالشعر والرجز، عن ابن عباس والسدي. لما عجزوا عن معارضة القرآن احتالوا في اللبس على غيرهم، وتواصوا بترك استماعه والإلغاء فيه عند قراءته. ثم أوعدهم الله سبحانه فقال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الدنيا بالأسر والقتل يوم بدر، وقيل: في الآخرة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: نجازيهم بأقبح الجزاء على أقبح معاصيهم، وهو الكفر والشرك، وخص الأسوأ بالذكر للمبالغة في الزجر. وقيل معناه: لنجزيهم بأسوأ أعمالهم، وهي المعاصي دون غيرها مما لا يستحق به العذاب. ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني ما تقدم الوعيد به ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ الذين عادَوْه بالعصيان والكفر، وعادَوا أولياءه من الأنبياء والمؤمنين ﴿ٱلنَّارُ﴾ وهي النار، والكون فيها ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: منزل الدوام والتأبيد ﴿جَزَآءً﴾وعقوبة ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يعني القرآن، يجحدون بأنه من عند الله، عن مقاتل.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: وسيقول الكفار في النار: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعنون إبليس الأبالسة، وقابيل بن آدم أول من أبدع المعصية، روي ذلك عن علي عليه السلام. وقيل: المراد بذلك كل من أبدع الكفر والضلالة من الجن والإنس، والمراد باللذين: جنس الجن والإنس، كما في قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ﴾. و﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ تمنوا الشدة لشدة عداوتهم لهم وبغضهم إياهم بما أضلوهم وأغووْهم أن يجعلوهم تحت أقدامهم في الدرك الأسفل من النار. وقيل: إن المراد به: ندوسهما ونطؤهما بأقدامنا إذلالاً لهما ليكونا من الأسفلين الأذلين. قال ابن عباس: ليكونا أشد عذاباً منا.

ولما ذكر سبحانه وعيد الكفار عقبه بذكر الوعد للمؤمنين الأبرار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي: وحدوا الله تعالى بلسانهم، واعترفوا به، وصدقوا أنبياءه ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي:

---

(١) الرغائب: العطايا ويحتمل قوياً كون يسألها بضم الياء ليناسب المدح. والظلامة: ما تظلّمه الرجل كالظليمة. والنوفل: الرجل المعطاء. والزفر: السيد الذي يحمل الأثقال، ومنه للتجريد نحو: لقيت منه أسداً، والمراد التشبيه بالأسد. وكذا هنا مقصوده أن السيد المعطاء ينشأ أباء الظلامة في أفعاله من هذا الممدوح، فكأنه جعله عين إباء الظلامة، وجرّد منه اباء الظلامة الذي هو في النوفل الزفر. وقد مر البيت في ج٢ بلفظ (يسلبها) بدل (يسألها). وقال في السان: قوله منه مؤكدة للكلام كما قال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ﴾ والمعنى: يأبى الظلامة لأنه النوفل الزفر.

استمروا على أن الله ربهم وحده لم يشركوا به شيئاً، عن مجاهد. وقيل معناه: ثم استقاموا على طاعته وأداء فرائضه، عن ابن عباس والحسن وقتادة وابن زيد. وقيل: ثم استقاموا في أفعالهم كما استقاموا في أقوالهم. وقيل: ثم استقاموا على ما توجبه الربوبية من عبادته، عن ابن مسلم. وروي عن أنس قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال: «قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم، فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها». وروى محمد بن الفضيل قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الاستقامة فقال: هي والله ما أنتم عليه. ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني عند الموت، عن مجاهد والسدي. وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: تستقبلهم الملائكة إذا خرجوا من قبورهم في الموقف بالبشارة من الله، عن الحسن وثابت وقتادة. وقيل: في القيامة، عن الجبائي وأبي مسلم. وقيل: إن البشرى تكون في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث، عن وكيع بن الجراح. ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ أي: تقول لهم: لا تخافوا عقاب الله، ولا تحزنوا لفوات الثواب. وقيل: لا تخافوا مما أمامكم من أمور الآخرة، ولا تحزنوا على ما وراءكم وعلى ما خلفتم من أهل وولد، عن عكرمة ومجاهد. وقيل: لا تخافوا ولا تحزنوا على ذنوبكم، فإني أغفرها لكم، عن عطاء بن أبي رياح. وقيل: إن الخوف يتناول المستقبل، والحزن يتناول الماضي، وكأن المعنى: لا تخافوا فيما يستقبل من الأوقات، ولا تحزنوا على ما مضى، وهذا نهاية المطلوب. ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها في دار الدنيا على ألسنة الأنبياء.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾.

● **الإعراب:** ﴿نُزُلًا﴾ نصب على المصدر، وتقديره: أنزلكم ربكم فيما تشتهون نزلاً، ويجوز أن يكون نصباً على الحال، وتقديره: ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم منزلاً نزلاً، كما يقال: جاء زيد مشياً، أو ماشياً، والقولان جميعاً يرجعان إلى كونه مصدراً. وقال أبو علي: ﴿نُزُلًا﴾ يحتمل ضربين:

أحدهما: أن يكون جمع نازل، كقوله:

إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا ... أو تنزلون فإنا معشرٌ نُزل

ويكون حالًا من الضمير في ﴿تَدَّعُونَ﴾ أي: تدعون من غفور رحيم نازلين.

والآخر: أن يراد به القوت الذي يقام للنازل أو الضيف، ويكون حالًا من ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾

أي: لكم ما تدعون نزلًا من غفور رحيم صفة نزل، وفيه ضمير يعود إليه. و﴿قَوْلًا﴾ نصب على التفسير، وقوله: ﴿وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾: لا هاهنا زائدة مؤكِّدة لتبعيد المساواة.

● **المعنى:** ثم حكى سبحانه أن الملائكة تقول للمؤمنين الذين استقاموا بعد البشارة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ أي: نحن معاشر الملائكة أنصاركم وأحباؤكم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، نتولى إيصال الخيرات إليكم من قبل الله تعالى ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ فلا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة، عن مجاهد. وقيل: كنا نتولى حفظكم في الدنيا بأنواع المعونة، وفي الآخرة نتولاكم بأنواع الإكرام والمثوبة. وقيل: نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا، أي: نحرسكم في الدنيا وعند الموت، وفي الآخرة، عن أبي جعفر عليه السلام. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من الملاذ وتتمنونه من المنافع ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أنه لكم، فإن الله سبحانه يحكم لكم بذلك. وقيل: إن المراد بقوله: ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ البقاء، لأنهم كانوا يشتهون البقاء في الدنيا، أي: لكم فيها ما كنتم تشتهون من البقاء، ولكم فيها ما كنتم تتمنونه من النعيم، عن أبي زيد.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ معناه: إن هذا الموعود به، مع جلالته في نفسه، له جلالة بمعطيه، إذ هو عطاء لكم ورزق يجري عليكم ممن يغفر الذنوب ويستر العيوب رحمة منه لعباده، فهو أهنأ لكم وأكمل لسروركم. قال الحسن: أرادوا أن جميع ذلك من الله وليس منا. وفي هذه الآية بشارة للمؤمنين بمودة الملائكة لهم، وفيها بشارة بنيل مشتهياتهم في الجنة، وفيها دلالة على أن الملائكة تتردد إلى من كان مستقيماً على الطاعات، وعلى شرف الاستقامة أيضاً تتولى الملائكة صاحبها من أجلها.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ صورته صورة الاستفهام، والمراد به النفي، تقديره: وليس أحد أحسن قولًا ممن دعا إلى طاعة الله، وأضاف إلى ذلك أن يعمل الأعمال الصالحة ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: ويقول مع ذلك: إنني من المستسلمين لأمر الله المنقادين إلى طاعته. وقيل معناه: ويقول: إنني من جملة المسلمين، كما قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. وهذا الداعي هو رسول الله صلى الله عليه وآله، عن الحسن وابن زيد والسدي: هو وجميع الأئمة الدعاة الهداة إلى الحق، عن مقاتل وجماعة من المفسرين. وقيل: هم المؤذنون، عن عائشة وعكرمة. وفي هذه الآية رد على من قال: أنا مؤمن إن شاء الله، لأنه مدح من قال: إنني من المسلمين من غير أن يقرنه بالمشيئة. وفي هذه الآية دلالة على أن الدعاء إلى الدين من أعظم الطاعات وأجل الواجبات، وفيها دلالة على أن الداعي يجب أن يكون عاملًا بعلمه ليكون الناس إلى القبول منه أقرب، وإليه أسكن. ثم قال سبحانه:

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ قيل معناه: لا تستوي الملة الحسنة التي هي الإسلام، والملة السيئة التي هي الكفر. وقيل: لا تستوي الأعمال الحسنة ولا الأعمال القبيحة. وقيل: لا تستوي الخصلة الحسنة والسيئة، فلا يستوي الصبر والغضب، والحلم والجهل، والمداراة والغلظة، والعفو والإساءة ثم بيَّن سبحانه ما يلزم على الداعي من الرفق بالمدعو، فقال: ﴿ٱدْفَعْ

﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ﴾ [خاطب النبي ﷺ، فقال للنبي ﷺ: ادفع بالتي هي أحسن][١]، خاطب النبي ﷺ فقال: ادفع بحقك باطلهم، وبحلمك جهلهم، وبعفوك إساءتهم ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ معناه: فإنك إذا دفعت خصومك بلين ورفق ومداراة، صار عدوك الذي يعاديك في الدين بصورة وليك القريب، فكأنه وليك في الدين وحميمك في النسب. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام إن الحسنة التقية، والسيئة الإذاعة. ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: وما يلقى هذه الفعلة وهذه الحالة التي هي دفع السيئة بالحسنة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على كظم الغيظ واحتمال المكروه. وقيل: إلا الذين صبروا في الدنيا على الأذى عن أبي عبد الله عليه السلام ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي وما يلقى هذه الخصلة المذكورة ولا يؤتاها ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من الرأي والعقل. وقيل: إلا ذو نصيب عظيم من الثواب والخير. وقيل: الحظ العظيم: الجنة، عن قتادة. وما يلقاها إلا من وجبت له الجنة. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام: وما يلقاها إلا كل ذي حظ عظيم.

● **النظم:** اتصل قوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية. بما قبله من قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ الآية. فكأنه قال: ألا تتعجبون من إعراض الكفار عن استماع القرآن وتواصيهم فيما بينهم باللغو في قراءته، ولا قائل أحسن قولاً من محمد ﷺ، يدعوكم إلى من تقرون أنه خالقكم، ثم إنه قد عمل في دينه بما دعاكم إليه، فانتفت عنه التهمة من جميع الوجوه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِىٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾﴾.

● **اللغة:** النزغ: النخس[٢] بما يدعو إلى الفساد، يقال: نزغ ينزَغُ، وفلان ينزَغُ فلاناً:

---

(١) ما بين المعقفتين زائد.

(٢) نَخس الدابة نَخساً: غرز مؤخرها، أو جنبها بعُود ونحوه، فهاجت. ونخس بفلان: هيّجه وأزعجه.

كأنه ينخسه بما يدعوه إلى خلاف الصواب. وألحدَ: مال عن الحق، ويقال: لحد يلحَد أيضاً بمعناه، ويسمى القرآن ذكراً لأنه ذُكر فيه الدلائل والأحكام.

● **الإعراب:** ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ هي إنْ التي للجزاء، زيد عليها ما تأكيداً، فأشبه لذلك القسم، فلذلك دخل الفعل نون التأكيد. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ﴾ لم يذكر لإنّ خبراً، والتقدير: إن الذين كفروا بالذكر مبتدأ، والخبر معذبون، فحذف الخبر. ويجوز أن يكون الخبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾.

● **المعنى:** ثم أمر نبيه ﷺ أن يستعيذ بالله إذا صرفه الشيطان عن الاحتمال، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾[1] إما يدعونَّك نزغ من الشيطان بالوسوسة ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: فاطلب الاعتصام من شره بالله، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الآية مفسرة في آخر سورة الأعراف. ثم ذكر سبحانه دلالات التوحيد، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ أي: حججه الدالة على وحدانيته، وأدلته على صفاته التي باين بها جميع خلقه ﴿ٱلَّيْلُ﴾ بذهاب الشمس عن بسيط الأرض ﴿وَٱلنَّهَارُ﴾ بطلوعها على وجهها، وتقديرهما على وجه مستقر، وتدبيرهما على نظام مستمر. ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ وما اختُصا به من النور وظهر فيهما من التدبير في المسير، والتعريف في فلك التدوير ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ وإن كان فيهما منافع كثيرة، لأنهما ليسا بخالقين، ﴿وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ وأنشأهن، وإنما قال: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ لوجهين:

أحدهما: إن ضمير غير ما يعقل على لفظ التأنيث، تقول: هذه كباشك[2] فسقها، وإن شئت قلت: فسُقْهن.

والآخر: إن الضمير يرجع إلى معنى الآيات، لأنه قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ هذه الأشياء، واسجدوا لله الذي خلقهن. ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إن كنتم تقصدون بعبادتكم لله كما تزعمون، فاسجدوا لله دون غيره. ثم قال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن توجيه العبادة إلى الله وحده ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ أي: لا يملون ولا يفترون، وهو مفسر في سورة الأعراف. والمروي عن ابن عباس وقتادة وابن المسيب أن موضع السجود عند قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾. وعن ابن مسعود والحسن أنه عند قوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وهو اختيار أبي عمرو بن العلا، وهو المروي عن أئمتنا عليهم السلام.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: ومن أدلته الدالة على ربوبيته ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي: غبراء دارسة متهشمة، عن قتادة والسدي، أي: كان حالها حال الخاضع المتواضع. وقيل: ميتة يابسة لا نبات فيها. قال الأزهري: إذا يبست الأرض ولم تمطر قيل: قد خشعت. ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: انتفخت وارتفعت قبل أن تنبت. وقيل: اهتزت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ بكثرة ريعها، عن الكلبي. ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ أي: أحيا الأرض بما

---

(١) [معناه].

(٢) جمع كبش: وهو الحمل إذا دخل في السنة الثانية.

أنزله من المطر ﴿لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ في الآخرة مثل ذلك ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ظاهر المعنى. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ أي: إن الذين يميلون عن الإيمان بآياتنا ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ بأشخاصهم وأقوالهم وأفعالهم، وهذا وعيد، عن قتادة وابن زيد والسدي. وقد قيل: إن معنى الإلحاد في آيات الله هو ما كانوا يفعلونه من المكاء والصفير، عن مجاهد. وقيل: وأقوالهم وأفعالهم، وهذا وعيد، عن قتادة وابن زيد والسدي. وقيل: هو تبديلهم ذلك ووضعه في غير موضعه، عن ابن عباس. وقال بعض المفسرين: إن المراد بالآيات هنا: دلالات التوحيد، والإلحاد فيها: الانحراف عنها وترك الاستدلال بها. ثم قال سبحانه على وجه الإنكار عليهم، والتهجين لفعلهم، والتهديد لهم: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ﴾ وهم الملحدون ﴿أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ من عذاب الله، وهم المؤمنون المطيعون، وهذا استفهام تقرير معناه: إنهما لا يستويان. وقيل: إن الذي يلقى في النار أبو جهل، والذي يأتي آمناً يوم القيامة رسول الله ﷺ، عن مقاتل. وقيل: هو عمار بن ياسر، عن عكرمة. والصحيح أن الآية على العموم، والمراد بهما المؤمن والكافر. ثم قال سبحانه: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ لفظه لفظ الأمر، ومعناه الوعيد والتهديد، أي: فإذا علمتم أنهما لا يستويان فليختر كل واحد منكم لنفسه ما شاء من الأمرين، فإن العاقل لا يختار الإلقاء في النار، فإذا لم يختر ذلك فلا بد أن يؤمن بالآيات فلا يلحد فيها. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بأعمالكم ﴿بَصِيرٌ﴾ عالم لا يخفى عليه شيء منها.

ثم أخبر سبحانه عنهم مهجناً لهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾ الذي هو القرآن وجحدوه ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم. ثم أخذ سبحانه في وصف الذكر وترك خبر «إنَّ» على تقدير أن الذين كفروا بالذكر يجازون بكفرهم، ونحو ذلك. وقيل: إن خبره ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، عن أبي عمرو بن العلا. وقيل: إن قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ في موضع الخبر، والتقدير: الكتاب الذي جاءهم عزيز. وأما قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ فالهاء يعود في القرآن الذي هو الذكر. والمعنى: إن الذكر لكتاب عزيز بأنه لا يقدر أحد من العباد على أن يأتي بمثله. وقيل: إنه عزيز بإعزاز الله - عز وجل - إياه، إذ حفظه من التغيير والتبديل. وقيل: هو عزيز إذ جعله الله على أتم صفات الإحكام. وقيل: عزيز بأنه يجب أن يعز ويجل بالانتهاء إلى ما فيه، وترك الإعراض عنه. وقيل: عزيز أي: كريم على الله عز وجل، عن ابن عباس. ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: إن الباطل الشيطان، ومعناه: لا يقدر الشيطان أن ينقص منه حقاً أو يزيد فيه باطلًا، عن قتادة والسدي.

وثانيها: إنه لا يأتيه ما يبطله من بين يديه، أي: من الكتب التي قبله، ولا من خلفه، أي: لا يجيء من بعده كتاب يبطله، أي: ينسخه، عن ابن عباس والكلبي ومقاتل.

وثالثها: معناه: إنه ليس في إخباره عما مضى باطل، ولا في إخباره عما يكون في المستقبل باطل، بل أخباره كلها موافقة لمخبراتها، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبد الله عليه السلام.

ورابعها: لا يأتيه الباطل من أول تنزيله، ولا من آخره، عن الحسن.

وخامسها: لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات، فلا تناقض في ألفاظه، ولا كذب في أخباره، ولا يُعارَض، ولا يزاد فيه، ولا يغيَّر، بل هو محفوظ حجة على المكلّفين إلى يوم القيامة، ويؤيده قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ أي: هو تنزيل من عالم بوجوه الحكمة، ﴿حَمِيدٍ﴾ مستحق للحمد على خلقه بالإنعام عليهم، والقرآن هو من أعظم نعمه، فاستحق به الحمد والشكر.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير حفص: «أأعجمي» بهمزتين، وقرأ هشام عن ابن عامر بهمزة واحدة، وقرأ الباقون بهمزة واحدة ممدودة.

● **الحجة:** قال أبو علي: الأعجمي: الذي لا يفصح. من العرب كان أو من العجم، قالوا: زياد الأعجم لآفة كانت في لسانه، وكان عربياً، وقالوا: صلاة النهار عجماء، أي: تخفى فيها القراءة ولا تبين، ويجمع الأعجم على عُجم، أنشد أبو زيد:

يقولُ الخنا وأبغَضُ العُجمِ ناطقاً ... إلى ربِّنا صوتُ الحمار اليُجدَّعُ[1]

أي: أبغض صوت العجم صوت الحمار. وتسمي العرب من لم يبيِّن كلامه من أي صنف كان من الناس أعجم، ومنه قول ابن الأخزر:

سَلُومُ[2] لو أصبَحْتَ وسط الأعجَمِ ... بالرُّومِ أو بالتُّركِ أو بالدَّيلَمِ

فقال: لو كنت وسط الأعجم، ولم يقل: وسط العُجْم، لأنه جعل كل من لم يبيِّن كرمه أعجم، فكأنه قال: وسط القبيل الأعجم. والعجَم خلاف العرب، والعجميُّ خلاف العربي منسوب إلى العجم، وإنما قوبل الأعجمي بالعربي في الآية وخلاف العربي، لأن الأعجمي، في

(١) الخنا: الفحش في الكلام. وجدعه: قطع أنفه. والمراد من قوله أبغض... الخ: تهجين المهجوّ بتشبيهه في قول الخنا بالحمار المجدّع. وتوصيف الحمار بجدع الأنف، لأنه إذا قطع أنفه صار صوته أنكر.

(٢) سلّوم: منادى.

أنه لا يُبيِّن، مثل العجمي عندهم، فمن حيث اجتمعا في أنهما لا يبينان قوبل به العربي في قوله: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾. وينبغي أن يكون الأعجميُّ الياء فيه للنسب، نُسب إلى الأعجم الذي لا يفصح، وهو في المعنى كالعجمي، وإن كانا يختلفان في النسبة، فيكون الأعجمي عربياً، ويجوز أن يقال للرجل: أعجمي، ويراد به ما يراد بأعجم بغير ياء النسب، كما يقال: أحمر وأحمري، ودوّار ودوّاري، وقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ مما جمع على إرادة ياء النسب فيه، مثل قولهم: النُّميرون. ولولا ذلك لم يجز جمعه بالواو والنون، ألا ترى أنك لا تقول في الأحمر إذا كان صفة: أحمرون، وإنما جاز الأعجمون لما ذكرنا. فأما الأعاجم فينبغي أن تكون تكسير أعجميّ، كما كان المسامعة تكسير مَسمعيّ. وقد استعمل هذا الوصف استعمال الأسماء، فمن ذلك قوله:

حِـزَقٌ يـمـانـيـةٌ لأعـجـم طـمـطـم[1]

فينبغي أن يكون من باب الأجارع[2] والأباطح. وأما قوله تعالى: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ فالمعنى: المنزل أعجميٌّ، والمنزل عليه عربيٌّ، فقوله: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ يرتفع كل منهما على أنه خبر مبتدأ محذوف. وهذه الآية في المعنى كقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾.

● **المعنى**: ثم عزّى سبحانه نبيه ﷺ على تكذيبهم فقال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: ما يقول هؤلاء الكفار لك إلا ما قد قيل للأنبياء قبلك، من التكذيب والجحد لنبوتهم، عن قتادة والسدي والجبائي. وقيل معناه: ما يقول الله لك إلا ما قد قاله للرسل من قبلك، وهو الأمر بالدعاء إلى الحق في عبادة الله ولزوم طاعته، فهذا القرآن موافق لما قبله من الكتب. وقيل معناه: ما حكاه تعالى بعده من ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ فيكون على جهة الوعد والوعيد، أي: إنه لذو مغفرة لمن آمن بك، وذو عقاب أليم لمن كذب بك. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: لو جعلنا هذا الكتاب الذي تقرأه على الناس بغير لغة العرب ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي: هلا بينت بلسان العرب حتى نفهمه ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ أي: أكتاب أعجمي، ونبي عربي، وهذا استفهام على وجه الإنكار، والمعنى أنهم كانوا يقولون: المُنزَل عليه عربي والمُنزَل أعجمي، وكان ذلك أشد لتكذيبهم، فبين الله سبحانه أنه أنزل الكتاب بلغتهم، وأرسل الرسول من عشيرتهم، ليكون أبلغ في الحجة وأقطع للمعذرة. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَشِفَآءٌ﴾ من الأوجاع. وقيل: وشفاء للقلوب من كل شك وريب وشبهة. وسمى اليقين شفاء كما سمى الشك مرضاً في قوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: ثقل وصمم عن سماعه من حيث يثقل عليهم استماعه فلا ينتفعون به، فكأنهم صم عنه، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ عميت قلوبهم

---

(١) الحِزَق جمع حزقة أي: الجماعات. وطِمطِم مَن في نطقه عُجمة أي: تأوي أفراخ النعام إلى الظليم، وهو الذكر من النعام، كما تأوي الإبل اليمانية إلى راعٍ أعجم عَيٍّ لا يفصح. وجه الشبه شدة سواد الظليم والراعي، وشدة سواد القلوص والإبل اليمانية.

(٢) جمع الأجرع أي: رملة مستوية لا تنبت شيئاً.

عنه، عن السدي، يعني أنهم لما ضلوا عنه وحاروا عن تدبّره فكأنه عمًى لهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ أي: إنهم لا يسمعون ولا يفهمون، كما أن من دُعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم. وإنما قال ذلك لبعد أفهامهم، وشدة إعراضهم عنه. وقيل: لبعده عن قلوبهم، عن مجاهد. وقيل: ينادى الرجل منهم في الآخرة بأشنع اسمه، عن الضحاك. ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ﴾ لأنه آمن به قوم وكذب به آخرون، وهذه تسلية للنبي ﷺ عن جحود قومه له وإنكارهم لنبوته. ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عن قومك، وأنه لا يعذبهم وأنت فيهم ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي: لفرغ من عذابهم واستئصالهم. وقيل معناه: لولا حكم سبق من ربك بتأخير العذاب[1] إلى وقت انقضاء آجالهم، لقضي بينهم قبل انقضاء آجالهم، فيظهر المحقّ من المبطل. ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ أي: وإن قومك لفي شك مما ذكرناه مُوقِعٌ لهم الريبة، وهو أفظع الشك.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة والشام وحفص: «من ثمرات» على الجمع، والباقون: «من ثمرة» على التوحيد.

● **الحجة:** قال أبو علي: «من ثمرة» إذا أُفرد يدل على الكثرة واستغني به عن الجمع، ويقوي الإفراد قوله: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ﴾. وحجة من جمع أن الجمع صحيح، وأن المعنى على ذلك.

● **اللغة:** الأكمام: جمع كُم، وكِم جمع كُمّة، عن ابن خالويه. وقيل: هي جمع كُمّة، عن أبي عبيدة. وهي الكُفري[2]، وتكمّم الرجل في ثوبه: إذا تلفّف به. والإيذان: الإعلام.

● **المعنى:** ثم احتج سبحانه عليهم بأن قال: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ أي: من عمل طاعة فلنفسه، لأن ثواب ذلك واصل إليه، ومنفعته تكون له دون غيره، ﴿وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ أي:

---

(١) ليس في بعض النسخ لفظة «العذاب».

(٢) بتثليث الكاف والفاء: وعاء طلع النخل.

من عمل معصية فعلى نفسه وبال ذلك وعقابه يلحقه دون غيره. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وإنما قال ذلك مع أنه لا يظلم مثقال ذرة لأمرين:

أحدهما: إن من فعل الظلم - وإن قلّ - وهو عالم بقبحه، وبأنه غني عنه، لكان ظلّاماً.

والآخر: إنه على طريق الجواب لمن زعم أنه يظلم العباد، فيأخذ أحداً بذنب غيره، ويصيبه بطاعة غيره.

ثم بيّن سبحانه أنه العالم بوقت القيامة، فقال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ التي يقع فيها الجزاء للمطيع والعاصي، وهو يوم القيامة، ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: وما تخرج ثمرة من أوعيتها وغلفها ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: ولا تحمل أنثى من حمل ذكراً كان أو أنثى، ولا تضع أنثى إلا في الوقت الذي علم سبحانه أنها تحمل فيه وتضع فيه، فيعلم سبحانه قدر الثمار وكيفيتها وأجزاءها وطعومها وروائحها، ويعلم ما في بطون الحبالى وكيفية انتقالها حالاً بعد حال حتى يصير بشراً سوياً. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي الله المشركين ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أي: في قولكم وزعمكم، كما قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾. ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: يقولون: أعلمناك ما منا شاهد بأن لك شريكاً، يتبرأون يومئذٍ من أن يكون مع الله شريك. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ﴾ أي: بطل عنهم وذهب ما كانوا أملوه من أصنامهم، ﴿وَظَنُّواْ﴾ أي: أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: من مهرب وملجأ، ودخل الظن على ﴿مَا﴾ التي للنفي كما تدخل على لام الابتداء، وكلاهما له صدر الكلام، والمعنى: إنهم علموا ألّا مُخلّص لهم من عذاب الله، وقد يعبّر بالظن عن اليقين فيما طريقه الخبر دون العيان.

ثم بيّن سبحانه طريقتهم في الدنيا، فقال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ قال الكلبي: الإنسان هاهنا يراد به الكافر، أي: لا يمل الكافر من دعائه الخير، ولا يزال يسأل ربه الخير الذي هو المال والغنى والصحة والولد. ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: البلاء والشدّة والفقر ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ أي: فهو يؤوس شديد اليأس من الخير ﴿قَنُوطٌ﴾ من الرحمة. وقيل: يؤوس من إجابة الدعاء، قنوط سيِّئ الظنّ بربه، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: خيراً وعافية وغنى ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ أي: هذا بعملي وأنا محقوق به، عن مجاهد قال: وكل هذا من أخلاق الكافر. وقيل معناه: هذا لي دائماً أبداً. ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: كائنة على ما يقوله المسلمون ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ﴾ أي: لست على يقين من البعث، فإن كان الأمر على ذلك ورددت إلى ربي إن لي عنده الحالة الحسنى، والمنزلة الحسنى وهي الجنة، سيعطيني في الآخرة مثل ما أعطاني في الدنيا. ثم هدّد سبحانه مَنْ هذه صفته بأن قال: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: لنقفنهم يوم القيامة على مساوىء أعمالهم، عن ابن عباس ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: متراكم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن جهل الإنسان الذي تقدَّم وصفه بمواقع نعم الله سبحانه، فقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾ عن الشكر ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: بَعُد بجانبه تكبراً وتجبراً عن الاعتراف بنعم الله تعالى. ومن قرأ: «ناء» فإنه مقلوب من «نأى»، كما في قول الشاعر:

أقول وقد ناءت بها غربةُ النوى نوى خيتعور لا تَشِطُّ ديارُك(١)

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: الضر أو الفقر أو المرض ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: فهو ذو دعاء كثير عند ذلك، عن السدي. وإنما قال: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ ولم يقل: طويل، لأنه أبلغ، فإن العرض يدل على الطول، والطول لا يدل على العرض، إذ قد يصح طويل ولا عرض له، ولا يصح عريض ولا طول له. فإن العرض الانبساط في خلاف جهة الطول، والطول الامتداد في أيّ جهة كان.

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب أهل الجبر القائلين بأنه ليس لله على الكافر نعمة، فإن الله سبحانه أخبر بأنه ينعم على الكافر، وأنه يعرض عن موجبها من الشكر. والمراد بالآية أن الكافر يسأل ربه بالتضرع والدعاء أن يكشف ما به من الضر والبلاء، ويعرض عن الدعاء في الرخاء.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وقيل: إن كان هذا الإنعام من عند الله ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ وجحدتموه، ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: في خلاف للحق بعيد عنه وهو أنتم. والشقاق والمشقة: الميل إلى شق العداوة، أي: فلا أحد أضل منكم. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ اختلف في معناه على أقوال:

أحدها: إن المعنى: سنريهم حججنا ودلائلنا على التوحيد في آفاق العالم، وأقطار السماء والأرض، من الشمس والقمر والنجوم والنبات والأشجار والبحار والجبال، وفي أنفسهم وما فيها من لطائف الصنعة وبدائع الحكمة، ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ أي: يظهر لهم ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: أن الله الحق، عن عطاء وابن زيد.

وثانيهما: إن معناه: سنريهم آياتنا ودلائلنا على صدق محمد ﷺ وصحة نبوته في الآفاق،

---

(١) الخيتعور: كل شيء لا يدوم على حالة واحدة، ويضمحل كالسراب، وبمعنى الغول... وشطّ يشطّ شطاً وشطوطاً: بَعُد. ولا تشطّ ديارُك محكى أقول في صدر البيت. ونوى خيتعورٍ: مفعول مطلق نوعيّ لقوله: ناءت، وهو محل الإستشهاد.

أي: بما يفتح من القرى عليه، وعلى المسلمين في أقطار الأرض. وفي أنفسهم، يعني فتح مكة، عن السدي والحسن ومجاهد. وقالوا: هو ظهور محمد ﷺ على الآفاق وعلى مكة، حتى يعرفوا أن ما أتى به من القرآن حق ومن عند الله، لأنهم بذلك يعرفون أنه مؤيد من قبل الله تعالى بعد أن كان واحداً لا ناصر له.

وثالثها: إن المراد بقوله: ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ وقائع الله في الأمم ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ وقعة يوم بدر، عن قتادة.

وابعها: إن معناه: نريهم آياتنا في الآفاق بصدق ما كان يخبرهم به النبي ﷺ من الحوادث فيها، وفي أنفسهم، يعني ما كان بمكة من انشقاق القمر حتى يعلموا أن خبره حق من قبل الله سبحانه.

وخامسها: إن المراد: سنريهم آثار من مضى من قبلهم، ممن كذَّب الرسل من الأمم، وآثار خلق الله في كل البلاد، وفي أنفسهم من أنهم كانوا نطفاً، ثم علقاً، ثم مضغاً، ثم عظاماً، ثم كسيت لحماً، ثم نقلوا إلى التمييز والعقل، وذلك كله دليل على أن الذي فعله واحد ليس كمثله شيء، عن الزجاج.

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ موضع قوله: ﴿بِرَبِّكَ﴾ رفع، والمعنى: أولم يكف ربك، و﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ في موضع رفع أيضاً على البدل، وإن حملته على اللفظ فهو في موضع جر، والمفعول محذوف، وتقديره: أولم يكف شهادة ربك على كل شيء، ومعنى الكفاية هنا: إنه سبحانه بيَّن للناس ما فيه كفاية من الدلالة على توحيده وتصحيح نبوة رسله. قال مقاتل: معناه: أولم يكفِ ربك شاهداً أن القرآن من عند الله. وقيل معناه: أولم يكف ربك لأنه على كل شيء شهيد، أي: عليم بالأشياء شاهد لجميعها لا يغيب عنه شيء. ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾: ﴿أَلَآ﴾ كلمة تنبيه وتأكيد أن الكفار في شك من لقاء ثواب ربهم وعقابه، أي: في شك من مجازاة ربهم، وفي هذا تسفيه لهم في إضافة العبث إلى الله. ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء فلا يخفى عليه شيء.

سُورَةُ الشُّورَىٰ

مكية/آياتها (٥٣)

وتسمى: سورة حمٓ عسٓق أيضاً، وهي مكية، عن الحسن، إلا قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾. وعن ابن عباس وقتادة: إلا أربع آيات منها نزلن في المدينة: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾. قال ابن عباس: ولما نزلت هذه الآية، قال رجل: والله ما أنزل الله هذه الآية، فأنزل الله ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، ثم إن الرجل تاب وندم، فنزل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

● **عدد آيها:** ثلاث وخمسون آية كوفي، وخمسون في الباقي.

● **اختلافها:** ثلاث آيات: ﴿حمٓ ①﴾ ﴿عٓسٓقٓ ②﴾ ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ ثلاثهن كوفي.

● **فضلها:** أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة حم عسق، كان ممن يصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون» وروى سيف بن عميرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ حَم عسَق، بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، حتى يقف بين يدي الله عز وجل فيقول: عبدي أدمنت قراءة «حم عسق» ولم تدر ما ثوابها، أما لو دريت ما هي وما ثوابها لما مللت من قراءتها، ولكن سأجزيك جزاءك، أدخلوه الجنة. وله فيها قصر من ياقوتة حمراء، أبوابها وشرفها ودرجها منها، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وله فيها حَوْراوان من الحور العين، وألف جارية وألف غلام من الولدان المخلَّدين الذين وصفهم الله.

● **تفسيرها:** ختم الله سورة «حم السجدة» بذكر القرآن، وافتتح هذه السورة بذكره أيضاً، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ ② كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ③ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ④ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ⑤﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: «كذلك يوحَى إليك» بفتح الحاء، والباقون: «يوحِي» بكسر الحاء. وفي الشواذ رواية الأعمش عن ابن مسعود: «حَم سَق» بغير عين.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ «يوحَى» فبنى الفعل للمفعول به احتمل أمرين:

أحدهما: إن المعنى: يُوحَى إليك السورة كما أوحِيَ إلى الذين من قبلك، زعموا أن هذه السورة قد أُوحي إلى الأنبياء قبل.

والآخر: أن يكون الجار والمجرور يقومان مقام الفاعل، ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تبييناً للفاعل، كقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ ثم قال: ﴿رِجَالٌ﴾ كأنه قيل: من يسبح؟ فقال: رجال.

ومن قرأ: «يوحِي إليك» على بناء الفعل للفاعل، فإنه اسم الله يرتفع بفعله.

وأما اختلاف القراء في «يتفطَرن، وينفطِرن»، والوجه في ذلك قد مر ذكره في سورة مريم.

وقال ابن جني: قراءة ابن مسعود «حم سق» مما يؤكد أن الغرض في هذه الفواتح إنما هو لكونها فواصل بين السور، ولو كان في أسماء الله سبحانه لما جاز تحريف شيء منها، بل كانت مؤدّاة بأعيانها، وقد كان ابن عباس قد قرأها بلا عين أيضاً، وكان يقول: السين كل فرقة تكون، والقاف كل جماعة تكون.

● **المعنى**: ﴿حمٓ﴾ قد مضى تفسيره ﴿عٓسٓقٓ﴾ قيل: إنما فُضِّلت هذه السورة من بين سائر الحواميم بـ ﴿عٓسٓقٓ﴾، لأن جميعها استفتح بذكر الكتاب على التصريح به إلا هذه، فذكر ﴿عٓسٓقٓ﴾ ليكون دلالة على الكتاب دلالة التضمين، وإن لم يدل عليه دلالة التصريح، وهو معنى قول قتادة، فإنه قال: هو اسم من أسماء القرآن. وقيل: لأن هذه السورة انفردت بأن معانيها أوحيت إلى سائر الأنبياء، فلذلك خُصَّتْ بهذه التسمية. وقال عطاء: هي حروف مقطعة من حوادث آتية، فالحاء من حرب، والميم من تحويل ملك، والعين من عدوّ مقهور، والسين من الاستئصال بسنين كسني يوسف، والقاف من قدرة الله في ملوك الأرض، وسائر الأقوال في ذلك مذكورة في أول البقرة ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: كالوحي الذي تقدم، يوحي إليك أخبار الغيب، وما يكون قبل أن يكون، وإلى الذين من قبلك من الأنبياء. عن عطاء عن ابن عباس قال: وما من نبي أنزل الله عليه الكتاب إلا أنزل عليه معاني هذه السورة بلغاتهم. وقيل معناه: كهذا الوحي الذي يأتي في هذه السورة يوحى إليك، لأن ما لم يكن حاضراً أتراه صلح فيه «هذا» لقرب وقته، و«ذلك» لبعده في نفسه. ومعنى التشبيه في «كذلك» أن بعضه كبعض في أنه حِكمةٌ وصواب بما تضمنه من الحجج والمواعظ والفوائد. ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي تحق له العبادة ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر الذي لا يغالب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المحكم لأفعاله.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ المستعلي على كل قادر ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ شأنه ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: تكاد كل واحدة من السماوات تنشق من فوق التي تليها من قول المشركين: اتخذ الله ولداً، استعظاماً لذلك، عن ابن عباس والحسن. وقيل معناه: تكاد السماوات يتشققن فرقاً من عظمة الله وجلاله من فوقهن، تقديره: ممن فوقهن، أي: من عظمة من فوقهن، عن الضحاك وقتادة والزجاج. وقيل: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: من فوق الأرضين، وهذا على طريق التمثيل، والمعنى: لو كانت السماوات تنفطر لشيء لانفطرت لهذا. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يُنزِّهونه عما لا يجوز عليه في صفاته، ويُعظِّمونه عما لا يليق به في ذاته وأفعاله. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام: والملائكة ومَن حول العرش يسبِّحون بحمد ربهم لا يفترون. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من المؤمنين ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ والمعنى ظاهر.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن إمهاله الكفار بعد تقديم الإنذار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: آلهة عبدوها من دون الله، يعني كفار مكة ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: حافظ عليهم أعمالهم لا يعزب شيء منها عنه، ليجازيهم على ذلك كله. ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما أنت بِمُسلَّط عليهم لتدخلهم في الإيمان قهراً. وقيل معناه: إنك لم توكل بحفظ أعمالهم، وإنما بُعِثتَ نذيراً لهم داعياً إلى الله، مبيِّناً سبيل الرشد، أي: فلا يضيقنَّ صدرك بتكذيبهم إياك، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: ومثل ما أوحينا إلى من تقدمك من الأنبياء بالكتب التي أنزلناها عليهم بلغة قومهم، أوحينا إليك قرآناً بلغة العرب ليفقهوا ما فيه ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: لتنذر أهل أم القرى، وهي مكة ومن حولها من سائر الناس، وقرى الأرض كلها ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي: وتنذرهم يوم الجمع وهو يوم القيامة، يجمع الله فيه الأولين والآخرين، وأهل السماوات والأرضين، فـ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ مفعول ثان ﴿لِّتُنذِرَ﴾ وليس بظرف. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في كونه. ثم قسم سبحانه أهل يوم الجمع فقال: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: فريق منهم في الجنة بطاعتهم، وفريق منهم في النار بمعصيتهم، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ولو شاء الله أن يحملهم على دين واحد وهو الإسلام بأن يلجئهم إليه ليفعله، ولكنه لم يفعله لأنه يؤدي إلى إبطال التكليف، والتكليف إنما يثبت مع الاختيار، عن الجبائي. وقيل أن معناه: ولو شاء الله لسوّى بين الناس في المنزلة بأن يخلقهم في الجنة، ولكنه اختار لهم أعلى الدرجتين وهو استحقاق الثواب. ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ وهم المؤمنون، ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ﴾ يواليهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنع عنهم عذاب الله.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: بل اتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام

والأوثان يوالونهم ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ معناه: إن المستحق للولاية في الحقيقة هو الله تعالى دون غيره، لأنه المالك للنفع والضرّ ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: يبعثهم للجزاء ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإحياء والإماتة وغير ذلك. ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معناه: إن الذي تختلفون فيه من أمور دينكم ودنياكم وتتنازعون فيه فحكمه إلى الله، فإنه الفاصل بين المحقّ والمبطل فيه، فيحكم للمحق بالثواب والمدح، وللمبطل بالعقاب والذم. فبيان الصواب إلى الله بنصب الأدلة. وقيل: فحكمه إلى الله يوم القيامة فيجازي كل أحد بما يستحقه. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الذي يحكم بين المختلفين ﴿رَبِّي﴾ أي: هو ربي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مهماتي ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: إليه أرجع في جميع أموري.

●●●

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ
ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ
مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞
شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ
يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ
ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ
أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ
ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

● **اللغة:** الذرأ: إظهار الخلق بإيجاده، يقال: ذرأ الله الخلق يذرؤهم، ومنه: ملح ذرآنيّ لظهور بياضه. ويقال: أنمى الله ذَرْأك وذرْوك، أي: ذَرّيتك، عن الأزهري. وشرع الله الدين أي: بيّن وأظهر، ومنه: المشرَعة والشريعة، لأنهما في مكان معلوم ظاهر من الأنهار، فالشريعة والشِّرعة: الظاهر المستقيم من المذاهب التي شرّعها الله.

● **الإعراب:** ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ يجوز أن يكون موضعه رفعاً ونصباً وجراً، فالرفع على معنى: هو أن أقيموا الدين، والنصب على معنى: شرع لكم أن أقيموا الدين، والجر على البدل من الهاء في ﴿بِهِۦ﴾. وجائز أيضاً أن يكون ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ تفسيراً لـ ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ ولقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ولقوله: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فيكون المعنى: شرع لكم ولمن قبلكم إقامة الدين وترك الفرقة فيه.

● **المعنى:** ثم وصف سبحانه نفسه بما يوجب ألا يعبد غيره، فقال: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أي: خالقهما ومبدعهما ابتداء ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أشكالاً مع كل ذكر أنثى يسكن إليها ويألفها ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ﴾ أي: ذكوراً وإناثاً لتكمل منافعكم بها، كما قال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ إلى آخره. ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ﴾ أي: يخلقكم في هذا الوجه الذي ذكر من جعل الأزواج، فالهاء في ﴿فِيهِۚ﴾ يعود إلى الجعل المراد بقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾. وقيل معناه: يذرأكم في التزاوج لتكثروا به، لدلالة الكلام عليه، وهو ذكر الأزواج. ومثله قول ذي الرمة:

ومَيَّةُ أحسنُ الثَّقَلَينِ جيداً ... وسالفةً وأَحسنه قَذالا[(١)]

أي: وأحسن من ذُكر، يعني الثقلين. وقال الزجاج والفراء: معناه: يذرأكم به، أي: يُكثركم بأن جعل من أنفسكم أزواجاً، ومن الأنعام أزواجاً. وأنشد الأزهري في ذلك:

وأرغب فيها عن لقيط وأهلِه ... ولكنني عن سِنْبَس لست أرغبُ

أي: أرغب بها عن لقيط. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ أي: ليس مثله شيء، والكاف زائدة مؤكِّدة لمعنى النفي، قال أوس بن حجر:

وقتلى كمثلِ جُذُوع النخيلِ ... يغشاهُمُ سَبَلٌ منهمر[(٢)]

وقال آخر:

سَعد بن زيد إذا أَبْصَرْتَ فضلهُمُ ... ما إن كمثلهم في الناس من أحَدَ

وقيل معناه: إنه لو قُدِّرَ لله تعالى مثلٌ، لم يكن لذلك المثل مثل، لما تقرر في القول: إن الله تعالى منفرد بصفات لا يشاركه فيها غيره. فلو كان له مثل لتفرد بصفات لا يشاركه فيها غيره، فكان هو الله، وقد دل الدليل على أنه ليس مع الله إلَه آخر.

وقيل: فيه حذف مضاف، و«مثل» بمعنى الصفة، تقديره: ليس كصاحب صفته شيء، وصاحب صفته هو، أي: ليس كهو شيء، والوجه هو الأول. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لمّا نفى أن يكون له نظير وشبيه على وجه من الوجوه، بيَّن أنه مع ذلك سميع بصير، فإنما المدحة في أنه لا مثل له مع كونه سميعاً بصيراً لجميع المسموعات والمبصرات.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ أي: مفاتيح أرزاق السماوات والأرض وأسبابها، فتمطر السماء بأمره، وتنبت الأرض بإذنه، عن مجاهد. وقيل معناه: خزائن السماوات والأرض، عن السدي. ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ﴾ أي: يوسع الرزق لمن يشاء ويضيق على من يشاء على ما يعلمه من المصالح للعباد، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيفعل ذلك بحسب المصالح.

---

(١) مية معشوقته. السالفة: صفحة العنق. وقيل: ناحية مقدّمها من لدن معلق القرط إلى فقرة الترقوة. والقذال: جماع مؤخر الرأس. وقيل: ما بين نقرة القفا إلى الأذن.

(٢) السَّبَل: المطر النازل من السحاب قبل أنْ يصل إلى الأرض.

ثم خاطب سبحانه خلقه، فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ أي: بيَّن لكم ونهج وأوضح من الدين والتوحيد، والبراءة من الشرك ما وصّى به نوحاً ﴿وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: وهو(١) الذي أوحينا إليك يا محمد وهو ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ وإقامة الدين التمسّك به، والعمل بموجبه، والدوام عليه، والدعاء إليه. ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ أي: ولا تختلفوا فيه وائتلفوا فيه واتفقوا، وكونوا عباد الله إخواناً. ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من توحيد الله والإخلاص له ورفض الأوثان وترك دين الآباء، لأنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ ومعناه: ثقل عليهم وعظم اختيارنا لك بما تدعوهم إليه، وتخصيصك بالوحي والنبوة دونهم. ﴿اللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ليس إليهم الاختيار، لأن الله يصطفي لرسالته من يشاء، على حسب ما يعلم من قيامه بأعباء الرسالة وتحمُّله لها، فاجتباك الله لها كما اجتبى من قبلك مِن الأنبياء. وقيل معناه: الله يصطفي من عباده لدينه من يشاء ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: ويرشد إلى دينه من يُقبل إلى طاعته، وهذا كقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾. وقيل: يهدي إلى جنته وثوابه من يرجع إليه بالنية والإخلاص.

ثم قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ معناه: وإن هؤلاء الكفار لم يختلفوا عليك بعد أن أتاهم طريق العلم بصحة نبوّتك، فعدلوا عن النظر فيه ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فعلوا ذلك للظلم والحسد والعداوة، والحرص على طلب الدنيا. وقيل معناه: وما تفرقوا عنه، أي: عن محمد ﷺ إلا بعد أن علموا أنه حق، ولكنهم تفرقوا عنه حسداً له، وخوفاً أن تذهب رئاستهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ معناه: ولولا وعد الله تعالى وإخباره بتبقيتهم إلى وقت معلوم، وتأخر العذاب عنهم في الحال، لفصل بينهم الحكم وأنزل عليهم العذاب الذي استحقوه عاجلاً. وقيل معناه: ولولا وعد الله بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة، وهو الأجل المسمّى، لقضي بينهم بإهلاك المبطل وإثابة المحقّ. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا۟ الْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ معناه: وإن اليهود والنصارى الذين أُورِثوا الكتاب من بعد قوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ومن بعد أحبارهم، لفي شك من القرآن أو من محمد ﷺ مؤدٍّ إلى الريبة، عن السدي. بيَّن بذلك أن أحبارهم أنكروا الحق عن معرفته، وأن عوامَّهم كانوا شاكين فيه، يدل عليه قوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾. وقيل معناه: وإن الذين أورثوا الكتاب ـ أي: القرآن ـ وهم العرب من بعدهم، أي: من بعد اليهود والنصارى، لفي شك منه بليغ، ولو استقصوا في النظر أدّى بهم إلى اليقين والرشد.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ﴾ أي: فإلى ذلك فادع، عن الفراء والزجاج. يقال: دعوت لفلان وإلى فلان، وذلك إشارة إلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد، ومعناه: فإلى الذي شرعه الله تعالى، ووصّى له أنبياءه فادع الخلق يا محمد. وقيل: إن اللام للتعليل، أي: فلأجل الشك الذي هم عليه فادعهم إلى الحق حتى تزيل شكهم. ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: فاثبت على أمر الله وتمسّك له

---

(١) لا يخفى أن قوله تعالى: الذي... وما وصينا مفعول لشَرَع كما في سائر التفاسير، وهو رحمه الله تبع (التبيان) وأرجع ضمير هو إلى «المشروع» المستفاد من ذيل الآية ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ﴾. ولا يخفى ما فيه.

واعمل بموجبه. وقيل: واستقم على تبليغ الرسالة. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني أهواء المشركين في ترك التبليغ ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي: آمنت بكتب الله التي أنزلها على الأنبياء قبلي كلها. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: كي أعدل بينكم، أي: أسوّي بينكم في الدين والدعاء إلى الحق ولا أُحابي أحداً، وقيل معناه: أمرت بالعدل بينكم في جميع الأشياء. وفي الحديث: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات؛ فالمنجيات: العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وخشية الله في السر والعلانية. والمهلكات: شحّ مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه». ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: وقل لهم أيضاً: الله مدبِّرنا ومدبِّركم، ومصرفنا ومصرفكم، والمنعم علينا وعليكم، وإنما قال ذلك لأن المشركين قد اعترفوا بأن الله هو الخالق. ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: لا يضرنا إصراركم على الكفر، فإن جزاء أعمالنا لنا، وجزاء أعمالكم لكم، لا يؤاخِذ أحداً بذنب غيره. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا خصومة بيننا وبينكم، عن مجاهد وابن زيد. والمعنى: إن الحق قد ظهر فسقط الجدال والخصومة. وكنى بالحجة عن الخصومة لاحتجاج أحد الخصمين على الآخر، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال، وإذا لم يؤمر بالقتال وأُمِرَ بالدعوة، لم تكن بينه وبين من لا يجيب خصومة. وقيل معناه: لا حجة بيننا وبينكم لظهور أمركم في البغي علينا والعداوة لنا، والمعاندة لا على طريق الشبهة، وليس ذلك تحريماً لإقامة الحجة، لأنه لا يلزم قبول الدعوة إلا بالحجة التي يظهر بها المحق من المبطل، فإذا صار الإنسان إلى البغي والعداوة سقط الحِجاج بينه وبين أهل الحق. ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة لفصل القضاء ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ يحكم بيننا بالحق، وفي هذا غاية التهديد.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

● **المعنى:** لما تقدَّم ظهور الحجة، وانقطاع المحاجة، عقَّبه بذكر من يحاجّ بالباطل، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: يخاصمون النبي ﷺ والمسلمين في دين الله وتوحيده، وهم اليهود والنصارى، قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم وأولى بالحق، عن مجاهد وقتادة. وإنما قصدوا بما قالوا ليدفعوا ما أتى به محمد ﷺ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: من بعد ما دخل الناس في الإسلام، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه.

﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: خصومتهم باطلة، حيث زعموا أن دينهم أفضل من الإسلام، ولأن ما ذكروه لا يمنع من صحة نبوّة نبيّنا، بأن ينسخ الله كتابهم وشريعة نبيهم. وقيل معناه: والذين يجادلون في الله بنصرة مذهبهم من بعد ما استجيب للنبي ﷺ دعاؤه في كفار بدر، حتى قتلهم الله بأيدي المؤمنين، واستجيب دعاؤه على أهل مكة، وعلى مضر، حتى قَحطوا، ودعاؤه للمستضعفين حتى خلَّصهم الله من أيدي قريش، وغير ذلك مما يطول تعداده، عن الجبائي. وقيل: من بعد ما استجيب لمحمد ﷺ دعاؤه في إظهار المعجزات وإقامتها. وقيل: من بعد ما استجيب له بأن أقروا به قبل مبعثه، فلما بُعِثَ جحدوه، كما قال: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وإنما سمى سبحانه شبهتهم حجة على اعتقادهم، ولشبهها بالحجة أجرى عليها اسمها من غير إطلاق الصفة بها. ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أي: غضب الله عليهم لأجل كفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ دائم يوم القيامة.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق فيما أخبر به من ماض ومستقبل. وقيل: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالأمر والنهي والفرائض والأحكام، وكله حق من الله، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أي: وأنزل الله العدل، والميزان: عبارة عن العدل كنى به عنه، عن ابن عباس وقتادة ومجاهد ومقاتل. وإنما سمي العدل ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الخلق، وقيل: أراد به الميزان المعروف، وأنزله الله من السماء وعرَّفهم كيف يعملون بالحق، وكيف يزنون به، عن الجبائي. وقيل: الميزان محمد ﷺ يقضي بينهم بالكتاب، عن علقمة. ويكون على التوسع والتشبيه. ولما ذكر العدل أتبعه بذكر الساعة، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي: وما يدريك يا محمد ولا غيرك لعل مجيء الساعة قريب، وإنما أخفى الله الساعة ووقت مجيئها على العباد، ليكونوا على خوف وليبادروا إلى التوبة، ولو عرَّفهم مجيئها لكانوا مُغرَين بالقبائح قبل ذلك تعويلاً على التلافي بالتوبة. ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ لجهلهم بأحوالها وأهوالها فلا يخافون ما فيها إذا لم يؤمنوا بها، فهم يطلبون قيامها إبعاداً لكونها. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون من مجيئها وهم غير متأهِّبين لها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: إن مجيئها الحق الذي لا خلف فيه. ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ﴾ أي: تدخلهم المرية والشك ﴿فِي السَّاعَةِ﴾ فيخاصمون في مجيئها على وجه الإنكار لها، ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾ عن الصواب ﴿بَعِيدٍ﴾ حين لم يذكروا فيعلموا أن الذي خلقهم أولاً قادر على بعثهم.

ثم قال: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ أي: حفيّ بارٌّ بهم رفيق، عن ابن عباس وعكرمة والسدي. وقيل: اللطيف العالم بخفيّات الأمور والغيوب، والمراد به هنا الموصل المنافع إلى العباد من وجه يدق إدراكه، وذلك في الأرزاق التي قسمها الله لعباده، وصرف الآفات عنهم، وإيصال السرور والملاذ إليهم، وتمكينهم بالقدر والآلات، إلى غير ذلك من ألطافه التي لا يوقف على كنهها لغموضها. ثم قال سبحانه: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء، يقال: فلان مرزوق إذا وصف بسعة الرزق. وقيل معناه: يرزق من يشاء في خفض ودعة، ومن يشاء في كد ومشقة ومتعبة، وكلٌّ من رزقه الله من ذي روح فهو ممن شاء الله أن يرزقه. ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ القادر الذي لا يعجز ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يغالب.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ معنى الحرث في اللغة: الكسب، وفلان يحرُث لعياله ويحترِث: أي: يكتسب، أي: من كان يريد بعمله نفع الآخرة ويعمل له، نُجازِه بعمله ونضاعف له ثواب عمله، فنعطيه على الواحد عشرة ونزيد على ذلك ما نشاء. و﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أي: ومن كان يريد بعمله نفع الدنيا نعطه نصيباً من الدنيا لا جميع ما يريده، بل على حسب ما تقتضيه الحكمة، كما قال سبحانه: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ وقيل معناه: من قصد بالجهاد وجه الله فله سهم الغانمين والثواب في الآخرة، ومن قصد به الغنيمة لم يحرم ذلك، وحصل له سهمه من الغنيمة، ولكن لا نصيب له من الثواب في الآخرة. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ومن كانت نيته الدنيا، فرَّق الله عليه أمره، وجعل الفقر بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت نيته الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة». وقيل: من كان يعمل للآخرة نال الدنيا والآخرة، ومن عمل للدنيا فلا حظ له في ثواب الآخرة، لأن الأعلى لا يجعل تبعاً للأدون، عن الحسن.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف: «يَبْشُرُ الله» بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين، والباقون: «يُبَشِّر الله» بضم الياء وفتح الباء وكسر الشين مشددة. وقرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: «ويعلم ما تفعلون» بالتاء على الخطاب، والباقون بالياء.

● **الإعراب:** ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ تقديره: الذي يبشر الله به عباده، فحذف الباء، ثم حذف الهاء، ويجوز أن يكون ﴿ٱلَّذِى﴾ حكمه حكم «ما» التي تكون مصدرية، أي: ذلك تبشير الله عباده. و﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ ليس بمعطوف على ﴿يَخْتِمْ﴾ لأن محو الباطل واجب، فلا يكون معلقاً بالشرط.

● **المعنى:** لما أخبر الله سبحانه أن من يطلب الدنيا بأعماله فلا حظ له في الآخرة، قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ أي: بل لهؤلاء الكفار شركاء فيما كانوا يفعلونه، ﴿شَرَعُواْ لَهُم﴾ أي: بيّنوا لهم ونهجوا لهم ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: ما لم يأمر به الله ولا أذن فيه، أي: شرعوا لهم ديناً غير دين الإسلام، عن ابن عباس، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لولا أن الله حكم في كلمة الفصل بين الخلق بتأخير العذاب لهذه الأمة إلى الآخرة لفرغ من عذاب الذين يكذبونك في الدنيا ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يكذبونك ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ أي: من جزاء ما كسبوا من المعاصي، وهو العقاب الذي استحقوه ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ لا محالة لا ينفعهم منه خوفهم من وقوعه، والإشفاق: الخوف من جهة الرقة على المخوف عليه من وقوع الأمر. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ فالروضة: الأرض الخضرة بحسن النبات، والجنة: الأرض التي يحفّها الشجر، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم فيها ما يتمنون ويشتهون يوم القيامة الذي لا يملك فيه الأمر والنهي غير ربهم، ولا يريد بـ ﴿عِندَ﴾ قرب المسافة، لأن ذلك من صفات الأجسام. وقيل: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في حكم ربهم. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: ذلك الثواب هو الفضل العظيم من الله، إذ نالوا نعيماً لا ينقطع بعمل قليل منقطع. ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الفضل الكبير ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ليستعجلوا بذلك السرور في الدنيا. من شدّد الشين أراد به التكثير، ومن خفّف فلأنه يدل على القليل والكثير.

ثم قال سبحانه: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ اختلف في معناه على أقوال:

أحدها: لا أسألكم على تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجراً إلا التوادّ والتحابّ فيما يقرب إلى الله تعالى، من العمل الصالح، عن الحسن والجبائي وأبي مسلم. قالوا: هو التقرب إلى الله تعالى، والتودد إليه بألطافه.

وثانيها: إن معناه: إلا أن تودّوني في قرابتي منكم وتحفظوني لها، عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وجماعة قالوا: وكل قرشي كانت بينه وبين رسول الله ﷺ قرابة، وهذا لقريش خاصة. والمعنى: إن لم تودوني لأجل النبوّة فودّوني لأجل القرابة التي بيني وبينكم.

وثالثها: إن معناه: إلا أن تودّوا قرابتي وعترتي وتحفظوني فيهم، عن علي بن الحسين عليه السلام وسعيد بن جبير، وعمرو بن شعيب وجماعة، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام. وأخبرنا السيد أبو الحمد مهدي بن نزار الحسيني، قال: أخبرنا الحاكم أبو القاسم الحسكاني، قال: حدثني القاضي أبو بكر الحميري، قال: أخبرنا أبو العباس الضبعي، قال: أخبرنا الحسن بن علي بن زياد السري، قال: أخبرنا يحيى بن عبد الحميد الحماني[1]،

---

(١) الجماني خ ل.

قال: حدثنا حسين الأشتر، قال: أخبرنا قيس عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: لما نزلت: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ الآية، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمرنا الله بمودّتهم؟ قال: «علي وفاطمة وولدهما». وأخبرنا السيد أبو الحمد، قال: أخبرنا الحاكم أبو القاسم بالإسناد المذكور في كتاب «شواهد التنزيل لقواعد التفضيل»، مرفوعاً إلى أبي أُمامة الباهلي، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الأنبياء من أشجار شتى، وخُلقت أنا وعلي من شجرة واحدة، فأنا أصلها، وعلي فرعها، وفاطمة لقاحها، والحسن والحسين ثمارها، وأشياعنا أوراقها. فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا، ومن زاغ عنها هوى، ولو أن عبداً عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام، ثم ألف عام، ثم ألف عام، حتى يصير كالشن البالي، ثم لم يدرك محبتنا، كبَّه الله على مُنخرَيه في النار». ثم تلا: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾. وروى زاذان عن علي عليه السلام قال: فينا في آل حَمَ آية، لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن، ثم قرأ هذه الآية، وإلى هذا أشار الكميت في قوله:

وجَدْنا لكم في آلِ حَمَ آية   تأوّلها منّا تقيٌّ ومُعْرب(١)

وعلى الأقوال الثلاثة فقد قيل في ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ﴾ قولان:

أحدهما: إنه استثناء منقطع، لأن هذا مما يجب بالإسلام فلا يكون أجراً للنبوّة.

والآخر: إنه استثناء متصل، والمعنى: لا أسألكم عليه أجراً إلا هذا، فقد رضيت به أجراً، كما أنك تسأل غيرك حاجة، فيعرض المسؤول عليك براً فتقول له: اجعل بري قضاء حاجتي. وعلى هذا يجوز أن يكون المعنى: لا أسألكم عليه أجراً إلا هذا، ونفعه أيضاً عائد عليكم، فكأني لم أسألكم أجراً، كما مرّ بيانه في قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾.

وذكر أبو حمزة الثمالي في تفسيره، حدثني عثمان بن عمير، عن سعيد بن جبير، عن عبد الله بن عباس، أن رسول الله ﷺ حين قدم المدينة واستحكم الإسلام، قالت الأنصار فيما بينها: نأتي رسول الله ﷺ فنقول له: إنْ تَعرُكَ أمور فهذه أموالنا تحكّم فيها غير حرج ولا محظور عليك. فأتوه في ذلك، فنزلت: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ فقرأها عليهم، وقال: «تودّون قرابتي من بعدي»، فخرجوا من عنده مسلمين لقوله، فقال المنافقون: إن هذا لشيء افتراء في مجلسه أراد بذلك أن يذلّلنا لقرابته من بعده. فنزلت: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ﴾ فأرسل إليهم فتلاها عليهم، فبكوا واشتد عليهم، فأنزل الله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ الآية. فأرسل في أثرهم فبشّرهم وقال: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهم الذين سلّموا لقوله.

ثم قال سبحانه ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾ أي: ومن فعل طاعة نزد له في تلك الطاعة حسناً، بأن يوجب له الثواب. وذكر أبو حمزة الثمالي عن السدي قال: إن اقتراف الحسنة المودة لآل محمد ﷺ. وصح عن الحسن بن علي عليه السلام أنه خطب الناس فقال في خطبته: إنا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم على كل مسلم، فقال: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ

---

(١) تقيّ أي: صاحب التقية. والمعرب أي: من يظهر مذهبه علانية.

أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ﴾ فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت. وروى إسماعيل بن عبد الخالق: عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إنها نزلت فينا أهل البيت، أصحاب الكساء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: غفور للسيئات شكور للطاعات، يعامل عباده معاملة الشاكر في توفية الحق، حتى كأنه ممن وصل إليه النفع فشكره.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ﴾ أي: بل يقولون افترى محمد على الله كذباً، في ادّعائه الرسالة عن الله ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ﴾ أي: لو حدثت نفسك بأن تفتري على الله كذباً لطبع الله على قلبك، ولأنساك القرآن، فكيف تقدر أن تفتري على الله. وهذا كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾. وقيل معناه: فإن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم: إنه مفتر وساحر، عن مجاهد(١) ومقاتل. فعلى هذا لا يحتاج إلى إضمار وحذف. ثم أخبر سبحانه أنه يُذهِب ما يقولونه باطلاً، فقال: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: يزيله ويرفعه بإقامة الدلائل على بطلانه، وحذف الواو من «يمحو» في المصاحف كما حُذف من قوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ على اللفظ في ذهابها لالتقاء الساكنين، وليس بعطف على قوله: ﴿يَخْتِمْ﴾، لأنه مرفوع يدل عليه قوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾ أي: ويثبت الحق بأقواله التي ينزلها على نبيه صلى الله عليه وآله، وهو هذا القرآن المعجز. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بضمائر القلوب ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ وإن جلت معاصيهم، فكأنه قال: من نسب محمداً صلى الله عليه وآله إلى الافتراء ثم تاب قبلت توبته، وإن جلت معصيته. ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من خير وشر فيجازيهم على ذلك.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٣٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة وابن عامر: «وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم» بغير فاء، والباقون بالفاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: القول في ذلك أن «أصاب» في قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ يحتمل أمرين: يجوز أن يكون صلة «ما»، ويجوز أن يكون شرطاً في موضع جزم. فمن قدره شرطاً لم

(١) وفي نسخة مجاهد وقتادة ومقاتل.

يجز حذف الفاء منه على قول سيبويه. وقد تأول أبو الحسن بعض الآي على حذف الفاء في جواب الشرط. وقال بعض البغداديين: حذف الفاء من الجواب جائز، واستدل على ذلك بقوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. وإذا كان صلة فالإثبات والحذف جائزان على معنيين مختلفين. أما إذا ثبت الفاء ففيه دليل على أن الأمر الثاني وجب بالأول، وإذا لم يذكر الفاء جاز أن يكون الثاني وجب للأول، وجاز أن يكون لغيره.

● **المعنى:** لما تقدَّم وعيد أهل العصيان عقّبه سبحانه بالوعد لأهل الطاعة، فقال: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: يجيبهم إلى ما يسألونه. وقيل معناه: يجيبهم في دعاء بعضهم لبعض، عن معاذ بن جبل. وقيل معناه: يقبل طاعتهم وعبادتهم ويزيدهم من فضله على ما يستحقونه من الثواب. وقيل معناه: ويستجيب الذين آمنوا بأن يشفعهم في إخوانهم ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ ويشفعهم في إخوان إخوانهم، عن ابن عباس. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾: «الشفاعة لمن وجبت له النار ممن أحسن إليهم في الدنيا». ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ظاهر المعنى. ولما بيَّن سبحانه أنه يزيد المؤمنين من فضله، أخبر عقيبه أن الزيادة في الأرزاق في الدنيا تكون على حسب المصالح، فقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لو وسَّع الرزق على عباده على حسب ما يطلبونه لبطروا النعمة، وتنافسوا وتغالبوا، وظلموا في الأرض، وتغلب بعضهم على بعض، وخرجوا عن الطاعة. قال ابن عباس: بغيهم في الأرض: طلبهم منزلة بعد منزلة، ودابة بعد دابة، وملبساً بعد ملبس. ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ أي: ولكنه ينزل من الرزق قدر صلاحهم ما يشاء، نظراً منه لهم، عن قتادة. والمعنى: إنه يوسِّع الرزق على من تكون مصلحته فيه، ويضيِّق على من يكون مصلحته فيه، ويؤيده الحديث الذي رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن جبرائيل عليه السلام عن الله: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم، ولو صححته لأفسده، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة، ولو أسقمته لأفسده، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده، وذلك أني أُدبِّر عبادي لعلمي بقلوبهم». والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة. ومتى قيل: نحن نرى كثيراً ممن يوسع عليه الرزق يبغي في الأرض، قلنا: إنا إذا علمنا على الجملة أنه سبحانه يدبِّر أمور عباده بحسب ما يعلم من مصالحهم، فلعل هؤلاء كان يستوي حالهم في البغي، وسع عليهم أو لم يوسع، أو لعلهم لو لم يوسع عليهم لكانوا أسوأ حالاً في البغي، فلذلك وسّع عليهم، والله أعلم بتفاصيل أحوالهم. ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: عليم بأحوالهم، بصير بما يصلحهم وما يفسدهم.

ثم بيَّن سبحانه حسن نظره بعباده، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي: ينزله عليهم من بعد ما يئسوا من نزوله، والغيث: ما كان نافعاً في وقته، والمطر قد يكون نافعاً وقد يكون ضاراً في وقته وغير وقته، ووجه إنزاله بعد القنوط أنه أدعى إلى شكر الآتي به وتعظيمه، والمعرفة بموقع إحسانه. ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: ويفرق نعمته ويبسطها بإخراج النبات والثمار التي يكون سببها المطر، ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى تدبير عباده، وتقدير أمورهم

ومصالحهم، المالك لهم ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود على جميع أفعاله لكون جميعها إحساناً ومنافع. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالّة على وحدانيّته وصفاته التي باين بها خلقه ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنه لا يقدر على ذلك غيره، لما فيهما من العجائب والأجناس التي لا يقدر عليها إلا القادر بقدرته، ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ والدابة: ما تدب، فيدخل فيه جميع الحيوانات ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو على حشرهم إلى الموقف بعد إماتتهم قادر، لا يتعذر عليه ذلك.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ معاشر الخلق ﴿مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ من بلوى في نفس أو مال ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من المعاصي ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ منها، فلا يعاقب بها. قال الحسن: الآية خاصة بالحدود التي تستحق على وجه العقوبة. وقال قتادة: هي عامة. وروي عن علي عليه السلام أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير آية في كتاب الله هذه الآية. يا علي، ما من خدش عود ولا نكبة قدم إلا بذنب، وما عفا الله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه، وما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يثني على عبده». وقال أهل التحقيق: إن ذلك خاص وإن خرج مخرج العموم، لما يلحق من مصائب الأطفال والمجانين ومن لا ذنب له من المؤمنين، ولأن الأنبياء والأئمة يمتحنون بالمصائب، وإن كانوا معصومين من الذنوب، لما يحصل لهم على الصبر عليها من الثواب.

● **النظم:** والوجه في اتصال هذه الآية بما قبلها أن الله تعالى لما بيَّن عظيم إنعامه على العباد، بيَّن بعده ألا يعاقبهم إلا على معاصيهم.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة وابن عامر: «الجوار» بحذف الياء في الوصل والوقف، وقرأ الباقون: «الجواري» بإثبات الياء في الوصل، وابن كثير ويعقوب في الوقف أيضاً. وقرأ أهل المدينة وابن عامر: «يَعْلَمُ الذين يجادلون» بالرفع، والباقون: «ويَعْلَمَ» بالنصب.

● **الحجة:** قال أبو علي: القياس «الجواري»، ومن حذف فلأن حذف هذه الياءات ـ وإن كانت لاماً ـ قد كثر في كلامهم، فصار كالقياس المستمر. ومن قرأ: «يعلمُ» بالرفع استأنف لأنه موضع استئناف من حيث جاء من بعد الجزاء، وإن شئت جعلته خبر مبتدأ محذوف. ومن نصب فلأن قبله شرطاً وجزاءً وكل واحد منهما غير واجب، تقول في الشرط: إن تأتني وتُعطيَني أكرمْك، فتنصب تعطيَني، وتقديره: إن يكن إتيان منك وإعطاء أكرمْك. فالنصب بعد الشرط إذا عطفت عليه بالفاء أمثل من النصب [إذا عطفت عليه] بالفاء بعد جزاء الشرط. فأما قوله:

ومــن لا يــقــدِّمْ رِجلَهُ مُـطْـمـئـنـةً فَـيُـثْـبِـتَـهـا في مـسـتـوى الأرض يـزْلَقِ

فالنصب فيه حسن لمكان النفي. فأما العطف على الشرط نحو: إن تأتني وتكرمني فأكرِمك، فالذي يختار سيبويه النصب في العطف على جزاء[1] الشرط، فيختار «ويعلمَ الذين يجادلون» إذا لم يقطعه من الأول فيرفعه، ويزعم أن المعطوف على جزاء الشرط شبيه بقوله:

وألـحـقُ بـالـحـجـازِ فـأسـتـريـحـا[2]

قال: إلا أن من ينصب في العطف على جزاء الشرط أمثل من ذلك، لأنه ليس يوقع فعلًا إلا بأن يكون من غيره فعل، فصار بمنزلة غير الواجب. وزعم سيبويه أن بعضهم قرأ: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرَ لِمَن يَشَآءُ﴾ بالنصب، وأنشد للأعشى في نصب ما عطف بالفاء على الجزاء:

ومَـن يـغـتـرب عـن أهـلِه لـم يـزلْ يـرَى مَـصـارعَ مـظـلـومٍ مـجَـرّاً ومَـسْـحَـبـاً
وتُـدفـنَ مـنـه الـصـالـحـاتُ وإن يُـسِـىءْ يَكُنْ ما أساءَ النارَ في رأسِ كَبكبا[3]

فهذا حجة لمن قرأ: «ويعلمَ».

● **اللغة:** الأعلام: الجبال، واحدها عَلم. قالت الخنساء:

وإنَّ صـخـراً لـتـأتـمُّ الـهـداةُ بـه كـأنـه عَـلـم فـي رأسِـه نـارُ

فيظللن أي: يدمن ويُقِمْن، يقال: ظل يفعل كذا، إذا فعله نهاراً. والرواكد: الثوابت. والإيباق: الإهلاك والإتلاف. وَوَبَق الرجل يَبِق ووَبِق يَوْبَق: إذا هلك. والمحيص: المعدَل والملجأ.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَنتُم﴾ يا معشر المشركين ﴿بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا تعجزونني حيث ما كنتم، فلا تسبقونني هرباً في الأرض. وفي هذا استدعاء إلى العبادة، وترغيب فيما أمر به، وترهيب عما نهى عنه. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يدفع عنكم عقابه، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم عليه. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ أي: ومن حججه الدالة على اختصاصه بصفات لا يشركه فيها غيره ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ أي: السفن الجارية ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي: كالجبال الطوال. ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي: إن يشأ الله يسكن الريح فتبقى السفن راكدة واقفة على ظهر الماء لا يبرحن عن المكان، لأن ماء البحر يكون راكداً، فلو لم تجىء الريح لوقفت السفينة في البحر ولم تجر، فالله سبحانه جعل الريح سبباً لجريها فيه، وجعل هبوبها في الجهة التي تسير إليها السفينة. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكره ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي: حججاً

---

(١) وفي نسخة: العطف على الشرط.
(٢) أوله: سأترك ناقتي لبني تميم وهو لمغيرة بن حنين.
(٣) مجرّاً ومسحباً بمعنى. وكبكب: جبل. مقصوده أنَّ من بعد عن أهله يصير مظلوماً، ولم يزل يرى مصارعه في كل مكان، فإن عمل صالحاً دفنوه، وإن عمل شهراً شهروه به كالنار على جبل كبكب. وفي جميع النسخ: «وتدفن» مع أن الغرض من الإستشهاد أن يكون فتدفن، ليكون من العطف على الجزاء بالفاء. وقيل كوكباً بدل كبكباً.

واضحات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على أمر الله ﴿شَكُورٍ﴾ على نعمته. وقيل: صبّار على ركوبها، شكور على جريها والنجاة من البحر. ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ معناه: إن يشأ إسكان الريح يسكن الريح، أو إن يشأ يجعل الريح عاصفة، فيهلك السفن، أي: أهلها بالغرق في الماء عقوبة لهم بما كسبوا من المعاصي. ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ من أهلها فلا يغرقهم، ولا يعاجلهم بعقوبة معاصيهم ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: في إبطال آياتنا ودفعها ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: ملجأ يلجأون إليه، عن السدي.

• • •

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم هنا وفي سورة والنجم: «كبير الإثم» على التوحيد، والباقون: «كبائر الإثم» على الجمع.

● **الحجة:** حجة الجمع قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾. ومن قال: «كبير» فأفرد، جاز أن يريد به الجمع، كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾. وفي الحديث: «منعت العراق درهمها وقفيزها».

● **الإعراب:** ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾: يجوز أن يكون ﴿هُمْ﴾ تأكيداً للضمير في ﴿غَضِبُوا۟﴾ و﴿يَغْفِرُونَ﴾ جواب ﴿وَإِذَا﴾. ويجوز ﴿هُمْ﴾ ابتداء، و﴿يَغْفِرُونَ﴾ خبره، وكذا ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾. وإن شئت كان ﴿هُمْ﴾ وصفاً للمنصوب قبله، وإن شئت كان مبتدأ. وقياس قول سيبويه أن يرتفع ﴿هُمْ﴾ بفعل مضمر دلّ عليه ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه من تقدم وصفهم، فقال: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: الذي أعطيتموه من شيء من الأموال ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فهو متاع الحياة الدنيا تتمتعون به أياماً ثم تموتون، فيبقى عنكم أو يهلك المال قبل موتكم. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب والنعيم وما أعده للجزاء على الطاعة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ من هذه المنافع القليلة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صدّقوا بتوحيد الله، وبما يجب التصديق به، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ والتوكل على الله: تفويض الأمور إليه باعتقاد أنها جارية من قبله على أحسن التدبير، مع الفزع إليه بالدعاء من كل ما ينوب.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾: يجوز أن يكون موضع ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ جرّاً عطفاً على قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فيكون المعنى: وما عند الله خير وأبقى للمؤمنين المتوكلين على ربهم، المجتنبين كبائر الإثم ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ويجوز أن يكون في موضع رفع بالابتداء، ويكون الخبر محذوفاً، فيكون

المعنى: والذين يجتنبون الكبائر والفواحش. ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا﴾ مما يفعل بهم من الظلم ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ويتجاوزون عنه، لهم مثل ذلك. والفواحش: جمع فاحشة، وهي أقبح القبيح. والمغفرة في الآية المراد بها ما يتعلق بالإساءة إلى نفوسهم، فمتى عفوا عنها كانوا ممدوحين، فأما ما يتعلق بحقوق الله وواجبات حدوده، فليس للإمام تركها ولا العفو عنها، ولا يجوز له العفو عن المرتدّ وعمّن جرى مجراه. ثم زاد سبحانه في صفاتهم، فقال:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: أجابوه فيما دعاهم إليه من أمور الدين، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي: أداموها في أوقاتها بشرائطها ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يقال: صار هذا الشيء شورى بين القوم، إذا تشاوروا فيه، وهو فُعلى من المشاورة، وهي المفاوضة في الكلام ليظهر الحق، أي: لا يتفرَّدون بأمر حتى يشاوروا غيرهم فيه. وقيل: إن المعنيّ بالآية الأنصار، كانوا إذا أرادوا أمراً قبل الإسلام، وقبل قدوم النبي ﷺ، اجتمعوا وتشاوروا ثم عملوا عليه، فأثنى الله عليهم بذلك. وقيل: هو تشاورهم حين سمعوا بظهور النبي ﷺ، وورود النقباء عليه، حتى اجتمعوا في دار أبي أيوب على الإيمان به والنصرة له، عن الضحاك. وفي هذا دلالة على فضل المشاورة في الأمور. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من رجل يشاور أحداً إلا هدي إلى الرشد». ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في طاعة الله تعالى وسبيل الخير ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ من غيرهم ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ ممّن بغى عليهم، من غير أن يعتدوا، عن السدي. وقيل: ينتصرون أي: يتناصرون، ينصر بعضهم بعضاً، نحو يختصمون ويتخاصمون، عن أبي مسلم. وقيل: يعني به المؤمنين الذين أخرجهم الكفار من مكة، وبغوا عليهم، ثم مكّنهم الله في الأرض حتى انتصروا من ظلمهم، عن عطاء. وقيل: جعل الله المؤمنين صنفين:

- صنف يعفون عمّن ظلمهم، وهم الذين ذُكِرُوا قبل هذه الآية، وهو قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

- وصنف ينتصرون ممن ظلمهم وهم الذين ذُكِرُوا في هذه الآية، فمن انتصر وأخذ بحقه ولم يجاوز في ذلك ما حدّ الله، فهو مطيع لله، ومن أطاع الله فهو محمود، عن ابن زيد.

ثم ذكر سبحانه حد الانتصار، فقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ قيل: هو جواب القبيح إذ قال: أخزاك الله. تقول: أخزاك الله، من غير أن تعتدي، عن ابن نجيح والسدي ومجاهد. وقيل: يعني القصاص في الجراحات والدماء، عن مقاتل. وسمّي الثانية سيئة لأنها في مقابلة الأولى، كما قال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾. ثم ذكر سبحانه العفو فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: فمن عفا عما له المؤاخذة به، وأصلح أمره فيما بينه وبين ربه، فثوابه على الله، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. ثم بيّن سبحانه أنه لم يرغب المظلوم في العفو عن الظالم لميله إلى الظالم، أو لحبه إياه، ولكن ليعرضه[1] بذلك بجزيل الثواب، ولحبه الإحسان والفضل. وقيل: إنه لا يحب الظالم في قصاص وغيره، بتعدّيه عما هو له إلى ما ليس

(١) من باب عرض المتاع للبيع. والهاء يعود إلى المظلوم أي: ليجعل نفسه معرضاً لجزيل الثواب.

له. وقيل: إن الآية الأولى عامة في وجوب التناصر بين المسلمين، وهذه الآية في خاصّة الرجل يجازي من ظلمه بمثل ما فعله أو يعفو. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان أجره على الله فليدخل الجنة، فيقال: من ذا الذي أجره على الله؟ فيقال: العافون عن الناس، فيدخلون الجنة بغير حساب».

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾.

● **الإعراب:** ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: جواب القسم الذي دل عليه قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ كما قال سبحانه: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾. وقيل: بل هي جملة في موضع خبر المبتدأ الذي هو من ﴿صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ والتقدير: إن ذلك منه لمن عزم الأمور، وحسن الحذف لطول الكلام. وقوله: ﴿خَاشِعِينَ﴾ منصوب على الحال من ﴿يُعْرَضُونَ﴾. و﴿يُعْرَضُونَ﴾ في موضع النصب على الحال من ﴿وَتَرَاهُمْ﴾.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه المنتصر فقال: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ معناه: من انتصر لنفسه وانتصف من ظالمه بعد ظلمه، أضاف الظلم إلى المظلوم، أي بعد أن ظُلم وتُعُدِّيَ عليه فأخذ لنفسه بحقه، فالمنتصرون ما عليهم من إثم وعقوبة وذم، ومثله في إضافة المصدر إلى المفعول قوله: ﴿مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾. ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أي: الإثم والعقاب ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ ابتداء ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع، ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ أي: تحمل المشقة في رضاء الله ﴿وَغَفَرَ﴾ فلم ينتصر ف ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والتجاوز ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من ثابت الأمور التي أمر الله تعالى بها فلم تنسخ. وقيل: «عزم الأمور» هو الأخذ بأعلاها في باب نيل الثواب والأجر. ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ أي: ومن يضلله الله عن رحمته وجنته ﴿فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ﴾ أي: معين ﴿مِّن بَعْدِهِ﴾ أي: سواه. وقيل: مَن عذّبه الله عقوبة له على عناده وجحوده، فما له من ولي يلي أمره، ويدفع عذاب الله عنه. ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: ترى الظالمين يا محمد إذا شاهدوا عذاب النار ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾؟ أي: رجوع وردّ إلى دار الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ تمنياً منهم لذلك.

﴿وَتَرَاهُمْ﴾ يا محمد ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار قبل دخولهم النار ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ أي: ساكنين متواضعين في حال العرض ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: خفي النظر لما

عليهم من الهوان، يسارقون النظر إلى النار خوفاً منها وذلة في نفوسهم، عن الحسن وقتادة. وقيل: خفي: ذليل، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: من عين لا تفتح كلها، وإنما نظروا ببعضها إلى النار[1]. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لما رأوا عظيم ما نزل بالظالمين ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ في الحقيقة هم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن فوّتوها الانتفاع بنعيم الجنة ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ أي: وأولادهم وأزواجهم وأقاربهم لا ينتفعون بهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لما حيل بينهم وبينهم. وقيل: وأهليهم من الحور العين في الجنة لو آمنوا ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ هذا من قول الله تعالى. والمقيم: الدائم الذي لا زوال له.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن الظالمين الذين ذكرهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ لا فيما عبدوه من دونه، ولا فيمن أطاعوه في معصيته، أي: نُصّار ﴿يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ويدفعون عنهم عقابه. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ يوصله إلى الجنة. ثم قال سبحانه: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ أي: أجيبوا داعي ربكم، يعني محمداً ﷺ، فيما دعاكم إليه ورغّبكم فيه، من المصير إلى طاعته والانقياد لأمره ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا رجوع بعده إلى الدنيا. وقيل معناه: لا يقدر أحد على رده ودفعه وهو يوم القيامة، عن الجبائي. وقيل معناه: لا يرد ولا يؤخر عن وقته، وهو يوم الموت، عن أبي مسلم. ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: معقل يعصمكم من العذاب، ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: إنكار وتغيير للعذاب. وقيل: من نصير منكر ما يحل بكم. ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ يعني الكفار، أي: عدلوا عما دعوتهم إليه ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: مأموراً بحفظهم لئلا يخرجوا عما دعوتهم إليه، كما يحفظ الراعي غنمه لئلا يتفرقوا، أي: فلا تحزنوا لإعراضهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: ليس عليك إلا إيصال المعنى إلى أفهامهم، والبيان لما فيه رشدهم. ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ وأوصلنا إليه نعمة ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أي: بطر، لأن الفرح المراد هنا ما قارنه

(١) في المخطوطة بزيادة «خوفاً منها».

أشَر، أو جحود، أو إنكار، لأنه خرج مخرج الذم، وقيل: إن الرحمة هنا العافية. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: قحط، أو فقر، أو مرض، أو غير ذلك مما يسوءهم، ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ يُعَدِّد المصيبة ويجحد النعم.

ثم بيَّن سبحانه أن النعم كلها منه، فقال: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: له التصرّف فيهما وفيما بينهما، وسياستهما بما تقتضيه الحكمة. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من أنواع الخلق ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] من خلقه ﴿إِنَٰثًا﴾ فلا يولد له ذكر ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ البنين فلا يولد له أنثى ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ معناه: أو يجمع لهم بين البنين والبنات. تقول العرب: زوَّجت إبلي أي: جمعت بين صغارها وكبارها. قال مجاهد: هو أن تلد المرأة غلاماً ثم جارية ثم غلاماً ثم جارية. وقيل: هو أن تلد توأماً ذكراً وأنثى، أو ذكراً وذكراً، أو أنثى وأنثى، عن ابن زيد. وقيل: هو أن يجمع في الرحم الذكر والأنثى، عن محمد بن الحنفية. ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ﴾ من الرجال والنساء ﴿عَقِيمًا﴾ لا يلد ولا يولد له ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ بما خلق ﴿قَدِيرٌ﴾ على خلق من يشاء.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع: «أو يرسلُ» بالرفع، «فيوحيْ» بسكون الياء. والباقون: «أو يرسلَ»، «فيوحيَ» بالنصب.

● **الحجة:** قال أبو علي: من نصب «أو يرسلَ» فلا يخلو من أن يكون محمولاً على «أنْ» في قوله: ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ أو على غيره، فلا يجوز أن يكون محمولاً عليه، لأنه يصير تقديره: ما كان لبشر أن يكلِّمه الله أو أن يرسل رسولاً إليه. ولم يخل قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ من أن يكون المراد: أو يرسله رسولاً، أو يكون: أو يرسل إليه رسولاً، والتقديران جميعاً فاسدان. ألا ترى أن كثيراً من البشر قد أرسِل رسولاً، وكثيراً منهم قد أرسِل إليه الرسل، فإذا لم يخل من هذين التقديرين ولم يصح واحد منهما، علمت أن المعنى ليس عليه والتقدير على غيره، فالذي عليه المعنى والتقدير الصحيح ما ذهب إليه الخليل، مِن أنْ يُحمل ﴿يُرْسِلَ﴾ على أن يوحي الذي

(١) [يهب لمن يشاء].

يدل عليه ﴿وَحْيًا﴾، فصار التقدير: ما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا أن يوحي وحياً أو يرسل رسولاً فيوحي. ويجوز في قوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ أمران:

أحدهما: أن يكون استثناء منقطعاً.

والآخر: أن يكون حالاً.

فإن قدّرته استثناء منقطعاً لم يكن في الكلام شيء يوصل بـ «مِن»، لأن ما قبل الاستثناء لا يعمل فيما بعده، لأن حرف الاستثناء في معنى حرف النفي، ألا ترى أنك إذا قلت: قام القوم إلا زيداً. فالمعنى: قام القوم لا زيد. فكما لا يعمل ما قبل حرف النفي فيما بعده، كذلك لا يعمل ما قبل الاستثناء إذا كان كلاماً تاماً فيما بعد، إذا كان بمعنى النفي. وكذلك لا يجوز أن يعمل ما بعد «إلا» فيما قبلها نحو: ما أنا الخبزَ إلا آكل، كما لم يعمل ما بعد حرف النفي فيما قبله، فإذا كان كذلك لم يتصل الجار بما قبل «إلا».

ويمتنع أن يتصل به الجار من وجه آخر، وهو أن قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ في صلة «وحي» الذي هو بمعنى: أن يوحي، فإذا كان كذلك لم يجز أن يحمل الجار الذي هو «من» قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ على ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾، لأنك تفصل بين الصلة والموصول بما ليس منهما، ألا ترى أن المعطوف على الصلة في الصلة، فإذا حَمَلْتَ العطف على ما ليس في الصلة، فَصَلْتَ بين الصلة والموصول بالأجنبي الذي ليس منهما. فإذا لم يجز حمله على ﴿يُكَلِّمَهُ﴾ من قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ ولم يكن بدّ من أن يعلق الجار بشيء، ولم يكن في اللفظ شيء تحمله عليه، أضمرت «يكلم»، وجعلت الجار في قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ متعلقاً بفعل مراد في الصلة، محذوف منها للدلالة عليه. وقد يحذف من الصلة أشياء للدلالة عليها، ويكون في المعنى معطوفاً على الفعل المقدر صلة، لأنّ الموصول وهي: «يوحي» فيكون التقدير: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحي إليه أو يكلّمه من وراء حجاب، فحذف يكلم من الصلة لأن ذكره قد جرى وإن كان خارجاً من الصلة، فحسن ذلك حذفه من الصلة وسوّغه.

ألا ترى أن ما قبل حرف الاستفهام مثل ما قبل الصلة، في أنه لا يعمل في الصلة، كما لا يعمل ما قبل الاستفهام فيما كان من حيّز الاستفهام، وقد جاء: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ والمعنى: الآن آمنت وقد عصيت قبل. فلما كان ذكر الفعل قد جرى في الكلام أُضمِر.

ولا يجوز أن يقدّر عطف ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ على الفعل الخارج من الصلة فيفصل بين الصلة والموصول بالأجنبي منهما، كما فصّل في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ ثم قال: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِۦ﴾ فعطف بـ «أو» على ما في الصلة بعد ما فصل بين الصلة والموصول بقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾، لأن قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ من الاعتراض الذي يسدد ما في الصلة ويوضحه، فصار بذلك بمنزلة الصفة، لما في الصفة من

التبيين والتخصيص. ومثل هذا في الفصل في الصلة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ فصل بقوله: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾[(١)] وعطف عليه قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ على الصلة مع هذا الفصل، من حيث قوله: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ يسدُّد[(٢)] ما الصلة.

وأما من رفع فقال: «أو يرسلُ رسولًا» فجعل «يرسلُ» حالًا، فإن الجار في قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ متعلق بمحذوف، ويكون في الظرف ذكر من ذي الحال، فيكون قول: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ على هذا التقدير مصدراً وقع موقع الحال، كقولك: جئت ركضاً، وأتيت عدواً. ويكون «مِن» في أنه مع ما انجرّ به في موضع الحال، كقوله: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾. ومعنى: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ فمن قدر الكلام استثناء منقطعاً أو حالًا يكلمهم غير مجاهر لهم بكلامه، يريد أن كلامه يُسمَع ويَحدُث من حيث لا يُرَى كما يُرَى سائر المتكلمين، وليس أن ثَمَّ حجاباً يفصل موضعاً من موضع، فيدل ذلك على تحديد المحجوب، ومن رفع «يرسلُ» كان في موضع نصب على الحال، والمعنى: هذا كلامه إياهم، كما يقول: تحيتك الضرب، وعتابك السيف.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أجلّ النعم وهي النبوّة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ أي: ليس لأحد من البشر أن يكلمه الله ﴿إِلَّا﴾ أن يوحي إليه ﴿وَحْيًا﴾ وهو داود أوحى في صدره، فزبر الزبور ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: أو يكلمه من وراء حجاب، وهو موسى عليه السلام ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ وهو جبرائيل أُرسِلَ إلى محمد صلى الله عليه وآله، عن مجاهد. وقيل معناه: ما كان لبشر أن يكلِّمه الله إلا بمثل ما يكلم به عباده، من الأمر بطاعته والنهي عن معاصيه، وتنبيهه إياهم على ذلك من جهة الخاطر أو المنام وما أشبه ذلك على سبيل الوحي. وسماه وحياً لأن الوحي في اللغة ما جرى مجرى الإيماء والتنبيه على الشيء من غير أن يفصح به، أو من وراء حجاب، وهو أن يحجب ذلك الكلام عن جميع خلقه إلا من يريد أن يكلمه به، نحو كلامه لموسى عليه السلام، لأنه حجب ذلك عن جميع الخلق إلا عن موسى عليه السلام وحده، وفي المرة الثانية حجبه عن جميع الخلق إلا عن موسى والسبعين الذين كانوا معه. وقد يقال: إنه حجب عنهم موضع الكلام الذي أقام الكلام فيه، فلم يكونوا يدرون من أين يسمعونه، لأن الكلام عرض لا يقوم إلا في جسم. ولا يجوز أن يكون أراد بقوله: إن الله تعالى كان من وراء حجاب يكلّم عباده، لأن الحجاب لا يجوز إلا على الأجسام المحدودة.

وعنى بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ إرساله ملائكته بكتبه وكلامه إلى أنبيائه، ليبلغوا ذلك عنه عباده، فهذا أيضاً ضرب من الكلام الذي يكلم الله به عباده، ويأمرهم فيه وينهاهم من غير أن يكلِّمهم على سبيل ما كلّم به موسى عليه السلام، وهو خلاف الوحي الذي ذُكِرَ في أول الآية، لأنه تنبيه خاطر وليس فيه إفصاح، عن أبي علي الجبائي.

---

(١) [سيئة]. (٢) [في].

وقال الزجاج معناه: إن كلام الله للبشر إما أن يكون بإلهام يلهمهم، أو بكلام من وراء حجاب كما كلم موسى، أو برسالة ملك إليهم فيوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن الله ما يشاء الله. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ عن الإدراك بالأبصار ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أي: مثل ما أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحينا إليك ﴿رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ يعني: بأمرنا، ومعناه: القرآن لأنه يهتدى به، ففيه حياة من موت الكفر، عن قتادة والجبائي وغيرهما. وقيل: هو روح القدس، عن السدي. وقيل: هو ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله ﷺ، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالا: ولم يصعد إلى السماء وإنه لفينا. ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾ يا محمد قبل الوحي ﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أي: ما القرآن ولا الشرائع ومعالم الإيمان. وقيل معناه: ولا أهل الإيمان، أي: من الذي يؤمن، ومن الذي لا يؤمن. وهذا من باب حذف المضاف. ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾ أي: جعلنا الروح الذي هو القرآن نوراً، لأن فيه معالم الدين، عن السدي. وقيل: جعلنا الإيمان نوراً، لأنه طريق النجاة، عن ابن عباس. ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ أي: نرشده إلى الجنة، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: ترشد وتدعو إلى طريق مُفْضٍ إلى الحق وهو الإيمان. ثم فسّر ذلك الصراط بقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ ملكاً وخلقاً ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي: إليه ترجع الأمور والتدبير يوم القيامة، فلا يملك ذلك غيره.

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

مكية/آياتها (٨٩)

مكّية كلّها. وقيل: إلا آية منها ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ الآية. نزلت ببيت المقدس، عن مقاتل.

● **عدد آيها:** ثمان وثمانون آية شامي، تسع في الباقين.

● **اختلافها:** آيتان ﴿حمٓ﴾ كوفي ﴿هُوَ مَهِينٌ﴾ حجازي بصري.

● **فضلها:** أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «ومن قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ وعن أبي بصير قال: قال أبو جعفر عليه السلام: من أدمن قراءة حمٓ الزخرف آمنه الله في قبره من هوامّ الأرض، ومن ضَمَّةِ القبر، حتى يقف بين يدي الله عز وجل، ثم جاءت حتى تكون هي التي تدخله الجنة بأمر الله عز وجل.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سورة ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ بذكر القرآن والوحي، افتتح هذه السورة بذلك أيضاً، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾
وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن
كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة والكوفة غير عاصم: «إن كنتم» بكسر الهمزة، والباقون: بفتحها.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قال: «إنْ كنتم» فالمعنى: لأن كنتم، فأما ﴿صَفْحًا﴾ فانتصابه من باب «صنع الله»، لأن قوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾ يدل على أن نصفح عنكم صفحاً. وكأن قولهم: صفحت عنه، أي: أعرضت عنه ووليته صفحة العنق. فالمعنى: أفنضرب عنكم ذكر الانتقام منكم والعقوبة لكم لـ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾. وهذا يقرب من قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾. والكسر على أنه جزاء استغني عن جوابه بما تقدمه، مثل: أنت ظالم إن فعلت كذا، كأنه قال: إن كنتم مسرفين نضربْ.

● **اللغة:** يقال: ضربت عنه، وأضربت عنه، أي: تركته وأمسكت عنه. يقال: صفح عني بوجهه. قال كثير، وذكر امرأة:

صَفوحاً فما تلقاك إلا بخيلةً فمنْ ملَّ منها ذلك الوصلَ مَلَّتِ[(١)]

أي: معرضة بوجهها، والصفوح في صفات الله تعالى معناه: العفو عن الذنب، كأنه أعرض عن مجازاته تفضلًا، يقال: صَفح عن ذنبه: إذا عفا. والإسراف: مجاوزة الحد في العصيان.

● **المعنى:** ﴿حمٓ﴾ مرَّ معناه. ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أقسم بالقرآن المبيِّن للحلال والحرام، المبين ما يحتاج إليه الأنام من شرائع الإسلام، ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: أنزلناه، عن السدي. وقيل: قلناه، عن مجاهد. ونظيره: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ أي: يقولون. ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلسان العرب، والمعنى: جعلناه على طريقة العرب في مذاهبهم في الحروف والمفهوم، ومع ذلك فإنه لا يتمكن أحد منهم من إنشاء مثله، والابتداء بما يقاربه من عُلوّ طبقته في البلاغة والفصاحة، إما لعدم علمهم بذلك، أو لأنهم صرفوا عنه، على الخلاف بين العلماء فيه. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تعقلوا وتتفكروا فيه فتعلموا صدق من ظهر على يده. وفي هذه الآية دلالة على حدوث القرآن، لأن المجعول هو المحدث بعينه. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني القرآن ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، وإنما سُمّي أمّاً، لأن سائر الكتب تنسخ منه. وقيل: لأن أصل كل شيء أمُّه، والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ، كما قال: بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ، عن الزجاج. وهو الكتاب الذي كتب الله فيه ما يكون إلى يوم القيامة، لما رأى في ذلك من صلاح ملائكته بالنظر فيه، وعلم فيه من لطف المكلفين بالإخبار عنه. ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: الذي عندنا، عن ابن عباس. ﴿لَعَلِىٌّ﴾ أي: عالٍ في البلاغة، مظهر ما بالعباد إليه من الحاجة. وقيل معناه: يعلو كل كتاب بما اختصّ به من كونه معجزاً وناسخاً للكتب، وبوجوب إدامة العمل به، وبما تضمنه من الفوائد، وقيل: «عليٌّ» أي: عظيم الشأن رفيع الدرجة، تُعَظِّمُهُ الملائكة والمؤمنون. ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: مظهر للحكمة البالغة. وقيل: حكيم دلالة على كل حق وصواب، فهو بمنزلة الحكيم الذي لا ينطق إلا بالحق. وصف الله تعالى القرآن بهاتين الصفتين على سبيل التوسع، لأنهما من صفات الحي. ثم خاطب سبحانه من لم يعتبر بالقرآن وجحد ما فيه من الحكمة والبيان، فقال: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ والمراد بالذكر هنا القرآن، أي: أفنترك عنكم الوحي صفحاً فلا نأمركم ولا ننهاكم ولا نرسل إليكم رسولًا؟ ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي: لأن كنتم، والمعنى: أفنمسك عن إنزال القرآن ونهملكم فلا نعرِّفكم ما يجب عليكم من أجل أنكم أسرفتم في كفركم؟ وهذا استفهام إنكار، ومعناه: إنا لا نفعل ذلك. وأصل ضربت عنه الذكر، أن الراكب إذا ركب دابة فأراد أن يصرفه عن جهة، ضربَه بعصا أو سوط ليعدل به إلى جهة أخرى، ثم وضع الضرب موضع الصرف والعدل.

وقيل: إن الذكر بمعنى العذاب، ومعناه: أحسبتم أنّا لا نعذِّبكم أبداً، عن السدي.

● ● ●

(١) أي: كثيرة الصفح عن عشاقها، فما تلقاك إلا بخيلة بالوصل، وسريعة الملال. فمن أظهر من وصلها الملال ملّت سريعاً.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

● **المعنى:** ثم عزّى سبحانه نبيّه ﷺ بقوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: في الأمم الماضية، ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعني من الأمم الخالية التي ذكرناها، كفرت بالأنبياء وسَخِرت منهم لفرط جهالتهم وغباوتهم، واستهزأت بهم كما استهزأ قومك بك، أي: فلم نضرب عنهم صفحاً لاستهزائهم برسلهم، بل كرّرنا الحجج وأعدنا الرسل. ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: فأهلكنا من أولئك الأمم بأنواع العذاب من كان أشد قوة ومنعة من قومك، فلا يغتر هؤلاء المشركون بالقوة والنجدة. ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سبق فيما أنزلنا إليك. شبّه حال الكفار الماضية بحال هؤلاء في التكذيب، ولما أُهلِكَ أولئك بتكذيبهم رسلهم فعاقبة هؤلاء الإهلاك.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: إن سألت قومك يا محمد ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أنشأهما واخترعهما ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: لم يكن جوابهم في ذلك إلا أن يقولوا: خلقهن - يعني السماوات والأرض - العزيز القادر الذي لا يقهر، العليم بمصالح الخلق، وهو الله تعالى، لأنهم لا يمكنهم أن يحيلوا في ذلك على الأصنام والأوثان. وهذا إخبار عن غاية جهلهم، إذا اعترفوا بأن الله خلق السماوات والأرض ثم عبدوا معه غيره، وأنكروا قدرته على البعث. ثم وصف سبحانه نفسه فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وقرىء «مهاداً» وقد مضى ذكره في طه. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تسلكونها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. وقيل معناه: لتهتدوا إلى الحق في الدين بالاعتبار الذي حصل لكم بالنظر فيها.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

● **اللغة:** يقال: أنشَر الله الخلقَ فنشروا، أي: أحياهم فحيوا. قال الأعشى:

لو أسْنَدَتْ ميْتاً إلى نحرِها ... عاش ولم يُنقَلْ إلى قابِرِ

حتى يقولَ الناسُ مما رأوْا يا عجباً للميتِ الناشِرِ(١)

الإقران: الإطاقة، يقال: أقرنتُ لهذا البعير، أي: أطقته.

● **المعنى:** ثم أكّد سبحانه ما قدمه بقوله: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: غيثاً ومطراً ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: بقدر الحاجة، لا زائداً عليها فيفسد، ولا ناقصاً عنها فيضرّ ولا ينفع، وفي ذلك دلالة على أنه واقع من قادر مختار، قد قدَّره على ما تقتضيه الحكمة لعلمه بذلك. ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ أي: فأوحينا ﴿بِهِ﴾ أي: بذلك المطر ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: جافة يابسة بإخراج النبات والأشجار، والزروع والثمار، و﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما أخرج النبات من الأرض اليابسة ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم يوم البعث. ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ يعني أزواج الحيوان من ذكر وأنثى. وقيل معناه: خلق الأشكال جميعها من الحيوان والجماد، فمن الحيوان الذكر والأنثى، ومن غير الحيوان مما هو كالمقابل، كالحلو والمر، والرطب واليابس، وغير ذلك. وقيل: الأزواج: الشتاء والصيف، والليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والأرض، والجنة والنار، عن الحسن. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ﴾ أي: السفن ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ من الإبل والبقر، عن سعيد بن جبير. وقيل: الإبل ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ في البحر والبر ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾. بيّن سبحانه أن الغرض في خلق ما ذكر لتستووا على ظهور ما جعل لكم، فالضمير في ﴿ظُهُورِهِ﴾ يعود إلى لفظ ﴿مَا﴾. ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ فتشكروا على تلك النعمة التي هي تسخير ذلك المركب، ﴿وَتَقُولُوا﴾ معترفين بنعمه، منزّهين له عن شبه المخلوقين ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ المركب، أي: ذلله لنا حتى ركبناه، ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيقين مقاومين في القوة. ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي: ولتقولوا أيضاً ذلك، ومعناه: وإنا إلى الله راجعون في آخر عمرنا، على مركب آخر وهو الجنازة. قال قتادة: قد علّمكم كيف تقولون إذا ركبتم.

وروي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً في سفر، كبّر ثلاثاً، وقال: «﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البرّ والتقوى، والعمل بما ترضى، اللهم هوّن علينا سفرنا واطوِ عنا بُعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل والمال، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال». وإذا رجع قال: «آئبون تائبون لربّنا حامدون» أورده مسلم في الصحيح.

وروى العياشي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ذِكرُ النعمة أن تقول: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وعلمنا القرآن، ومنَّ علينا بمحمد ﷺ، وتقول: بعده: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ إلى آخره.

---

(١) يصف المرأة بأنها من فرط الجمال تحيي الأموات، فلو أسندت ميتاً إلى نحرها صار حيّاً، ولم ينقل إلى قابر يقبره ويدفنه، فيتعجب الناس ويقولون: يا عجباً للميت الحيّ.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر الكفار الذين تقدم ذكرهم، فقال: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ أي: نصيباً، يعني: حكموا بأن بعض عباده وهم الملائكة له أولاد، ومعنى الجَعل هنا: الحُكم، وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد والحسن، قالوا: زعموا أن الملائكة بنات الله. قال الزجاج: قد أنشد بعض أهل اللغة بيتاً يدل على أن معنى جُزء معنى الإناث وهو:

إنْ أجْـزأتْ حُـرَّةٌ يـومـاً فـلا عَـجَـبٌ   قد تُجزِئُ الحُرَّةُ المِذْكارُ أحياناً(١)

أي: أنَّثتْ. وقيل معناه: وجعلوا لله من مال عباده نصيباً، فيكون كقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ فحذف المضاف، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي: جاحد لنعم الله، مظهر لكفره، غير مستتر به.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: «يُنَشَّأ» بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين، والباقون: «يَنْشَأ» بفتح الياء وسكون النون والتخفيف. وقرأ أهل الكوفة وأبو عمرو: «عباد الرحمن» والباقون: «عند الرحمن». وقرأ أهل المدينة: «أأُشهدوا» على أأُفعِلوا بضم الهمزة وسكون الشين وقبلها همزة الاستفهام مفتوحة، ثم تخفف الثانية من غير أن يدخل بينهما ألفاً، وبعضهم يُدْخِل بينهما ألفاً، وقرأ الباقون: «أَشَهِدوا» بفتح الألف والشين.

● **الحجة:** قال أبو علي: يقال: نَشَأت السحابة، ونشأ الغلام، فإذا نقل هذا الفعل بالهمزة كقوله: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ ، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ تعدى إلى مفعول. ومن قرأ: «يُنشَّأ» كان مثل فرَّح وأفرَح، وغرَّم وأغرم. وموضع ﴿مَن﴾ نصب على تقدير: اتخذوا له مَنْ ينشأ في الحلية على وجه التقريع لهم بما افتروه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾.

وحجة من قرأ: «عباد الرحمن» قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾. وحجة من قرأ: «عند

---

(١) المذكار: التي من عادتها أن تلد الذكور، وكذلك الرجل. المراد: إنه إن كانت الحرة مؤنثاً بأن خلقها الله أنثى، فلا عجب، فإن الحرة المذكار التي هي سبب الفخر، تكون أنثى. قال في الكشاف: ومن بدع التفاسير تفسير الجزء بالإناث وادّعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب، ووضع مستحدث منحول، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه: «أجزأت المرأة». الخ.

الرحمن» قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. وفي هذا دلالة على رفع المنزلة والتقريب، كما قال: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ وليس من قرب المسافة.

وشهدت تستعمل على ضربين:

أحدهما: بمعنى الحضور.

والآخر: بمعنى العلم. والذي بمعنى الحضور يتعدى إلى مفعول به، يدلك على ذلك قوله:

ويومٍ شهدناه سليماً وعامراً

تقديره: شهدنا فيه سليماً. ومن ذلك قوله:

شهدنا فما تلقَى لَنا من كتيبة   يدُ الدهر إلا جَبرَئيلُ أمامها

فهذا محذوف المفعول، والتقدير فيه: شهدنا المعركة، فهذا الضرب إذا نقل بالهمزة تعدى إلى مفعولين، تقول: شهد زيد المعركة، وأشهدته إياها، ومن ذلك قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ .

وأما شهدت الذي بمعنى علمت فيستعمل على ضربين:

أحدهما: أن يكون قسماً.

والآخر: أن يكون غير قسم.

فاستعمالهم إياه قسماً كاستعمالهم: علِم الله ويعلم الله قسَميْن، يقول: علم الله لأفعلن، فيتلقاه ما يتلقى الأقسام، وأنشد سيبويه:

ولَقدْ علمتُ لتأتينَّ منيَّتي   إن المنايا لا تَطيش سِهامها[1]

وحُكِي أن زفر كان يذهب إلى أنه إذا قال: «أشهد بالله»، كان يميناً. وإن قال: أشهد، ولم يقل: «بالله»، لم يره يميناً. وقال محمد الشيباني: «أشهد» غير موصولة بقوله: بالله، مثل أشهد موصولة بقولك: بالله، في أنه يمين، واستشهد على ذلك بقوله: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾. ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾، فجعله يميناً ولم يوصل بقوله بالله.

وأما شهدت الذي يراد به علمت ولا يراد به حضرت، فهو ضرب من العلم مخصوص، فكل شهادة علم، وليس كل علم شهادة، ومما يدل على اختصاصه في العلم أنه لو قال عند الحاكم: أعلم أن لزيد على عمرو عشرة، لم يحكم بها حتى يقول: أشهد. فالشهادة مثل التيقن

(١) طاش السهم عن الهدف: جاز عنه ولم يصبه. وما في هذه الصفحة من البيت والمصراع مذكور في (جامع الشواهد).

في أنه ضرب من العلم مخصوص، وليس كل علم تيقناً، وإن كان كل تيقن علماً، فكان معنى أشهد أيها الحاكم على كذا: أعلمه علماً يحضرني. وقد تذلل لي فلا أتوقف فيه لوضوحه عندي وتبيّنه لي. وليس كذلك سبيل المعلومات كلها، ألا ترى أن منها ما يحتاج إلى توقف فيه واستدلال عليه.

وأما قوله: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ فمن الشهادة التي هي الحضور، كأنهم وُبِّخوا على أن قالوا ما لم يحضروه، مما حُكْمُه أن يعلم بالمشاهدة. ومن قال: «أَأُشْهِدوا خلقهم» فالمعنى: أأُحضروا ذلك، وكان الفعل متعدياً إلى مفعولين، فلما بني للمفعول به نقص مفعولاً فتعدى إلى مفعول واحد، ويقوي هذه القراءة: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ . وأما قوله: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ﴾ فحذف المفعول(١) الأول على حد: ضربني وضَرِبْتُ. وهذا منقول من شهد بكذا، إلا أن حرف الجر يحذف مع أنَّ وإنْ.

● **المعنى:** ثم أنكر سبحانه عليهم قولهم، فقال: ﴿أَمِ﴾ وهذا استفهام وتوبيخ، ومعناه: بل ﴿ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ أي: اتخذ ربكم لنفسه البنات ﴿وَأَصْفَىٰكُم﴾ أي: أخلصكم ﴿بِٱلْبَنِينَ﴾ وهذا كقوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾. ثم زاد في الاحتجاج عليهم بأن قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أي: بما جعل لله شبهاً، وذلك أن وَلَدَ كلّ شيء شبهه وجنسه، فالمعنى: إذا بُشّر أحدهم بولادة ابنة له ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ بما يلحقه من الغم بذلك ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مملوء كرباً وغيظاً. ثم وبَّخهم بما افتروه، فقال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي: أوَجعلوا من يُنشأ في الحلية، أي: في زينة النساء الله عز وجل، يعني البنات ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ﴾ يعني المخاصمة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ للحجة. قال قتادة: قلما تتكلم امرأة بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها، أي: لا يمكنها أن تبيِّن الحجة عند الخصومة لضعفها وسفهها.

وقيل معناه: أو تعبدون من يُنشأ في الحلية، ولا يمكنه أن ينطق بحجته ويعجز عن الجواب وهم الأصنام، فإنهم كانوا يُحَلونها بالحلي، عن ابن زيد. وإنما قال: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ﴾ ولم يقل: وهي، لأنه حمله على لفظ «مَنْ». ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ بأن زعموا أنهم بنات الله ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ هذا رد عليهم، أي: أَحَضَرُوا خلقهم حتى علموا أنهم إناث، وهذا كقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ . ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ بذلك ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها يوم القيامة ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾ أي: لو شاء الرحمٰن ألا نعبدهم ما عبدناهم، فإنما عبدناهم بمشيئة الله ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ﴾ أي: لا يعلمون صحة ما يقولون، هذا إشارة إلى بطلان قولهم لما لم يصدر عن دليل وعلم. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: ما هم إلا كاذبون. قال أبو حامد: كَذَّبَهُم الله تعالى لأنهم أنكروا التوحيد بإضافتهم الولد إليه سبحانه، وفارقوا العدل بإضافتهم الكفر إلى مشيئة الله تعالى.

● ● ●

(١) كذا في النسخ، والصواب مفعول الأول أي: مفعول الفعل الأول، وهو أُشهد الله، فإن جملة أني بريء ليست مفعولاً أولاً على أي تقدير.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ
ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن
نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ
أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾
فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر وحفص: «قال أولو» وقرأ الباقون: «قُل أولو»، وقرأ أبو جعفر: «جئناكم» والباقون: «جئتكم».

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: «قال» فالمعنى: قال لهم النذير: أولو جئتكم. ومن قرأ: «قل» فإنه يكون حكاية ما أُوحِيَ إلى النذير، كأنه أوحينا إليه فقلنا له: قل لهم: أولو جئتكم بأهدى من ذلك.

● **المعنى:** لما حكى الله سبحانه تخرّص مَنْ أضاف عبادة الأصنام والملائكة إلى مشيئة الله قال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ وهو استفهام بمعنى التقرير لهم على خطئهم، والتقدير: أهذا الذي ذكروه شيء تخرّصوه وافتعلوه أم آتيناهم كتاباً. ﴿مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي: مستمسكون بذلك، فإذا لم يمكنهم ادّعاء أنّ الله تعالى أنزل بذلك كتاباً، عُلم أن ذلك من تخرصهم، ودل «أم» على حذف حرف الاستفهام، لأن المعادلة له. ثم أعلم أنهم اتبعوا آباءهم في الضلالة، فقال: ليس الأمر كذلك ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: على ملة وطريقة، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي. وقيل: على جماعة، أي: كانوا مجتمعين موافقين على ما نحن عليه، عن الجبائي. ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ نهتدي بهداهم. ثم قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ما قال هؤلاء في الحوالة على تقليد آبائهم في الكفر ﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿فِى قَرْيَةٍ﴾ ومجمع من الناس ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي: نذيراً، لأن ﴿مِّن﴾ زائدة، ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ وهم المُتنعِّمون الذين آثروا الترفه على طلب الحجة، يريد الرؤساء، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ نقتدي بهم فلا نخالفهم، وأحال جميعهم على التقليد للآباء فحسب، دون الحجة، والتقليد قبيح في العقول، إذ لو كان جائزاً لكان يلزم في ذلك أن يكون الحق في الشيء ونقيضه، فكل فريق يقلّد أسلافه، مع أن كلًا منهم يعتقد أن من سواه على خطأ وضلال، وهذا باطل لا شبهة في بطلانه. فإذاً لا بد من الرجوع إلى حجة عقلية أو سمعية. ثم قال سبحانه للنذير: ﴿قَٰلَ﴾ لهم ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم ولا تقبلون ما جئتكم به؟ وفي هذا أحسن التلطف في الاستدعاء إلى الحق، وهو أنه لو كان ما يدّعونه حقاً وهدى، وكان ما جئتكم به من الحق أهدى منه، كان أوجب أن يُتبع ويرجع إليه. ثم أخبر أنهم أبَوْا أن يقبلوا ذلك و﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أيها الرسل ﴿كَٰفِرُونَ﴾. ثم ذكر سبحانه ما فعل بهم فقال: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بأن أهلكناهم وعجّلنا عقوبتهم، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ لأنبياء الله والجاحدين لهم. وفي هذا إشارة إلى أن العاقبة المحمودة تكون لأهل الحق والمصدِّقين لرسل الله.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

● **اللغة:** تقول العرب: أنا براء منك، ونحن براء منك، الذكر والأنثى والاثنان والجماعة فيه سواء. والمعنى: أنا ذو براء منك، كما قالوا: رجل عدل(١)، وقوم عدل، أي: ذو عدل(٢)، وذوو عدل.

● **المعنى:** ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ حين رآهم يعبدون الأصنام والكواكب ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ أي: بريء ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ثم استثنى خالقه من جملة ما كانوا يعبدونه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي: سِوَى اللهِ الذي خلقني وابتدأني، وتقديره: إلا مِن الذي فطرني. قال قتادة: كانوا يقولون: الله ربنا، مع عبادتهم الأوثان، ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ إلى طريق الجنة بلطف من ألطافه. وقيل: سيهدين إلى الحق بما نصب من الأدلة، وفيه بيان ثقته بالله تعالى، ودعاء لقومه إلى أن يطلبوا الهداية من عنده. ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي: جعل كلمة التوحيد، وهي قول: «لا إله إلا الله»، كلمة باقية في ذرية إبراهيم ونسله، فلم يزل فيهم من يقولها، عن قتادة ومجاهد والسدي. وقيل: جعل هذه الكلمة التي قالها إبراهيم، وهو براءة من الشرك، باقية في ولده من بعده. وقيل: الكلمة الباقية في عقبه هي الإمامة إلى يوم الدين، عن أبي عبد الله عليه السلام. واختلف في عقبه من هم؟ فقيل: ذريته وولده، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: ولده إلى يوم القيامة، عن الحسن. وقيل: هم آل محمد، عن السدي. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لعلهم يتوبون ويرجعون عما هم عليه إلى الاقتداء بأبيهم إبراهيم في توحيد الله تعالى، كما اقتدى الكفار بآبائهم، عن الفراء والحسن. وقيل: لعلهم يرجعون عما هم عليه إلى عبادة الله تعالى. ثم ذكر سبحانه نعمه على قريش فقال: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ المشركين بأنفسهم وأموالهم وأنواع النعم، ولم أعاجلهم بالعقوبة لكفرهم، ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن، عن السدي. وقيل: الآيات الدالة على الصدق. ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ يُبيِّن الحق ويظهره، وهو محمد صلى الله عليه وآله. ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ أي: حيلة خفية وتمويه ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون لكونه من قبل الله تعالى.

---

(١) [وامرأة عدل].

(٢) [وذات عدل].

● **النظم:** وجه اتّصال قصة إبراهيم عليه السلام بما قبلها، أنه سبحانه لمّا ذمّ التقليد، وأوجب اتّباع الحق والدليل، أتبعه بذكر إبراهيم الخليل، حيث اتبع الحجة وأوضح المحجة. وقيل: إنه سبحانه لما ذم التقليد وذكر أن الكفار أبَوْا إلا ذلك، ذكر أن تقليد إبراهيم أولى لأنهم من أولاده وذريته، ويَدَّعون أنهم على طريقته. وإنما اتصل قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بما تقدمه من ذكر إعراضهم عن الحجة وتعويلهم على التقليد. فبيَّن سبحانه أنهم أُتوا من قبل نفوسهم، فقد أُزِيحَتْ علتهم بأن أُمهِلُوا ومُتعوا، ثم جاءهم الحق فلم يؤمنوا.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر: «سَقفاً» بفتح السين، والباقون: «سُقُفاً» بضم السين والقاف. وقرأ عاصم وحمزة: «وإن كلّ ذلك لمّا» بتشديد الميم، والباقون: «لما» خفيفة الميم.

● **الحجة:** قال أبو علي: سقُف جمع سَقْف، مثل رَهْن ورهن، ويخفف فيقال: رُهْن وفُعل، في الجمع يخفف. وسَقف واحد يدل على الجمع، ألا ترى أنه عُلم بقوله: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ أي: لكل بيت سَقفاً. ومن شدد «لمّا» كانت إنْ عنده بمنزلة ما النافية. فالمعنى: ما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا. ولمّا في معنى إلا. حكى سيبويه: نشدتك الله لمّا فعلت، وحمله على إلا. وهذه الآية تدل على فساد قول من قال: إن قوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ إن المعنى: لمنْ هو جميع لدينا حاضرون. وزعموا أن في حرف أُبَيّ: وما ذلك إلا متاع الحياة الدنيا. ومن قرأ: «لما» بالتخفيف، فإنّ إنْ في قوله: ﴿وَإِن كُلُّ﴾ هي المخففة من الثقيلة. واللام فيها هي التي تدخل لتفصل بين النفي والإيجاب في قوله:

هبلتك أمك إن قتلت لفارساً

ومن نصب بها مخففة فقال: إنْ زيداً لمنطلق، استغنى عن هذه اللام، لأن النافية لا ينتصب بعدها اسم فلا يقع اللبس، و«ما» فيه زيادة. والمعنى: وإنّ كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا.

● **اللغة:** المعارج: الدرج، واحدها مِعْرج، والعروج: الصعود. وظهر عليه: إذا علاه وصعده. قال النابغة الجعدي:

بلغنا السماء مجدَنا وجُدُودَنا   وإنا لنرجو فوق ذلك مَظهرا[1]

والسُّرر: جمع سرير، ويجمع على أسرة أيضاً. والزخرف: كمال حسن الشيء، ومنه قيل للذهب: زخرف، ويقال: زخْرفه زخْرفة: إذا حسَّنه وزيَّنه، ومنه قيل للنقوش والتصاوير: زخرف. وفي الحديث أنه ﷺ لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فنُحّيَ.

● **المعنى:** ﴿وَقَالُوا﴾ أي: وقال هؤلاء الكفار ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ يعنون بالقريتين مكة والطائف. وتقدير الآية: على رجل عظيم من القريتين، أي: من إحدى القريتين، فحذف المضاف، ويعنون بالرجل العظيم من إحدى القريتين: الوليد بن المغيرة من مكة، وأبا مسعود عروة بن مسعود الثقفي من الطائف، عن قتادة. وقيل: عتبة بن أبي ربيعة من مكة، وابن عبد يا ليل من الطائف، عن مجاهد. وقيل: الوليد بن المغيرة من مكة، وحبيب بن عمر الثقفي من الطائف، عن ابن عباس. وإنما قالوا ذلك لأن الرجلين كانا عظيمي قومهما، وذوي الأموال الجسيمة فيهما، فدخلت الشبهة عليهم، حتى اعتقدوا أن من كان كذلك كان أولى بالنبوة، فقال سبحانه رداً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يعني النبوة بين الخلق. بيَّن سبحانه أنه هو الذي يقسم النبوة لا غيره. والمعنى: أبأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاءوا، عن مقاتل. ثم قال سبحانه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: نحن قسمنا الرزق في المعيشة على حسب ما علمناه من مصالح عبادنا، فليس لأحد أن يتحكم في شيء من ذلك، فكما فضَّلنا بعضهم على بعض في الرزق، فكذلك اصطفينا للرسالة من نشاء. وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ معناه: أفقرنا البعض وأغنينا البعض، فتلقى ضعيف الحيلة عييّ اللسان وهو مبسوط له، وتلقى شديد الحيلة بسيط اللسان وهو مُقترٌ عليه، ولم نُفوِّض ذلك إليهم مع قلة خطره، بل جعلناه على ما توجبه الحكمة والمصلحة، فكيف نفوض اختيار النبوة إليهم مع عظم محلها وشرف قدرها. وقوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ معناه: إن الوجه في اختلاف الرزق بين العباد، في الضيق والسعة، زيادة على ما فيه من المصلحة، أن في ذلك تسخيراً من بعض العباد لبعض، بإحواجهم إليهم، يستخدم بعضهم بعضاً، فينتفع أحدهم بعمل الآخر له، فينتظم بذلك قوام أمر العالم. وقيل معناه: ليملك بعضهم بعضاً بمالهم، فيتخذونهم عبيداً ومماليك، عن قتادة والضحاك. ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: ورحمة الله سبحانه ونعمته من الثواب والجنة خير مما يجمعه هؤلاء من حطام الدنيا. وقيل معناه: والنبوة لك من ربك خير مما يجمعونه من الأموال، عن ابن عباس.

ثم أخبر سبحانه عن هوان الدنيا عليه، وقلة مقدارها عنده، فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: لولا أن يجتمع الناس على الكفر، فيكونوا كلهم كفاراً على دين واحد، لميلهم إلى الدنيا وحرصهم عليها، عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدي. وقيل معناه: ولولا

(١) جدود جمع جد: وهو بمعنى الحظ والبخت والعظمة. «ومجدنا وجدودنا»: إمّا منصوبان مفعولان له لقوله: «بلغنا»، وإما مرفوعان يدلان عن ضمير «بلغنا».

أن يجتمع الناس على اختيار الدنيا على الدين، عن ابن زيد. ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ قوله: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل من قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ والمعنى: لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمٰن سقفاً من فضة، فالسقف إذا كان من فضة فالحيطان من فضة. وقيل: إن اللام الثانية بمعنى على، فكأنه قال: لجعلنا لمن يكفر بالرحمٰن على بيوتهم سقفاً من فضة. وقال مجاهد: ما يكون من السماء فهو سَقف ـ بالفتح ـ وما يكون من البيت فهو سُقُف ـ بضمتين ـ ومنه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾. ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: وجعلنا درجاً وسلاليم من فضة لتلك السقف، عليها يعلون ويصعدون. ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا﴾ أي: وجعلنا لبيوتهم أبواباً وسرراً من فضة ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على تلك السرور ﴿يَتَّكِئُونَ﴾، ﴿وَزُخْرُفًا﴾ أي: ذهباً، عن ابن عباس والضحاك وقتادة. وهو منصوب بفعل مضمر، أي: وجعلنا لهم مع ذلك ذهباً. وقيل: الزخرف: النقوش، عن الحسن. وقيل: هو الفرش ومتاع البيت، عن ابن زيد. والمعنى: لأُعطِي الكافر في الدنيا غاية ما يتمناه فيها لقلتها وحقارتها عنده، ولكنه سبحانه لم يفعل ذلك لما فيه من المفسدة. ثم أخبر سبحانه أن جميع ذلك إنما يتمتع به في الدنيا، فقال: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقد مر بيانه. ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ أي: الجنة الباقية ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ خاصة لهم. قال الحسن: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها وما فعل سبحانه ذلك، فكيف لو فعله؟ وفي هذه الآية[1] دلالة على اللطف، وأنه تعالى لا يفعل المفسدة وما يدعو إلى الكفر، وإذا لم يفعل ما يؤدي إلى الكفر فلأن لا يفعل الكفر ولا يريده أولى.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ عاصم في رواية حماد ويعقوب: «يقيِّض» بالياء، والباقون: «نُقيِّض» بالنون. وقرأ أهل العراق غير أبي بكر: «حتى إذا جاءنا» على الواحد، والباقون: «جاءانا» على الاثنين.

● **الحجة:** من قرأ: «يقيض» بالياء، فالضمير يعود إلى «الرحمٰن». ومن قرأ بالنون فالمعنى على ذلك، لكنه سبحانه أخبر عن نفسه بنون العظمة. ومن قرأ: «وجاءانا» على التثنية فهو الكافر وقرينه، ومن قرأ: «جاءنا» فهو الكافر لأنه أُفرد بالخطاب في الدنيا، وأُقيمَتْ عليه

---

(١) وفي المخطوطة: هذه الآيات.

الحجة بإنفاذ الرسول إليه، فاجتزىء بالواحد على الاثنين، كما قال: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ والمراد: لينبذن هو وماله.

● **اللغة:** العشو: أصله النظر ببصر ضعيف، يقال: عشا يعشو عَشواً وعُشوّاً: إذا ضعف بصره وأظلمت عينه، كأن عليها غشاوة. وقال الأعشى:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد خيرَ نارٍ عندَها خيرُ مُوقِدِ

وإذا ذهب البصر قيل: عَشِي يعشى عشاً، والرجل أعشى. وقرأ في الشواذ: «ومن يعشَ» بفتح الشين، ومعناه: يَعْمَ، ويقال: عشا إلى النار: إذا أتاها وقصد لها. وعشا عنها: إذا أعرض عنها قاصداً لغيرها، كقولهم: مال إليه ومال عنه. والتقييض: الإتاحة. الأزهري: قيَّض الله فلاناً لفلان: جاء به.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر الوعد للمتقين، عقَّبه بذكر الوعيد لمن هو على ضد صفتهم، فقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: يعرض عنه، عن قتادة والسدي. وقيل معناه: ومن يَعْمَ عنه، عن ابن عباس وابن زيد. قال الجبائي: شبههم بالأعمى لمَّا لم يبصروا الحق. والذكر: هو القرآن. وقيل: هو الآيات والأدلة. ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أي: نخلِّ بينه وبين الشيطان الذي يغويه ويدعوه إلى الضلالة، فيصير قرينه عوضاً عن ذكر الله، عن الحسن وأبي مسلم. قال الحسن: وهو الخذلان عقوبة له عن الإعراض، حين علم أنه لا يفلح. وقيل معناه: نُقْرن به شيطاناً في الآخرة يلزمه فيذهب به إلى النار، كما أن المؤمن يُقْرَن به ملك فلا يفارقه حتى يصير به إلى الجنة، عن قتادة. وقيل: أراد به شياطين الإنس، نحو: علماء السوء، ورؤساء الضلالة، يصدّونهم عن سبيل الله فيتبعونهم. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ يعني وإن الشياطين، وإنما جمع لأن قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ في مذهب جمع، وإن كان اللفظ على الواحد ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي: يصرفون هؤلاء الكفار ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق الجنة[1] ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: ويحسب الكفار أنهم على الهدى فيتبعونهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَانَا﴾ من قرأ على التثنية، فالمعنى: جاءنا الشيطان ومن أغواه يوم القيامة، الذي يتولى سبحانه حساب الخلق فيه. ومن قرأ على التوحيد، فالمعنى: حتى إذا جاءنا الكافر وعلم ما يستحقه من العقاب، ﴿قَالَ﴾ في ذلك الوقت لقرينه الذي أغواه ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ يعني المشرق والمغرب، فغلب أحدهما، كما قال الشاعر:

أخذنا بآفاقِ السماءِ عليكُمُ   لنا قَمَراها والنجومُ الطوالِعُ

يعني: الشمس والقمر. وقيل: يعني محمداً ﷺ، وإبراهيم عليه السلام. وقيل: أراد بالمشرقين: مشرق الشتاء ومشرق الصيف، كما في قوله: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾. والمراد: يا ليت بيني وبينك هذا البعد مسافة، فلم أرك ولا اغتررت بك. ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ كنت لي في الدنيا حيث أضللتني وأوردتني النار، وبئس القرين أنت لي اليوم، فإنهما يكونان مشدودين في سلسلة واحدة زيادة عقوبة وغم، عن ابن عباس. ويقول الله سبحانه في ذلك اليوم للكفار: ﴿وَلَن

(١) وفي نسخة: طريق الحق.

يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ أي: لا يُخَفِّفُ الاشتراك عنكم شيئاً من العذاب، لأن لكل واحد من الكفار والشياطين الحظ الأوفر من العذاب. وقيل: معناه أنه لا تسلِّي لهم عما هم فيه بما يرونه بغيرهم من العذاب، لأنه قد يتسلى الإنسان عن المحنة إذا رأى أن عدوه في مثلها.

ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ شبَّه الكفار في عدم انتفاعهم بما يسمعونه ويرونه بالصُّم والعمي. ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي: بيّن ظاهر مضاف[(١)]، معناه: فلا يضيقنَّ صدرك فإنك لا تقدر على إكراههم على الإيمان.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

● **الإعراب:** لما دخل «ما» على حرف الشرط، أشبه القسم في التأكيد والإيذان بطلب التصديق، فدخلت النون في الكلام لذلك، لأن النون يلزم في جواب القسم، ولا يلزم في الجزاء، لأنه مشبَّه به.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ، فقال: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أي: فإما نتوفينك فإنا منهم منتقمون من أمّتك بعدك. ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾ معناه: أو نبقينّك ونرينّك في حياتك ما وعدناهم من العذاب، ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ أي: قادرون على الانتقام منهم، وعقوبتهم في حياتك وبعد وفاتك. قال الحسن وقتادة: إن الله أكرم نبيه ﷺ بأن لم يُرِهْ تلك النقمة، ولم ير في أمته إلا ما قرَّت به عينه، وقد كان بعده نقمة شديدة. وقد روي أنه ﷺ أُرِي ما تلقى أمته بعده، فما زال منقبضاً ولم ينبسط ضاحكاً حتى لقي الله تعالى. وروى جابر بن عبد الله الأنصاري قال: إني لأدناهم من رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى، حتى قال: «لا ألفينَّكم ترجعون بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، وأيم الله لئن فعلتموها لتعرفنني في الكتيبة التي تضاربكم». ثم التفت إلى خلفه فقال: «أو عليٌّ أو علي»، ثلاث مرات، فرأينا أن جبرائيل غمزه فأنزل الله على أثر ذلك ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أي: بعلي بن أبي طالب عليه السلام: وقيل: إن النبي ﷺ أُرِي الانتقام منهم، وهو ما كان من نقمة الله من المشركين يوم بدر بعد أن أخرجوه من مكة، فقد أسر منهم وقتل مع قلة أصحابه وضعف مُنَّتِهِم[(٢)]، وكثرة الكفار وشدة شوكتهم.

---

(١) ليس في نسختين: لفظة مضاف.

(٢) المنة بالضم: القوة، وبمعنى الضعف أيضاً، فهي من الأضداد.

ثم أمره سبحانه بالتمسك بالقرآن، فقال: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ﴾ من القرآن بأن تتلوه حق تلاوته، وتتبع أوامره وتنتهي عما نهي فيه عنه. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على دين حق وصواب، وهو دين الإسلام ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: وإن القرآن الذي أوحي إليك لشرف لك ولقومك من قريش، عن ابن عباس والسدي. وقيل: «لقومك» أي: للعرب، لأن القرآن نزل بلغتهم، ثم يختص بذلك الشرف الأخص من العرب، حتى يكون الشرف لقريش أكثر من غيرهم، ثم لبني هاشم أكثر مما يكون لقريش. ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عن شكر ما جعله الله لكم من الشرف، عن الكلبي والزجاج وغيرهما. وقيل: تسألون عن القرآن، وعما يلزمكم من القيام بحقه. ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ معناه: سل مؤمني أهل الكتاب الذين أرسلنا إليهم الرسل هل جاءتهم الرسل إلا بالتوحيد، وهو قول أكثر المفسرين. والتقدير: سل أمم من أرسلنا أو أتباع من أرسلنا، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. وقيل: إن المراد: سل أهل الكتابين التوراة والإنجيل، وإن كانوا كفاراً، فإن الحجة تقوم بتواتر خبرهم، والخطاب وإن توجه إلى النبي ﷺ، فالمراد به الأمة، أي: سلوا من ذكرنا. ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أي: هل جعلنا فيما مضى معبوداً سوى الله يعبده قوم، فإنهم يقولون: إنا لم نأمرهم بذلك ولا تعبّدناهم. وقيل معناه: وسَلِ الأنبياء وهم الذين جمعوا له ليلة الإسراء، وكانوا تسعين نبياً منهم موسى وعيسى، ولم يسألهم ﷺ، لأنه كان أعلم بالله منهم، عن الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حفص ويعقوب وسهل: «أسورة» والباقون: «أساورة».

● **الحجة:** الأسورة: جمع سوار، مثل سقاء وأسقية، وخوان وأخونة. ومن قرأ: «أساورة» جعله جمع أسوار، فيكون الهاء عوضاً عن الياء التي كانت ينبغي أن تلحق في جمع

أسوار، على حد أعصار وأعاصير. ويجوز في «أساورة» أن يكون جمع أسورة، فيكون مثل: أسقية وأساق، ولحق الهاء كما في: قشعم وقشاعمة[١].

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه حديث موسى عليه السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بالحجج الباهرة، والمعجزات القاهرة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾ أي: أشراف قومه. وخصّ الملأ بالذكر وإن كان أيضاً مرسلًا إلى غيرهم، لأن من عداهم تبع لهم. ﴿فَقَالَ﴾ موسى ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرسلني إليكم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا﴾ أي: فلما أظهر المعجزات التي هي: اليد البيضاء والعصا، ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء واستخفافاً وجهلًا منهم بما عليهم من ترك النظر فيها، وبما لهم من النفع بحصول العلم بها. ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ المراد بذلك ما ترادف عليهم من الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمس، وكانت كل آية من هذه الآيات أكبر من التي قبلها، وهي العذاب المذكور في قوله: ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأنهم عُذِّبوا بهذه الآيات، وكانت عذاباً لهم ومعجزات لموسى عليه السلام، فغلب عليهم الشقاء، ولم يؤمنوا. ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾ يعنون بذلك: يا أيها العالم، وكان الساحر عندهم عظيماً يعظِّمونه، ولم يكن صفة ذم، عن الكلبي والجبائي. وقيل: إنما قالوا استهزاء بموسى عليه السلام، عن الحسن. وقيل معناه: يا أيها الذي غلبنا بسحره. تقول العرب: خاصمته فخصَمته، وحاججته فحججته، فكذلك ساحرته[٢]، وأرادوا أنه غالب السحرة فغلبهم بسحره. ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما زعمت أنه عهد عندك، وهو أنه ضمِن لنا أنّا إذا آمنّا بك أن يكشف العذاب عنا. ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي: راجعون إلى الحق الذي تدعونا إليه متى كشف عنا العذاب. وفي الكلام حذف، لأن التقدير: فدعا موسى وسأل ربه أن يكشف عنهم ذلك العذاب، فكشف الله عنهم ذلك. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي: يغدرون وينقضون العهد. وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وآله، والمعنى: فاصبر يا محمد على أذى قومك، فإن حالك معهم كحال موسى مع قومه، فيؤول أمرك إلى الاستعلاء على قومك، كما آل أمره إلى ذلك. ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ معناه: إنه لما رأى أمر موسى يزيد على الأيام ظهوراً واعتلاء، خاف على مملكته، فأظهر الخداع فخطب الناس بعدما اجتمعوا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ أتصرف فيها كما أشاء، أراد بذلك إظهار بسطته في الملك والمال. ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ مثل النيل وغيرها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي: من تحت أمري. وقيل: إنها كانت تجري تحت قصره وهو مشرف عليها. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا الملك العظيم، وقوّتي وضعف موسى. ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ أي: ضعيف حقير، يعني به موسى. قال سيبويه والخليل: عطف أنا بأم على قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأنَّ معنى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ معنى: «أم تبصرون»، فكأنه قال: أفلا تبصرون أم تبصرون، لأنهم إذا قالوا له: أنت خير منه، فقد صاروا بصراء عنده. وقيل: المهين: الفقير الذي يمتهن نفسه في جميع ما يحتاج إليه، ليس له من يكفيه أمره. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: ولا يكاد يفصح بكلامه وحججه للعقدة التي في

(١) القَشعَم: المُسن من الرجال، والنسور، والضخم، والأسد.
(٢) [فسحرته].

لسانه. وقال الحسن: كانت العقدة زالت عن لسانه حين أرسله الله، كما قال مخبراً عن نفسه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ ثم قال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾. وإنما عيّره بما كان في لسانه قبل. وقيل: كان في لسانه لثغة[١]، فرفعه[٢] الله تعالى، وبقي فيه ثقل، عن الجبائي. ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: هلا طرح عليه أسورة من ذهب إن كان صادقاً في نبوّته، وكان إذا سوَّدوا رجلًا سوّروه بسوار من ذهب، وطوّقوه بطوق من ذهب. ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ متتابعين يعينون على أمره الذي بعث به، ويشهدون له بصدقه. وقيل: متعاضدين متناصرين، كل واحد منهم يمالىء صاحبه، ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ ومعناه: إن فرعون استخف عقول قومه ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه، لأنه احتج عليهم بما ليس بدليل، وهو قوله: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ إلى آخره. ولو عقلوا لقالوا: ليس في ملك الإنسان دلالة على أنه مُحق، وليس يجب أن يأتي مع الرسل ملائكة، لأن الذي يدل على صدق الرسل هو المعجز دون غيره. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله تعالى.

● **النظم:** وجه اتصال قصة موسى عليه السلام بما قبلها، أنه لما تقدَّم السؤال عن أحوال الرسل وما جاءوا به، اتصل به حديث موسى وعيسى عليهما السلام، لأن أهل الكتابين إليهما ينتسبون. وقيل: إنه لما تقدم ذكر محمد صلى الله عليه وآله، وتكذيب قومه إياه، ذكر حديث موسى تسلية له وتطييباً لقلبه صلى الله عليه وآله.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة والكسائي: «سُلُفاً» بضم السين واللام، وقرأ الباقون بفتحهما. وقرأ أهل المدينة وابن عامر والأعشى والبرجمي والكسائي وخلف: «يصدون» بضم الصاد، والباقون بكسر الصاد.

● **الحجة:** من قرأ: «سُلُفاً» جاز أن يكون جمعاً لسَلَف، مثل: أَسَد وأُسُد، ووَثَن ووُثُن. ومن قرأ: «سَلفاً» فلأن فعلاً قد جاء في حروف يراد بها الكثرة، فكأنه اسم من أسماء الجمع، قالوا: خادم وخَدَم، وطالب وطَلَب، وحارس وحَرَس. وكذلك المثل واحد يراد به

---

(١) اللثغة: ثقل اللسان بالكلام. تحوّل اللسان من السين إلى الثاء، أو من الراء إلى الغين، أو من حرف إلى حرف.
(٢) كذا في النسخ. ولعل تذكير الضمير باعتبار الثقل.

الجمع، ولذلك عطف على سلف في قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا﴾ ومعنى: «يصُدُّون، ويصِدُّون» جميعاً: يضجون، عن أبي عبيدة. قال: والكسر أجود، ويقال: صد عن كذا فيوصل بعن، كما قال الشاعر:

صَـدَدْتِ الـكـأسَ عَـنَّـا أمَّ عَـمـرو وكـان الـكـأسُ مَـجـراها الـيَـمـيـنـا[1]

و«صدُّوا عن سبيل الله». فمن ذهب في «يصدُّون» إلى معنى يعدلون، كان المعنى: إذا قومك منه، أي: من أجل المثل يصدون، ولم يوصل يصدون بعن. ومن قال: «يصِدُّون» يضجون، جعل مِن متصلة بيضجُّ، كما تقول: يضجُّ كم كذا. وقال بعض المفسرين: معنى يصِدُّون: يضجون، والمعنى أنه لما نزل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية، لأنها اتخذت آلهة وعبدت، فعيسى في حكمهم قال: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ﴾ في هذا الذي قالوه منه يضحكون لما أتوا به من عندهم، من تسويتهم بين عيسى وبين آلهتهم، وما ضربوه إلا إرادة للمجادلة، لأنهم قد علموا أن المراد بحصب جهنم ما اتخذوا من الموات.

● **اللغة:** يقال: آسفه فأسف يأسف أسفاً، أي: أغضبه فغضب، وأحزنه فحزن. ويقال: الأسف: الغيظ من المغتم، إلا أنه هاهنا بمعنى الغضب. والسلف: المُتقدِّم على غيره قبل مجيء وقته، ومنه السلف في البيع، والسلف: نقيض الخلف. والجدل: مقابلة الحجة بالحجة. وقيل: الجدل اللدد في الخصام، وأصله من جذل الحبل وهو شدَّة قتله، ورجل مجدول الخلق، أي: شديده. وقيل: أصله من الجدالة، وهي الأرض، كأن كل واحد من الخصمين يروم إلقاء صاحبه على الجدالة.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن انتقامه من فرعون وقومه، فقال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا، عن ابن عباس ومجاهد. وغضب الله سبحانه على العصاة إرادة عقوبتهم، ورضاه عن المطيعين إرادة ثوابهم الذي يستحقونه على طاعتهم. وقيل معناه: آسفوا رسلنا، لأن الأسف بمعنى الحزن لا يجوز على الله سبحانه. ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: انتقمنا لأوليائنا منهم ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ما نجا منهم أحد: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ أي: مُتقدِّمين إلى النار ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: عبرة وموعظة ﴿لِّلْءَاخِرِينَ﴾ أي: لمن جاء بعدهم يتعظون بهم. والمعنى: إن حال غيرهم يشبه حالهم إذا أقاموا على العصيان. ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ اختلف في المراد به على وجوه:

أحدها: إن معناه: ولما وصف ابن مريم شبهاً في العذاب بالآلهة، أي: فيما قالوه على زعمهم، وذلك أنه لما نزل قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾. قال المشركون: «قد رضينا بأن تكون آلهتنا حيث يكون عيسى» وذلك قوله: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي: يضجون ضجيج المجادلة حيث خاصموك، وهو قوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ

---

(١) أي: عملت يا أُم عمرو خلاف العادة، ولم تجريها على العادة. وكانت العادة في الكأس أن تدار في مجلس الشرب من جانب اليمين إلى اليسار. وفي أصل الديوان صِبَيْت، وهو أيضاً بمعنى صرفت.

هُوَۚ﴾ أي: ليست آلهتنا خيراً من عيسى، فإن كان عيسى في النار بأنه يُعبد من دون الله، فكذلك آلهتنا، عن ابن عباس ومقاتل.

وثانيها: إن معناه: لما ضرب الله المسيح مثلًا بآدم في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ أي: من قدر على أن ينشئ آدم من غير أب وأم، قادر على إنشاء المسيح من غير أب، اعترض على النبي ﷺ بذلك قوم من كفار قريش، فنزلت هذه الآية.

وثالثها: إن معناه: إن النبي ﷺ لما مدح المسيح وأمه، وأنه كآدم في الخاصّيّة، قالوا: إن محمداً يريد أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى، عن قتادة.

ورابعها: ما رواه سادة أهل البيت عن علي، عليهم أفضل الصلوات، أنه قال: جئت إلى رسول الله ﷺ يوماً فوجدته في ملأ من قريش، فنظر إليّ ثم قال: «يا علي، إنما مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى بن مريم، أحبه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا، وأبغضه قوم فأفرطوا في بغضه فهلكوا، واقتصد فيه قوم فنجوْا». فعظم ذلك عليهم فضحكوا، وقالوا: يشبهه بالأنبياء والرسل، فنزلت الآية ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ أي: آلهتنا أفضل أم المسيح، فإذا كان المسيح في النار رضينا أن تكون آلهتنا معه، عن السدي وابن زيد.

وقيل معناه: إن آلهتنا خير من المسيح، فإذا عبد المسيح جاز أن تعبد آلهتنا، عن الجبائي.

وقيل: هو كناية عن محمد ﷺ، والمعنى: آلهتنا خير من محمد ﷺ، وهو يأمرنا بأن نعبده كما عبد النصارى المسيح، ونطيعه ونترك آلهتنا، عن قتادة. وقال علي بن عيسى: معنى سؤالهم بقولهم ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ أنهم ألزموا ما لا يلزم على ظن منهم وتوَهُّم، كأنهم قالوا: ومثلنا فيما نعبد، مثل ما يعبد المسيح، فأيما خيرٌ عبادة آلهتنا أم عبادة المسيح، على أنه إن قال: عبادة المسيح؟ أقر بعبادة غير الله، وكذلك إن قال: عبادة الأوثان. وإن قال: ليس في عبادة المسيح خير قصَّر به عن المنزلة التي أبين لأجلها من سائر العباد. وجوابهم عن ذلك أن اختصاص المسيح بضرب من التشريف والإنعام عليه لا يوجب العبادة له، كما لا يوجب أن ينعم عليه بأعلى مراتب النعمة.

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾ أي: ما ضربوا هذا المثل لك إلا ليجادلوا به ويخاصموك ويدفعوك به عن الحق، لأن المتجادلَين لا بد أن يكون أحدهما مبطلًا، بخلاف المتناظرَيْن، لأن المناظرة قد تكون بين المحقين. ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: جدلون في دفع الحق بالباطل.

ثم وصف سبحانه المسيح، فقال: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي: ما هو إلا عبد أنعمنا عليه بالخلق من غير أب، وبالنبوة. ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: آية لهم ودلالة يعرفون بها قدرة الله تعالى على ما يريد، حيث خلقه من غير أب فهو مثل لهم يشبّهون به ما يرون من أعاجيب صنع الله. ثم قال سبحانه دالًا على كمال قدرته، وعلى أنه لا يفعل إلا الأصلح: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم﴾ أي: بدلًا منكم معاشر بني آدم ﴿مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾ بني

آدم، أي: يكونون خلفاء منهم. والمعنى: لو نشاء أهلكناكم وجعلنا الملائكة بدلكم سكان الأرض يعمرونها ويعبدون الله، ومثل قوله ﴿مِنكُم﴾ في الآية ما في قول الشاعر:

فليت لنا مِن ماءِ زمزم شَربةً مبرَّدةً باتتْ على الطَّهيان[1]

وقيل معناه: ولو نشاء لجعلناكم أيها البشر ملائكة، فيكون من باب التجريد، وفيه إشارة إلى قدرته على تغيير بنية البشر إلى بنية الملائكة. ﴿يَخْلُفُونَ﴾ أي: يخلف بعضهم بعضاً.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة ابن عباس وقتادة والضحاك: «وإنه لعَلَم» بفتح العين واللام، أي: إمارة وعلامة.

● **المعنى:** ثم رجع سبحانه إلى ذكر عيسى عليه السلام، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ يعني: إن نزول عيسى عليه السلام من أشراط الساعة، يعلم به قربها. ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: بالساعة، فلا تكذبوا بها، ولا تشكّوا فيها، عن ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك والسدّي. وقال ابن جريج: أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ينزل[2] عيسى بن مريم فيقول أميرهم: تعال صلِّ بنا. فيقول: لا إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة من الله لهذه الأمة». أورده مسلم في الصحيح. وفي حديث آخر: «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم». وقيل: إن الهاء في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعود إلى القرآن، ومعناه: إن القرآن لدلالة على قيام الساعة والبعث يعلم به ذلك، عن الحسن. وقيل معناه: إن القرآن لدليل الساعة، لأنه آخر الكتب، أُنزِلَ على آخر الأنبياء، عن أبي مسلم. وقوله: ﴿وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ معناه: واتبعوني فيما آمركم به، هذا الذي أنا عليه طريق واضح قيِّم. ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: ولا يصرفنكم الشيطان بوساوسه عن دين الله ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بيِّن العداوة يدعوكم إلى الضلال الذي هو سبب هلاككم.

ثم أخبر سبحانه عن حال عيسى عليه السلام حين بعثه الله نبياً، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾

---

(١) الطَّهيان: قُلّة الجبل. يتمنى أن يكون لهم بدلًا من ماء زمزم شربة ماء، وضعت على قلة الجبل، فصارت باردة شديداً.

(٢) وفي الحجري بدل ينزل: «كيف بكم إذا نزل».

أي: بالمعجزات الدالة على نبوته. وقيل: بالإنجيل، عن قتادة. ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ أي: بالنبوة، عن عطاء. وقيل: بالعلم بالتوحيد والعدل والشرائع. ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قيل: إن المعنى: كل الذي تختلفون فيه، كقول لبيد:

أو يَخْتَرِمْ بعضَ النُّفوسِ حِمَامُها[1]

أي: كل النفوس، وقول القطامي:

قد يُدْرِكُ المتأنّي بعضَ حاجَتِهِ وقد يكونُ من المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

أي: كل حاجته، عن أبي عبيدة. قال الزجاج: والصحيح أن البعض لا يكون في معنى الكل، والذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه، وبيَّن لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه، وقول الشاعر:

أو تخترم بعض النفوس حمامها

إنما يعني نفسه. وقيل معناه: لأبيِّن لكم ما تختلفون فيه من أمور الدين دون أمور الدنيا. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بأن تجتنبوا معاصيه وتعملوا بالطاعات ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ الذي تحق له العبادة ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ خالصاً ولا تشركوا به شيئاً[2]، ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ يفضي بكم إلى الجنة وثواب الله. ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ يعني اليهود والنصارى في أمر عيسى. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ قد مر تفسير الآية في سورة مريم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص: «ما تشتهيه الأنفس» بزيادة الهاء، والباقون: «تشتهي الأنفس» بحذف الهاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: حذف هذه الهاء من الصلة في الحسن كإثباتها، إلا أن الحذف

---

(١) أوّله: «تراك أمكنةٍ إذا لم أرضها». أي: إني أترك أمكنة إذا لم أرضها إلا أن يأخذ الموت نفسي، فلا يمكنها البراح.
(٢) وفي المخطوطة والحجري: «شيئاً معبوداً».

يرجّح على الإثبات، بأن عامة هذا النحو في التنزيل جاء على الحذف، نحو قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ ويقوي الحذف من جهة القياس أنه اسم قد طال. والأسماء إذا طالت فقد يحذف منها كما يحذف في: اشهيباب واحميرار، وكما حذفوا من كينونة، فكما ألزموا الحذف لهذا، كذلك حسن أن تحذف الهاء من الصلة.

● **اللغة:** الحبور: السرور الذي يظهر في الوجه أثره، وحبَّرته أي: حسنته، والحبر: الأثر. والصحاف: جمع صحفة، وهي الجام الذي يؤكل فيه الطعام. والأكواب: جمع كوب، وهي إناء على صورة الإبريق لا أذن له ولا خرطوم. وقيل: إنه كالكأس للشراب. قال الأعشى:

صَرِيفِيَّةٌ[1] طَيِّبٌ طعمُها لها زَبَدٌ بين كُوبٍ ودَنّْ

● **المعنى:** قال سبحانه موبِّخاً لهم: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: هل ينتظر هؤلاء الكفار بعد ورود الرسل والقرآن ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يدرون وقت مجيئها. ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ومعناه: إن الذين تخالوْا وتواصلوا في الدنيا، يكون بعضهم أعداء لبعض ذلك اليوم، يعني يوم القيامة، وهم الذين تخالوا على الكفار والمعصية ومخالفة النبي ﷺ، لما يرى كل واحد منهم من العذاب بسبب تلك المصادقة. ثم استثنى من جملة الأخلاء المتَّقين، فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من المؤمنين الموحِّدين الذين خالَّ بعضهم بعضاً على الإيمان والتقوى، فإن تلك الخِلَّة تتأكد بينهم يوم القيامة، ولا تنقلب عداوة. ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: يقال لهم وقت الخوف: يا عبادي! لا خوف عليكم من العذاب اليوم. ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ من فوت الثواب. ثم وصف سبحانه عباده وميزهم من غيرهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: صدَّقوا بحججنا ودلائلنا واتبعوها ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ أي: مستسلمين لأمرنا خاضعين منقادين. و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في محل النصب على البدل من ﴿عِبَادِ﴾ والصفة له.

ثم بيَّن سبحانه ما يقال لهم بقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ اللاتي كن مؤمنات مثلكم. وقيل: يعني أزواجكم من الحور العين في الجنة ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي: تسرون وتكرمون، وقد مر تفسيره في سورة الروم. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾ أي: بقصاع ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾ فيها ألوان الأطعمة ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أي: كيزان لا عرى لها. وقيل: بآنية مستديرة الرأس. اكتفى سبحانه بذكر الصحاف والأكواب عن ذكر الطعام والشراب. ﴿وَفِيهَا﴾ أي: وفي الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ من أنواع النعيم المشروبة والمطعومة والملبوسة والمشمومة وغيرها، ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أي: وما تلذ العيون بالنظر إليه، وإنما أضاف الالتذاذ إلى الأعين، وإنما الملتذ على الحقيقة هو الإنسان، لأن المناظر الحسنة سبب من أسباب اللذة، فإضافة اللذة إلى الموضع الذي يلذ الإنسان به

---

(١) الصريفية: الخمر المنسوبة إلى صريفون، وهي قرية عند عكبراء، أو منسوب إلى صريفة: قرية بواسط - كما قيل - أو لأنها أخذت من الدن ساعتئذ، كاللبن الحار ساعة يصرف عن الضرع.

أحسن، لما في ذلك من البيان مع الإيجاز. وقد جمع الله سبحانه بقوله: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ ما لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما في الجنة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان الصفتان. ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة وأنواع من الملاذ ﴿خَٰلِدُونَ﴾ أي: دائمون مؤبَّدون. ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أعطيتموها بأعمالكم. قال ابن عباس: الكافر يرث نار المؤمن، والمؤمن يرث جنة الكافر، وهذا كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾. ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ جمع لهم بين الطعام والشراب والفواكه وبين دوام ذلك، فهذه غاية الأمنية. ثم أخبر سبحانه عن أحوال أهل النار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ دائمون ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ العذاب، أي: لا يُخفَّفُ عنهم ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وأهل الكوفة غير عاصم إلا يحيى وروح عن يعقوب: «وإليه يرجعون» بالياء، والباقون: بالتاء. وفي الشواذ قراءة ابن مسعود ويحيى والأعمش: «يا مالِ» وروي ذلك عن علي عليه السلام. وقراءة أبي عبد الرحمن اليماني: «فأنا أول العبدين» بغير ألف، والقراءة المشهورة: «العابدين».

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة الياء في «يرجعون» أن قبله غيبة، وهو قوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾. وحجة التاء أن يراد به مع الغيبة مخاطبون، فغلب الخطاب على الغيبة، أو يكون على قل لهم، وإليه ترجعون. وقوله: «يا مالِ» على المذهب المألوف في الترخيم، قال الشاعر:

فأَبلِغ مالِكاً عني رسولاً ... وما يُغني الرَّسولُ لَديكَ مالِ

أي: يا مالك. قال ابن جني: وفي هذا الموضع سر، وهو أنهم لعظم ما هم فيه خفيت[1]

---

(١) وفي المخطوطة «خفت» بدل «خفيت».

قواهم وصغر كلامهم، فكان هذا في موضع الاختصار. وقوله: ﴿أَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ من قولهم. عَبِدْتُ من الأمر أعبَد عَبداً، أي: أنفت منه. قال الفرزدق:

أُولئكَ قومي إن هَجَوْني هَجوتُهُمْ   وأَعْبَدُ أن تُهجى كليبٌ بدارِمِ
ولكنَّ نصْفاً إنْ سَبَبْتُ وسبَّني   بَنُو عَبْدِ شمسٍ من قريشٍ وهاشِمِ(١)

● **الإعراب:** قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ﴾ ارتفع ﴿إِلَٰهٞ﴾ بكونه خبر مبتدأ محذوف من الصلة، وتقديره: وهو الذي هو في السماء إلّه. ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يتعلق بقوله: ﴿إِلَٰهٞ﴾ وموضعه نصب به وإن كان مقدَّماً عليه. ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: علم وقوع الساعة، فالمصدر مضاف إلى المفعول، أي: يعلم وقوع الساعة.

● **المعنى:** لما بين سبحانه ما يفعله بالمجرمين، بيَّن أنه لم يظلمهم بذلك، فقال: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نفوسهم بما جنَوْا عليها من العذاب ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ أي: ويدعون خازن جهنم فيقولون: يا مالك ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ أي: ليمتنا ربك حتى نتخلص ونستريح من هذا العذاب. ﴿قَالَ﴾ أي: فيقول مالك مجيباً لهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ أي: لابثون دائمون في العذاب. قال ابن عباس والسدي: إنما يجيبهم مالك بذلك بعد ألف سنة. وقال عبد الله بن عمر: بعد أربعين عاماً. ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم﴾ أي: يقول الله تعالى: لقد أرسلنا إليكم الرسل ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: جاءكم رسلنا بالحق، وأضافه إلى نفسه لأنه كان بأمره. وقيل: هو من قول مالك، وإنما قال: ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم﴾ لأنه من الملائكة وهم من جنس الرسل، عن الجبائي. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ﴾ معاشر الخلق ﴿لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ لأنكم ألفتم الباطل فكرهتم مفارقته. ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾ أي: بل أحكموا أمراً في كيد محمد ﷺ والمكر به، ﴿فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾ أي: محكمون أمراً في مجازاتهم. ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ﴾ أي: بل أيظن هؤلاء الكفار ﴿أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ أي: ما يسرونه من غيرهم ويتناجون به بينهم، والسر: ما يضمره الإنسان في نفسه ولا يظهره لغيره، والنجوى: ما يحدِّث به المحدِّث غيره في الخفية. ﴿بَلَىٰ﴾(٢) نسمع ذلك وندركه ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ ما يقولونه ويفعلونه، يعني الحفظة. وسبب نزول الآية مذكور في تفسير أهل البيت عليهم السلام. ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ اختلف في معناه على أقوال:

أحدها: إن معناه: إن كان للرحمن ولد في قولكم، وعلى زعمكم فأنا أول العابدين، أي: أول من عبد الله وحده(٣)، فقد دفع أن يكون له ولد. والمعنى: فأنا أول الموحِّدين لله المنكرين لقولكم، عن مجاهد.

---

(١) النصف بالكسر: الاسم من الإنصاف. مقصوده: إني آنف أن تهجى قبيلة كليب في قبال دارم، لأن دارماً أمنع حسباً من كليب، فليسا بكفوء. ولكن الإنصاف أن يقع التسابّ والتهاجي بين قومي، وبين بني عبد شمس، وبني هاشم، فإنهما كفوان لقومي.

(٢) [أي: بل].

(٣) في الحجري زيادة وهي «ومن عبد الله وحده» وهو الصواب.

وثانيها: إنَّ «إنْ» بمعنى ما النفي، والمعنى: ما كان للرحمٰن ولد فأنا أول العابدين لله المقرِّين بذلك، عن ابن عباس وقتادة وابن زيد.

وثالثها: إن معناه: لو كان له ولد، لكنت أنا أول الآنفين من عبادته، لأن من كان له ولد لا يكون إلا جسماً محدثاً، ومن كان كذلك لا يستحق العبادة، لأنه لا يقدر على النعم التي يستحق بها العبادة، عن الجبائي وغيره.

ورابعها: أن يقول: كما أني لست أول من عبد الله، فكذلك ليس لله ولد، وهذا كما تقول: إن كنت كاتباً فأنا حاسب، تريد: لست كاتباً ولا أنا حاسب، عن سفيان بن عيينة.

وخامسها: إن معناه: لو كان له ولد لكنت أول من يعبده بأن له ولداً، ولكن لا ولد له، عن السدي وأبي مسلم. وهذا كما يقال: لو دعت الحكمة إلى عبادة غيره لعبدته، لكن الحكمة لا تدعو إلى عبادة غيره. ولو دل الدليل على أن له ولداً لقلت به، ولكنه لا يدل. فهذا تحقيق لنفي الولد، وتبعيد له، لأنه تعليق محال بمحال.

ثم نزَّه سبحانه نفسه عن ذلك، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تنزيهاً لمالك السماوات والأرض وخالقهنّ وخالق العرش ومدبِّره، عما يصفونه به من اتخاذ الولد، لأن من قدر على ذلك استغنى عن اتخاذ الولد.

ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ على وجه التهديد للكفار، فقال: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ فيه بعذاب الأبد، وهو يوم القيامة. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي: هو الذي تحق له العبادة في السماء، وتحق له العبادة في الأرض، وإنما كرَّر لفظ إلٰه لأمرين:

أحدهما: التأكيد ليتمكن المعنى في النفس.

والثاني: لأن المعنى هو إلٰه في السماء، يجب على الملائكة عبادته، وإلٰه في الأرض يجب على الإنس والجن عبادته.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في جميع أفعاله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: دامت بركته، فمنه البركات واتصال السعادات، وجلّ عن أن يكون له ولد أو شبيه، من له التصرف في السماوات والأرض فيما بينهما بلا دافع ولا منازع، ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: علم يوم القيامة، لأنه لا يعلم وقته على التعيين غيره. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فيجازي كلّاً على قدر علمه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ عاصم وحمزة: «وقيلِهِ» بالجر، والباقون: بالنصب، وفي الشواذ قراءة الأعرج ومجاهد: «وقيلُه» بالرفع. وقرأ أهل المدينة والشام: «فسوف تعلمون» بالتاء، والباقون: بالياء.

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه الجر في «وقيلِه» أنه معطوف على قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، وعلم قيله، أي: يعلم الساعة ومن يصدِّق بها ويعلم قيله، ومعنى يعلم قيله أي: يعلم أن الدعاء مندوب إليه، نحو قوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ و﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

وأما من نصب حمله على موضع ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، لأن الساعة مفعول بها وليست بظرف، فالمصدر مضاف إلى المفعول به. ومثل ذلك قوله:

قد كُنْتُ دَايَنْتُ بها حسَّانا ... مخافَةَ الإفلاسِ، واللَّيانا[1]
يُحْسِنُ بَيْعَ الأَصْلِ، والقِيانا

فكما أن القيان والليان، محمولان على ما أضيف إليه المصدر من المفعول به، فكذلك قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ لما كان معناه: يعلم الساعة، حملت ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ على ذلك. ويجوز أن تحمله على: يقول قيله، فيدل انتصاب المصدر على فعله، وكذلك قول كعب:

يَسْعى الوُشاةُ جنابيْها وقيلَهُمُ ... إنكَ يا ابن أبي سُلْمى لَمَقْتُولُ[2]

أي ويقولون: حقاً. ووجه ثالث أن يحمل على قوله: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ وقيله.

ومن قرأ: «وقيلُه» بالرفع احتمل ضربين:

أحدهما: أن يجعل الخبر: وقيله قيلُ يا رب فيحذف.

والآخر: أن يجعل الخبر: وقيله يا رب مسموع ومتقبل، فـ ﴿يَٰرَبِّ﴾ منصوب الموضع بـ ﴿قِيلِهِ﴾ المذكور، وعلى القول الآخر: بقيله المضمر، وهو من صلته، ولا يمتنع ذلك من حيث امتنع أن يحذف بعض الموصول ويبقى بعضه، لأن حذف القول قد كثر حتى صار بمنزلة المذكور. وقد يحتمل بيت كعب الرفع على هذين الوجهين.

وقال ابن جني: هو معطوف على «علم» أي: وعلم قيله، فحذف المضاف، فالمصدر الذي هو قيل، مضاف إلى الهاء الذي هو مفعول في المعنى، والتقدير: وعنده علم أن يقال: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون.

ومن قرأ «فسوف تعلمون» بالتاء، فالوجه فيه أنه على تقدير: قل لهم: فسوف تعلمون.

---

(١) داينت أي: أقرضت. والضمير في بها راجع إلى القنية، وهي ما يكتسب من المال. والليان: المماطلة بالدين. والأصل المال الأصيل مقابل القِيان: وهو جمع القين والقينة: وهما العبد والأمة أي: يحسن بيع أنواع أمواله من الأصل والقيان، لقضاء دينه.

(٢) مرّ البيت في ج١.

ووجه الياء أن يحمل على الغيبة التي هي «فاصفح عنهم». وقوله: ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌۚ﴾ تقديره: وقل أمرنا وأمركم سلام، أي: متاركة.

● **المعنى**: ثم ذكر سبحانه أنه لا شفاعة لمعبوديهم، فقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: الذي يدعونه الكفار إلّهاً ويوجِّهون عبادتهم إليه من الأصنام وغيرها ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ لمن يعبدهم كما توهمه الكفار، وهي مسألة الطالب العفو عن غيره وإسقاط العقاب عنه. ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهم: عيسى بن مريم، وعزير، والملائكة، استثناهم سبحانه ممن عُبد من دون الله، فإن لهم عند الله منزلة الشفاعة، عن قتادة. وقيل معناه: لا يملك أحد من الملائكة وغيرهم الشفاعة إلا لمن شهد بالحق، أي: شهد أن لا إله إلا الله، وذلك أن النضر بن الحارث ونفراً من قريش قالوا: إن كان ما يقوله محمد حقاً، فنحن نتولى الملائكة وهم أحق بالشفاعة لنا منه. فنزلت الآية. فالمعنى: إنهم يشفعون للمؤمنين بإذن الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم. وفي هذا دلالة على أن حقيقة الإيمان هو الاعتقاد بالقلب والمعرفة، لأن الله شرط مع الشهادة العلم، وهو ما اقتضى طمأنينة القلب إلى ما اعتقده، بحيث لا يتشكك إذا شُكِّك، ولا يضطرب إذا حُرِّك. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا محمد ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ أي: أخرجهم من العدم إلى الوجود ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ لأنهم يعلمون ضرورة أن أصنامهم لم تخلقهم ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره. ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ قال قتادة: هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه، وينكر عليهم تخلُّفهم عن الإيمان، وذكر أن قراءة عبد الله: وقال الرسول يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، وعلى هذا فالهاء في ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ يعود إلى النبي ﷺ. ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي: فأعرض عنهم يا محمد بصفح وجهك، كما قال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌۚ﴾ أي: مداراة، ومتاركة. وقيل: هو سلام هجران ومجانبة، لا سلام تحية وكرامة، كقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. وقيل معناه: قل ما تسلم به من شرهم وأذاهم، وهذا منسوخ بآية السيف، عن قتادة. وقيل معناه: فاصفح عن سفههم، ولا تقابلهم بمثله. ندبه سبحانه إلى الحلم فلا يكون منسوخاً، عن الحسن. ثم هَدَّدهم سبحانه بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: يوم القيامة إذا عاينوا ما يحل بهم من العذاب.

سُورَةُ الدُّخَانِ

مكية/آياتها (٥٩)

● **عدد آيها:** تسع وخمسون آية كوفي، سبع بصري، ستّ في الباقين.

● **اختلافها:** أربع آيات ﴿حمٓ﴾ و﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ كوفي، ﴿شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ عراقي شامي والمدني الأول، ﴿فِى ٱلْبُطُونِ﴾ عراقي مكي والمدني الأخير.

● **فضلها:** أُبَيّ بن كعب عن النبي ﷺ: «من قرأ الدخان في ليلة الجمعة، غفر له». أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الدخان في ليلة، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك». وعنه عن النبي ﷺ قال: «من قرأها في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له». أبو أمامة عن النبي ﷺ قال: «ومن قرأ سورة الدخان ليلة الجمعة ويوم الجمعة، بنى الله له بيتاً في الجنة». وروى أبو حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ سورة الدخان في فرائضه ونوافله، بعثه الله من الآمنين يوم القيامة، وأظلّه تحت ظلّ عرشه، وحاسبه حساباً يسيراً، وأُعْطِيَ كتابه بيمينه.

● **تفسيرها:** ختم الله سبحانه سورة الزخرف بالوعيد والتهديد، وافتتح هذه السورة أيضاً بمثل ذلك في الإنذار بالعذاب الشديد، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ
﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ
يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

إحدى عشرة آية كوفي[1] في غيرهم.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة: «ربِّ السمٰوات» بالجر، والباقون: بالرفع.

---

(١) [عشرة].

● **الحجة:** الرفع فيه على أحد أمرين: إما أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: هو رب السماوات، وإما أن يكون مبتدأ وخبره الجملة التي عاد الذكر منها إليه، وهو قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ويقويه قوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. ومن قرأ بالجر جعله بدلًا من «ربك» المتقدِّم ذكره. قال أبو الحسن: الرفع أحسن وبه يقرأ.

● **الإعراب:** ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ جواب القسم دون قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ لأنك لا تقسم بالشيء على نفسه. فإن القسم تأكيد خبر بخبر آخر، فقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ اعتراض بين القسم وجوابه. ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ في انتصابه وجهان:

أحدهما: أن يكون نصباً على الحال، وتقديره: إنا أنزلناه آمرين أمراً، كما يقال: جاء فلان مشياً وركضاً، أي: ماشياً وراكضاً، وعلى هذا فيكون مصدراً موضوعاً موضع الحال، وهذا اختيار الأخفش. ويجوز أن يكون تقديره: ذا أمر فحذف المضاف، كما قال: «ولكن البر» بمعنى: ذا البر.

والثاني: أن يكون منصوباً على المصدر، لأن معنى قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ فيها يؤمر، قد دل ﴿يُفْرَقُ﴾ على يؤمر، وقوله: ﴿رَحْمَةً﴾ منصوب على أنه مفعول له، أي: أنزلناه للرحمة. وقال الأخفش: هو منصوب على الحال، أي: راحمين رحمة.

● **المعنى:** ﴿حمٓ﴾ مر بيانه. ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أقسم سبحانه بالقرآن الدال على صحة نبوّة نبينا ﷺ، وفيه بيان الأحكام، والفصل بين الحلال والحرام. وجواب القسم ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: إنا أنزلنا القرآن، والليلةُ المباركة: هي ليلة القدر، عن ابن عباس وقتادة وابن زيد، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام. وقيل: هي ليلة النصف من شعبان،عن عكرمة. والأصح الأول. ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾. واختلف في كيفية إنزاله. فقيل: أُنزِلَ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل نجوماً إلى النبي ﷺ.

وقيل: إنه كان ينزل جميع ما يحتاج في كل سنة في تلك الليلة، ثم كان ينزلها جبرائيل عليه السلام شيئاً فشيئاً، وقت وقوع الحاجة إليه.

وقيل: كان بدء إنزاله في ليلة القدر. وروي عن ابن عباس أنه قال: قد كلّم الله جبرائيل في ليلة واحدة، وهي ليلة القدر، فسمعه جبرائيل وحفظه بقلبه، وجاء به إلى السماء الدنيا إلى الكتبة وكتبوه، ثم نزل على محمد ﷺ بالنجوم في ثلاث وعشرين سنة. وقيل: في عشرين سنة.

وإنما وصف الله سبحانه هذه الليلة بأنها مباركة، لأن فيها يُقَسِّم الله نعمه على عباده من السنة إلى السنة، فتدوم بركاتها. والبركة: نماء الخير، وضدها: الشؤم، وهو نماء الشر. فالليلة التي أُنزِلَ فيها كتاب الله، مباركة ينمى الخير فيها على ما دبّر الله سبحانه لها، من عُلوّ مرتبتها واستجابة الدعاء فيها.

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي: مخوِّفين بما أنزلناه من تعذيب العُصَاة. والإنذار: الإعلام بموضع الخوف ليتقى، وموضع الأمن ليجتبى، فالله عز اسمه قد أنذر عباده بأتمّ الإنذار من طريق العقل والسمع. ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: في هذه الليلة يفصل ويبين. والمعنى: يقضي كل أمر محكم لا تلحقه الزيادة والنقصان، وهو أنه يقسم فيها الآجال والأرزاق وغيرها من أمور السنة إلى مثلها من العام القابل، عن ابن عباس والحسن وقتادة. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى. وقال عكرمة: هي ليلة النصف من شعبان، يبرم فيها أمر السنة، وينسخ الأحياء من الأموات، ويكتب الحاج فلا يزيد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد. ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ معناه: إنا نأمر ببيان ذلك ونسخه في اللوح المحفوظ، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ محمداً إلى عبادنا، كمن كان قبله من الأنبياء ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: رأفة منا بخلقنا، ونعمة منا عليهم، بما بعثنا إليهم من الرسل، عن ابن عباس. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمن دعاه من عباده ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالحهم ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومدبرهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بهذا الخبر مُحقِّقِين له، وهو أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا يستحق العبادة سواه، ﴿يُحْيِۦ﴾ الخلق بعد موتهم ﴿وَيُمِيتُ﴾ أي: ويميتهم بعد إحيائهم، ﴿رَبُّكُمْ﴾ الذي خلقكم ودبَّركم ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الذين سبقوكم.

ثم ذكر سبحانه الكفار فقال: ليس هؤلاء بموقنين بما قلنا: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ مما أخبرناك به. ﴿يَلْعَبُونَ﴾ مع ذلك ويستهزئون بك وبالقرآن إذا قرىء عليهم، عن الجبائي. وقيل: يلعبون أي: يشتغلون بالدنيا ويترددون في أحوالها. ثم خاطب نبيه ﷺ فقال: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ أي: فانتظر يا محمد ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ دعا على قومه لما كذَّبوه، فقال: «اللهم سنيناً[1] كسني يوسف» فأجدبت الأرض فأصابت قريشاً المجاعة، وكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان، وأكلوا الميتة والعظام، ثم جاءوا إلى النبي ﷺ، وقالوا: يا محمد، جئت تأمر بصلة الرحم وقومك قد هلكوا. فسأل الله تعالى لهم بالخصب والسعة فكشف عنهم، ثم عادوا إلى الكفر، عن ابن مسعود والضحاك. وقيل: إن الدخان آية من أشراط الساعة تدخل في مسامع الكفار والمنافقين، وهو لم يأت بعد، وإنه يأتي قبل قيام الساعة، فيدخل أسماعهم حتى إن رؤوسهم تكون كالرأس الحنيذ، ويصيب المؤمن منه مثل الزكمة، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه، ليس فيه خصاص[2]، ويمكث ذلك أربعين يوماً، عن ابن عباس وابن عمر والحسن والجبائي. ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ يعني أن الدخان يَعُمُّ جميع الناس، وعلى القول الأول المراد بالناس أهل مكة، وهم الذين يقولون ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع مؤلم.

● ● ●

(١) في نسخة «سنين»وهو الصواب، فإن علامة النصب فيه الياء من دون التنوين.
(٢) الخصاص: كل خلل وخرق في باب، ومنخل، وبرقع ونحوه. والفُرَج في البناء بين الأثافي.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ
رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ
﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ
وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟
عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟
لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾.

● **الإعراب:** ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾ منصوب بقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾، ويجوز أن ينتصب بمضمر دلَّ عليه ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، ولا ينتصب بقوله: ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ لأنه ما بعد «إنَّ» لا يعمل فيما قبله.

● **المعنى:** ثم لما أخبر سبحانه أن الدخان يغشى الناس، عذاباً لهم، وأنهم قالوا ويقولون على ما فيه من الخلاف: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ حكى عنهم أيضاً قولهم: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ بمحمد ﷺ والقرآن. قال سبحانه: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: من أين لهم التذكر والاتعاظ؟ وكيف يتذكرون ويتعظون؟ ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: وحالهم أنهم قد جاءهم رسول ظاهر الصدق والدلالة ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ أي: أعرضوا عنه ولم يقبلوا قوله. ﴿وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي: هو معلم يعلِّمه بشر، مجنون بادعاء النبوة. ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: عذاب الجوع والدخان ﴿قَلِيلًا﴾ أي: زماناً قليلاً يسيراً إلى يوم بدر، عن مقاتل. ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ في كفركم وتكذيبكم، فلما كشف الله سبحانه ذلك عنهم بدعاء النبي ﷺ واستسقائه لهم، عادوا إلى تكذيبه. هذا على تأويل من قال: إن ذلك الدخان كان وقت النبي ﷺ. فأما على القول الآخر فمعناه: إنكم عائدون إلى العذاب الأكبر وهو عذاب جهنم. والقليل: مدة ما بين العذابين. ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي: واذكر لهم ذلك اليوم، يعني يوم بدر على القول الأول، قالوا: لما كشف عنهم الجوع عادوا إلى التكذيب، فانتقم الله منهم يوم بدر. وعلى القول الآخر: البطشة الكبرى تكون يوم القيامة. والبطش: هو الأخذ بشدة وقع الألم. ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ منهم ذلك اليوم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ أقسم سبحانه أنه فتن قبل كفار قوم النبي ﷺ ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾، أي: اختبرهم وشدَّد عليهم التكليف؛ لأن الفتنة شدة التعبد، وأصلها الإحراق بالنار لخلاص الذهب من الغش. وقيل: إن الفتنة معاملة المختبَر ليجازى بما يُظهر دون ما يُعلم مما لا يظهر. ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي: كريم الأخلاق والأفعال بالتجاوز والصفح والدعاء إلى الصلاح والرشد. وقيل: كريم عند الله بما استحق بطاعته من الإكرام والإعظام. وقيل: كريم شريف في قومه من بني إسرائيل. ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ هذا من قول موسى عليه السلام لفرعون وقومه. والمعنى: أطلقوا بني إسرائيل من العذاب والتسخير فإنهم أحرار، فهو كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فيكون ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ مفعول ﴿أَدُّوٓا۟﴾. وقال الفراء: أدُّوا إليّ ما آمركم به يا عباد

الله. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ على ما أؤديه وأدعوكم إليه ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تتجبروا على الله بترك طاعته، عن الحسن. وقيل: لا تتكبروا على أولياء الله بالبغي عليهم. وقيل: لا تبغوا عليه بكفران نعمه وافتراء الكذب عليه، عن ابن عباس وقتادة. ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة واضحة يظهر الحق معها. وقيل: بمعجز ظاهر يُبيِّنُ صحة نبوتي وصدق مقالتي. فلما قال ذلك توعَّدوه بالقتل والرجم، فقال: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي: لذت بمالكي ومالككم والتجأت إليه ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ أي: من أن ترموني بالحجارة، عن قتادة. وقيل: إن الرجم الذي استعاذ منه موسى هو الشتم، كقولهم: «هو ساحر كذاب» ونحوه، عن ابن عباس وأبي صالح. ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي: وإن لم تُصدِّقُوني فاتركوني لا معي ولا عليّ. وقيل معناه: فاعتزلوا أذاي، عن ابن عباس.

●●●

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

● **اللغة:** الرَّهو: السهل الساكن. يقال: عيش راه، أي: خافض وادع، قال الشاعر:

يَمْشِينَ رَهْواً فلا الأعْجازُ خاذِلَةٌ ... ولا الصدورُ على الأعجازِ تَتَّكِلُ[(١)]

وقيل: الرهو: الدَّمث[(٢)] ليس برمل ولا حزن، عن الأزهري. يقال: جاءت الخيل رهواً أي: مسابقة. قال ابن الأعرابي: الرهو من الطير والخيل: السراع. قال الشاعر:

طَيْراً رأَتْ بازِياً نَضْخُ[(٣)] الدِّماءِ به ... وأُمَّةُ خَرَجَتْ رهْواً إلى عيدِ

● **الإعراب:** ﴿رَهْوًا﴾ نصب على الحال من ﴿الْبَحْرَ﴾ ويكون حالًا بعد الفراغ من الفعل، كقولهم: قطعت الثوب قباء. وهذا يدل على أن البحر كان قبل تركه وبعد تركه رهواً. و﴿كَمْ﴾ في قوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ في موضع نصب بأنه صفة موصوف محذوف، وهو مفعول ﴿تَرَكُوا﴾ وتقديره: شيئاً كثيراً تركوا. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه تمام قصة موسى عليه السلام بأن قال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ أي: فدعا

---

(١) مقصوده توصيف نساء مورد مدحه بالإستواء في المشي، فلا أعجازهن متخلفة عن سائر أعضاء البدن، ولا الصدور متكلة على الأعجاز بأن يتأخر الصدر عن الأعضاء، ويتكل على الأعجاز.

(٢) الدَمْث والدَمِث والدميث: المكان اللين ذو الرمل. وأرض دَمْثاء: لَينة سهلة.

(٣) وفي بعض النسخ بالحاء المهملة. والنَضْخ: الأثر من الطيب وغيره، يبقى في الثوب. وبالحاء: رشاش الماء، ونحوه.

موسى ربه حين يئس من قومه أن يؤمنوا به، فقال: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي: مشركون لا يؤمنون، عن الكلبي ومقاتل. فكأنه قال: اللهم عجِّل لهم مما يستحقونه بكفرهم ما يكونون به نكالًا لمن بعدهم، وما دعا عليهم إلا بعد أن أذن له في ذلك. وقوله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ الفاء وقعت موقع الجواب، والتقدير: فأُجِيبَ بأن قِيلَ له: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾، أمره سبحانه أن يسير بأهله وبالمؤمنين به ليلًا حتى لا يردهم فرعون إذا خرجوا نهاراً، وأعلمه بأنه سيتبعهم فرعون بجنوده بقوله: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ ﴿وَاتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي: ساكناً على ما هو به إذا قطعته وعبرته، وكان قد ضربه بالعصا فانفلق لبني إسرائيل، فأمره الله سبحانه أن يتركه كما هو ليغرق فرعون وقومه، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: رهواً أي: منفتحاً منكشفاً، حتى يطمع فرعون في دخوله، عن أبي مسلم. قال قتادة: لما قطع موسى البحر عطف ليضرب البحر بعصاه ليلتئم، وخاف أن يتبعه فرعون وجنوده، فقيل له: ﴿وَاتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي: كما هو طريقاً يابساً ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ سيغرقهم الله تعالى.

ثم أخبر سبحانه عن حالهم بعد إهلاكهم، فقال: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ﴾ ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية ﴿وَزُرُوعٍ﴾ كثيرة ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي: مجالس شريفة، ومنازل خطيرة. وقيل: هي المناظر الحسنة ومجالس الملوك، عن مجاهد. وقيل: منابر الخطباء، عن ابن عباس. وقيل: المقام الكريم الذي يعطي اللذة كما يعطي الرجل الكريم الصلة، عن علي بن عيسى. ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ أي: وتَنَعُّم وسِعَة في العيش كانوا بها ناعمين متمتعين كما يتمتع الآكل بأنواع الفواكه. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قال الكلبي معناه: كذلك أفعل بمن عصاني. ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾: إيراث النعمة: تصييرها إلى الثاني بعد الأول بغير مشقة، كما يصير الميراث إلى أهله على تلك الصفة، فلما كانت نعمة قوم فرعون وصلت بعد هلاكهم إلى غيرهم، كان ذلك إيراثاً من الله لهم. وأراد بقوم آخرين بني إسرائيل، لأنهم رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون. ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ اختلف في معناه على وجوه:

أحدها: إن معناه: لم يبك عليهم أهل السماء والأرض لكونهم مسخوطاً عليهم، عن الحسن. فيكون مثل قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: أصحاب الحرب، ونحوه قول الحطيئة:

وشَرُّ المنايا مَيِّتٌ وَسْطَ أَهْلِهِ ... كَهُلْكِ الفتى قد أَسْلَمَ الحَيَّ حاضِرُهُ[1]

أي: وشر المنايا ميتة ميت. وقال ذو الرمة:

لَهُمْ مَجْلِسٌ صُهْبُ السِّبالِ[2] أذلَّةٌ ... سَواسِيَةٌ[3] أحرارُها وعبيدُها

---

(١) الحاضر: القوم الحي إذا اجتمعوا في الدار التي بها مجتمَعهم.

(٢) صهب جمع أصهب: الأحمر والأشقر. والسبال: جمع سَبَلة: الدائرة في وسط الشفة العليا. وقيل: ما على الشارب من الشعر، أو طرفه، أو مجتمع الشاربين. وصهب السبال: وصف الروميين، ولأنهم أعداء العرب يوصف به الأعداء.

(٣) سواء سواسية، يقال للجمع وسواء يقال للمفرد والمثنى والجمع. وسواسية لا تقال إلا في الشر كقولهم: هم سواسية في الشر، وكذا هنا.

أي: لهم أهل مجلس.

وثانيها: إنه سبحانه أراد المبالغة في وصف القوم بصغر القدر، فإن العرب إذا أخبرت عن عظم المصاب بالهالك قالت: بكاء السماء والأرض، وأظلم لفقده الشمس والقمر. قال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز:

الشمسُ طالعةٌ لَيسَتْ بكاسفةٍ، ـ تبكي عليك ـ نُجومَ الليل، والقَمرا[١]

أي: ليست مع طلوعها كاسفة نجوم الليل والقمر، لأن عظم المصيبة قد سلبها ضوءها، وقال النابغة:

تبدو كواكِبُهُ والشمسُ طالِعَةٌ، لا النُّورُ نورٌ، ولا الإظْلامُ إظْلامُ

وثالثها: أن يكون ذلك كناية عن أنه لم يكن لهم في الأرض عمل صالح يرفع منها إلى السماء. وقد روي عن ابن عباس أنه سُئِلَ عن هذه الآية فقيل: وهل يبكيان على أحد؟ قال: نعم، مصلاه في الأرض ومصعد عمله في السماء. وروى أنس عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وله باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه». فعلى هذا يكون معنى البكاء الإخبار عن الاختلال بعده، كما قال مزاحم العقيلي:

بَكَتْ دارُهُمْ مِنْ أَجْلِهِمْ فتهلَّلَت[٢] دُموعي فأيَّ الجازِعَينِ أَلُومُ
أَمُسْتَعْبِراً يبكي مِنَ الهونِ، والبلى، أم آخرَ يبكي شَجْوَهُ، وَيَهيمُ[٣]

وقال السدي: لما قُتِلَ الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، بكت السماء عليه، وبكاؤها حمرة أطرافها. وروى زرارة بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: بكت السماء على يحيى بن زكريا، وعلى الحسين بن علي عليه السلام أربعين صباحاً، ولم تبك إلا عليهما. قلت: وما بكاؤها؟ قال: كانت تطلع حمراء، وتغيب حمراء. ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ أي: عوجلوا بالعقوبة، ولم يمهلوا.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن

---

(١) كسفت الشمس النجوم: غلب ضوئها على النجوم، فلم يبد منها شيء. ونجوم الليل والقمر مفعول كاسفة. مقصوده: إنَّ موتك صار سبباً لقلة ضوء الشمس، بحيث لا يغلب نورها نور القمر والنجوم، وهي تبكي عليك.

(٢) تهلل العين: سالت بالدمع.

(٣) هام على وجهه: ذهب من العشق وغيره، لا يدري أين يتوجه.

قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

● **الإعراب:** ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ أي: من عذاب فرعون، فحُذِفَ المضاف، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي: ثابتاً من فرعون، فلا يكون على حذف المضاف ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: يجوز أن يكون ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مبتدأ، و﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾، خبره، ويجوز أن يكون منتصباً بفعل مضمر دل عليه ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾، ويجوز أن يكون رفعاً بالعطف على ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾. فعلى هذا تقف على ﴿قَبْلِهِمْ﴾، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ في تقدير: وأهلكناهم، أي: والمهلكون من قبلهم.

● **المعنى:** ثم أقسم سبحانه بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الذين آمنوا بموسى ﴿مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ يعني قتل الأبناء، واستخدام النساء، والاستعباد، وتكليف المشاق، ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا﴾ أي: متجبراً متكبراً مُتغلباً. ﴿مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المجاوزين الحد في الطغيان، وصفه بأنه عال وإن جاز أن يكون «عال» صفة مدح، لأنه قيده بأنه عال في الإسراف، لأن العالي في الإحسان ممدوح، والعالي في الإساءة مذموم. ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ﴾ أي: اخترنا موسى وقومه بني إسرائيل وفضّلناهم بالتوراة وكثرة الأنبياء منهم ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ أي: على بصيرة منا باستحقاقهم التفضيل والاختيار ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: على عالمي زمانهم، عن قتادة والحسن ومجاهد. ويدل عليه قوله تعالى لأمة نبينا ﷺ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. وقيل: فضلناهم على جميع العالمين في أمر كانوا مخصومين به، وهو كثرة الأنبياء منهم، ﴿وَآتَيْنَاهُم﴾ أي: وأعطيناهم ﴿مِّنَ الْآيَاتِ﴾ يعني الدلالات والمعجزات مثل فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المَنّ والسلوى، ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما فيه النعمة الظاهرة، عن الحسن. وقيل: ما فيه شدة وامتحان مثل العصا، واليد البيضاء، فالبلاء يكون بالشدة والرخاء، عن ابن زيد. فيكون في الآيات نعمة على الأنبياء وقومهم، وشدة على الكفار المكذّبين بهم.

ثم أخبر سبحانه عن كفار قوم نبينا ﷺ الذين ذكرهم في أول السورة، فقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى﴾ أي: ما الموتة إلا موتة نموتها في الدنيا، ثم لا نبعث بعدها، وهو قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي: بمبعوثين ولا معادين ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ الذين ماتوا قبلنا وأعيدوهم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن الله تعالى يقدر على إعادة الأموات وإحيائهم. وقيل: إن قائل هذا أبو جهل بن هشام، قال: إن كنت صادقاً فابعث جدك قُصَيّ بن كلاب، فإنه كان رجلاً صادقاً، لنسأله عما يكون بعد الموت. وهذا القول جهل من أبي جهل من وجهين:

أحدهما: إن الإعادة إنما هي للجزاء لا للتكليف، وليست هذه الدار بدار جزاء ولكنها دار تكليف، فكأنه قال: إن كنت صادقاً في إعادتهم للجزاء فأعذهم للتكليف.

والثاني: إن الإحياء في دار الدنيا إنما يكون للمصلحة، فلا يقف ذلك على اقتراحهم، لأنه ربما تعلّق بذلك مفسدة.

ولما تركوا الحجة وعدلوا إلى الشبهة جهلاً، عدل سبحانه في إجابتهم إلى الوعيد والوعظ، فقال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ أي: أمشركو قريش أظهر نعمة وأكثر أموالاً وأعز من القوة والقدرة، أم قوم تبع الحميري، الذي سار بالجيوش حتى حير[١] الحيرة، ثم أتى سمرقند فهدمها ثم بناها، وكان إذا كتب كتب باسم الذي ملك براً وبحراً وضحاً وريحاً، عن قتادة. وسمي تبّعاً لكثرة أتباعه من الناس. وقيل: سمي تبّعاً لأنه تبع مَنْ قبله من ملوك اليمن. والتبابعة: اسم ملوك اليمن، فتبّع لقب له، كما يقال: خاقان لملك الترك، وقيصر لملك الروم، واسمه أسعد[٢] أبو كرب. وروى سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تسبوا تبّعاً فإنه كان قد أسلم» وقال كعب: نعم الرجل الصالح، ذمّ الله قومه، ولم يذمّه. وروى الوليد ابن صبيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن تبّعاً قال للأوس والخزرج: كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبي ﷺ، أما أنا لو أدركته لخدمته وخرجت معه. ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني من تقدمهم من قوم نوح وعاد وثمود. ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ معناه: إنهم ليسوا بأفضل منهم وقد أهلكناهم بكفرهم، وهؤلاء مثلهم، بل أولئك كانوا أكثر قوة وعدداً، فإهلاك هؤلاء أيسر. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: كافرين، فليحذر هؤلاء أن ينالهم مثل ما نال أولئك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ أي: لم نخلق ذلك لا لغرض العبث، بل خلقناهما لغرض حكمي، وهوأن ننفع المكلّفين بذلك ونعرضهم للثواب، وننفع سائر الحيوانات بضروب المنافع واللذات ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: إلا بالعلم الداعي إلى خلقهما، والعلم لا يدعو إلا إلى الصواب والحق. وقيل معناه: ما خلقناهما إلا للحق، وهو الامتحان بالأمر والنهي، والتمييز بين المحسن والمسيء، لقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾. وقيل معناه: ما خلقناهما إلا على الحق الذي يستحق به الحمد، خلاف الباطل الذي يستحق به الذم. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ صحة ما قلناه لعدولهم عن النظر فيه، والاستدلال على صحته. ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني اليوم الذي يفصل فيه بين المحق والمبطل، وهو يوم القيامة. وقيل معناه: يوم الحكم ميقات قوم فرعون، وقوم تبّع ومن قبلهم، ومشركي قريش وموعدهم.

●●●

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾

(١) لم نجد له فيما بأيدينا من كتب اللغة معنى يناسبه، ولعله مما يشتق، ويؤخذ الفعل من الإسم نحو خيّم القوم أي: ضربوا خياماً. وهذا أيضاً مأخوذ من الحيرة. وفي نسخة: حيّز مأخوذ من الحيّز.

(٢) وفي المخطوطة «سعد».

كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ
﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ
﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة وحفص ورويس: «يغلي» بالياء والباقون: «تغلي» بالتاء. وقرأ أهل الكوفة وأبو جعفر وأبو عمرو: «فاعتلوه» بكسر التاء، والباقون: بضمها. وقرأ الكسائي وحده: «ذق أنّك» بفتح الهمزة، والباقون: «إنك» بكسرها.

● **الحجة:** من قرأ: «تغلي» بالتاء فعلى الشجرة، كأن الشجرة تغلي. ومن قرأ بالياء حمله على الطعام، وهو الشجرة في المعنى. ويَعتِل ويَعتُل: مثل يَعْكِفُ ويَعْكُفُ، وَيفسِقُ وَيَفْسُقُ في أنهما لغتان، ومعنى فاعتلوه: قودوه بعنف. ومن قرأ: «إنك» بالكسر، فالمعنى: إنك أنت العزيز الكريم في زعمك، فأجرى ذلك على حسب ما كان يذكره أو يذكر به. ومن قرأ: «أنك» بالفتح، فالمعنى: ذق بأنك.

● **المعنى:** لما ذكر سبحانه أن يوم الفصل ميقات الخلق يحشرهم فيه، بيَّن أيّ يوم هو، فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾ فالمولى: الصاحب الذي من شأنه أن يتولى معونة صاحبه على أموره، فيدخل في ذلك ابن العم، والناصر، والحليف، وغيرهم ممن هذه صفته. والمعنى: إن ذلك اليوم يوم لا يغني فيه ولي عن ولي شيئاً، ولا يدفع عنه عذاب الله تعالى. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وهذا لا ينافي ما يذهب إليه أكثر الأمة من إثبات الشفاعة للنبي ﷺ، والأئمة عليهم السلام، والمؤمنين، لأن الشفاعة لا تحصل إلا بأمر الله تعالى وإذنه. والمراد بالآية أنه ليس لهم من يدفع عنهم عذاب الله وينصرهم من غير أن يأذن الله له فيه. وقد بيَّن ما أشرنا إليه باستثنائه من رحمه منهم، فقال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ أي: إلا الذين رحمهم الله من المؤمنين، فإنه إما أن يسقط عقابهم ابتداء، أو يأذن بالشفاعة فيهم لمن علت درجته عنده، فيسقط عقاب المشفوع له لشفاعته ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

ثم وصف سبحانه ما يفصل به بين الفريقين، فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ وقد مرَّ تفسيره في سورة الصافات ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ أي: الآثم، وهو أبو جهل. وروي أن أبا جهل أتى بتمر وزبد فجمع بينهما وأكل وقال: هذا هو الزقوم الذي يخوِّفنا محمد به، نحن نتزقمه، أي: نملأ أفواهنا به، فقال سبحانه: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ وهو المذاب من النحاس، أو الرصاص، أو الذهب، أو الفضة. وقيل: هو دُرْدِيّ الزيت. ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ أي: إذا حصلت في أجواف أهل النار تغلي كغلي الماء الحار الشديد الحرارة. قال أبو علي الفارسي: لا يجوز أن يكون المعنى: يغلي المهل في البطون، لأن المهل إنما ذكر للتشبيه به في الذوب. ألا ترى أن المهل لا يغلي في البطون، وإنما يغلي ما شُبِّه به ﴿خُذُوهُ﴾ أي: يقال للزبانية: خذوا الأثيم ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ أي: زعزعوه وادفعوه بعنف، ومنه قول الشاعر:

فيا ضيعة الفتيان إذ يَعْتِلُونَهُ ببَطْنِ الثَّرى مثلَ الفَنيق المُسَدَّمِ(١)

وقيل معناه: جُرُّوه على وجهه، عن مجاهد ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: إلى وسط النار، عن قتادة. وسمي وسط الشيء سواء لاستواء المسافة بينه وبين أطرافه المحيطة به. والسواء: العدل. ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ﴾ قال مقاتل: إن خازن النار يمر به على رأسه، فيذهب رأسه عن دماغه ثم يصب فيه ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ وهو الماء الذي قد انتهى حره، ويقول له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾، وذلك أنه كان يقول: أنا أعزّ أهل الوادي وأكرمهم، فيقول له الملك: ذق العذاب أيها المُتَعَزِّز المُتكرِّم في زعمك، وفيما كنت تقوله. وقيل: إنه على معنى النقيض، فكأنه قيل: إنك أنت الذليل المهين، إلا أنه قيل على هذا الوجه للاستخفاف به. وقيل معناه: إنك أنت العزيز في قومك الكريم عليهم، فما أغنى ذلك عنك. ﴿إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ أي: ثم يقال لهم: إن هذا العذاب ما كنتم تشكُّون فيه في دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة وابن عامر: «في مُقَام» بالضم، والباقون: «في مَقام» بالفتح.

● **الحجة:** من فتح الميم أراد به المجلس والمشهد، كما قال: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ ووصفه بالأمن يقوّي أن المراد به المكان. ومن ضم فإنه يحتمل أن يريد به المكان من أقام، فيكون على هذا معنى القراءتين واحد، أو يجوز أن يجعله مصدراً، ويُقدِّر المضاف محذوفاً، أي: موضع إقامة.

● **اللغة:** السندس: الحرير. والإستبرق: الديباج الغليظ الصفيق. قال الزجاج: إنما قيل له: إستبرق لشدة بريقه. والحور ـ جمع حَوراء ـ من الحوَر: وهو شدة البياض، وهن البيض الوجوه. وقال أبو عبيدة: الحوراء: الشديدة بياض العين، الشديدة سوادها. والعين: جمع العيناء، وهي العظيمة العينين.

● **الإعراب:** ﴿كَذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور في موضع رفع بأنه خبر المبتدأ، التقدير: الأمر كذلك. ﴿مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ نصب على الحال من ﴿يَلْبَسُونَ﴾. و﴿يَلْبَسُونَ﴾ يجوز أن يكون خبراً بعد

(١) وفي نسخة: الفتيق بالتاء، وهو من الجمال ما ينفتق سمناً. وبالنون: الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله، ولا يركب. والمسدّم: البعير المهمل، الهائج.

خبر، ويجوز أن يكون حالًا من الظرف الذي هو قوله: ﴿فِي مَقَامٍ﴾ لأن التقدير: إن المتقين ثبتوا في مقام. ومفعول ﴿يَلْبَسُونَ﴾ محذوف، وتقديره: يلبسون ثياباً من سندس، ف ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال من ﴿يَدْعُونَ﴾. ﴿ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ نصب على الاستثناء، قال الزجاج: معناه: سوى الموتة التي ذاقوها في الدنيا، كقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ المعنى: سوى ما قد سلف. وأقول: إن سوى لا يكون إلا ظرفاً، و«إلا» حرف، فكيف يكون بمعناه؟ فالأولى أن يكون «إلا» هنا مع ما بعدها صفة أو بدلًا بمعنى غير، تقديره: لا يذوقون فيها الموت غير الموتة الأولى، إذ الموتة الأولى قد انقضت، فلا يمكن أن يستثنى من الموت الذي لا يذوقونه في الجنة، إذ ليست بداخلة فيه. وقوله: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعول له، تقديره: فعل الله ذلك بهم فضلًا منه وتفضلًا منه، ويجوز أن يكون منصوباً بفعل مضمر تقديره: وأعطاهم فضلًا، ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لما قبله، لأن ما ذكره قبله تفضل منه سبحانه، كقول امرىء القيس:

ورُضْـــتُ(١) فـــذَلَّت صـعـبـــة أيَّ إذلالِ

على معنى أذللته أيَّ إذلال، فاستغنى عن أذْللتُه بذكر: رضت.

● **المعنى:** ثم عقب سبحانه الوعيد بذكر الوعد، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يجتنبون معاصي الله لكونها قبائح، ويفعلون الطاعات لكونها طاعات، ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أمنوا فيه الغِيَر من الموت والحوادث. وقيل: أمنوا فيه من الشيطان والأحزان، عن قتادة. ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: بساتين وعيون ماء نابعة فيها ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خاطب العرب فوعدهم من الثياب بما عظم عندهم واشتهته أنفسهم. وقيل: السندس ما يلبسونه، والإستبرق ما يفترشونه. ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في المجالس لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، بل يقابل بعضهم بعضاً. وقيل معناه: متقابلين بالمحبة، لا متدابرين بالبغضة. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ حال أهل الجنة. ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ قال الأخفش: المراد به التزويج المعروف، يقال: زوجته امرأة وبامرأة. وقال غيره: لا يكون في الجنة تزويج، والمعنى: وقرناهم بحور عين ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ أي: يستدعون فيها أي ثمرة شاءوا واشتهوا غير خائفين فوتها آمنين من نفاذها ومضرتها. وقيل: آمنين من التّخم والأسقام والأوجاع.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ شبَّه الموت بالطعام الذي يذاق ويتكره عند المذاق. ثم نفى أن يكون ذلك في الجنة، وإنما خصَّهم بأنهم لا يذوقون الموت، مع أن جميع أهل الآخرة لا يذوقون الموت، لما في ذلك من البشارة لهم بالحياة الهنيئة في الجنة، فأما من يكون فيما هو كالموت في الشدة، فإنه لا يطلق له هذه الصفة، لأنه يموت مَوْتات كثيرة بما يقاسيه من العقوبة. ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قيل معناه: بعد الموتة الأولى. وقيل معناه: لكن الموتة الأولى قد ذاقوها. وقيل: سوى الموتة الأولى، وقد بيَّنّا ما عندنا فيه. ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: فصرف عنهم عذاب النار.

(١) راض المُهرَ: ذلله وسخّره، وجعله مطيعاً، وعلمه السير. ويقال: رُض نفسك بالتقوى أي: ذللها.

استدلَّت المعتزلة بهذا على أن الفاسق الملي لا يخرج من النار، لأنه يكون قد وقي النار، والجواب عن ذلك: إن هذه الآية يجوز أن تكون مختصة بمن لا يستحق دخول النار فلا يدخلها، أو من استحق النار فتفضل عليه بالعفو، فلم يدخلها. ويجوز أن يكون المراد ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ على وجه التأبيد، أو على الوجه الذي يعذِّب عليه الكفار.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: فعل الله ذلك بهم تفضلًا منه، لأنه سبحانه خلقهم وأنعم عليهم وركَّب فيهم العقل وكلفهم، وبيَّن لهم من الآيات ما استدلوا به على وحدانية الله تعالى وحسن الطاعات، فاستحقوا به النعم العظيمة، ثم جزاهم بالحسنة عشر أمثالها، فكان ذلك فضلًا منه عز اسمه. وقيل: إنما سماه. ﴿فَضْلًا﴾ وإن كان مستحقاً، لأن سبب الاستحقاق هو التكليف والتمكين، وهو فضل منه سبحانه. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: الظفر بالمطلوب العظيم الشأن. ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: سَهَّلْنا القرآن، فالهاء كناية عن غير مذكور، والمعنى: هوّنا القرآن على لسانك ويَسَّرْنا قراءته عليك. وقيل معناه: جعلنا القرآن عربياً ليسهل عليك وعلى قومك تَفَهُّمه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ليتذكروا ما فيه من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، ويتفكروا فيه. ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي: فإن أعرضوا ولم يقبلوا فانتظر مجيء ما وعدناك به إنهم منتظرون، لأنهم في حكم من ينتظر، لأن المحسن يترقَّب عاقبة الإحسان، والمسيء يترقَّب عاقبة الإساءة. وقيل معناه: انتظر بهم عذاب الله فإنهم ينتظرون بك الدوائر. وقيل: انتظر قهرهم ونصرك عليهم فإنهم منتظرون قهرك بزعمهم.

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

مكية/آياتها(٣٧)

وتسمى أيضاً: سورة الشريعة، لقوله فيها ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ وهي مكية. قال قتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ﴾ الآية.

- **عدد آيها:** سبع وثلاثون آية كوفي، ست في الباقين.
- **اختلافها:** آية ﴿حمٓ﴾ كوفي.
- **فضلها:** أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «ومن قرأ حمٓ الجاثية، ستر الله عورته، وسكّن روعته عند الحساب». وروى أبو نصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة الجاثية كان ثوابها ألا يرى النار أبداً، ولا يسمع زفير جهنم، ولا شهيقها، وهو مع محمد ﷺ.
- **تفسيرها:** لما ختم الله سبحانه سورة الدخان بذكر القرآن، افتتح هذه السورة بذكره أيضاً، فقال سبحانه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾.

- **القراءة:** قرأ حمزة والكسائي ويعقوب: «آياتٍ» في الموضعين على النصب، والباقون: «آياتٌ» على الرفع فيهما.
- **الحجة:** قال أبو علي: قوله: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ﴾ جاز الرفع في قوله: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ من وجهين:

أحدهما: العطف على موضع إنّ وما عملت فيه، فإنه رفع بالابتداء، فيحتمل الرفع فيه على الموضع.

والآخر: أن يكون مُستَأنفاً، ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة، فيكون قوله ﴿ءَايَٰتٌ﴾ على هذا مرتفعاً بالظرف. فهذا وجه قول من رفع «آيات» في الموضعين. قال أبو الحسن: ﴿مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ﴾ قراءة الناس بالرفع، وهي أجود وبها نقرأ، لأنه قد صار على كلام آخر، نحو: إن في الدار زيداً وفي البيت عمرو، لأنك إنما تعطف الكلام كله على الكلام كله. قال: وقد قرىء بالنصب وهو عربي. انتهت الحكاية عنه.

وأما قول: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى آخره «آيات»، فإنك إن تركت الكلام على

ظاهره، فإن فيه عطفاً على عاملين، أحد العاملين الجار الذي هو «في» من قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ﴾، والعامل الآخر ـ إن نصبت «آيات» وإن رفعت ـ فالعامل المعطوف عليه في الابتداء والظرف.

ووجه قراءة من قرأ: «آياتٍ» بالنصب أنه لم يحمل على موضع «إنَّ» كما حمل من رفع «آيات» في الموضعين أو قطعه واستأنف. ولكن حمل على لفظ «إن» دون موضعها، فحمل «آيات» في الموضعين على نصب «إن» في قوله: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. فإن قلت: إنه يعرض في هذه القراءة العطف على عاملين، وذلك في قوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ﴾. وسيبويه وكثير من النحويين لا يجيزونه. قيل: يجوز أن يقدر في «مع» قوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ﴾. وإن كانت محذوفة من اللفظ، وذلك أن ذكره قد تقدم في قوله: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وقوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾. فلما تَقَدَّم ذكر الجار في هذين قدِّر فيه الإثبات في اللفظ وإن كان محذوفاً منه، كما قدَّر سيبويه في قوله:

أَكُلَّ امرىءٍ تَحْسَبِينَ امْرأً ونارٍ تَأَجَّجُ بالليل نارا؟

إن «كلَّ» في حكم الملفوظ به، واستغني عن إظهاره بتقدم ذكره، ومما يؤكد هذه القراءة أن في آيات محمولة على أن ما ذكر عن أُبي أنه قرأ في المواضع الثلاثة لآيات، فدخول اللامات تدل على أن الكلام محمول على إنَّ. وإذا كان محمولًا عليها حسن النصب، وصار كل موضع من ذلك، كأن إنَّ مذكورة فيه بدلالة دخول اللام، لأن هذه اللام إنما تدخل على خبر إنَّ أو على اسمها. ومما يجوز أن يتأول على ما ذكرنا قول الفرزدق:

وباشر راعِيَها الصَّلا بلبانهِ[1] وكفَّيْه، حرَّ النار ما يتحرَّفُ

فهذا إن حملت الكلام على ظاهره كان عطفاً على عاملين، على الفعل والباء إن قدرت أن الباء ملفوظ بها، لتقدم ذكرها صارت في حكم الثبات في اللفظ، وإذا صار كذلك كان العطف على عامل واحد وهو الفعل دون الجار، وكذلك قول الآخر:

أُوصيتُ من برَّة قَلْباً حرّاً[2]، بالكَلْبِ خَيْراً، والحماةِ شرّاً

فإن قدَّرت الجار في حكم المذكور لدلالة المتقدم عليه، لم يكن عطفاً على عاملين، كما لم يكن قوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ﴾ كذلك.

وقد يخرج قوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ﴾ من أن يكون عطفاً على عاملين من وجه آخر، وهو أن تقدر قوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ على «في» المتقدم ذكرها، وتجعل ﴿ءَايَٰتٌ﴾

---

(١) الصَّلا: وسط الظهر من الناس، ومن كل ذي أربع. النار: الوقود. واللبان بالفتح: الصدر وفي نسختين «يتحرق» بدل «يتحرف». وتحرق أي: وقع في النار. وتحرف أي: مال إلى حرف أي: إلى جانب.

(٢) برّة: امرأة وهي جدة قريش أم النضر بن كنانة. والحماة بالتفتح: أم الزوجة. وحماة المرأة أم زوجها أي: أوصتني برة من قلب حرّ، أو بقلب حرّ بالكلب خيراً، وبالحماة شراً.

مُتَكَرِّرة، كرّرتها لما تراخي الكلام وطال، كما قال بعض شيوخنا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أن هي «أن» هي الأولى كررت، وكما جاء ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ لما تراخى عن قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهذا النحو في كلامهم غير ضيّق.

● **المعنى:** ﴿حمٓ﴾ قد بيّنّا ما قيل فيه، وأجود الأقوال أنه اسم للسورة. قال علي بن عيسى: وفي تسمية السورة بـ ﴿حمٓ﴾ دلالة على أن هذا القرآن المعجز كله من حروف المعجم، لأنه سمّي به ليدل عليه بأوصافه، ومن أوصافه أنه معجز، وأنه مفصل قد فُصِّلَت كل سورة من أختها، وأنه هدى ونور. فكأنه قيل: هذا اسمه الدال عليه بأوصافه. ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أضاف التنزيل إلى نفسه في مواضع من السور استفتاحاً بتعظيم شأنه وتفخيم قدره، بإضافته إلى نفسه من أكرم الوجوه وأجلها. وما اقتضى هذا المعنى لم يكن تكريراً، فقد يقول القائل: اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني، اللهم عافني، اللهم وسِّع عليّ في رزقي، فيأتي بما يؤذن أن تعظيمه لربه منعقد بكل ما يدعو به. وقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ يدل على أن ابتداءه من الله تعالى ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: القادر الذي لا يغالب ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ العالم الذي أفعاله كلها حكمة وصواب. ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يصدِّقون بالله وبأنبيائه، لأنهم المنتفعون بالآيات، وفي الدلالات والحجج الدالة على أن لهما مُدبِّراً صانعاً قادراً عالماً. ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ﴾ معناه: وفي خلقه إياكم بما فيكم من بدائع الصنعة، وعجائب الخلقة، وما يتعاقب عليكم من الأحوال من مبتدأ خلقكم في بطون الأمهات إلى انقضاء الآجال، وفي خلق ما يفرق على وجه الأرض من الحيوانات، على اختلاف أجناسها ومنافعها والمقاصد المطلوبة منها، دلالات واضحات على ما ذكرناه. ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: يطلبون علم اليقين بالتدبر والتفكر. ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: وفي ذهاب الليل والنهار ومجيئهما على وتيرة واحدة. وقيل معناه: وفي اختلاف حالهما من الطول والقصر. وقيل: اختلافهما في أن أحدهما نور والآخر ظلمة. ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ أراد به المطر الذي ينبت به النبات الذي هو رزق الخلائق، فسماه رزقاً لأنه سبب الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: فأحيا بذلك المطر الأرض بعد يبسها وجفافها. ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي: وفي تصريف الرياح يجعلها مرة جنوباً، وأخرى شمالاً، ومرة صباً، وأخرى دبوراً، عن الحسن. وقيل: يجعلها تارة رحمة، وتارة عذاباً، عن قتادة. ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وجوه الأدلة ويتدبَّرونها فيعلمون أن لهذه الأشياء مدبِّراً حكيماً قادراً عليماً، حياً غنياً قديماً لا يشبهه شيء.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير حفص والأعشى والبرجمي وابن عامر ويعقوب: «تؤمنون» بالتاء، والباقون: بالياء.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ بالياء أنّ قبله غيبة، وهو قوله: ﴿لِقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾. ومن قرأ بالتاء فالتقدير: قل لهم: فبأي حديث بعد ذلك تؤمنون.

● **المعنى:** لمّا قدّم سبحانه ذكر الأدلة عقّب ذلك بالوعيد لمن أعرض عنها ولم يتفكّر فيها، فقال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما ذكرناه أدلة الله التي نصبها لخلقه المُكلّفين، ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ﴾ أي: نقرأها عليك يا محمد لتقرأها عليهم ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ دون الباطل، والتلاوة: الإتيان بالثاني في أثر الأول في القراءة، والحق الذي تتلى به الآيات هو كلام مدلوله على ما هو به في جميع أنواعه. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ معناه: إن هؤلاء الكفار إن لم يصدّقوا بما تلوناه عليك، فبأي حديث بعد حديث الله وهو القرآن وآياته يصدّقون، وبأي كلام ينتفعون، وهذا إشارة إلى أن المعاند لا حيلة له. والفرق بين الحديث الذي هو القرآن وبين الآيات أن الحديث قصص يستخرج منه عبر، تبين الحق من الباطل، والآيات هي الأدلة الفاصلة بين الصحيح والفاسد. ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ الأفاك: الفعّال من الإفك وهو الكذب، ويطلق ذلك على من يكثر كذبه، أو يعظم كذبه، وإن كان في خبر واحد ككذب مُسَيْلَمَة في ادّعاء النبوة. والأثيم: ذو الإثم، وهو صاحب المعصية التي يستحق بها العقاب، والويل: كلمة وعيد يتلقى بها الكفار. وقيل: هو وادٍ سائل من صديد جهنم.

ثم وصف سبحانه الأفاك الأثيم بقوله: ﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ أي: يسمع آيات القرآن التي فيها الحجة تقرأ عليه، ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ أي: يقيم كل كفره وباطله متعظّماً عند نفسه عن الانقياد للحق ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ﴾ أصلًا في عدم القبول لها والاعتبار بها. ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي: مؤلم ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾ أي: وإذا علم هذا الأفاك الأثيم من حججنا وأدلتنا شيئاً استهزأ بها، ليَرِيَ العوام أنه لا حقيقة لها، كما فعله أبو جهل حين سمع قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ٤٤﴾، أو كما فعله النضر بن الحارث حين كان يقابل القرآن بأحاديث الفرس. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي: مذلّ مخز مع ما فيه من الألم، ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ أي: من وراء ما هم فيه من التعزز بالمال والدنيا جهنم. ومعناه: قدامهم ومن بين أيديهم، كقوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ﴾ ووراء اسم يقع على القدّام والخلف، فما توارى عنك فهو وراءك، خلفك كان أو أمامك. ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا يغني عنهم ما حصلوه وجمعوه من المال والولد شيئاً من عذاب الله تعالى. ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ﴾ من الآلهة التي عبدوها لتكون شفعاءهم عند الله، ﴿وَلَهُمۡ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وحفص: «من رجز أليمٌ» بالرفع، والباقون: «أليم» بالجر. وقرأ أبو جعفر: «ليُجزَى» بضم الياء وفتح الزاي، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخَلَف: «لنُجزِيَ» بالنون وكسر الزاي والنصب، وقرأ الباقون: «ليَجزِي» بفتح الياء وكسر الزاي.

● **الحجة:** قال أبو علي: الرجز: العذاب، فالتقدير: لهم عذاب من عذاب أليم. ومن رفع فالمعنى: عذاب أليم من عذاب، وفيه قولان:

أحدهما: إن الصفة قد تجيء على وجه التأكيد، كما أن الحال تجيء كذلك. وذلك نحو قوله: ﴿نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾. وقولهم: أمس الدّابر، قال:

وَأَبِي الذي ترك الملوكَ وجمعَهُم   بِـفِـعَـالِ هامدة كأمسِ الدابرِ[1]

والآخر: إنه محمول على أنه بمعنى الرجس الذي هو النجاسة على البدل للمقاربة، ومعنى النجاسة فيه قوله: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ فكأن المعنى: لهم عذاب مَنْ تجرَّع رجس أو شرب رجس، فتكون «من» تبييناً للعذاب مما هو. ومن قرأ: «لِيَجزي» بالياء، فحجته أن ذكر الله قد تقدم في قوله: ﴿لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾، فيكون فاعل «يجزي». ومن قرأ بالنون، فالنون في معنى الياء، وإن كانت الياء أشد مطابقة لما في اللفظ. ومن قرأ: «ليُجزى قوماً» فقال أبو عمرو: إنه لحسن ظاهر. وذكر أن الكسائي قال: إن معناه: ليجزي الجزاء قوماً. قال الجامع البصير: معناه ليُجزي الخيرُ قوماً، فأضمر الخير لدلالة الكلام عليه، وليس التقدير: ليجزي الجزاء قوماً، لأن المصدر لا يقوم مقام الفاعل، ومعك مفعول صحيح. فإذاً الخير مضمر كما أضمر الشمس في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ لأن قوله: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ﴾ يدل على تواري الشمس.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿هَٰذَا هُدًىۖ﴾ أي: هذا القرآن الذي تلوناه والحديث الذي ذكرناه هدى، أي: دلالة موصلة إلى الفرق بين الحق والباطل من أمور الدين والدنيا. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ وجحدوها ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾ مر معناه. ثم نبَّه سبحانه خلقه على وجه الدلالة على توحيده، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: جعله على

(١) الهامدة: البالية المتقطعة.

هيئته[١] لتجري السفن فيه، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: ولتطلبوا بركوبه في أسفاركم من الأرباح بالتجارات. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ له هذه النعمة. ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: وسخَّر لكم مع ذلك معاشر الخلق، ما في السماوات من الشمس والقمر والنجوم، والمطر والثلج والبرد، وما في الأرض من الدواب والأشجار والنبات والأثمار والأنهار، ومعنى تسخيرها لنا أنه تعالى خلقها جميعاً لانتفاعنا بها، فهي مسخرة لنا من حيث أنا ننتفع بها على الوجه الذي نريده. وقوله: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ قال ابن عباس: أي: كل ذلك رحمة منه لكم. وقال الزجاج: كل ذلك منه تفضل وإحسان. ويحسن الوقف على قوله: ﴿جَمِيعًا﴾، ثم يقول ﴿مِّنْهُ﴾ أي: ذلك التسخير منه لا من غيره فهو فضله وإحسانه. وروى عن ابن عباس وعبد الله بن عمر والجحدري أنهم قرأوا «مِنَّةً» منصوبة ومنونة، وعلى هذا فيكون من باب تبسَّمت وميض البرق. فكأنه قال: منَّ عليهم منَّةً. وروي عن سلمة أنه قرأ: «منَّةٌ» بالرفع، وعلى هذا فيكون خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك منة، أو هو منة، أو يكون على معنى: سخَّر لكم ذلك منة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: دلالات ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾، هذا جواب أمر محذوف دل عليه الكلام، وتقديره: قل لهم: اغفروا يغفروا، فصار «قل لهم» على هذا الوجه يغني عنه، عن علي بن عيسى. وقيل معناه: قل للذين آمنوا اغفروا، ولكنه شبه بالشرط والجزاء، كقوله: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، عن الفراء. وقيل: ﴿يَغْفِرُوا۟﴾ تقديره: يا هؤلاء اغفروا، فحذف المنادى، كقوله: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾. وقول الشاعر:

ألا يا أسلمي ذات الدماليج والعقد[٢]

﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يخافون عذاب الله إذا نالوكم بالأذى والمكروه، ولا يرجون ثوابه بالكف عنكم، وقد مرَّ تفسير ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ عند قوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾. ومعنى «يغفروا» هاهنا: يتركوا مجازاتهم على أذاهم، ولا يكافئوهم ليتولى الله مجازاتهم. ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بيان هذا الجزاء في الآية التي تليها، وهو قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: طاعة وخيراً وبراً ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾، لأن ثواب ذلك يعود ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: فوبال إساءته على نفسه، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، أي: إلى حيث لا يملك أحد النفع والضر، والنهي والأمر، غيره سبحانه، فيجازي كل إنسان على قدر عمله.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

---

(١) وفي نسخة على هيئة تجري السفن فيه. وفي أخرى عى هيئة لتجري.. والأول هو الصواب.

(٢) جمع الدملوج: حلي يلبس في المعصم. والعقد: القلادة.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾
إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ
﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

● **المعنى**: لما تقدَّم ذكر النعمة، ومقابلتهم إياها بالكفر والطغيان، بيَّن عقيب ذلك ذكر ما كان من بني إسرائيل أيضاً في مقابلة النعم من الكفران، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ يعني العلم بالدين. وقيل: العلم بالفصل بين الخصمين وبين المحق والمبطل، ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي: وجعلنا فيهم النبوة، حتى روي أنه كان فيهم ألف نبي. ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: وأعطيناهم من أنواع الطيبات ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: عالمي زمانهم. وقيل: فضلناهم في كثرة الأنبياء منهم على سائر الأمم، وإن كانت أمة محمد ﷺ أفضل منهم في كثرة المطيعين لله وكثرة العلماء منهم، كما يقال: هذا أفضل في علم النحو، وذاك في علم الفقه، فأمة محمد ﷺ أفضل في علوّ منزلة نبيِّها عند الله على سائر الأنبياء، وكثرة المجتبين الأخيار من آله وأمته. والفضل: الخير الزائد على غيره، فأمة محمد ﷺ أفضل بفضل محمد وآله. ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: أعطيناهم دلالات وبراهين واضحات من العلم بمبعث محمد ﷺ، وما بيَّن لهم من أمره. وقيل: يريد بالأمر أحكام التوراة. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: من بعد ما أنزل الله الكتب على أنبيائهم وأعلمهم بما فيها، ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: طلباً للرئاسة، وأَنَفَةً من الإذعان للحق. وقيل: بغياً على محمد ﷺ في جحود ما في كتابهم من نبوته وصفته. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ظاهر المعنى.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: ثم جعلناك يا محمد على دين ومنهاج وطريقة، يعني بعد موسى وقومه، والشريعة: السنة التي من سلك طريقها أدته إلى البُغيَة، كالشريعة التي هي طريق إلى الماء، فهي علامة منصوبة على الطريق من الأمر. والنهي يؤدي إلى الجنة كما يؤدي ذلك إلى الوصول إلى الماء. ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: اعمل بهذه الشريعة، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق ولا يفصلون بينه وبين الباطل، من أهل الكتاب الذين غيَّروا التوراة أتباعاً لهواهم، وحباً للرياسة، واستتباعاً للعوام، ولا المشركين الذين اتبعوا أهواءهم في عبادة الأصنام. ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لن يدفعوا عنك شيئاً من عذاب الله إن اتبعت أهواءهم(١). ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يعني أن الكفار بأجمعهم مُتَّفِقون على معاداتك، وبعضهم أنصار بعض عليك ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ناصرهم وحافظهم، فلا تشغل قلبك بتناصرهم وتعاونهم عليك، فإن الله ينصرك عليهم ويحفظك. ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ أي: هذا الذي أنزلته عليك من القرآن بصائر، أي: معالم في الدين، وعظات وعبر للناس يبصرون

(١) وفي نسخة: ان اتبعت أهواءهم في عبادة الأصنام.

بها من أمور دينهم، ﴿وَهُدًى﴾ أي: دلالة واضحة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: ونعمة من الله ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بثواب الله وعقابه، لأنهم هم المنتفعون به.

●●●

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر وروح وزيد: «سواءً» بالنصب، والباقون: بالرفع. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: «غَشْوة» بفتح الغين بغير ألف، والباقون: «غِشاوة» بالألف.

● **الحجة:** قال أبو علي: ليس الوجه في الآية نصب «سواءً» على أن تجريه على ما قبله، على حد قولك: مررت برجل ضارب أبوه، وبزيد خارجاً أخوه، لأنه ليس باسم فاعل ولا مشبَّه به، مثل حسن وشديد ونحو ذلك، إنما هو مصدر فلا ينبغي أن يجري على ما قبله، كما يجري اسم الفاعل وما مشبّه به، لتَعَرِّيه من المعاني التي أعمل فيها اسم فاعل، وما شبِّه به عمل الفعل. ومن قال: مررت برجل خير منه أبوه، وسرج خزّ. صفته، وبرجل مئة إبله، استجاز أن يجري «سواء» أيضاً على ما قبله كما أجرى الضرب الأول.

فأما من قرأ «سواءً» بالنصب، فإن انتصابه يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يجعل: المحيا والممات، بدلًا من الضمير المنصوب في ﴿نَّجْعَلَهُمْ﴾ فيصير التقدير: أن نجعل محياهم ومماتهم سواء، فينتصب «سواء» على أنه مفعول ثان لنجعل، ويكون انتصاب «سواء» على هذا القول حسناً، لأنه لم يرفع مظهراً.

ويجوز أيضاً أن يجعل ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ ظرفين من الزمان فيكون كذلك أيضاً.

ويجوز أن يعمل في الظرفين أحد شيئين:

أحدهما: ما في «سواء» من معنى الفعل، كأنه يستوون في المحيا والممات.

والآخر: أن يكون العامل الفعل، ولم يعلم الكوفيون الذين نصبوا «سواء» نصبوا الممات. فإذا لم ينصبوه كان النصب في «سواء» على غير هذا الوجه، وغير هذا الوجه لا يخلو من أن ينتصب على أنه حال، أو على أنه المفعول الثاني لنجعل. وعلى أي: هذين الوجهين حملته فقد

أعملته عمل الفعل، فرفعت به المظهر، فإن جعلته حالًا أمكن أن يكون الحال من الضمير في ﴿نَّجۡعَلَهُمۡ﴾، ويكون المفعول الثاني قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. فإذا جعلت قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ المفعول الثاني، أمكن أن يكون «سواء» منتصباً على الحال مما في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من معنى الفعل. فيكون ذو الحال الضمير المرفوع في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وهذا الضمير يعود إلى الضمير المنصوب في ﴿نَّجۡعَلَهُمۡ﴾، وانتصابه على الحال من هذين الوجهين.

ويجوز أن يجعل قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ المفعول الثاني، ولكن يجعل المفعول الثاني قوله: ﴿سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾، فيكون جملة في موضع نصب بكونها في موضع المفعول الثاني لنجعل. ويجوز فيمن قال: مررت برجل مائة إبله، فأعمل المائة عمل الفعل، أن ينصب «سواء» على هذا الوجه أيضاً، ويرتفع به المحيا، كما جاز أن يرتفع به إذا قدرت الجملة في موضع الحال. والحال في الجملة التي هي ﴿سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾ يكون من جعل، ويكون ما في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ في معنى الفعل.

وقد قيل في الضمير في قوله: ﴿مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾ قولان:

أحدهما: إنه ضمير الكفار دون الذين آمنوا، فكان «سواء» على هذا القول مرتفعاً بأنه خبر مبتدأ مقدَّم، تقديره: محياهم ومماتهم سواء، أي: محياهم محيا سوء، ومماتهم ممات سوء، ولا يكون النصب على هذا في «سواء»، لأنه إثبات في الإخبار بأن محياهم ومماتهم يستويان في الذم والبعد من رحمة الله.

والقول الآخر: إن الضمير في ﴿مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾ للقبيلين، فإذا كان كذلك جاز أن ينتصب «سواء» على أنه المفعول الثاني من نجعل، فيمن استجاز أن يعمله في الظاهر، لأنه يلتبس بالقبيلين جميعاً، وليس في الوجه الأول كذلك، لأنه للكفار دون المؤمنين، ولا يلتبس للمؤمنين من حيث كان للكفار من دونهم. ولا يجوز أن ينتصب «سواء» ولم يكن فيه إلا الرفع، ويكون على هذا الوجه قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في موضع المفعول الثاني، و﴿سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ﴾ استئناف، ولا يكون في موضع حال من قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأنه لا يلتبس بهم. والقول في «غشوة» و«غشاوة» مذكورة في سورة البقرة.

● **اللغة:** الاجتراح: الاكتساب، يقال: جرح واجترح، وكسب واكتسب. وفلان جارحة قومه، أي: كاسبة قومه، وأصله من الجراح، لأن لذلك تأثيراً كتأثير الجراح، ومثله الاقتراف، وهو مشتق من قرف[1] القرحة. والسيئة: الفعلة القبيحة التي تسوء صاحبها باستحقاق الذم عليها. والحسنة: هي التي تسر صاحبها باستحقاق المدح عليها. قال علي بن عيسى: القبيح ما ليس للقادر عليه أن يفعله، والحسن هو ما للقادر عليه أن يفعله، وكل فعل وقع لا لأمر من الأمور، فهو لغو لا ينسب إلى الحكمة ولا إلى السفه.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه للكفار على سبيل التوبيخ لهم: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُوا۟

---

(١) قرف القرحة يقرفها: قشرها بعد يبسها.

ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ معناه: بل أحسب، وهذا استفهام إنكار. وقيل: إن هذا معطوف على معنى مضمر، تقديره: هذا القرآن بصائر للناس مُؤَدِّية إلى الجنة، أَفَعَلِمُوا ذلك، أَمْ حَسِبَ الذين اكتسبوا الشرك والمعاصي أن نجعل منزلتهم منزلة الذين صدَّقوا الله ورسوله، وحققوا أقوالهم بأعمالهم. ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي: يستوي محيا القبيلين ومماتهم، يعني: أَحَسِبُوا أن حياتهم ومماتهم كحياة المؤمنين وموتهم؟ ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ما حكموا على الله تعالى، فإنه لا يسوِّي بينهم ولا يستقيم ذلك في العقول، بل ينصر المؤمنين في الدنيا ويُمَكنُهم من المشركين، ولا ينصر الكافرين ولا يُمَكِّنهم من المسلمين، وينزل الملائكة عند الموت على المؤمنين بالبشرى، وعلى الكافرين يضربون وجوههم وأدبارهم. وقيل: أراد محياهم بعد البعث، ومماتهم عند حضور الملائكة لقبض أرواحهم. وقيل: أراد أن المؤمنين محياهم على الإيمان والطاعة، ومماتهم على الإيمان والطاعة، ومحيا المشركين على الشرك والمعصية، ومماتهم كذلك، فلا يستويان، عن مجاهد. وقيل: الضمير في مماتهم للكفار، والمعنى: إنهم يتساوون في حال كونهم أحياء، وفي حال كونهم أمواتاً، لأن الحي متى لم يفعل الطاعة فهو بمنزلة الميت. ثم قال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقهما عبثاً، وإنما خلقهما لنفع خلقه، بأن يُكَلِّفهم ويُعَرِّضهم للثواب الجزيل. ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من ثواب على طاعة، أو عقاب على معصية. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يبخسون حقوقهم. ثم قال:

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ يا محمد ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه، لأنه لا يؤمن بالله ولا يخافه، فاتَّبعَ هواه في أموره ولا يحجزه تقوى، عن ابن عباس والحسن وقتادة. وقيل معناه: من اتخذ معبوده ما يهواه، دون ما دلَّت الدلالة على أن العبادة تحق له، فإذا استحسن شيئاً وهواه اتخذه إلَهاً، وكان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر، عن عكرمة وسعيد بن جبير. وقيل معناه: أفرأيت مَنِ انقاد لهواه انقياده لإلَهه ومعبوده، ويرتكب ما يدعوه إليه، ولم يرد أنه يعبد هواه ويعتقد أنه تحق له العبادة، لأن ذلك لا يعتقده أحد، عن علي بن عيسى. قد أيس الله رسوله من إيمان هؤلاء بهذا. ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: خذله الله وخلّاه وما اختاره جزاء له على كفره وعناده، وترك تَدَبُّره على علم منه باستحقاقه لذلك. وقيل: أضله الله، أي: وجده ضالاً على حسب ما علمه، فخرج معلومه على وفق ما علمه، كما يقال: أحمدت فلاناً، أي: وجدته حميداً، وكقول عمرو بن معد يكرب: قاتلناهم فما أَجْبَنَّاهم، وسألناهم فما أَبْخَلْناهم، وقاولناهم فما أَفْحَمْناهم، أي: ما وجدناهم كذلك. وقيل معناه: إنه ضلَّ عن الله، كما قال:

هَبُوني امْرأً منكم أَضَلَّ بعيرَهُ ... لَهُ ذِمَّةٌ، إِنَّ الذِّمامَ كَبيرُ

أي: ضلَّ عنه بعيره. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً﴾ فسَّرناه في سورة البقرة. ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: من بعد هداية الله إياه، والمعنى: إذا لم يهتد بهدي الله بعد ظهوره

ووضوحه فلا طمع في اهتدائه. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتعظون بهذه المواعظ، وهذا استبطاء بالتذكر منهم، أي: تذكروا واتعظوا حتى تحصلوا على معرفة الله تعالى.

ثم أخبر سبحانه عن منكري البعث فقال: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: ليس الحياة إلا حياتنا التي نحن فيها في دار الدنيا، ولا يكون بعد الموت بعث ولا حساب. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ في معناه أقوال:

أحدها: إن تقديره: نحيا ونموت، فقدَّم وأخَّر.

والثاني: إن معناه: نموت ونحيي أولادنا.

والثالث: يموت بعضنا ويحيا بعضنا، كما قال: ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: ليقتل بعضكم بعضاً. ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: وما يميتنا إلا الأيام والليالي، أي: مرور الزمان وطول العمر، إنكاراً منهم للصانع. ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ نفى سبحانه عنهم العلم، أي: إنما ينسبون ذلك إلى الدهر لجهلهم، ولو علموا أن الذي يميتهم هو الله وأنه قادر على إحيائهم لما نسبوا الفعل إلى الدهر. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: ما هم فيما ذكروه إلا ظانون، وإنما الأمر بخلافه. وقد روي في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»، وتأويله: إن أهل الجاهلية كانوا ينسبون الحوادث المجحفة، والبلايا النازلة إلى الدهر، فيقولون: فعل الدهر كذا، وكانوا يسبون الدهر، فقال ﷺ: «إن فاعل هذه الأمور هو الله تعالى فلا تسبُّوا فاعلها». وقيل معناه: فإن الله مصرف الدهر ومدبره، والوجه الأول أحسن، فإن كلامهم مملوء من ذلك. ينسبون أفعال الله إلى الدهر. قال الأصمعي: ذمَّ أعرابيٌّ رجلًا فقال: هو أكثر ذنوباً من الدهر. وقال كثير:

وكُنتُ كَذِي رِجلَيْنِ: رِجْلٍ صحيحةٍ ... ورِجْلٍ رَمى فيها الزمانُ فَشَلَّتِ

وقال آخر:

فاستأثرَ الدهرُ الغداة بِهِمْ ... والدهرُ يرميني وما أرمي
يا دَهرُ قَدْ أكْثَرْتَ فَجْعَتَنا ... بَسَراتِنا وَوَقَرْتَ في العَظْم[١]

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: إذا قرأت عليهم حججنا ظاهرات و﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: لم يكن لهم في مقابلتها حجة إلا مقالتهم: إن كنتم صادقين في أن الله يعيد الأموات ويبعثهم يوم القيامة فأتوا بآبائنا وأحيوهم حتى نعلم أن الله قادر على بعثنا، وإنما لم يجبهم الله إلى ذلك لأنهم قالوا ذلك مُتَعَنتين مقترحين لا طالبين الرشد.

● ● ●

(١) السراة بالفتح: جمع السري، وهو السيد الشريف السخي، وصاحب المروة في شرف، وهو جمع نادر. ووقر العظم يقره أي: صدعه.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب: «كلَّ أمة تدعى إلى كتابها» بفتح اللام، والباقون: بالرفع.

● **الحجة:** الوجه في نصبه أنه بدل على الأول، وفي الثاني من الإيضاح ما ليس في الأول، لأن فيه ذكر السبب الداعي إلى الحياة، فلذلك جاز إبداله منه. وتكون ﴿تُدْعَىٰٓ﴾ في موضع نصب على الحال، أو على أنه مفعول ثان على تفصيل معنى ﴿وَتَرَىٰ﴾.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ راداً على الكفار قولهم، فقال: ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ في دار الدنيا، لأنه لا يقدر على الإحياء أحد سواه، لأنه القادر لنفسه. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بأن يبعثكم ويعيدكم أحياء. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه لقيام الحجة عليه، وإنما احتج بالإحياء في دار الدنيا، لأن من قدر على فعل الحياة في وقت قدر على فعلها في كل وقت، ومن عجز عن ذلك في وقت مع ارتفاع الموانع المعقولة وكونه حياً، عجز عنه في كل وقت. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك بعدولهم عن النظر الموجب للعلم بصحته. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو قادر على البعث والإعادة. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ العادلون عن الحق، الفاعلون للباطل، أنفسهم وحياتهم في الدنيا، لا يحصلون من ذلك إلا على عذاب دائم. ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: وترى يوم القيامة أهل كل مِلَّةٍ باركة على ركبها، عن ابن عباس. وقيل: باركة مستوفزة(١) على ركبها كهيئة قعود الخصوم بين يدي القضاة، عن مجاهد والضحاك وابن زيد. وقيل: إن الجثوّ للكفار خاصة. وقيل: هو عام للكفار والمؤمنين، ينتظرون الحساب. ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي: كتاب أعمالها الذي كان يستنسخ لها. وقيل: إلى كتابها المنزل على رسولها ليسألوا عما عملوا به. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ يعني ديوان الحفظة ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يشهد عليكم بالحق، والمعنى: يُبيِّنه بياناً شافياً حتى كأنه ناطق. ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نستكتب الحفظة ما كنتم تعملون في دار الدنيا، والاستنساخ: الأمر بالنسخ، مثل: الاستكتاب الأمر بالكتابة. وقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، يشهد بما قضي فيه من خير وشر، وعلى هذا فيكون معنى نستنسخ أن الحفظة تستنسخ الخزنة ما هو مدوَّن عندها من أحوال

---

(١) استوفز في قعدته: قعد منتصباً غير مطمئن، أو وضع ركبتيه ورفع إليتيه، أو استقل على رجليه، ولما يستو قائماً. وقد تهيأ للوثوب.

العباد، وهو قول ابن عباس. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: جنته وثوابه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: الفلاح الظاهر.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٣٤) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٦) وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣٧)﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة وحده: «والساعةَ» بالنصب، والباقون: بالرفع.

● **الحجة:** قال أبو علي: الرفع على وجهين:

أحدهما: أن يقطع من الأول فيعطف جملة على جملة.

والآخر: أن يكون محمولاً على موضع «إن» وما عملت فيه، وموضعهما رفع. وأما النصب فمحمول على لفظ ﴿إِنَّ﴾ وموضع ﴿لَا رَيْبَ﴾ رفع بأنه في موضع خبر ﴿إِنَّ﴾. وقد عاد الذكر إلى الاسم، فكأنه قال: والساعة حق، لأن قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ في معنى حق. قال أبو الحسن: والرفع أجود في المعنى وأكثر في كلام العرب إذا جاء بعد خبر إن اسم معطوف، ويقويه قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

● **المعنى:** ثم عقّب سبحانه الوعد بالوعيد، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فيقال لهم: أفلم تكن حججي وبيناتي تُقرأُ عليكم من كتابي، ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي: تعظمتم عن قبولها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: كافرين. كما قال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والفاء في قوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ﴾ دالة على جواب «أما» المحذوف. ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: إن ما وعد الله به من الثواب والعقاب كائن لا محالة ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: وإن القيامة لا شك في حصولها ﴿قُلْتُم﴾ معاشر الكفار ﴿مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ وأنكرتموها، ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ ونشك فيك ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ في ذلك. ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ أي: ظهر لهم جزاء معاصيهم التي عملوها ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: جزاء استهزائهم. ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ أي: نترككم في العقاب ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: تركتم التأهب للقاء يومكم هذا، عن ابن عباس. وقيل: معناه: نحلّكم في العذاب محل المنسي كما أحللتم هذا اليوم عندكم محل المنسي. ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مستقركم جهنم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يدفعون عنكم عذاب الله،

﴿ذَٰلِكُم﴾ الذي فعلنا بكم ﴿بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: سخرية تسخرون منها ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: خدعتكم بزينتها، فاغتررتم بها، ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: «يَخرجون» بفتح الياء، كما في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم العتبى والاعتذار، لأن التكليف قد زال. وقيل معناه: لا يقبل منهم العتبى.

ثم ذكر سبحانه عظمته فقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: الشكر التام والمدحة التي لا يوازيها مدحة، لله الذي خلق السماوات والأرض ودبَّرهما وخلق العالمين ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: السلطان القاهر، والعظمة القاهرة، والعلو والرفعة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يستحقهما أحد سواه. وفي الحديث: يقول الله سبحانه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدة منهما ألقيته في جهنم». ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في جلاله ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله. وقيل: العزيز في انتقامه من الكفار، والحكيم فيما يفعله بالمؤمنين والأخيار.

سُورَةُ الأحقَافِ

مكية/آياتها (٣٥)

مكية، قال ابن عباس وقتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الآية. نزلت في عبد الله بن سلام.

● **عدد آيها:** خمس وثلاثون آية كوفي، أربع في الباقين.

● **اختلافها:** آية ﴿حمٓ﴾ كوفي.

● **فضلها:** أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «ومن قرأ سورة الأحقاف أعطي من الأجر بعدد كل رمل في الدنيا عشر حسنات، ومحي عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات». وعن عبد الله بن أبي يعقوب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ كل ليلة أو كل جمعة سورة الأحقاف، لم يصبه الله بروعة في الدنيا، وآمنه من فزعه يوم القيامة.

● **تفسيرها:** لما ختم الله تلك السورة بذكر التوحيد، وذمّ أهل الشرك والوعيد، افتتح هذه السورة أيضاً بالتوحيد، ثم بالتوبيخ لأهل الكفر من العبيد، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَٰوَٰتِ ائْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ علي عليه السلام، وأبو عبد الرحمٰن السلمي: «أو أثْرة» بسكون الثاء من غير ألف. وقرأ ابن عباس بخلاف، وعكرمة وقتادة: «أو أَثَرَة» بفتحتين، والقراءة المشهورة: «أو أثارة» بالألف.

● **الحجة:** قال ابن جني: الأثرة والأثارة: البقية، وهي ما يؤثر من قولهم: أثر الحديث يأثِره أثراً أو أثرة، ويقولون: من هذا أثرة وأثارة، أي: أثر، ومنه سيف مأثور، أي: عليه أثر الصنعة وطريق العمل. وأما الأثرة ـ ساكنة الثاء ـ فهي أبلغ معنى، وذلك أنها الفعلة الواحدة من هذا الأصل، فهي كقولهم: ائتوني بخبر واحد أو حكاية شاذة، أي: قنعت في الاحتجاج لكم بهذا الأصل على قتله.

● **المعنى**: ﴿حمٓ﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ مرَّ تفسيره. ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ما خلقناهما عبثاً ولا باطلاً، وإنما خلقناهما لنتعبَّد سكانهما بالأمر والنهي، ونعرضهم للثواب وضروب النعم، فنجازيهم في الآخرة بأعمالهم. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني يوم القيامة، فإنه أجل مسمى عنده، مطوي عن العباد علمه إذا انتهى إليه تناهى وقامت القيامة. وقيل: هو مسمى للملائكة وفي اللوح المحفوظ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: أن الكافرين عما أُنذِرُوا من القيامة والجزاء معرضون، عادلون عن التفكر فيه. ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين كفروا بالله ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فاستحقوا بخلق ذلك العبادة والشكر ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: في خلقها، وتقديره: أم لهم شرك ونصيب في خلق السماوات. ثم قال لهم: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ القرآن أنزله الله يدل على صحة قولكم ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: بقية من علم يؤثر، من كتب الأولين يعلمون به أنهم شركاء الله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون، عن مجاهد. وقيل: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: خبر من الأنبياء، عن عكرمة ومقاتل. وقيل: هو الخط، أي: بكتاب مكتوب، عن ابن عباس. وقيل: خاصة من علم أُوثرتم به عن قتادة. والمعنى: فهاتوا إحدى هذه الحجج الثلاث: أُوْلاها: دليل العقل، والثانية: الكتاب، والثالثة: الخبر المتواتر. فإذا لم يمكنهم شيء من ذلك فقد وضح بطلان دعواهم. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: مَنْ أضل عن طريق الصواب ممن يدعو من دون الله شيئاً، لو دعاه إلى يوم القيامة لم يجبه ولم يغثه. والمراد: إنه لا يستجيب له أبداً. ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي: ومن يدعونهم مع ذلك لا علم لهم بدعائهم ولا يسمعون دعاءهم، وإنما كنى عن الأصنام بالواو والنون، لما أضاف إليها ما يكون من العقلاء، كقوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

● **اللغة**: الآية: الدلالة التي تدل على ما يُتَعَجَّب منه. قال:

بـآيـةٍ تَـقْـدُمُـونَ الـخَـيْـلَ زَوْراً   كـأنّ عـلـى سـنـابِـكِـهـا مُـدامـا[(١)]

أفاض القوم في الحديث: إذا مضوا فيه، وأصل الإفاضة: الدفع، وأفاضوا من عرفات: اندفعوا منها، وحديث مفاض ومستفاض ومستفيض أي: جار شائع. والبدع والبديع بمعنى، وهو بدع من قوم أبداع، قال عدي بن زيد:

فـلا أنـا بِـدْعٌ مـن حـوادث تَـعْـتَـري   رجالًا عَـرَتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسٍ وأَسْعُدِ[(٢)]

● **النزول:** قيل: نزلت الآية الأخيرة في عبد الله بن سلام، وهو الشاهد من بني إسرائيل، فَرُوِي أن عبد الله بن سلام جاء إلى النبي ﷺ فأسلم، وقال: يا رسول الله، سل اليهود عني فإنهم يقولون: هو أعلمنا، فإذا قالوا ذلك قلت لهم: إن التوراة دالة على نبوتك، وإن صفاتك فيها واضحة. فلما سألهم قالوا ذلك، فحينئذٍ أظهر عبد الله بن سلام إيمانه فكذَّبوه.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أنه إذا قامت القيامة صارت آلهتهم التي عبدوها أعداء لهم، فقال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾، وكذلك قوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾. ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ يعني أن هذه الأوثان التي عبدوها ينطقها الله، حتى يجحدوا أن يكونوا دعوا إلى عبادتها، ويكفروا بعبادة الكفار، ويجحدوا ذلك. ثم وصفهم الله سبحانه فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: للقرآن والمعجزات التي ظهرت على يد النبي ﷺ ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: حيلة لطيفة ظاهرة وخداع بيِّن. ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ أي: إن كذبت على الله واختلقت القرآن كما زعمتم ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: إن كان الأمر على ما تقولون: إني ساحر مفتر، فلا يمكنكم أن تمنعوا الله مني إذا أراد إهلاكي على أَفتَري عليه، والمراد: كيف افتري على الله من أجلكم، وأنتم لا تقدرون على دفع عقابه عني إذا افتريت عليه. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: إن الله أعلم بما تقولون في القرآن، وتخوضون فيه من التكذيب به، والقول فيه بأنه سحر. ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أنّ القرآن جاء من عنده ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في تأخير العقاب عنكم حين لا يعجل بالعقوبة. قال الزجاج: هذا دعاء لهم إلى التوبة، أي: من أتى من الكبائر مثل ما أتيتم به من الافتراء على الله وعليّ ثم تاب فإن الله غفور رحيم به.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: لست بأول رسول بعث، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. والبدع: الأول من الأمر ﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي: لا أدري أأموت أم أقتَل، ولا أدري أيها المكذِّبون أترمون بالحجارة من السماء أم يخسف بكم، أم ليس يفعل

---

(١) قدَمَ القومَ يقدُمهم قدوماً: سبقهم والزور: ما ارتفع من الصدر إلى الكتفين. مقصوده: إنّ تقدمهم على الخيل بتقدم صدورهم على صدورها حال كون سنابكها محمرّة من الدم، كأنه انصبّت عليها الخمر، وهي شديدة العدو آية عجيبة وفي نسخة «شعثاً» بدل «زوراً».

(٢) عراه واعتراه بمعنى أصابه. وأسعد جمع سعد: وهو اليمن وضد النحس. يقول: لست أنا بأول من أصابته الحوادث مع أنها تصيب رجالًا قد أصابتهم في السعد من البخت، والبؤس منه.

بكم ما فعل بالأمم المكذِّبة؟ وهذا إنما هو في الدنيا، وأما في الآخرة فإنه قد علم أنه في الجنة، وأن من كذَّبه في النار، عن الحسن والسدي. وقيل معناه: لست أدعي غير الرسالة ولا أدعي علم الغيب ولا معرفة ما يفعله الله تعالى بي ولا بكم في الإحياء والإماتة، والمنافع والمضار، إلا أن يوحى إليّ، عن أبي مسلم. وقيل: ما أدري ما أُؤْمَرُ به، ولا ما تؤمرون به، عن الضحاك. وقيل: ما أدري أَأُتْرَكُ بمكة أو أخرج منها، بأن أُؤمَر بالتحول عنها إلى بلد آخر، وما أدري أَأُؤمر بقتالكم أو بالكف عن قتالكم وهل ينزل بكم العذاب أم لا؟ ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: لست أتبع في أمركم من حرب أو سلم، أو أمر أو نهي إلا ما يوحي الله إليّ وما يأمرني به. ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مخوِّف لكم ظاهر. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ معناه: أخبروني ماذا تقولون ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: إن كان هذا القرآن من عند الله هو أنزله، وهذا النبي رسوله. ﴿وَكَفَرْتُم﴾ أنتم أيها المشركون به ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعني عبد الله بن سلام ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾، معناه: عليه، أي: على أنه من عند الله. وقيل: على مثله أي: على التوراة، عن مسروق. وقيل: الشاهد موسى، شهد على التوراة كما شهد النبي ﷺ على القرآن، لأن السورة مكية وابن سلام أسلم بالمدينة ﴿فَـَٔامَنَ﴾ يعني الشاهد ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم على الإيمان به، وجواب قوله: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ محذوف، وتقديره: ألستم من الظالمين. ويدل على هذا المحذوف قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقيل: جواب ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ﴾، عن الحسن. وقيل جوابه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ﴾، عن الزجاج.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ
لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً
وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ
خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا
وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ
أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ
لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الحجاز وابن عامر ويعقوب: «لتنذر» بالتاء، والباقون: بالياء. وقرأ أهل الكوفة: «إحساناً» والباقون: «حسناً». وروي عن علي عليه السلام، وأبي عبد الرحمن السلمي: «حَسَناً» بفتح الحاء والسين. وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو والكسائي: «كَرهاً» بفتح الكاف، والباقون: بضمها. وقرأ يعقوب: «وفصله»، وهو قراء الحسن وأبي رجاء وعاصم والجحدري، والباقون: «وفصاله».

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ: «لتنذر» بالتاء قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ وقوله: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ﴾. وحجة الياء: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أو أسند الإنذار إلى الكتاب كما أسنده إلى الرسول. وأما الباء في قوله: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ فيجوز أن يتعلق بـ ﴿وَوَصَّيْنَا﴾، بدلالة قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾. ويجوز أن يتعلق بالإحسان، ويدل عليه قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى﴾. ولا يجوز أن يتعلق في الآية بالإحسان لتقدمها على الموصول، ولكن يجوز أن تعلقه بمضمر يفسّره الإحسان، كما جاز في نحو قوله: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾، وقوله:

كان جزائي بالعصا أنْ أُجلَدا

في قول من لم يعلقه بالجزاء. والإحسان: خلاف الإساءة، والحسن: خلاف القبيح، فمن قال «إحساناً» كان انتصابه على المصدر، وذلك أن معنى قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أمرناه بالإحسان، أي: ليأت الإحسان إليهما دون الإساءة، ولا يجوز أن يكون انتصابه بـ ﴿وَوَصَّيْنَا﴾، لأن ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ قد استوفى مفعوليه اللذين أحدهما منصوب، والآخر المتعلق بالباء.

ومن قرأ: «حسناً» فمعناه: ليأت في أمرهما أمراً ذا حسن، أي: ليأت الحسن في أمرهما دون القبيح، ويؤيده قراءة عليّ، صلوات الرحمٰن عليه: «حَسَناً» لأن معناه: ليأت في أمرهما فعلًا حسناً.

وأما «الكَره» بالفتح فهو المصدر، و«الكُره» بالضم الاسم، كأنه الشيء المكروه. وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ وهذا بالضم، وقال: ﴿أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ فهذا في موضع الحال، والفتح فيه أحسن، وقد قيل: إنهما لغتان.

وأما الفصل فهو بمعنى الفصال، إلا أن الأكثر بالألف. وفي الحديث: «لا رضاع بعد الفصال» يعني بعد الفطام.

● **اللغة:** القديم: ما تقادم وجوده، وفي عرف المتكلمين: هو الموجود الذي لا أول لوجوده. والإيزاع: أصله المنع، وأوزعني: أمنعني عن الانصراف عن ذلك باللطف، ومنه قول الحسن: «لا بد للناس من وَزَعَةٍ»[1]، وقال أبو مسلم: الإيزاع: إيصال الشيء إلى القلب.

● **الإعراب:** ﴿إِمَامًا﴾ منصوب على الحال من الضمير في الظرف عند سيبويه، ومن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ عند الأخفش. ومن رفع بالظرف، ويجوز أن يرتفع قوله: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ بالعطف على قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: وشهد شاهد من قبل القرآن كتاب موسى، ففصل بالظرف بين الواو والمعطوف به. ﴿وَرَحْمَةً﴾ معطوف على قوله: ﴿إِمَامًا﴾. و﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال أيضاً من قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾، ويجوز أن يكون حالًا مما في ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ من الضمير، وتقديره: وهذا كتاب مصدِّق ملفوظاً به على لسان العرب. ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ عطف على قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ وهو مفعول له. ﴿جَزَآءًۢ﴾ مصدر مؤكد قبله، وتقديره:

(١) جمع الوازع: وهو المانع الزاجر أي: لا بد للناس من ولاة مانعين عن محارم الله تعالى.

جُوزوا جزاء، فاستغنى عن ذكر جوزوا لدلالة الجملة قبلها عليها، ويجوز أن يكون ﴿جَزَآءَ﴾ مفعولًا له، و﴿كُرْهًا﴾ منصوب على الحال، أي: حملته كارهة.

● **المعنى**: ثم أخبر سبحانه عن الكفار الذين جحدوا وحدانيته، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي: لو كان هذا الذي يدعونا إليه محمد خيراً، أي: نفعاً عاجلًا أو آجلًا، ما سبقنا هؤلاء الذين آمنوا به إلى ذلك، لأنا كنا بذلك أولى. واختلف فيمن قال ذلك، فقيل: هم اليهود، قالوا: لو كان دين محمد ﷺ، خيراً ما سبقنا إليه عبد الله بن سلام، عن أكثر المفسرين. وقيل: إن أسلم وجهينة ومزينة وغفاراً، لما أسلموا قال بنو عامر بن صعصعة وغطفان وأسد وأشجع هذا القول، عن الكلبي. ونظم الكلام يوجب أن يكون: ما سبقتمونا إليه، ولكنه على ترك المخاطبة. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: فإذا لم يهتدوا بالقرآن من حيث لم يتدبروه فسيقولون : هذا القرآن كذب متقادم، أي: أساطير الأولين. ثم قال سبحانه: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: من قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿إِمَامًا﴾ يقتدى به ﴿وَرَحْمَةً﴾ من الله للمؤمنين به قبل القرآن. وتقدير الكلام: وتقدمه كتاب موسى إماماً. وفي الكلام محذوف يتم به المعنى تقديره: فلم يهتدوا به، ودل عليه قوله في الآية الأولى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾، وذلك أن المشركين لم يهتدوا بالتوراة فيتركوا ما هم عليه من عبادة الأوثان، ويعرفوا منها صفة محمد ﷺ. ثم قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ يعني القرآن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ للكتب التي قبله، ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ ذكر اللسان توكيداً، كما تقول: جاءني زيد رجلًا صالحاً، فتذكر رجلًا توكيداً ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: لتخوفهم، يخاطب النبي ﷺ. ومن قرأ بالياء أسند الفعل إلى الكتاب. ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وبشارة للمؤمنين. وقيل معناه: ويبشر بشرى، فيكون نصباً على المصدر. ويجوز أن يكون في موضع رفع، أي: وهو بشرى للمحسنين الموحِّدين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ مرَّ تفسيره. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العقاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من أهوال يوم القيامة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الملازمون لها المنعمون فيها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الطاعات والأعمال الصالحات.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ مرّ تفسيره. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ أي: بكُرهٍ ومشقة، عن الحسن وقتادة ومجاهد. يعني حين أثقلت وثقل عليها الولد ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ يريد به شدة الطلق، عن ابن عباس ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ يريد أن أقل مدة الحمل وكمال مدة الرضاع، ثلاثون شهراً. قال ابن عباس: إذا حملت تسعة أشهر أرضعت أحداً وعشرين شهراً، وإذا حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ وهو ثلاث وثلاثون سنة، عن ابن عباس وقتادة. وقيل: بلوغ الحلم، عن الشعبي. وقيل: وقت الحجة عليه، عن الحسن. وقيل: هو أربعون سنة، وذلك وقت إنزال الوحي على الأنبياء، ولذلك فسّر به فقال: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، فيكون هذا بياناً لزمان الأشد. وأراد بذلك أنه يكمل له رأيه ويجتمع عليه عقله عند الأربعين سنة ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ أي: ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ

وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ قد مرّ تفسيره في سورة النمل. ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أي: اجعل ذريتي صالحين، عن الزجاج. وقيل: إنه دعاه بإصلاح ذريته لبِرّه وطاعته، لقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِى﴾. وقيل: إنه الدعاء بإصلاحهم لطاعة الله عز وجل وهو عبادته وهو الأشبه، لأن طاعتهم لله من بره، لأن اسم الذرية يقع على من يكون بعده. وقيل معناه: اجعلهم لي خلف صدق ولك عبيد حق، عن سهل بن عبد الله. ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من سيئاتي وذنوبي ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لأمرك.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: «نتقبّل ونتجاوز» بالنون، «أحسنَ» بالنصب، والباقون: «يُتقبل ويُتجاوز» بضم الياء، «أحسنُ» بالرفع. وقرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب: «آذهبتم» بهمزة واحدة ممدودة، وقرأ ابن عامر: «أأذهبتم» بهمزتين، والباقون: «أذهبتم» بفتح الهمزة.

● **الحجة:** من قرأ: «يُتقبَّلُ» فلأن الفعل وإن كان مبنياً للمفعول به، فمعلوم أنه لله تعالى، كما جاء في الأخرى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. فبناؤه للمفعول كبنائه للفاعل في العلم بالفاعل. وحجة من قرأ: «نتقبل» بالنون أنه قد تقدم الكلام ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، وكلاهما حسن. وقد ذكرنا اختلافهم في «أفّ» في بني إسرائيل. وحجة الاستفهام في «أذهبتم» أنه قد جاء هذا النحو بالاستفهام نحو: «أليس هذا بالحق»، وقوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾. ووجه الخبر أن الاستفهام تقرير فهو مثل الخبر، ألا ترى أن التقرير لا يجاب بالفاء كما يجاب بها إذا لم يكن تقريراً، فكأنهم يوبّخون بهذا الذي يخبرون به ويبكّتون. والمعنى في القراءتين يقال لهم هذا، فحذف القول كما حذف في نحو قوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

● **الإعراب:** ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ نصب على المصدر، تقديره: وعدهم الله ذلك وعداً، وإضافته إلى ﴿ٱلصِّدْقِ﴾ غير حقيقية لأن ﴿ٱلصِّدْقِ﴾ في تقدير النصب بأنه صفة ﴿وَعْدَ﴾ و﴿ٱلَّذِى

كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ موصول وصلة في موضع النصب بكونه صفة للوعد، و﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ مبتدأ وخبر، تقديره: هذه الكلمة التي تقال عند الأمور المكروهة كائنة لكما. ﴿وَيْلَكَ﴾ منصوب لأنه مفعول فعل محذوف، تقديره: ألزمك الله الويل. وقيل تقديره: ويل لك، فهو مبتدأ وخبر كما قلناه في ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ معطوف على محذوف، تقديره والله أعلم: ليجزيهم بما عملوا وليوفيهم أعمالهم.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه بما يستحقه هذا الإنسان من الثواب، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني أهل هذا القول ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي: يثابون على طاعاتهم، والمعنى: نقبل بإيجاب الثواب لهم أحسن أعمالهم، وهو ما يستحق به الثواب من الواجبات والمندوبات، فإن المباح أيضاً من قبيل الحسن ولا يوصف بأنه متقبل. ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ التي اقترفوها ﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: في جملة من يتجاوز عن سيئاتهم وهم أصحاب الجنة، فيكون قوله: ﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ في موضع نصب على الحال. ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي: وعدهم وعد الصدق، وهو ما وعد أهل الإيمان بأن يتقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم إذا شاء أن يتفضل عليهم بإسقاط عقابهم، أو إذا تابوا، الوعد الذي كانوا يوعدونه في الدنيا على ألسنة الرسل.

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ إذا دعوه إلى الإيمان ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ وهي كلمة تَبَرُّم يقصد بها إظهار التَسَخُّط، ومعناه: بعداً لكما. وقيل معناه: نتناً وقذراً لكما، كما يقال عند شم الرائحة المكروهة. ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ من القبر وأحيا وأبعث. ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ أي: مضت الأمم وماتوا قبلي فما أُخرجوا ولا أُعيدوا. وقيل معناه: خلت القرون على هذا المذهب، ينكرون البعث ﴿وَهُمَا﴾ يعني والديه ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي: يستصرخان الله ويطلبان منه الغوث ليلطف له بما يؤمن عنده، ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ بالقيامة وبما يقوله محمد ﷺ، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والنشور والثواب والعقاب ﴿حَقٌّ فَيَقُولُ﴾ هو في جوابهما ﴿مَا هَٰذَآ﴾ القرآن وما تزعمانه وتدعوانني إليه ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أخبار الأولين وأحاديثهم التي سطروها وليس لها حقيقة.

وقيل: إن الآية نزلت في عبد الرحمٰن بن أبي بكر، قال له أبواه: أسلم، وألَحّا عليه، فقال: أحيوا لي عبد الله بن جدعان ومشايخ قريش، حتى أسألهم عما تقولون، عن ابن عباس وأبي العالية والسدي ومجاهد. وقيل: الآية عامة في كل كافر عاقٍّ لوالديه، عن الحسن وقتادة والزجاج قالوا: ويدل عليه أنه قال عقيبهما: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب في أمم، أي: مع أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ على مثل حالهم واعتقادهم. قال قتادة: قال الحسن: الجن لا يموتون، فقلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ﴾ الآية تدل على خلافه. ثم قال سبحانه مخبراً عن حالهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَٰسِرِينَ﴾ لأنفسهم إذا أهلكوها بالمعاصي.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أي: لكل واحد ممن تقدَّم ذكره من المؤمنين البَرَرَة، والكافرين

الفجرة درجات على مراتبهم ومقادير أعمالهم، فدرجات الأبرار في عليين، ودرجات الفجار دركات في سجين، عن ابن زيد وأبي مسلم. وقيل معناه: ولكل مطيع درجات ثواب وإن تفاضلوا في مقاديرها، عن الجبائي وعلي بن عيسى. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم وثوابها. ومن قرأ بالياء فالمعنى: وليوفيهم الله أعمالهم، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بعقاب لا يستحقونه، أو بمنع ثواب يستحقونه.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ يعني يوم القيامة، أي: يدخلون النار، كما يقال: عرض فلان على السوط. وقيل معناه: عرض عليهم النار قبل أن يدخلوها ليروا أهوالها، ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ أي: فيقال لهم: آثرتم طيباتكم ولذاتكم في الدنيا على طيبات الجنة، ﴿وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ أي: انتفعتم بها منهمكين فيها. وقيل: هي الطيبات من الرزق، يقول: أنفقتموها في شهواتكم وفي ملاذ الدنيا، ولم تنفقوها في مرضاة الله.

ولما وبّخ الله سبحانه الكفار بالتمتع بالطيبات واللذات في هذه الدار، آثر النبي ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام الزهد والتقشف واجتناب الترفه والنعمة. وقد روى في الحديث أن عمر بن الخطاب قال: استأذنت على رسول الله ﷺ فدخلت عليه في مشربة أم إبراهيم، وإنه لمضطجع على خصفة[1]، وإن بعضه على التراب، وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً، فسلمت عليه ثم جلست فقلت: يا رسول الله، أنت نبي الله وصفوته وخيرته من خلقه، وكسرى وقيصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحرير؟ فقال رسول الله ﷺ: «أولئك قوم عُجِّلَت طيباتهم، وهي وشيكة الانقطاع، وإنما أُخِّرَت لنا طيباتنا».

وقال علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلوات في بعض خطبه: «والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها. ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها؟ فقلت: اغرب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرى».

وروى محمد بن قيس عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «والله إن كان علي عليه السلام ليأكل أكلة العبد، ويجلس جلسة العبد، وإن كان يشتري القميصين فيخيِّر غلامه خيرهما، ثم يلبس الآخر، فإذا جاز أصابعه قطعه، وإذا جاز كعبه حذفه، ولقد ولي خمس سنين ما وضع آجُرَّة على آجُرَّة، ولا لبنة على لبنة، ولا أورث بيضاء ولا حمراء، وإن كان ليطعم الناس على خبز البر واللحم، وينصرف إلى منزله فيأكل خبز الشعير والزيت والخل، وما ورد عليه أمران كلاهما لله عز وجل، فيه رضى، إلا أخذ بأشدهما على بدنه، ولقد أعتق ألف مملوك من كَدِّ يمينه، تربت منه يداه وعرق فيه وجهه، وما أطاق عمله أحد من الناس بعده، وإن كان ليصلي في اليوم والليلة ألف ركعة. وإن كان أقرب الناس شبهاً به علي بن الحسين عليه السلام، ما أطاق عمله أحد من الناس بعده».

ثم إنه قد اشتهر في الرواية أنه عليه السلام لما دخل على العلاء بن زياد بالبصرة يعوده، قال له

---

(١) الخَصَفَة: الجُلّة تُعمل من الخوص للتمر.

العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد، لبس العباءة وتحلى من الدنيا، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: عليَّ به. فلما جاء به قال: يا عُديّ نفسه، لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولدك؟ أترى الله أحلَّ لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها، أنت أهون على الله من ذلك؟ قال: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك، قال: ويحك إني لست كأنت، إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يقدِّروا أنفسهم بضعفة الناس، كيلا يَتبيَّغ(1) بالفقير فقره.

﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: العذاب الذي فيه الذل والخزي والهوان، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: باستكباركم عن الانقياد للحق في الدنيا، وتكبركم على أنبياء الله وأوليائه ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي: بخروجكم من طاعة الله إلى معاصيه.

●●●

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير الكسائي ويعقوب وسهل: «لا يُرى» بضم الياء، «إلا مساكنُهم» بالرفع، وقرأ الباقون: «لا ترى» بالتاء، «إلا مساكِنَهم» بالنصب. وفي الشواذ قراءة الحسن وأبي رجاء وقتادة ومالك بن دينار والأعمش: «لا تُرى» بضم التاء، «إلا مساكِنُهم» بالرفع. وقرأ الأعمش: «مسكنهم».

● **الحجة:** قال أبو علي: تذكير الفعل في قوله: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ حسن، وهو أحسن من إلحاق علامة التأنيث الفعل من أجل الجمع، وذلك أنهم حملوا الكلام في هذا الباب على المعنى، فقالوا: ما قام إلا هند، ولم يقولوا: ما قامت، لما كان المعنى: ما قام أحد، ولا يجيء التأنيث فيه إلا في شذوذ وضرورة، فمن ذلك قول الشاعر:

برى النحزُ والإجراز ما في عروضها فما بَقِيَتْ إلا الصُدور الجَراشِعُ(2)

---

(1) باغ الدم بَيْغاً وتبيّغ: هاج وثار.

(2) برى السفر الإنسان والحيوان هزله، وأذهب لحمه. ونخره بحديدة أو نحوها نخراً: وجأه بها، وبكلمة: أوجعه بها، وأجرز الناقة: هزلت فهي مجرز. والعرض: الناحية. والعرض من الحديث: معظمه ومن العنق: جانبه. والجرشع: العظيم الصدر المنتفخ الجنبين. يقال: أذهب النخر والهزال ما في نواحي بدنها من اللحم والشحم، فلم يبق منها إلا عظام صدر منتفخ، ليس عليها شحم، ولا دم.

وقول ذي الرمة:

كأنها جُمَّلٌ وَهْمٌ وما بَقِيَتْ إلا النَّحيزةُ والألواحُ والعَصَبُ(١)

قال ابن جني: قوله: ﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾: إن شئت جعلته مصدراً، وقدرت حذف المضاف، أي: لا ترى إلا آثار مسكنهم، كما قال ذو الرمة:

تَقُولُ عَجوزٌ: مَدرجي مُتَروِّحاً على بابها من عِندِ أهلي، وغاديا(٢)

فالمدرج هنا مصدر، ألا تراه قد نصب الحال، وإن شئت قلت: «مسكنهم» واحد كفى من جماعة.

● **اللغة:** الأحقاف: جمع حِقْف، وهو الرمل المستطيل العظيم، لا يبلغ أن يكون جبلاً. قال المبرد: الحقف: هو الرمل الكثير المكتنز غير العظيم، وفيه اعوجاج. قال العجاج:

بات على أرطاةِ حِقْفٍ أحقفا

والعارض: السحاب يأخذ في عرض السماء، قال الأعشى:

يا مَنْ رأى عارضاً قَدْ بِتُّ أرمَقُهُ كأنما البرقُ في حافاتِه(٣) شُعَلُ

والتدمير: الإهلاك وإلقاء بعض الأشياء على بعض حتى يخرب ويهلك، قال جرير:

وكان لَهُمْ كَبَكْرِ ثَمُودَ لَمَّا رغى ظهراً، فدمَّرَهُمْ دماراً(٤)

● **المعنى:** ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمد لقومك أهل مكة ﴿أَخَا عَادٍ﴾ يعني هوداً ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ أي: خوَّفهم بالله تعالى ودعاهم إلى طاعته ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾ وهو واد بين عُمان ومهرة، عن ابن عباس. وقيل: رمال فيما بين عمان إلى حضرموت، عن ابن إسحاق. وقيل: رمال مشرفة على البحر بالشِحْر(٥) من اليمن، عن قتادة. وقيل: أرض خلالها رمال، عن الحسن. ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي: وقد مضت الرسل من قبل هود عليه السلام ومن بعده ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: بألا تعبدوا. والمعنى: إني لم أبعث قبل هود ولا بعده إلا بالأمر بعبادة الله وحده، وهذا اعتراض كلام وقع بين إنذار هود وكلامه لقومه. ثم عاد إلى كلام هود لقومه فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وتقدير الكلام: إذ أنذر قومه بالأحقاف فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾، الآية. ثم حكى ما أجاب به قومه بقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا﴾ يا هود

---

(١) الجَمَل والجُمَّل: حبل السفينة. والوَهْم: الضخم. والنحيزة من نحز البعير إذا أصابه النحاز: وهو داء في رئته يسعل به شديداً. ولوح الجسد: عظمه، يصفها بأنها صارت من الهزال بمنزلة الحبل، فما بقي فيها شيء سوى النَفَس، والعظم، والعصب.

(٢) مذكور في (جامع الشواهد).

(٣) حافات الشيء: جوانبه.

(٤) رغى البعير رُغاء: صوّت وضجّ. والبكر: الفتي من الإبل.

(٥) الشَحْر: ساحل اليمن. وشَحْر عمان وشِحْر عمان: وهو ساحل البحر بين (عمان)، و(عدن).

﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ أي: لتلفتنا وتصرفنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: عن عبادة آلهتنا ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أن العذاب نازل بنا. ﴿قَالَ﴾ هود ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هو يعلم متى يأتيكم العذاب لا أنا ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ إليكم، أي: وأنا أبلغكم ما أمرت بتبليغه إليكم ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ حيث لا تجيبون إلى ما فيه صلاحكم ونجاتكم، وتستعجلون العذاب الذي فيه هلاككم، وهذا لا يفعله إلا الجاهل بالمنافع والمضار. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: فلما رأوا ما يوعدون، والهاء تعود إلى «ما تعدنا» في قوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾. ﴿عَارِضًا﴾ أي: سحاباً يعرض في ناحية من السماء ثم يطبق السماء ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾، قالوا: كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً، فساق الله إليهم سحابة سوداء خرجت عليهم من واد لهم يقال له: المغيث، فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم استبشروا و﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي: سحاب ممطر إيانا، هذا تقديره لأنه نكرة، بدلالة أنه صفة لـ«عارض». فقال هود عليه السلام: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ أي: ليس هو كما توهمتم، بل هو الذي وعدتكم به، وطلبتم تعجيله. ثم فسره فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: هو ريح فيها عذاب مؤلم. وقيل: بل هو قول الله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: تهلك كل شيء مرَّت به من الناس والدواب والأموال، واعتزل هود ومن معه في حظيرة لم يصبهم من تلك الريح إلا ما تلين على الجلود وتلتذ به الأنفس، وإنها لتمر من عاد بالظعن ما بين السماء والأرض، حتى تُرى الظعينة كأنها جرادة، عن عمر بن ميمون. ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ وما عداها قد هلك. ومن قرأ بالتاء فهو على وجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما أهلكنا أهل الأحقاف وجازيناهم بالعذاب ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين الذين يسلكون مسالكهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة ابن عباس وعكرمة وأبي عامر: «أفَكَهم» بفتح الألف والفاء والكاف، وقراءة عبد الله بن الزبير: «آفكهم»، وقراءة ابن عياض: «أفّكهم» بالتشديد.

● **الحجة:** قوله: «أفَكَهم» معناه: صرفهم وثناهم، قال:

إنْ يكُ عَنْ أحْسَنِ المروءةِ مَأْفُو كاً ففي آخرينَ قدْ أُفِكُوا[1]

و«آفَكَهم» أفعلهم منه، أي: أصارهم إلى الإفك، ويجوز أن يكون فَاعَلُهم من ذلك مثل خادَعَهم. وأما «أَفَّكَهُم» ففعَّلهم، وذلك لتكثيره ذلك الفعل بهم. وروي عن قطرب أن ابن عباس قرأ: «آفِكُهم»، أي: صارفهم.

● **اللغة:** التمكين: إعطاء ما يتمكن به من الفعل، وتدخل فيه القدرة والآلة وسائر ما يحتاج إليه الفاعل. وقيل: التمكين: إزالة الموانع، وذلك داخل في الأول، لأنه كما يحتاج الفاعل في الفعل إلى الآلات، يحتاج إلى زوال الموانع، فإذا أُزيحت عنه العلل كلها فقد مُكِّن. والقربان: كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من طاعة أو نسك. والجمع: قرابين.

● **الإعراب:** ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾: إن هنا بمعنى «ما» و«إن» في النفي مع «ما» الموصولة بمعنى الذي أحسنُ في اللفظ من «ما». ألا ترى أنك لو قلت: رغبت فيما ما رغبت فيه، لكان أحسن منه أن تقول: رغبت فيما إن رغبت فيه، لاختلاف اللفظين.

● **المعنى:** ثم خوَّف سبحانه كفار مكة، وذكر فضل عاد بالأجسام والقوة عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ﴾ أي: في الذي ما مكناكم ﴿فِيهِ﴾. والمعنى: في الشيء الذي لم نُمكِّنكم فيه، من قوة الأبدان، وبسطة الأجسام، وطول العمر، وكثرة الأموال، عن ابن عباس وقتادة. وقيل معناه: فيما مكناكم فيه، و«إن» مزيدة. والمعنى: مكناهم من الطاعات، وجعلناهم قادرين متمكنين بنصب الأدلة على التوحيد، والتمكين من النظر فيها، والترغيب والترهيب، وإزاحة العلل في جميع ذلك. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ ثم أخبر سبحانه عن أولئك أنهم أعرضوا عن قبول الحجج، والتفكر فيما يدلهم على التوحيد، مع ما أعطاهم الله من الحواس الصحيحة التي بها تدرك الأدلة. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: لم ينفعهم جميع ذلك، لأنهم لم يعتبروا ذلك، ولا استعملوا أبصارهم وأفئدتهم في النظر والتدبر ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وأدلته، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: حل بهم جزاء ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ معناه: ولقد أهلكنا يا أهل مكة ما حولكم، وهم قوم هود، وكانوا باليمن، وقوم صالح بالحجر، وقوم لوط على طريقهم إلى الشام، ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ تصريف الآيات: تصييرها تارة في الإعجاز، وتارة في الإهلاك، وتارة في التذكير بالنعم، وتارة في التذكير بالنقم، وتارة في وصف الأبرار ليقتدى بهم، وتارة في وصف الفُجّار ليجتنب مثل فعلهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لكي يرجعوا عن الكفر. ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ أي: فهلّا نصر هؤلاء المهلكين الذين اتخذوهم آلهة، وزعموا أنهم يعبدونهم تقرباً إلى الله تعالى ثم لم ينصروهم، لأن هذا استفهام إنكار، ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي: ضلت الآلهة وقت الحاجة إليها، فلم تنفعهم عند نزول العذاب بهم. ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾

---

(١) مر البيت في ج٣.

أي: اتخاذهم الآلهة دون الله كذبهم وافتراؤهم، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: يكذبون من أنها آلهة.

ثم بيَّن سبحانه أن في الجن مؤمنين وكافرين، كما في الإنس، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ معناه: واذكر يا محمد إذ وجّهنا إليك جماعة من الجن تسمع القرآن. وقيل معناه: صرفناهم إليك عن بلادهم بالتوفيق والألطاف حتى أتوك. وقيل: صرفناهم إليك عن استراق السمع من السماء برجوم الشهب، ولم يكونوا بعد عيسى قد صرفوا عنه، فقالوا: ما هذا الذي حدث في السماء إلا من أجل شيء قد حدث في الأرض، فضربوا في الأرض حتى وقفوا على النبي ﷺ، ببطن نخلة عامداً إلى عكاظ، وهو يصلي الفجر، فاستمعوا القرآن، ونظروا كيف يصلي، عن ابن عباس وسعيد بن جبير. وعلى هذا فيكون الرمي بالشهب لطفاً للجن. ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: حضروا القرآن أو النبي ﷺ ﴿قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ أي: قال بعضهم لبعض: اسكتوا لنستمع إلى قراءته، فلا يحول بيننا وبين القرآن[1] شيء. ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أي: فرغ من تلاوته ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ أي: انصرفوا إلى قومهم ﴿مُّنذِرِينَ﴾ أي: مُحَذِّرين إياهم عذاب الله إن لم يؤمنوا ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ يعنون القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لما تقدمه من الكتب، ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي: يرشد إلى دين الحق، ويدل عليه، ويدعو إليه ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يؤدي بسالكه إلى الجنة.

القصة: عن الزهري قال: لما توفي أبو طالب اشتد البلاء على رسول الله ﷺ، فعمد ليقف بالطائف رجاء أن يؤووه، فوجد ثلاثة نفر منهم هم سادة، وهم إخوة: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو، فعرض عليهم نفسه، فقال أحدهم: أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط، وقال الآخر: أَعَجِزَ الله أن يرسل غيرك؟ وقال الآخر: والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا أبداً، فلئن كنت رسولاً كما تقول فأنت أعظم خطراً من أن يرد عليك الكلام، وإن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك بعد. وتهزأوا به، وأفشوا في قومه ما راجعوه به، فقعدوا له صفين على طريقه. فلما مرَّ رسول الله ﷺ بين صفَّيهم، جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة، حتى أدموا رجليه. فخلص منهم وهما يسيلان دماً إلى حائط من حوائطهم، واستظل في ظل نخلة منه وهو مكروب موجع، تسيل رجلاه دماً، فإذا في الحائط عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، فلما رآهما كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ورسوله. فلما رأياه أرسلا إليه غلاماً لهما يدعى: عداس، معه عنب، وهو نصراني من أهل نينوى، فلما جاءه قال له رسول الله ﷺ: من أي أرض أنت؟ قال: من أهل نينوى، قال: من مدينة العبد الصالح يونس بن متى، فقال له عداس: وما يدريك من يونس بن متى؟ قال: أنا رسول الله، والله تعالى أخبرني خبر يونس بن متى. فلما أخبره بما أوحى الله إليه من شأن يونس، خرَّ عداس ساجداً لله ولرسول الله ﷺ، وجعل يقبِّل قدميه وهما يسيلان الدماء. فلما

(١) وفي نسختين: «الإستماع» بدل «القرآن».

بصر عتبة وشيبة ما يصنع غلامهما سكتا، فلما أتاهما قالا: ما شأنك سجدت لمحمد وقبَّلت قدميه، ولم نرك فعلت ذلك بأحد منا؟ قال: هذا رجل صالح أخبرني بشيء عرفته من شأن رسول بعثه الله إلينا يدعى يونس بن متى. فضحكا، وقالا: لا يفتننَّك عن نصرانيتك فإنه رجل خداع. فرجع رسول الله ﷺ إلى مكة، حتى إذا كان بنخلة، قام في جوف الليل يصلي، فمر به نفر من جن أهل نصيبين. وقيل: من اليمن. فوجدوه يصلي صلاة الغداة ويتلو القرآن، فاستمعوا له، وهذا معنى قول سعيد بن جبير وجماعة. وقال آخرون: أمر رسول الله ﷺ أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله، ويقرأ عليهم القرآن، فصرف الله إليه نفراً من الجن من نينوى، فقال ﷺ: إني أمِرْتُ أن أقرأ على الجن الليلة، فأيكم يتبعني؟ فاتبعه عبد الله بن مسعود، قال عبد الله: ولم يحضر معه أحد غيري، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة، ودخل نبي الله شعباً يقال له: شعب الحجون، وخط لي خطاً، ثم أمرني أن أجلس فيه، وقال: لا تخرج منه حتى أعود إليك. ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن، فغشيته أسودة كثيرة حتى حالت بيني وبينه، حتى لم أسمع صوته، ثم انطلقوا وطفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب، ذاهبين حتى بقي منهم رهط، وفرغ رسول الله ﷺ مع الفجر. فانطلق فبرز ثم قال: هل رأيت شيئاً؟ فقلت: نعم، رأيت رجالًا سوداً مستثفري[1] ثياب بيض، قال: أولئك جن نصيبين. وروى علقمة عن عبد الله قال: لم أكن مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، ووددت أني كنت معه. وروي عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة نفر من جن نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلًا إلى قومهم. قال زِرّ بن حبيش: كانوا تسعة نفر، منهم زوبعة. وروى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: لما قرأ رسول الله ﷺ الرحمن على الناس، سكتوا فلم يقولوا شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: الجن كانوا أحسن جواباً منكم لما قرأت عليهم: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، قالوا: لا، ولا شيء من آلائك ربنا نكذّب.

●●●

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

(١) الإستثفار: هو أن يدخل الرجل ثوبه بين رجليه، كما يفعل الكلب بذنبه.

● **القراءة:** قرأ يعقوب وحده: «يقدر» بالياء، وهو قراءة جده عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وعاصم الجحدري، ومالك بن دينار. وقرأ جميع القراء: «بقادر». وفي الشواذ قراءة الحسن وعيسى الثقفي: «بلاغاً» بالنصب. وقراءة ابن محيصن: «فهل يهلك» بفتح الياء.

● **الحجة:** قال أبو علي: قراءة القراء: «أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض» إلى قوله: «بقادر»، من الحمل على المعنى، أدخل الباء لما كان في معنى: أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر، ومثل ذلك في الحمل على المعنى قول الشاعر:

بـادَتْ وغَـيَّـر آيَـهُـنَّ مـع الـبـلى   إلا رواكِـدُ جَـمْـرُهُـن هَـبـاءُ[1]

ثم قال:

ومُـشَـجَّـجٌ أمـا سـواءُ قـذالِه

لما كان: غير آيهن مع البلى إلا رواكد، بمعنى: بها رواكد، حمل: مشجج، على ذلك. وكذلك قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ ثم قال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ لما كان: يطاف عليهم بكذا معناه: لهم فيها كذا، وقالوا: إن أحداً لا يقول ذلك إلا زيد، فأدخل «أحداً» في الواجب، لما كان معنى الكلام النفي. ومن قرأ: «بلاغاً»، فهو على تقدير فعل مضمر أي: بلغوا بلاغاً، كما أن الرفع على تقدير مضمر أي: هو بلاغ، أو هذا بلاغ. وقرأ أبو مجلز[2]: «بلِّغ» على الأمر.

● **المعنى:** ثم بيّن سبحانه تمام خبر الجن، فقال حاكياً عنهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ يعنون محمداً ﷺ، إذ دعاهم إلى توحيده، وخلع الأنداد دونه ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ أي: بالله ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: فإنكم إن آمنتم بالله ورسوله يغفر لكم ذنوبكم ﴿وَيُجِرْكُم﴾ أي: ويخلصكم ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. قال علي بن إبراهيم: فجاءوا إلى رسول الله ﷺ، فآمنوا به، وعلمهم رسول الله ﷺ شرائع الإسلام، وأنزل الله سبحانه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ إلى آخر السورة. وكانوا يفِدُون إلى رسول الله ﷺ في كل وقت، وهذا دلالة على أنه كان مبعوثاً إلى الجن كما كان مبعوثاً إلى الإنس، ولم يبعث الله نبياً إلى الإنس والجن قبله ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يعجز الله فيسبقه ويفوته ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي: أنصار يمنعونه من الله، ويدفعون عنه العذاب إذا نزل بهم. ويجوز أن يكون هذا من كلام الله تعالى ابتداء. ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني الذين لا يجيبون داعي الله ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: عدول عن الحق ظاهر.

---

(١) الضمير في «بادت» راجع إلى «الديار. وفي نسخة «من» بدل «مع». والرواكد: الأثافي مشتقة من الركود لثباتها. وعجز قوله: «ومشجّج»: فبدا وغيّب سأره المعزاء». والمشجّج: الوتد مأخوذ من الشجّة: وهو الجرح يكون في الوجه والرأس. وشدّد لكثرة ذلك فيه. وسواء بمعنى الوسط. والقذال: جماع مؤخر الرأس. يقول: بادت الديار وغيّرت أعلامها فلم يبق فيها إلا أحجار ثاف جمرها صار هباء أيضاً، وكذا لم يبق فيها إلا وتد بدا رأسه، وأخفت الأرض الكثيرالحصى سائره ومرّ البيت في ج٢ وج٣.

(٢) وفي نسختين: أبو محلز.

ثم قال سبحانه مُنبِّهاً على قدرته على البعث والإعادة، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: أولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وأنشأهما ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: لم يصبه في خلق ذلك إعياء ولا تعب، ولم يعجز عنه، يقال: عيي فلان بأمره: إذا لم يهتد له ولم يقدر عليه. ﴿بِقَادِرٍ﴾ الباء زائدة وموضعه رفع بأنه خبر إن ﴿عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: فخلق السماوات والأرض أعجب من إحياء الموتى. ثم قال: ﴿بَلَىٰ﴾ هو قادر عليه ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثم عقّبه بذكر الوعيد فقال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يقال لهم على وجه الاحتجاج عليهم: أليس هذا الذي جُوْزيتم به حق لا ظلم فيه. ﴿قَالُوا﴾ أي: فيقولون ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ اعترفوا بذلك وحلفوا عليه بعد ما كانوا منكرين، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بكفركم في الدنيا وإنكاركم.

ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: فاصبر يا محمد على أذى هؤلاء الكفار، وعلى ترك إجابتهم لك كما صبر الرسل، و﴿مِنَ﴾ هاهنا لتبيين الجنس كما في قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾. وعلى هذا القول فيكون جميع الأنبياء هم أولو العزم، لأنهم عزموا على أداء الرسالة وتحمُّل أعبائها، عن ابن زيد والجبائي وجماعة. وقيل: إن «من» هاهنا للتبعيض، وهو قول أكثر المفسرين، والظاهر في روايات أصحابنا. ثم اختلفوا، فقيل: أولو العزم من الرسل: من أتى بشريعة مستأنفة، نسخت شريعة من تقدمه، وهم خمسة: أولهم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد ﷺ، عن ابن عباس وقتادة، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام. قال: وهم سادة النبيين، وعليهم دارت رحى المرسلين. وقيل: هم ستة: نوح صبر على أذى قومه، وإبراهيم صبر على النار، وإسحاق صبر على الذبح، ويعقوب صبر على فقد الولد وذهاب البصر، ويوسف صبر في البئر والسجن، وأيوب صبر على الضُّر والبلوى، عن مقاتل. وقيل: هم الذين أمرُوا بالجهاد والقتال، وأظهروا المكاشفة، وجاهدوا في الدين، عن السدي والكلبي. وقيل: هم إبراهيم وهود ونوح ورابعهم محمد ﷺ، عن أبي العالية. والعزم: هو الوجوب والحتم، وأولو العزم من الرسل: هم الذين شرعوا الشرائع، وأوجبوا على الناس الأخذ بها، والانقطاع عن غيرها. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي: ولا تستعجل لهم العذاب فإنه كائن واقع بهم عن قريب، وما هو كائن فكأن قد كان وقع. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: من العذاب في الآخرة ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ أي: إذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم في الدنيا والبرزخ كأنه ساعة من نهار، لأن ما مضى كأن لم يكن، وإن كان طويلاً، وتم الكلام. ثم قال: ﴿بَلَاغٌ﴾ أي: هذا القرآن وما فيه من البيان بلاغ من الله إليكم، والبلاغ بمعنى التبليغ. وقيل معناه: ذلك اللبث بلاغ. ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: لا يقع العذاب إلا بالعاصين الخارجين من أمر الله تعالى. وقيل معناه: لا يهلك على الله تعالى إلا هالك مشرك، وَلَّى ظهره الإسلام، أو منافق صدق بلسانه وخالف بعمله، عن قتادة. وقيل معناه: لا يهلك مع رحمة الله وتفضله، إلا القوم الفاسقون، عن الزجاج. قال: وما جاء في الرجاء لرحمة الله شيء أقوى من هذه الآية.

سُورَةُ مُحَمَّد

مدنية/آياتها (٣٨)

وهي مدنية، وقال ابن عباس وقتادة: غير آية منها نزلت على النبي ﷺ، وهو يريد التوجه إلى المدينة من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً عليه، فنزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾.

● **عدد آيها:** أربعون آية بصري، ثمان وثلاثون كوفي، تسع في الباقين.

● **اختلافها:** آيتان: ﴿أَوْزَارَهَا﴾ غير الكوفي ﴿لِّلشَّارِبِينَ﴾ بصري.

● **فضلها:** أُبيّ بن كعب قال: قال النبي ﷺ: «من قرأ سورة محمد كان حقاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنة». وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأها لم يدخله شك في دينه أبداً، ولم يزل محفوظاً من الشرك والكفر أبداً حتى يموت، فإذا مات وكَّل الله به في قبره ألف ملك يصلون في قبره، ويكون ثواب صلواتهم له، ويشيعونه حتى يوقفوه موقف الأمن عند الله، ويكون في أمان الله وأمان محمد ﷺ. وقال عليه السلام: «من أراد أن يعرف حالنا أو حال أعدائنا فليقرأ سورة محمد ﷺ، فإنه يراها آية فينا وآية فيهم».

● **تفسيرها:** ختم الله سبحانه تلك السورة بوعيد الكفار، وافتتح هذه السورة بمثلها، فقال جل ثناؤه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ
أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ
وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم
بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ
الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة وحفص: «والذين قُتِلوا»، على ما لم يسم فاعله، والباقون: «قاتلوا» بالألف.

● **الحجة:** قال أبو علي: «قاتلوا» أعم من «قتلوا» ألا ترى أن من قاتل ولم يقتل لن يضل عمله، كما أن الذي قتل كذلك، فهو لعمومه أولى.

● **اللغة:** البال: الحال والشأن، والبال: القلب أيضاً، يقال: خطر ببالي كذا. والبال لا يجمع لأنه أبهم إخوانه من الحال والشأن. والإثخان: إكثار القتل وغلبة العدو وقهرهم، ومنه: أثخنه المرض: اشتد عليه، وأثخنه الجراح. والوثاق: اسم من الإيثاق، ويقال: أوثقه إيثاقاً وَوِثاقاً: إذا شد أسره كيلا يفكّ. والأوزار: السلاح، وأصل الوزر: ما يحمله الإنسان، فسمي السلاح أوزاراً لأنه يحمل. قال الأعشى:

وأَعْـــدَدْتُ لِـــلْحَـــرْبِ أوزارَهَـــا رِمَـــاحـــاً طِـــوالًا وخَـــيْـــلًا ذُكُـــورا
وَمِـــنْ نَـــسْـــجِ دَاوُدَ يُـــحْـــدُو بِـــهَـــا عَـــلى أَثَـــرِ الـــحَـــيِّ عِـــيْـــراً فَـــعِـــيـــرا(١)

● **الإعراب:** ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الأمر ذلك، ويجوز أن يكون مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: ذلك كائن. ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ مصدر فعل محذوف، تقديره: فاضربوا الرقاب ضرباً، فحذف الفعل وأضيف المصدر إلى المفعول، وهذه الإضافة في تقدير الانفصال، لأن تقديره: فضرباً الرقاب، قال الشاعر:

فَـــنَـــدْلًا زُرَيْـــقُ الـــمـــالَ نَـــدْلَ الـــثَّـــعـــالِبِ

وكذلك قوله: ﴿مَنًّا﴾ و﴿فِدَآءً﴾ تقديره: فإما تمنون منا، وإما تفدون فداء.

● **المعنى:** ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد الله، وعبدوا معه غيره، ﴿وَصَدُّوا﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن سبيل الإيمان والإسلام، باستدعائهم إلى تكذيب النبي ﷺ، يعني مشركي العرب، ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أحبط الله أعمالهم التي كان في زعمهم أنها قربة، وأنها تنفعهم، كالعتق والصدقة وقرى الضيف. والمعنى: أذهبها وأبطلها حتى كأنها لم تكن، إذ لم يروا لها في الآخرة ثواباً. وقيل: نزلت في المطعمين ببدر، وكانوا عشرة أنفس أطعم كل واحد منهم الجند يوماً. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: صدَّقوا بتوحيد الله، وأضافوا إلى ذلك الأعمال الصالحة ﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ من القرآن والعبادات، خص الإيمان بمحمد ﷺ بالذكر مع دخوله في الأول، تشريفاً له وتعظيماً، ولئلا يقول أهل الكتاب: نحن آمنا بالله وبأنبيائنا وكتبنا. ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: وما نزل على محمد ﷺ هو الحق من ربهم، لأنه ناسخ للشرائع، والناسخ هو الحق. وقيل معناه: ومحمد الحق من ربهم، دون ما يزعمون من أنه سيخرج في آخر الزمان نبي من العرب فليس هذا هو، فردَّ الله ذلك عليهم. ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: سترها عنهم بأن غفرها لهم، يعني: غفر سيئاتهم المتقدمة بإيمانهم، وحكم بسقاط المستحق عليها من العقاب، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: أصلح حالهم في معاشهم وأمر دنياهم، عن قتادة. وقيل: أصلح أمر دينهم ودنياهم، بأن نصرهم على أعدائهم في الدنيا، ويدخلهم الجنة في العقبى.

---

(١) حدا الإبل وبها: ساقها وغنى لها. حدا الليل النهار: اتبعه.

ثم بيَّن سبحانه لِمَ فعل ذلك، ولِمَ قسمهم هذين القسمين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ذلك الإضلال والإصلاح باتباع الكافرين الشرك وعبادة الشيطان، واتباع المؤمنين التوحيد والقرآن وما أمر الله سبحانه باتباعه. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: كالبيان الذي ذكرنا، يبيِّن الله سبحانه للناس أمثال حسنات المؤمنين، وسيئات الكافرين، فإن معنى قول القائل: ضربت لك مثلاً، بينت لك ضرباً من الأمثال، عن الزجاج. وقيل: أراد به المثل المقرون به، فجعل الكافر في اتباعه الباطل كمن دعاه الباطل إلى نفسه فأجابه، والمؤمن كمن دعاه الحق إلى نفسه فأجابه. وقيل معناه: كما بيَّنت عاقبة الكافر والمؤمن، وجزاء كل واحد منهما، أضرب للناس أمثالاً يستدلون بها، فيزيدهم علماً ووعظاً. وأضاف المثل إليهم لأنه مجعول لهم.

ثم أمر سبحانه بقتال الكفار، فقال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ معاشر المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني أهل دار الحرب، ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أي: فاضربوا رقابهم. والمعنى: اقتلوهم، لأن أكثر مواضع القتل ضرب العنق، وإن كان يجوز الضرب في سائر المواضع، فإن الغرض قتلهم. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أثقلتموهم بالجراح وظفرتم بهم. وقيل: حتى إذا بالغتم في قتلهم وأكثرتم القتل حتى ضعفوا. ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ أي: أحكموا وثاقهم في الأسر، أمر سبحانه بقتلهم والإثخان فيهم ليذلوا، فإذا ذلوا بالقتل أُسِروا، فالأسر يكون بعد المبالغة في القتل، كما قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: فإما أن تمنوا عليهم منّاً بعد أن تأسروهم، فتطلقوهم بغير عوض، وإما أن تفدوهم فداء.

واختلف في ذلك. فقيل: كان الأسر محرَّماً بآية الأنفال، ثم أُبيح بهذه الآية، لأن هذه السورة نزلت بعدها، فإذا أسروا فالإمام مخيَّر بين المن والفداء بأسارى المسلمين وبالمال، وبين القتل والاستعباد، وهو قول الشافعي وأبي يوسف ومحمد بن إسحاق. وقيل: إن الإمام مخيَّر بين المنّ والفداء والاستعباد، وليس له القتل بعد الأسر، عن الحسن. وكأنه جعل في الآية تقديماً وتأخيراً، تقديره: فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها، ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾. وقيل: إن حكم الآية منسوخ بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ وبقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾، عن قتادة والسدي وابن جريج. وقال ابن عباس والضحاك: الفداء منسوخ. وقيل: إن حكم الآية ثابت غير منسوخ، عن ابن عمر والحسن وعطاء، قالوا: لأن النبي ﷺ مَنَّ على أبي غرة، وقتل عقبة بن أبي معيط، وفادى أسارى بدر. والمروي عن أئمة الهدى صلوات الرحمٰن عليهم أن الأسارى ضربان:

ضرب: يؤخذون قبل انقضاء القتل والحرب قائمة، فهؤلاء يكون الإمام مخيَّراً بين أن يقتلهم، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويتركهم حتى ينزفوا، ولا يجوز المنُّ ولا الفداء.

والضرب الآخر: الذين يؤخذون بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وانقضى القتال، فالإمام مخيَّر فيهم بين المَنِّ والفداء، إما بالمال أو بالنفس، وبين الاسترقاق وضرب الرقاب، فإن أسلموا في الحالين سقط جميع ذلك، وكان حكمهم حكم المسلمين.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ أي: حتى يضع أهل الحرب أسلحتهم فلا يقاتلون. وقيل: حتى لا يبقى أحد من المشركين، عن ابن عباس. وقيل: حتى لا يبقى دين غير دين الإسلام، عن مجاهد. والمعنى: حتى تضع حربكم وقتالكم أوزار المشركين وقبائح أعمالهم، بأن يسلموا فلا يبقى إلا الإسلام خير الأديان، ولا تعبد الأوثان، وهذا كما جاء في الحديث: «الجهاد ماض مذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أُمَّتي الدجال». وقال الفراء: المعنى: حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم. وقال الزجاج: أي: اقتلوهم وأسروهم حتى يؤمنوا، فما دام الكفر فالحرب قائمة أبداً. ﴿ذَٰلِكَۖ﴾ أي: الأمر الذي ذكرنا ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ أي: من الكفار بإهلاكهم وتعذيبهم بما شاء، ﴿وَلَٰكِن﴾ يأمركم بالحرب وبذل الأرواح في إحياء الدين ﴿لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٍۗ﴾ أي: ليمتحن بعضكم ببعض، فيظهر المطيع من العاصي. والمعنى: إنه لو كان الغرض زوال الكفر فقط، لأهلك الله سبحانه الكفار بما يشاء من أنواع الهلاك، ولكن أراد مع ذلك أن يستحقوا الثواب، وذلك لا يحصل إلا بالتعبد وتحمّل المشاق.

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الجهاد في دين الله يوم أحد، عن قتادة. ومن قرأ: «قاتلوا» فالمعنى: جاهدوا سواء قُتِلوا أو لم يقتلوا. ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: لن يضيِّع الله أعمالهم ولن يهلكها، بل يقبلها ويجازيهم عليها ثواباً دائماً. ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾ إلى طريق الجنة والثواب ﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ أي: شأنهم وحالهم. والوجه في تكرير قوله: ﴿بَالَهُمۡ﴾ أن المراد بالأول: إنه أصلح بالهم في الدين والدنيا. وبالثاني: إنه يصلح حالهم في نعيم العقبى، فالأول سبب النعيم، والثاني نفس النعيم. ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ أي: بيَّنها لهم، حتى عرفوها إذا دخلوها وتفرقوا إلى منازلهم، فكانوا أعرف بها من أهل الجنة إذا انصرفوا إلى منازلهم، عن سعيد بن جبير وأبي سعيد الخدري وقتادة ومجاهد وابن زيد. وقيل معناه: بيَّنها لهم، وأعلمهم بوصفها على ما يشوق إليها، فيرغبون فيها ويسعون لها، عن الجبائي. وقيل معناه: طَيَّبها لهم، عن ابن عباس في رواية عطاء، من العرفِ، وهو الرائحة الطيبة، يقال: طعمُ مُعرَّف، أي: مُطَيَّب.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾.

● **اللغة:** التعس: الانحطاط، والعثار، والإتعاس، والإذلال، والإدحاض بمعنى، وهو العثار الذي لا يستقل صاحبه، فإذا سقط الساقط فأُريد به الانتعاش والاستقامة. قيل: لعاً له، وإذا لم يرد ذلك قيل: تعساً. قال الأعشى:

فالتعس أولى لها من أن أقول لعا(١)

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه المؤمنين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: إن تنصروا دين الله ونبي الله بالقتال والجهاد، ﴿يَنصُرۡكُمۡ﴾ على عدوكم ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ أي: ويُشَجِّعكم ويقوِّ قلوبكم لتثبتوا. وقيل: ينصركم في الآخرة، ويثبِّت أقدامكم عند الحساب وعلى الصراط. وقيل: ينصركم في الدنيا والآخرة، ويثبِّت أقدامكم في الدارين، وهو الوجه. قال قتادة: حقٌّ على الله أن ينصر من نصره، لقوله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ وأن يزيد مَن شكره لقوله: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾، وأن يذكر من ذكره لقوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، وأن يوفي بعهد من أقام على عهده لقوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ أي: مكروهاً لهم وسوءاً، عن المبرد. أي: أتعسهم الله فتعسوا تعساً. قال ابن عباس: يريد في الدنيا العسرة، وفي الآخرة التردِّي في النار. ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ مرَّ معناه. ﴿ذَٰلِكَ﴾ التعس والإضلال ﴿بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على نبيه ﷺ من القرآن والأحكام، وأمرهم بالانقياد فخالفوا ذلك. وقال أبو جعفر عليه السلام: كرهوا ما أنزل الله في حق علي عليه السلام، ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ لأنها لم تقع على الوجه المأمور به.

ثم نبَّههم سبحانه على الاستدلال على صحة ما دعاهم إليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله، فقال: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ حين أرسل الله إليهم الرسل فدعوهم إلى توحيده وإخلاص العبادة له، فلم يقبلوا منهم وعصوهم، أي: فهلا ساروا ورأوا عواقب أولئك. ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أي: أهلكهم. ثم قال: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ بك يا ﴿أَمۡثَٰلُهَا﴾ من العذاب إن لم يؤمنوا ويقبلوا ما تدعوهم إليه. والمعنى: إنهم يستحقون أمثالها، وإنما يؤخِّر الله سبحانه عذابهم إلى الآخرة تفضلاً منه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ (١١) إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ (١٣) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم (١٤) مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ (١٥)﴾.

(١) مرّ البيت في ج٣.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: «أسن» مقصوراً، والباقون: «آسن» بالمد. وقرأ علي عليه السلام وابن عباس: «أمثال الجنة» على الجمع.

● **الحجة:** قال أبو زيد يقال: أَسَن الماء يأسُنُ أُسوناً. إذا تغير. وأسِن الرجل يأسَنُ أسناً: إذا غشي عليه من ريح خبيثة، وربما مات منها، قال:

التـارك القِرنِ مُصفراً أنامِلُهُ   تميلُ في الرُّمحِ مَيلَ المائحِ الأسِنِ(١)

قال أبو عبيدة: الأَسِن: المتغير(٢)، فحجة ابن كثير أن اسم الفاعل من فعل يفعَل على فعِل. وقال أبو الحسن: أسِنَ إنما هو للحال التي تكون عليها. ومن قرأ: «آسن» على فاعل، فإنما يريد أن ذلك لا يصير إليه فيما يستقبل. وقوله: «أمثال الجنة» فيه دليل على أن القراءة العامة التي هي: «مثل» في معنى الكثرة، لما فيه من معنى المصدرية.

● **اللغة:** المثوى: المنزل، من قولهم: ثوى بالمكان ثواء: إذا أقام به. ويقال للمرأة: أمّ المثوى، أي: ربة المنزل. والمَثَل والمِثْل بمعنى، مثل الشَبَه والشِّبْه، والبَدَل والبِدْل(٣). والأمعاء: جمع مِعى، وفي الحديث: «المؤمن يأكل في معى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». وفيه وجوه من التأويل:

أحدها: قول علي عليه السلام: إنه في رجل معين.

والثاني: إن المعنى: يأكل المؤمن فيسمي الله تعالى، فيبارك في أكله.

والثالث: إن المؤمن يُضيَّق عليه في الدنيا، والكافر يصيب منها.

والرابع: إنه مَثَل لزهد المؤمن في الدنيا، وحرص الكافر عليها، وهذا أحسن الوجوه.

● **الإعراب:** قال الزجاج: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ مبتدأ، وخبره محذوف، تقديره: مثل الجنة التي وعد المُتَّقُون مما قد عرفتموه من الدنيا، جنة فيها أنهار إلى آخره. وقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ تقديره: أفمن كان على بيّنة من ربه وأُعطِيَ هذه الأشياء، كمن زُيّن له سوء عمله، وهو خالد في النار.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الذي فعلناه في الفريقين ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يتولى نصرهم وحفظهم، ويدفع عنهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ ينصرهم، ولا أحد يدفع عنهم، لا عاجلاً ولا آجلاً. ثم ذكر سبحانه حال الفريقين، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) القرن: كفؤك، ومن يقاومك، ونظيرك في الشجاعة. واصفرار الأنامل: كناية عن الموت. ماح الرجل: دخل البئر فملأ الدلو لقلة مائها، ولا يمكن أن يستقي منها إلا بالإغتراف باليد ومقابله الماتح أي: من يستقي وهو على رأس البئر. سئل الأصمعي عن المتح والميح، فقال: «الفوق للفوق، والتحت للتحت» أي: المتح أن يستقي وهو على رأس البئر. والميح: أن يملأ الدلووهو في قعرها. والآسن: من دخل البئر فأصابته ريح منتنة، فغشي عليه، أو دار رأسه.

(٢) [الريح].

(٣) كلاهما بمعنى الشريف الكريم، ومنهما الأبدال.

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت أشجارها وأبنيتها. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي: سيرتهم سيرة الأنعام، آثروا لذات الدنيا وشهواتها، وأعرضوا عن العبر، يأكلون للشبع، ويتمتعون لقضاء الوطر. ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: موضع مقامهم يقيمون فيها. ثم خوَّفهم وهدَّدهم سبحانه فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ يا محمد، يعني مكة ﴿ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: أخرجك أهلها، والمعنى: كم من رجال هم أشد من أهل مكة، ولهذا قال: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ فكنَّى عن الرجال، عن ابن عباس. ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يدفع عنهم إهلاكنا إياهم. والمعنى: فمن الذي يؤمِّن هؤلاء أن أفعل بهم مثل ذلك. ثم قال سبحانه على وجه التهجين والتوبيخ للكفار والمنافقين: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: على يقين من دينه، وعلى حجة واضحة من اعتقاده في التوحيد والشرائع ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، زيَّن له الشيطان المعاصي وأغواه. ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: شهواتهم وما تدعوهم إليه طباعهم، وهو وصف لمن زيِّن له سوء عمله وهم المشركون. وقيل: هم المنافقون، عن ابن زيد. وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام.

ثم وصف الجنات التي وعدها المؤمنين بقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ تقدَّم تفسيره في سورة الرعد. ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غير متغيِّر لطول المقام كما تتغير مياه الدنيا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ فهو غير حامض ولا قارص، ولا يعتريه شيء من العوارض التي تصيب الألبان في الدنيا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لذيذة يلتذون بشربها ولا يتأذون بها ولا بعاقبتها، بخلاف خمر الدنيا التي لا تخلو من المزازة(١) والسكر والصداع، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي: خالص من الشمع والرغوة والقذى، ومن جميع الأذى والعيوب التي تكون لعسل الدنيا. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: مما يعرفون اسمها، ومما لا يعرفون اسمها، مُبرَّأة من كل مكروه يكون لثمرات الدنيا، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ولهم مع هذا مغفرة من ربهم، وهوأنه يستر ذنوبهم، وينسيهم سيئاتهم حتى لا يتنغص عليهم نعيم الجنة، ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: من كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ شديد الحر، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ إذا دخل أجوافهم. وقيل: إن قوله: و﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ معطوف على قوله: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: كمن زيِّن له سوء عمله ومن هو خالد في النار، فحذف الواو، كما يقال: قصدني فلان، شتمني ظلمني.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا

---

(١) وفي نسختين «المرارة» بدل «المزازة». والمزازة: طعم بين الحموضة والحلاوة.

فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** روي في بعض الروايات عن ابن كثير: «أنفاً» بالقصر. والقراءة المشهورة: «آنفاً» بالمد.

● **الحجة:** قال أبو علي: أنشد أبو زيد:

وَجَدْنَا آل مُرَّةَ حِينَ خِفْنَا ... جَرِيرَتَنَا هُمُ الأُنُفَ الكِرَامَا

ويَسْرَحُ جارُهُمْ مِنْ حَيْثُ يُمْسِي ... كَأَنَّ عَلَيْهِ مُؤْتَنَفاً حَرَامَا(١)

أي: كأن عليه حرمة شهر مؤتنف حرام، فحذف. والأنُف: الذين يأنفون من احتمال الضيم. قال أبو علي: فإذا كان كذلك فقد جُمع فَعِل على فُعُل، لأن واحد أُنُف أَنِف، بدلالة قول الشاعر:

وحَمَّالُ المِئِينَ إذا أَلَمَّتْ ... بنا الحَدَثانُ والأَنِفُ النَّصُورُ(٢)

وليس الأُنُفُ والأَنِفُ في البيتين مما في الآية في شيء، لأن ما في الشعر من الأَنَفَة، وما في الآية من الابتداء، ولم يسمع أَنِف في معنى ابتداء. ويجوز أن يكون توهَّمه ابن كثير، مثل: حاذِر وحَذِر، وفاكه وفَكِه، والوجه المد. والآنف: الجائي، من الائتناف وهو الابتداء، فقوله: «آنفاً» أي: في أول وقت يقرب منا.

● **اللغة:** الأهواء: جمع الهوى، وهو شهوة النفس، يقال: هوى يهوى هوىً فهو هَوٍ. واستهواه هذا الأمر أي: دعاه إلى الهوى. والأشراط: العلامات. وأشرط فلان نفسه بالأمر: إذا أعلمها بعلامة، قال أوس بن حجر:

فأشْرَطَ فيها نَفْسَهُ وَهُوَ مُعْصِمٌ ... وألقى بِأَسْبَابٍ لَهُ وتَوَكَّلا(٣)

وواحد الأشراط شرْط، والشَّرَط بالتحريك: العلامة، وأشراط الساعة: علاماتها، والشَّرَط أيضاً: رذال المال، قال جرير:

---

(١) مرة: بطن من قريش. والجريرة: الذنب، وهي مفعول خفنا. والأنف الكراما مفعول ثان لوجدنا. والأنف: صفة من أنف الشيء أي: استنكف وتنزه عنه. وفي المخطوطة «يمسي» بدل «يمشي» وهو الأنسب للمقام. المؤتنف: المستأنف.

(٢) ألّمت أي: نزلت وحِدْثان الدهر وحَدَثانه: نوائبه. والنصور: مبالغة من الناصر.

(٣) الضمير في «فيها» راجع إلى الجبال. وأعصم: يجوز أن يكون من قولهم: أعصم الراكب إذا لم يثبت على الفرس. وأن يكون من أعصم به إذا تمسك به. والأسباب: الأحبال. وتوكل عليه أي وثق. يصف رجلًا تدلى من رأس الجبل ليقطع النبعة، لاتخاذ القوس منه.

تـرى شَـرَطَ الـمـعـزى مُـهُـور نِـسـائِـهِـمْ وفـي شَـرط الـمـعـزى لَـهُـنَّ مُـهُـورُ[١]

وأصحاب الشُرط: سموا بذلك للبسهم لباساً يكون علامة لهم. والشَّرط في البيع: علامة بين المتبايعين.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه حال المنافقين، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي: ومن الكافرين الذين تقدم ذكرهم من يستمع إلى قراءتك ودعوتك وكلامك، لأن المنافق كافر. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني الذين أتاهم الله العلم والفهم من المؤمنين. قال ابن عباس: أنا ممن أوتوا العلم بالقرآن. وعن الأصبغ بن نباتة عن علي عليه السلام قال: إنا كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيخبرنا بالوحي فأعيه أنا ومن يعيه، فإذا خرجنا قالوا: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: أيُّ شيء قال الساعة؟، وإنما قالوه استهزاء، أو إظهار أنا لم نشتغل أيضاً بوعيه وفهمه. وقيل: إنما قالوا ذلك لأنهم لم يفهموا معناه، ولم يعلموا ما سمعوه. وقيل: بل قالوا ذلك تحقيراً لقوله، أي: لم يقل فيه فائدة. ويحتمل أيضاً أن يكونوا سألوا رياء ونفاقاً، أي: لم يذهب عني من قوله إلا هذا، فماذا قال؟ أعِده عليَّ لأحفظه، وإنما قال: ﴿يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ثم قال: ﴿خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ لأن في الأول رد الضمير إلى لفظة من، وفي الثاني إلى معناه، فإنه موحَّد اللفظ مجموع المعنى. ثم قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: وسم قلوبهم بسمة الكفار، أو خلَّى بينهم وبين اختيارهم، ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: شهوات نفوسهم، وما مالت إليهم طباعهم، دون ما قامت عليه الحجة.

ثم وصف سبحانه المؤمنين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ بما سمعوا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿زَادَهُمْ﴾ الله، أو قراءة القرآن، أو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿هُدًى﴾. وقيل: زادهم استهزاء المنافقين إيماناً وعلماً وبصيرة وتصديقاً لنبيهم صلى الله عليه وآله وسلم. ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي: وفقهم للتقوى. وقيل معناه: وآتاهم ثواب تقواهم، عن سعيد بن جبير وأبي علي الجبائي. وقيل: بيَّن لهم ما يتقون، وهو ترك الرُخَص والأخذ بالعزائم. ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: فليس ينتظرون إلا القيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، فقوله: ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدل من ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾. وتقديره: إلا الساعة إتيانها بغتة، والمعنى: إلا إتيان الساعة إياهم بغتة. ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: علاماتها، قال ابن عباس: معالمها، والنبي من أشراطها، ولقد قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين». وقيل: هي أعلامها، من انشقاق القمر، والدخان، وخروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونزول آخر الكتب، عن مقاتل. ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ أي: فمن أين لهم الذكر والاتعاظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة؟ وموضع ﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾ رفع مثله في قوله: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: ليس تنفعه الذكرى، والذكرى: ما أمر الله سبحانه أن يتذكروا به، ومعناه: وكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الساعة؟ فإنه لا ينفعهم في ذلك الوقت الإيمان والطاعات، لزوال التكليف عنهم.

---

(١) يذمهم بأنهم صعاليك مهور نسائهم من رذال المعزى، ومعروف أن المعزى من أموال الصعاليك، فيُذمُّ على مالكيتها. وأشدّ الذم إذا كان مهر نساء قوم من رذال المعزى.

ثم قال لنبيه ﷺ، والمراد به جميع المكلفين: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى: أقم على هذا العلم واثبت عليه، واعلم في مستقبل عمرك ما تعلمه الآن، ويدل عليه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»، أورده مسلم في «الصحيح». وقيل: إنه يتعلق بما قبله، على معنى: إذا جاءتهم الساعة فاعلم أنه لا إله إلا الله، أي: يبطل الملك عند ذلك، فلا ملك ولا حكم لأحد إلا الله. وقيل: إن هذا إخبار بموته ﷺ، والمراد: فاعلم أن الحي الذي لا يموت هو الله وحده. وقيل: إنه كان ضيِّق الصدر من أذى قومه، فقيل له: فاعلم أنه لا كاشف لذلك إلا الله. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ الخطاب له والمراد به الأمة، وإنما خوطب بذلك لتستنَّ أمته بسنته. وقيل: إن المراد بذلك الانقطاع إلى الله تعالى، فإن الاستغفار عبادة يستحق به الثواب، وقد صحَّ الحديث بالإسناد عن حذيفة بن اليمان قال: «كنت رجلًا ذربَ اللسان على أهلي، فقلت: يا رسول الله، إني لأخشى أن يدخلني لساني في النار، فقال رسول الله ﷺ: فأين أنت من الاستغفار؟ إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة». ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أكرمهم الله سبحانه بهذا، إذ أمر نبيهم أن يستغفر لذنوبهم، وهو الشفيع المجاب فيهم.

ثم أخبر سبحانه عن علمه وأحوال الخلق وما لهم، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي: متصرفكم في أعمالكم في الدنيا، ومصيركم في الآخرة إلى الجنة أو إلى النار، عن ابن عباس. وقيل: يعلم متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، ومثواكم، أي: مقامكم في الأرض، عن عكرمة. وقيل: متقلبكم من ظهر إلى بطن، ومثواكم في القبور، عن ابن كيسان. وقيل: يعلم متقلبكم: متصرفكم في النهار، ومثواكم: مضجعكم بالليل. والمعنى: إنه عالم بجميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها.

ثم قال سبحانه حكاية عن المؤمنين: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلا نزلت، لأنهم كانوا يأنسون بنزول القرآن، ويستوحشون لإبطائه، ليعلموا أوامر الله تعالى وتعبده لهم. ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ ليس فيها متشابه ولا تأويل. وقيل: سورة ناسخة لما قبلها من إباحة التخفيف في الجهاد. قال قتادة: كل سورة ذُكِرَ فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين. وقيل: ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ أي: مقرونة بوعيد يؤكد الأمر. كقوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. وقيل: «محكمة» بوضوح ألفاظها، وعلى هذا فالقرآن كله محكم. وقيل: هي التي تتضمن نصاً تأويله ولم يتعقَّبه نص. وفي قراءة ابن مسعود: «سورة محدثة» أي: مجددة: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي: وأُوجِبَ عليهم فيها القتال وأُمِرُوا به، ﴿رَأَيْتَ﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾. قال الزجاج: يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم، وينظرون إليك نظراً شديداً، كما ينظر الشاخص ببصره عند الموت، لثقل ذلك عليهم، وعظمه في نفوسهم. ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ هذا تهديد ووعيد. قال الأصمعي: معنى قولهم في التهديد: أولى لك، وليَك وقارنك ما تكره. وقال قتادة: معناه: العقاب لهم والوعيد لهم، وعلى هذا يكون «أولى» اسماً للتهديد والوعيد، ويكون «أولى لهم» مبتدأ أو خبراً، ولا ينصرف «أولى» لأنه على وزن الفعل، وصار اسماً للوعيد. وقول الأصمعي

إن معناه: وليك ما تكره، لا يريد به أن «أولى» فعل، وإنما فسَّره على المعنى. وقيل معناه: أولى لهم طاعة لله ورسوله، وقول معروف بالإجابة، أي: لو أطاعوا فأجابوا كانت الطاعة والإجابة أولى لهم. وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء، واختيار الكسائي، فيكون على هذا. ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ متصلًا بما قبله، وكذلك لو كانت صفة لسورة، وتقديره: فإذا أُنزلت سورة ذات طاعة، وقول معروف، على ما قاله الزجاج، وعلى القول الأول يكون «طاعة» مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: طاعة وقول معروف أمثل أو أحسن، أو يكون خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: أمرنا طاعة، ويكون الوقف حسناً عند قوله: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

●●●

قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب وسهل: «وتَقْطَعوا» بفتح التاء والطاء وسكون القاف، والباقون: «وتُقَطِّعوا» بالتشديد وضم التاء وكسر الطاء. وقرأ أهل البصرة: «وأُمْلِيَ لهم» بضم الهمزة وفتح الياء، وفي رواية رويس عن يعقوب بسكون الياء. وقرأ الباقون: «وأملَى لهم» بفتح الهمزة واللام. وروي عن النبي ﷺ: «فهل عسيتم إن وليتم». وعن علي عليه السلام: «إن تُوليتم». قال أبو حاتم: معناه: إن تولاكم الناس.

● **الحجة:** حجة من قرأ: «وتقْطَعوا» بالتخفيف قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، والتشديد للمبالغة. وقوله: «وُلِّيتم» من الولاية، وفيه دلالة على أن القراءة المشهورة «توليتم» معناه: توليتم الأمر. قال أبو علي: قال: انتظرته ملياً من الدهر، أي: متَّسعاً منه، صفة استعمل استعمال الأسماء. وقالوا: تمليت حبيباً، أي: عشت معه ملاوة من الدهر، وقالوا: الملوان، يريدون بهما تكرر الليل والنهار وطول مدتهما، قال:

نهارٌ وليلٌ دائم مَلَواهُما على كلِّ حالِ المَرْءِ يختلفانِ

فلو كان الليل والنهار لم يضافا إلى ضميرهما، من حيث لا يضاف الشيء إلى نفسه، ولكن كأنه يراد: تكرر الدهر واتساعه بهما. والضمير في «أُمْلِيَ لهم» لاسم الله، كما قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ فمن قرأ: «وأُمْلِيَ لهم» فبنى الفعل للمفعول به، فإنه يحسن في هذا الموضع للعلم بأنه لا يؤخر أحد مدة أحد، ولا يوسع له فيها إلا الله سبحانه.

● **المعنى:** ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ قد ذكرنا أن فيه مذهبين:

أحدهما: أن يكون متصلًا بما قبله، وقد مر ذكره.

والآخر: أن يكون كلاماً مبتدأ، ثم اختلف في تقديره على وجهين:

أحدهما: أن يكون مبتدأ محذوف الخبر. ثم قيل: إن معناه: طاعة وقول معروف أمثل وأليق من أحوال هؤلاء المنافقين. وقيل معناه: طاعة وقول معروف خير لهم من جزعهم عند نزول فرض الجهاد ـ عن الحسن.

والوجه الآخر: إنه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: قولوا أمرنا طاعة وقول معروف، أي: حسن لا ينكره السامع، وهذا أمرٌ أَمَرَ الله به المنافقين، عن مجاهد. وقيل: هو حكاية عنهم أنهم كانوا يقولون ذلك، ويقتضيه قوله: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ معناه: فإذا وجد الأمر، ولزم فرض القتال، وصار الأمر معزوماً عليه. والعزم: العقد على الأمر لأن يفعله، فإذا عقد العازم العزم على أن يفعله قيل: عزم الأمر على طريق البلاغة. وجواب «إذا» محذوف ويدل عليه قوله: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وتقديره: فإذا عزم الأمر تكلّموا وكذّبوا فيما وعدوا من أنفسهم، فلو صدقوا الله فيما أمرهم به من الجهاد، وامتثلوا أمره، لكان لهم في دينهم ودنياهم من نفاقهم.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ يا معشر المنافقين ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ معناه: إن توليتم الأحكام ووليتم، أي: جعلتم ولاة أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرشاء، وسفك الدم الحرام، فيقتل بعضكم بعضاً، ويقطع بعضكم رحم بعض، كما قتلت قريش بني هاشم، وقتل بعضهم بعضاً. وقيل: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ معناه: إن أعرضتم عن كتاب الله والعمل بما فيه، أن تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، فتفسدوا بقتل بعضكم بعضاً. قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن القرآن؟ ألم يسفكوا الدم الحرام، وقطعوا الأرحام، وعصوا الرحمٰن؟ ثم ذم الله سبحانه من يريد ذلك، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أبعدهم من رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ ومعناه: إنهم لا يَعُون الخبر، ولا يبصرون ما به يعتبرون، فكأنهم صمّ عمي، عن أبي مسلم. وقيل: إنهم في الآخرة لا يهتدون إلى الجنة بمنزلة الأصم الأعمى في الدنيا، عن أبي علي الجبائي. ولا يجوز حمله على الصمم والعمى في الجارحة بلا خلاف، لأنهم لو كانوا كذلك لما ذموا على أنهم لا يسمعون ولا يبصرون، وإنما أطلق الصمم لأنه لا يكون إلا في الأذن، وقرن العمى بالأبصار، لأنه قد يكون بالبصر وبالقلب. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ بأن يتفكّروا فيه، ويعتبروا به. وقيل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ فيقضوا ما عليهم من الحق، عن أبي عبد الله عليه السلام وأبي الحسن موسى عليه السلام. ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ معنى تنكير. القلوب: إرادة قلوب هؤلاء، ومن كان مثلهم من غيرهم. وفي هذا دلالة على بطلان قول من قال: لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر وسمع، وفيه تنبيه أيضاً على فساد قول من يقول: إن الحديث ينبغي أن يروى على ما جاء، وإن كان مخالفاً لأصول الديانات في المعنى، لأنه سبحانه دعا إلى التدبر والتفكر؛ وذلك مناف للتعامي والتجاهل.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾ أي: رجعوا عن الحق والإيمان ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾، أي: من بعد ما بان لهم طريق الحق، وهم المنافقون، عن ابن

عباس والضحاك والسدي، كانوا يؤمنون عند النبي ﷺ ثم يظهرون الكفر فيما بينهم، فتلك ردّة منهم. وقيل: هم كفار أهل الكتاب، كفروا بمحمد ﷺ وقد عرفوه، ووجدوا نعته مكتوباً عندهم، عن قتادة. وليس في هذا دلالة على أن المؤمن قد يكفر، لأنه لا يمتنع أن يكون المراد من رجع في باطنه عن الإيمان بعد أن أظهره، وقامت الحجة عنده بصحته. ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زيّن لهم خطاياهم، عن الحسن. وقيل: أعطاهم سؤلهم وأمنيتهم إذ دعاهم إلى ما يوافق مرادهم وهواهم، عن أبي مسلم. ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: طوّل لهم أملهم فاغتروا به. وقيل: أوهمهم طول العمر مع الأمن من المكاره، وأبعد لهم في الأمل والأمنية.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: «إسرارهم» بالكسر، والباقون: «أسرارهم» بالفتح.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ: «إسرارهم» أنه لما كان مصدراً أُفرِد ولم يجمع، ويقوي الإفراد قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ فكما أفرد السر ولم يجمع كذلك قال: «إسرارهم». ومن فتح الهمزة جعله جمع: سر، فكأنه جمع لاختلاف ضروب السر، وجميع الأجناس يحسن جمعها مع الاختلاف. وقد جاء سرهم في قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ على ما عليه معظم المصادر، لأنه يتناول جميع ضروبه، فأُفرِد مرة وجُمِعَ أخرى.

● **اللغة:** الأضغان: جمع الضغن وهو الحقد. واللحن: أصله إزالة الكلام عن جهته، ثم إنه يستعمل على وجهين: في الصواب والخطأ:

أما في الصواب: فمعناه: الكناية عن الشيء، والعدول عن الإفصاح عنه، قال الشاعر:

ولقد وحَيْتُ لَكُمْ لكيلا تفطَنوا وَلَحَنْتُ لَحناً ليس بِالمُرْتابِ

وقيل: اللحَن: هي الفطنة وسرعة الفهم، والفعل منه: لحِن يلحن فهو لحِنٌ إذا فطن. ومنه الحديث: «لعل أحدكم يكون ألحنَ بحجته من بعض» أي: أفطن لها وأعرض بها. ومنه قول الشاعر:

منطقٌ صائبٌ، وتَلْحَنُ أحيانا، وخيرُ الحديثِ ما كان لَحْنا

وإنما يسمى التعريض: لَحْناً، لأنه ذهاب بالكلام إلى خلاف جهته، ومنه قول عمر: تعلموا اللحن كما تتعلمون القرآن.

وأما في الخطأ: فإن اللحن إزالة الإعراب عن جهته، والفعل منه: لحن يلحَن فهو لاحن.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه سبب استيلاء الشيطان عليهم، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التسويل والإملاء ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ من القرآن وما فيه من الأمر والنهي والأحكام. والمرويُّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنهم بنو أمية، كرهوا ما نزَّل الله في ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام. ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: نفعل بعض ما تريدونه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: ما أسره بعضهم إلى بعض من القول، وما أسروه في أنفسهم من الاعتقاد ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: فكيف حالهم إذا قبضت الملائكة أرواحهم. وإنما حذف تفخيماً لشأن ما ينزل بهم في ذلك الوقت. ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ على وجه العقوبة لهم. ثم ذكر سبحانه سبب نزول ذلك الضرب فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ من المعاصي التي يكرهها الله ويعاقب عليها، ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أي: سبب رضوانه من الإيمان وطاعة الرسول ﴿فَأَحْبَطَ﴾ الله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ التي كانوا يعملونها من صلاة وصدقة وغير ذلك، لأنها في غير إيمان.

ثم قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أي: أحقادهم على المؤمنين، ولا يبدي عوراتهم للنبي صلى الله عليه وآله. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ بأعيانهم يا محمد حتى تعرفهم، وهو قوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بعلاماتهم التي ننصبها لك لكي تعرفهم بها. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: وتعرفهم الآن في فحوى كلامهم، ومعناه ومقصده ومغزاه، لأن كلام الإنسان يدل على ما في ضميره. وعن أبي سعيد الخدري قال: لحن القول: بغضهم علي بن أبي طالب عليه السلام، وكنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ببغضهم علي بن أبي طالب عليه السلام، وروي مثل ذلك عن جابر ابن عبد الله الأنصاري، وعن عبادة بن الصامت قال: كنا نبور[1] أولادنا بحب علي عليه السلام، فإذا رأينا أحدهم لا يحبه علمنا أنه لغير رَشْدَة[2]. وقال أنس: ما خفي منافق على عهد رسول الله بعد هذه الآية ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ ظاهرها وباطنها.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

(١) باره: جرّبه واختبره.

(٢) الرشدة بالفتح وتكسر: ضد الزينة، يقال «ولد لرِشْدة».

﴿ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو بكر: «وليبلونكم» وما بعده بالياء، وهو المروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، والباقون: بالنون. وقرأ يعقوب: «ونَبْلُوْ» ساكنة الواو.

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه الياء أن قبله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ واسم الغيبة أقرب إليه من لفظ الجمع، فحمل على الأقرب. ووجه النون قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾.

● **اللغة:** يقال: وتره يتِره وتراً: إذا نقصه، ومنه الحديث: «فكأنه وتر أهله وماله»، وأصله: القطع، ومنه التِرَةُ: القطع بالقتل، ومنه الوتر: المنقطع بانفراده عن غيره.

● **المعنى:** ثم أقسم سبحانه، فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أن نعاملكم بما نُكلِّفكم به من الأمور الشاقة ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: حتى يتميز المجاهدون في سبيل الله من جملتكم، والصابرون على الجهاد. وقيل معناه: حتى يعلم أولياؤنا المجاهدين منكم، وأضافه إلى نفسه تعظيماً لهم وتشريفاً، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يؤذون أولياء الله. وقيل معناه: حتى نعلم جهادكم موجوداً، لأن الغرض أن تفعلوا الجهاد فيثيبكم على ذلك. ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: نختبر أسراركم بما تستقبلونه من أفعالكم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: امتنعوا عن اتباع دين الله ومنعوا غيرهم عن اتباعه[1] تارة، وبالإغواء أخرى. ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: عاندوه وعادَوْه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: من بعد ما ظهر لهم أنه الحق، وعرفوا أنه رسول الله صلى الله عليه وآله. ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ بذلك ﴿شَيْـًٔا﴾ وإنما ضروا أنفسهم ﴿وَسَيُحْبِطُ﴾ الله ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، فلا يرون لها في الآخرة ثواباً. وفي هذه الآية دلالة على أن هؤلاء الكفار كانوا قد تبين لهم الهدى فارتدوا عنه فلم يقبلوه عناداً، وهم المنافقون. وقيل: إنهم أهل الكتاب ظهر لهم أمر النبي صلى الله عليه وآله فلم يقبلوه. وقيل: هم رؤساء الضلالة جحدوا الهدى طلباً للجاه والرياسة، لأن العناد يضاف إلى الخواص.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بتوحيده ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ بتصديقه. وقيل: أطيعوا الله في حرمة الرسول، وأطيعوا الرسول في تعظيم أمر الله، ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بالشك والنفاق، عن عطاء. وقيل: بالرياء والسمعة، عن الكلبي. وقيل: بالمعاصي والكبائر، عن الحسن ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مضى معناه. ﴿ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: أصروا على الكفر حتى ماتوا على كفرهم، ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أبداً، لأن لفظ لن للتأبيد. ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ أي: ولا تتوانوا ولا تضعفوا عن القتال ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: ولا تدعوا الكفار إلى المسالمة والمصالحة، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: وأنتم القاهرون الغالبون، عن مجاهد. وقيل: إن الواو للحال، أي: لا

(١) [بالقهر].

تدعوهم إلى الصلح في الحال التي تكون الغلبة لكم فيها. وقيل: إنه ابتداء إخبار من الله عن حال المؤمنين لأنهم الأعلون، يداً ومنزلة، آخر الأمر، وإن غلبوا في بعض الأحوال. ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي: بالنصرة على عدوكم ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لن ينقصكم شيئاً من ثوابها، بل يثيبكم عليها ويزيدكم من فضله، عن مجاهد. وقيل معناه: لن يظلمكم، عن ابن عباس وقتادة وابن زيد.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

● **القراءة:** في بعض الروايات عن أبي عمرو: «ويُخرِجُ» بالرفع، والمشهور عنه وعن الجميع: «ويُخْرِجْ» بالجزم.

● **الحجة:** وهذا يكون على استئناف الكلام، أي: وهو يخرج أضغانكم على كل حال.

● **اللغة:** الإحفاء: الإلحاح في السؤال حتى ينتهي إلى مثل الحفاء والمشي بغير حذاء، يقال: أحفاه بالمسألة يحفيه إحفاء. وقيل: الإحفاء بالمسألة الإلطاف فيها، عن أبي مسلم. والبخل: هو منع الواجب، وقيل: هو منع النفع الذي هو أولى في العقل، عن علي بن عيسى.

● **الإعراب:** ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ إنما قدّم المخاطب. على الغائب، لأن الابتداء بالأقرب ـ مع أنه المفعول الأول ـ أولى. وتقول: إن يسألها جماعتكم، لأنه غائب مع غائب، فالمتصل أولى بأن يلي الفعل من المنفصل، وقال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كرّر التنبيه في الموضعين للتأكيد و﴿أَنتم﴾ مبتدأ، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل منه، و﴿تُدْعَوْنَ﴾ خبر المبتدأ.

● **المعنى:** ثم حَضّ الله سبحانه على طلب الآخرة، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: سريعة الفناء والانقضاء، ومن اختار الفاني على الباقي كان جاهلاً ومنقوصاً. قال الحسن: الذي خلقها هو أعلم بها. ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ معاصيه ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي: جزاء أعمالكم في الآخرة ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ كلها في الصدقة، وإن أوجب عليكم الزكاة في بعض أموالكم، عن سفيان ابن عيينة والجبائي. وقيل: لا يسألكم أموالكم، لأن الأموال كلها لله، فهو أملك لها وهو المنعم بإعطائها. وقيل: لا يسألكم الرسول على أداء الرسالة أموالكم أن تدفعوها إليه. ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ أي: يُجهدكم بمسألة جميعها ﴿تَبْخَلُوا۟﴾ بها فلا تعطوها، أي: إن يسألكم جميع ما في أيديكم تبخلوا. وقيل: فيحفكم، أي: فيلطف في السؤال، بأن يعد عليه الثواب الجزيل، عن أبي مسلم. ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي:

ويظهر بغضكم وعداوتكم لله ورسوله، ولكنه فرض عليكم ربع العشر. قال قتادة: علم الله أن في مسألة الأموال خروج أضغان، وهي الأحقاد التي في القلوب، والعداوات الباطنة. ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: ما فرض عليهم في أموالهم، أي: إنما تُؤمَرُون بإخراج ذلك وإنفاقه في طاعة الله، ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ بما فُرِضَ عليه من الزكاة، ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لأنه يحرمها مثوبة جسيمة ويلزمها عقوبة عظيمة، وهذه إشارة إلى أن معطي المال أحوج إليه من الفقير الآخذ، فبخله بخل على نفسه، وذلك أشد البخل. قال مقاتل: إنما يبخل بالخير والفضل في الآخرة عن نفسه. وقيل معناه: فإنما يبخل بداع عن نفسه يدعوه إلى البخل، فإن الله تعالى نهى عن البخل وذمه، فلا يكون البخل بداع من جهته. ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ عما عندكم من الأموال ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ إلى ما عند الله من الخير والرحمة، أي: لا يأمركم بالإنفاق لحاجته، ولكن لتنتفعوا به في الآخرة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ أي: تعرضوا عن طاعته وعن أمر رسوله ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أمثل وأطوع لله منكم، ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ بل يكونوا خيراً منكم وأطوع لله. وروى أبو هريرة أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله: مَن هؤلاء الذين ذكر الله في كتابه؟ وكان سلمان إلى جنب رسول الله ﷺ، فضرب يده على فخذ سلمان، فقال: «هذا وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس». وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن تتوبوا يا معشر العرب يستبدل قوماً غيركم، يعني الموالي. وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: قد ـ والله ـ أبدل بهم خيراً منهم الموالي.

سُورَة الفَتْح

مدنية/آياتها (٢٩)

● **عدد آيها:** تسع وعشرون آية بالإجماع.

● **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «مَن قرأها فكأنما شهد مع محمد ﷺ فتح مكة». وفي رواية أخرى: «فكأنما كان مع مَن بايع محمداً ﷺ تحت الشجرة». عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقال: «نزلت عَليَّ البارحة سورة هي أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾». أورده البخاري في الصحيح. قتادة عن أنس قال: لما رجعنا من غزوة الحديبية، وقد حيل بيننا وبين نسكنا، فنحن بين الحزن والكآبة، إذ أنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لقد أنزلت عليّ آية هي أحب إليّ من الدنيا كلها. عبد الله بن مسعود قال: أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية، فجعلت ناقته تثقل فتقدَّمنا، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، فأدركنا رسول الله ﷺ وبه من السرور ما شاء الله، فأخبر أنها أُنزِلت عليه. عبد الله بن بكير عن أبيه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: حصِّنوا أموالكم ونساءكم وما ملكت أيمانكم من التلف بقراءة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ فإنه إذا كان ممن يدمن قراءتها، ناداه مناد يوم القيامة حتى يسمع الخلائق: أنت من عبادي المخلصين، ألحقوه بالصالحين من عبادي، فأسكنوه جنات النعيم، وأسقوه الرحيق المختوم بمزاج الكافور.

● **تفسيرها:** ختم الله تلك السورة بقوله: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾، ومن غناه أنه فتح لنبيه ﷺ ما احتاج إليه في دينه ودنياه، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ④ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ⑤﴾.

● **اللغة:** الفتح: ضد الإغلاق، وهو الأصل، ثم استعمل في مواضع، فمنها: الحكم والقضاء. ويسمى الحاكم فتاحاً، والفتاحة: الحكومة. ومنها: النصر، والاستفتاح: الاستنصار، ومنها: فتح البلدان، ومنها: العلم. وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ من ذلك.

● **المعنى:** ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أي: قضينا لك قضاء ظاهراً، عن قتادة. وقيل معناه:

يسَّرنا لك يسراً بيناً، عن مقاتل. وقيل معناه: أعلمناك علماً ظاهراً فيما أنزلناه عليك من القرآن، وأخبرناك به من الدين. وقيل معناه: أرشدناك إلى الإسلام وفتحنا لك أمر الدين، عن الزجاج. ثم اختلف في هذا الفتح على وجوه:

أحدها: إن المراد به فتح مكة، وعدهُ الله ذلك عام الحديبية عند انكفائه منها، عن أنس وقتادة وجماعة من المفسرين. قال قتادة: نزلت هذه الآية عند مرجع النبي ﷺ من الحديبية، بشّر في ذلك الوقت بفتح مكة، وتقديره: إنا فتحنا لك مكة، أي: قضينا بك بالنصر على أهلها. وعن جابر قال: ما كنا نعلم فتح مكة إلا يوم الحديبية.

وثانيها: إن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية، وكان فتحاً بغير قتال. قال الفراء: الفتح قد يكون صلحاً، ومعنى الفتح في اللغة: فتح المنغلق. والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مُتعذِّراً حتى فتحه الله. وقال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير، فكثر بهم سواد الإسلام. وقال الشعبي: بويع بالحديبية، وذلك بيعة الرضوان، وأطعِم نخيل خيبر، وظهرت الروم على الفرس، وفرح المسلمون بظهور أهل الكتاب، وهم الروم، على المجوس، إذ كان فيه مصداق قول الله تعالى: إنهم سيغلبون، ﴿بَلَغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾. والحديبية: بئر، روي أنه نفذ ماؤها فظهر فيها من أعلام النبوة ما اشتهرت به الروايات. قال البراء بن عازب: تعدّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فما ترك منها قطرة. فبلغ ذلك إلى النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض، ودعا ثم صبه فيها وتركها. ثم إنها أصدرتنا نحن وركابنا. وفي حديث سلمة بن الأكوع: إما دعا وإما بزق فيها فجاشت، فسقينا وأسقينا. وعن محمد بن إسحاق بن يسار عن الزهري عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة[1] أن رسول الله ﷺ خرج لزيارة البيت لا يريد حرباً، فذكر الحديث، إلى أن قال[2] رسول الله ﷺ: أنزلوا، فقالوا: يا رسول الله، ما بالوادي ماء، فأخرج رسول الله ﷺ من كنانته سهماً فأعطاه رجلًا من أصحابه، فقال: انزل في بعض هذه القلُب فاغرزه في جوفه. ففعل، فجاش بالماء الرواء، حتى ضرب الناس بعطن. وعن عروة وذكر خروج النبي ﷺ قال: وخرجت قريش من مكة، فسبقوه إلى بلدح وإلى الماء، فنزلوا عليه. فلما رأى رسول الله ﷺ أنه قد سبق، نزل على الحديبية وذلك في حر شديد، وليس فيها إلا بئر واحدة. فأشفق القوم من الظمأ والقوم كثير، فنزل فيها رجال يمتحونها، ودعا رسول الله ﷺ بِدَلْو من ماء فتوضأ[3] ومضمض فاه، ثم مجَّ فيه وأمر أن يصب في البئر. ونزع سهماً من كنانته وألقاه في البئر، فدعا الله تعالى ففارت بالماء حتى جعلوا يغترفون بأيديهم منها وهم جلوس على شفتها. وروى سالم بن أبي الجعد قال:

---

(١) محزمة خ ل.
(٢) [قال].
(٣) في بعض النسخ: فتوضأ من الدلو.

قلت لجابر: كم كنتم يوم الشجرة؟ قال: كنا ألفاً وخمسمائة. وذكر عطشاً أصابهم، قال: فأتى رسول الله ﷺ بماء في تَوْرٍ، فوضع يده فيه، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون، قال: فشربنا وسِعنَا وكفانا، قال: قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف كفانا، كنا ألفاً وخمسمائة.

ثالثها: إن المراد بالفتح هنا فتح خيبر، عن مجاهد والعوفي. وروي عن مجمع بن حارثة الأنصاري كان أحد القراء، قال: شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ، فلما انصرفنا عنها إذ الناس يهزون الأباعر، فقال بعض الناس لبعض: ما بال الناس؟ قالوا: أوحى إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا نُوجِف، فوجدنا النبي ﷺ واقفاً على راحلته عند كراع الغميم. فلما اجتمع الناس إليه قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ السورة. فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده إنه لفتح. فقُسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل فيها أحد إلا من شهدها.

ورابعها: إن الفتح على الأعداء كلهم بالحجج والمعجزات الظاهرة، وإعلاء كلمة الإسلام. ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قد قيل فيه أقوال، كلها غير موافق لما يذهب إليه أصحابنا! أن الأنبياء معصومون من الذنوب كلها صغيرها وكبيرها قبل النبوة وبعدها.

فمنها: إنهم قالوا: معناه: ما تقدم من معاصيك قبل النبوة، وما تأخر عنها.

ومنها: قولهم: ما تقدم الفتح، وما تأخر عنه.

ومنها: قولهم: ما وقع وما لم يقع، على الوعد بأنه يغفره له إذا وقع.

ومنها: قولهم: ما تقدم من ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك، وما تأخر من ذنوب أمتك بدعوتك. والكلام في ذنب آدم كالكلام في ذنب نبينا ﷺ، ومن حمل ذلك على الصغائر التي تقع محبطة عندهم، فالذي يبطل قولهم: إن الصغائر إذا سقط عقابها وقعت مكفرة، فكيف يجوز أن يَمُنَّ الله سبحانه على نبيه ﷺ بأن يغفرها له، وإنما يصح الامتنان والتفضل منه سبحانه بما يكون له المؤاخذة به، لا بما لو عاقب به لكان ظالماً عندهم، فوضح فساد قولهم. ولأصحابنا فيه وجهان من التأويل:

أحدهما: إن المراد: لغفر لك الله ما تقدم من ذنب أمتك، وما تأخر بشفاعتك، وأراد بذكر التقدم والتأخر ما تقدم زمانه وما تأخر، كما يقول القائل لغيره: صفحت عن السالف والآنف من ذنوبك. وحسنت إضافة ذنوب أمته إليه للاتصال والسبب بينه وبين أمته. ويؤيد هذا الجواب ما رواه المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام قال: سأله رجل عن هذه الآية، فقال: والله ما كان له ذنب، ولكن الله سبحانه ضمن له أن يغفر ذنوب شيعة علي عليه السلام، ما تقدَّم من ذنبهم وما تأخر. وروى عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام عن قول الله سبحانه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قال: ما كان له ذنب، ولا همَّ بذنب، ولكن الله حمّله ذنوب شيعته ثم غفرها له.

والثاني: ما ذكره المرتضى ـ قدس الله روحه ـ أن الذنب مصدر، والمصدر يجوز إضافته

إلى الفاعل والمفعول معاً، فيكون هنا مضافاً إلى المفعول، والمراد: ما تقدَّم من ذنبهم إليك في منعهم إياك عن مكة، وصدّهم لك عن المسجد الحرام. ويكون معنى المغفرة على هذا التأويل: الإزالة والنسخ لأحكام أعدائه من المشركين عليه، أي: يزيل الله تعالى ذلك عنك، ويستر عليك تلك الوصمة، بما يفتح لك من مكة، فستدخلها فيما بعد. ولذلك جعله جزاء على جهاده، وغرضاً في الفتح ووجهاً له. قال: ولو أنه أراد مغفرة ذنوبه لم يكن لقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ معنى معقول، لأن المغفرة للذنوب لا تَعَلُّق لها بالفتح، فلا يكون غرضاً فيه. وأما قوله: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فلا يمتنع أن يريد به ما تقدَّم زمانه، من فعلهم القبيح بك وبقومك. وقيل أيضاً في ذلك وجوه أخر:

منها: إن معناه: لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك.

ومنها: إن المراد بالذنب هناك ترك المندوب، وحَسُن ذلك، لأن من المعلوم أنه ممن لا يخالف الأوامر الواجبة، فجاز أن يسمى ذنباً منه، ما لو وقع من غيره لم يُسمَّ ذنباً، لعلو قدره ورفعة شأنه.

ومنها: إن القول خرج مخرج التعظيم، وحسن الخطاب، كما قيل في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾. وهذا ضعيف، لأن العادة جرت في مثل هذا أن يكون على لفظ الدعاء.

وقوله: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ معناه: يتم نعمته عليك في الدنيا بإظهارك على عدوك، وإعلاء أمرك، ونصرة دينك، وبقاء شرعك، وبالآخرة برفع محلك. فإن معنى إتمام النعمة: فعل ما يقتضيها، وتبقيتها على صاحبها، والزيادة فيها. وقيل: يتم نعمته عليك بفتح خيبر ومكة والطائف. ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: ويثبتك على صراط يؤدي بسالكه إلى الجنة. ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾: النصر العزيز: هو ما يمتنع به من كل جبار عنيد، وعات مريد. وقد فعل ذلك بنبيه ﷺ إذ صيَّر دينه أعز الأديان، وسلطانه أعظم السلطان.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهي أن يفعل الله بهم اللطف الذي يحصل لهم عنده من البصيرة بالحق ما تسكن إليه نفوسهم، وذلك بكثرة ما ينصب لهم من الأدلة الدالة عليه، فهذه النعمة التامة، للمؤمنين خاصة. وأما غيرهم فتضطرب نفوسهم لأول عارض من شبهة ترد عليهم، إذ لا يجدون برد اليقين وروح الطمأنينة في قلوبهم. وقيل: هي النصرة للمؤمنين، لتسكن بذلك قلوبهم ويثبتوا في القتال. وقيل: هي ما أسكن قلوبهم من التعظيم لله ولرسوله. ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: يقيناً مع يقينهم بما يرون من الفتوح، وعُلوّ كلمة الإسلام على وفق ما وُعدوا. وقيل: ليزدادوا تصديقاً بشرائع الإسلام، وهو أنهم كلما أُمِرُوا بشيء من الشرائع والفرائض كالصلاة والصيام والصدقات، صَدَّقوا به، وذلك بالسكينة التي أنزلها الله في قلوبهم، عن ابن عباس. والمعنى: ليزدادوا معارف على المعرفة الحاصلة عندهم. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: الملائكة والجن والإنس والشياطن، عن ابن عباس. والمعنى: إنه لو شاء لأعانكم بهم، وفيه بيان أنه لو شاء لأهلك المشركين، لكنه عالم بهم وبما يخرج من أصلابهم، فأمهلهم لعلمه وحكمته، ولم يأمر بالقتال عن عجز واحتياج، لكن لِيُعَرِّض

المجاهدين لجزيل الثواب. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فكل أفعاله حكمة وصواب، ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ تقديره: إنا فتحنا لك ليغفر لك الله، إنا فتحنا لك ليدخل المؤمنين والمؤمنات ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ولذلك لم يدخل واو العطف في «ليدخل» إعلاماً بالتفصيل. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: دائمين مُؤَبَّدين لا يزول عنهم نعيمها ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: عقاب معاصيهم التي فعلوها في دار الدنيا. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: ظفراً يعظم الله به قدره.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قد بيّنا اختلافهم في «السوء» في سورة التوبة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «ليؤمنوا» وما بعده بالياء. وقرأ الباقون: بالتاء. وقرأ أهل العراق: «فسيؤتيه» بالياء، والباقون: بالنون. وفي الشواذ قراءة الجحدري: «وتَعْزُروه» بفتح التاء وضم الزاي مُخفَّفاً.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة الياء أنه لا يقال: لتؤمنوا بالله ورسوله[1]. وهو الرسول، فإذا لم يسهل ذلك كانت القراءة بالياء «ليؤمنوا». ومن قرأ بالتاء فعلى قوله لهم: إنا أرسلناك إليهم شاهداً لتؤمنوا. وحجة الياء في «فسيؤتيه» قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ على تقديم ذكر الغيبة. وزعموا أن في حرف عبد الله «فسوف يؤتيه الله». والنون على الانصراف من الإفراد إلى لفظ الكثرة.

وقال ابن جني: من قرأ: «تعزُروه» فالمعنى: تمنعوه وتمنعوا دينه ونبيه، فهو كقوله: ﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ أي: إن تنصروا دينه، فهو على حذف المضاف. وأما «تعزِّروه» بالتشديد: فتمنعوا منه بالسيف، عن الكلبي. وعزَّرت فلاناً: فخُمت أمره، ومنه: عزرة اسم رجل، ومنه: عندي التعزير للضرب دون الحد، وذلك أنه لم يبلغ به ذل الحد الكامل، فكأنه محاسنة فيه. قال أبو حاتم: وقرأ بعضهم: «تُعززوه» أي: تجعلوه عزيزاً.

● **المعنى:** لما تقدَّم الوعد للمؤمنين عقَّبه سبحانه بالوعيد للكافرين، فقال: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ الله ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الشرك. فالنفاق: إسرار الكفر

---

(١) [المخاطب].

وإظهار الإيمان. أُخِذ من نافقاء اليربوع، وهو أن يجعل لسربه بابيْن، يُظهر أحدهما ويخفي الآخر، فإذا أتى من الظاهر خرج من الآخر. ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ وهم الذين يعبدون مع الله غيره ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: يتوهمون أن الله ينصرهم على رسوله، وذلك سوء، أي: قبيح، والسَّوء: المصدر، والسُّوء الاسم. وقيل: هو ظنهم أن النبي ﷺ لا يعود إلى موضع ولادته أبداً. وقيل: هو ظنهم أن لن يبعث الله أحداً، ومثله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾. ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: يقع عليهم العذاب والهلاك، والدائرة: هي الراجعة بخير أو شر. وقال حميد بن ثور:

ودائـــــرات الـــدهـــــر أن تـــدورا

وقيل: إن من قرأ بالضم: فالمراد دائرة العذاب، ومن قرأ بالفتح: فالمراد ما جعله للمؤمنين من قتلهم وغنيمة أموالهم. ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: أبعدهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ يجعلهم فيها ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: مآلًا ومرجعاً ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إنما كرَّرَ لأن الأول متصل بذكر المؤمنين، أي: فله الجنود التي يقدر أن يعينكم بها، والثاني: متصل بذكر الكافرين، أي: فله الجنود التي يقدر على الانتقام منهم بها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ في قهره وانتقامه ﴿حَكِيمًا﴾ في فعله وقضائه.

ثم خاطب نبيه ﷺ فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿شَٰهِدًا﴾ على أمتك بما عملوه من طاعة ومعصية وقبول ورد، أو شاهداً عليهم بتبليغ الرسالة ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالجنة لمن أطاع، ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لمن عصى. ثم بيَّن سبحانه الغرض بالإرسال، فقال: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ من قرأ «ليؤمنوا» بالياء، فالمعنى: ليؤمن هؤلاء الكفار بالله ﴿وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تنصروه بالسيف واللسان، والهاء تعود إلى النبي ﷺ ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تُعَظِّموه وتبجِّلوه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: وتُصلوا[1] بالغداة والعشي. وقيل معناه: وتنزِّهوه عما لا يليق به. وكثير من القراء اختاروا الوقف على ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ لاختلاف الضمير فيه وفيما بعده. وقيل: وتعزروه، أي: وتنصروا الله وتوقروه. أي: وتعظموه وتطيعوه، كقوله: ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾. وعلى هذا فتكون الكنايات متفقة. وفي هذه الآية دلالة على بطلان مذهب أهل الجبر أن الله سبحانه يريد من الكفار الكفر، لأنه صرَّح هنا أنه يريد من جميع المكلفين الإيمان والطاعة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ المراد بالبيعة هنا بيعة الحديبية، وهي بيعة الرضوان، بايعوا رسول الله ﷺ على الموت. ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ يعني أن المبايعة معك تكون مبايعة مع الله، لأن طاعتك طاعة الله. وإنما سميت بيعة لأنها عُقدت على بيع أنفسهم بالجنة، للزومهم في الحرب النصرة. ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: عقد الله في هذه البيعة فوق عقدهم، لأنهم بايعوا الله ببيعة نبيه ﷺ، فكأنهم بايعوه من غير واسطة، عن السدي. وقيل معناه: قوة الله في نصرة نبيه ﷺ فوق نصرتهم إياه، أي: ثق بنصرة الله لك لا بنصرتهم وإن بايعوك، عن ابن كيسان.

(١) [الله].

وقيل: نعمة الله عليهم بنبيه ﷺ فوق أيديهم بالطاعة والمبايعة، عن الكلبي. وقيل: يد الله بالثواب وما وعدهم على بيعتهم من الجزاء فوق أيديهم بالصدق والوفاء، عن ابن عباس. ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أي: نقض ما عقد من البيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: يرجع ضرر ذلك النقض عليه، وليس له الجنة ولا كرامة، عن ابن عباس ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ﴾ أي: ثبت على الوفاء ﴿بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ من البيعة ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلاً.

• • •

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «ضُرّاً» بضم الضاد، «يبدلوا كَلِم الله» بغير ألف، والباقون: «ضَراً» بالفتح، «كلام الله» بالألف.

● **الحجة:** قال أبو علي: الضَر: خلاف النفع، وفي التنزيل: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ﴾. والضُر: سوء الحال، وفي التنزيل: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ﴾. هذا الأبين في هذا الحرف عندي. ويجوز أن يكونا لغتين في معنى، كالفَقر والفُقر، والضَعف والضُعف. ومن قرأ: «كلام الله» فوجهه أنه قيل فيهم: لن تخرجوا معي أبداً، فخصَّ الكلام بما كان مفيداً وحديثاً، فقال: كلام الله. ومن قرأ: «كلم الله» قال: الكلم قد يقع على ما يقع عليه الكلام وعلى غيره، وإن كان الكلام بما ذكرنا أخص. ألا ترى أنه قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فإنما هو ـ والله أعلم ـ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وما يتصل به.

● **اللغة:** المخلَّف: هو المتروك في المكان خلف الخارجين من البلد، وهو مشتق من الخَلف، وضده: المقدم. والأعراب: الجماعة من عرب البادية. وعرب الحاضرة ليسوا بأعراب، فرّقوا بينهما وإن كان اللسان واحداً. والبور: الفاسد الهالك، وهو مصدر لا يُثَنّى ولا يُجمَع، يقال: رجل بورٌ، ورجال بورٌ، قال:

يـا رسـولَ الـمـليـكِ إنَّ لـسـانـي راتِـقٌ مـا فَـتَـقْـتُ إذْ أنـا بُـورُ

وقال حسان:

لا ينفعُ الطولُ من نُوكِ القُلُوبِ وقَدْ يَـهْـدي الإلَـهُ سبيـلَ الـمَـعْـشَـرِ الـبـور

● **المعنى**: ثم أخبر سبحانه عمن تخلف عن نبيه ﷺ فقال: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: الذين تخلفوا عن صحبتك في وجهتك وعمرتك، وذلك أنه لما أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً، وكان في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، استنفر مَنْ حول المدينة إلى الخروج معه، وهم: غفار وأسلم ومزينة وجهينة وأشجع والدُّئل، حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو بصدّ. وأحرم بالعمرة وساق معه الهدي، ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً، فتثاقل عنه كثير من الأعراب، فقالوا: نذهب معه إلى قوم قد جاءوه فقتلوا أصحابه؟ فتخلفوا عنه واعتلوا بالشغل، فقال سبحانه: إنهم يقولون لك إذا انصرفت إليهم فعاتبتهم على التخلف عنك ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ عن الخروج معك ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ في قعودنا عنك. فكذَّبهم الله تعالى فقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ كذبهم في اعتذارهم بما أخبر عن ضمائرهم وأسرارهم، أي: لا يبالون استغفر لهم النبي ﷺ أم لا. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ أي: فمن يمنعكم من عذاب الله إن أراد بكم سوءاً أو نفعاً، أو غنيمة، عن ابن عباس. وذلك أنهم ظنوا أن تخلُّفهم عن النبي ﷺ يدفع عنهم الضر، أو يعجِّل لهم النفع، بالسلامة في أنفسهم وأموالهم، فأخبرهم سبحانه أنه إن أراد بهم شيئاً من ذلك، لم يقدر أحد على دفعه عنهم ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ أي: عالماً بما كنتم تعملون في تخلفكم.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: ظننتم أنهم لا يرجعون إلى من خلفوا بالمدينة من الأهل والأولاد، لأن العدو يستأصلهم ويصطليهم[1]. ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: زيَّن الشيطان ذلك الظن في قلوبكم وسوَّله لكم، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ في هلاك النبي ﷺ والمؤمنين، وكل هذا من الغيب الذي لا يطلع عليه أحد إلا الله، فصار معجزاً لنبينا ﷺ. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: هلكى لا تصلحون لخير، عن مجاهد. وقيل: قوماً فاسدين، عن قتادة ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً تسعرهم وتحرقهم ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ذنوبه، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ إذا استحق العقاب. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ظاهر المعنى. ثم قال:

﴿سَيَقُولُ﴾ لك ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ يعني هؤلاء ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني غنائم خيبر، ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي: اتركونا نجيء معكم، وذلك أنهم لما انصرفوا من عام الحديبية بالصلح وعدَهم الله سبحانه فتح خيبر، وخصَّ بغنائمها مَنْ شهد الحديبية، فلما انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلَّفون: ذرونا نتبعكم، فقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: مواعيد الله لأهل الحديبية بغنيمة خيبر خاصة، أرادوا تغيير ذلك بأن

---

(١) وفي بعض النسخ: «يصطلمهم».

يشاركوهم فيها، عن ابن عباس. وقيل: يريد أمر الله لنبيه ألا يسير معه منهم أحد، عن مقاتل. ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: قال الله بالحديبية قبل خيبر، وقبل مرجعنا إليكم، إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية لا يشركهم فيها غيرهم، هذا قول ابن عباس ومجاهد وابن إسحاق وغيرهم من المفسرين.

وقال الجبائي: أراد بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ قوله سبحانه: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ وهذا غلط فاحش، لأن هذه السورة نزلت بعد الانصراف من الحديبية، في سنة ست من الهجرة، وتلك الآية نزلت في الذين تخلّفوا عن تبوك، وكانت غزوة تبوك بعد فتح مكة، وبعد غزوة حنين، والطائف، ورجوع النبي ﷺ منها إلى المدينة، ومقامه ما بين ذي الحجة إلى رجب، ثم تهيأ في رجب للخروج إلى تبوك، وكان منصرفه من تبوك في بقية رمضان، من سنة تسع من الهجرة. ولم يخرج ﷺ بعد ذلك لقتال ولا غزو إلى أن قبضه الله تعالى، فكيف تكون هذه الآية مرادة بقوله: ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾، وقد نزلت بعده بأربع سنين؟ لولا أن العصبية ترين على القلوب.

ثم قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: فسيقول المخلفون عن الحديبية لكم إذا قلتم هذا: لمْ يأمركم الله تعالى به، بل أنتم تحسدوننا أن نشاركم في الغنيمة، فقال سبحانه: ليس الأمر على ما قالوه ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ الحق وما تدعونهم إليه ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلا فقهاً قليلاً، أو شيئاً قليلاً. وقيل معناه: إلا القليل منهم وهم المعاندون.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة وابن عامر: «ندخله» و«نعذبه» بالنون، والباقون: بالياء. وهما في المعنى سواء.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾ الذين تخلّفوا عنك في الخروج إلى الحديبية ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ﴾ فيما بعد ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وهم هوازن

وحنين، عن سعيد بن جبير وعكرمة. وقيل: هم هوازن وثقيف، عن قتادة. وقيل: هم ثقيف، عن الضحاك. وقيل: هم بنو حنيفة مع مسيلمة الكذاب، عن الزهري. وقيل: هم أهل فارس، عن ابن عباس. وقيل: هم الروم، عن الحسن وكعب. وقيل: هم أهل صفين أصحاب معاوية. والصحيح أن المراد بالداعي في قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ هو النبي ﷺ، لأنه قد دعاهم بعد ذلك إلى غزوات كثيرة، وقتال أقوام ذوي نجدة وشدة، مثل أهل حنين، والطائف، ومؤتة، إلى تبوك، وغيرها. فلا معنى لحمل ذلك على ما بعد وفاته. ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ معناه: إن أحد الأمرين لا بد أن يقع لا محالة، وتقديره: أو هم يسلمون، أي يقرون بالإسلام ويقبلونه. وقيل: ينقادون لكم، وفي حرف أُبيّ: أو يسلموا، وتقديره: إلى أن يسلموا. وفي النصب دلالة على أن ترك القتال من أجل الإسلام إذا وقع. ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ أي: فإن تجيبوا إلى قتالهم ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي: جزاءاً صالحاً. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ عن القتال وتقعدوا عنه ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ عن الخروج إلى الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ أي: ضيق في ترك الخروج مع المؤمنين في الجهاد، والأعمى: الذي لا يبصر بجارحة العين. ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في ترك الجهاد أيضاً. قال مقاتل: عَذَرَ الله أهل الزمانة والآفات الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ معناه: في الأمر بالقتال ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن أمر الله وأمر رسوله فيقعد عن القتال ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يعني بيعة الحديبية، وتسمى: بيعة الرضوان لهذه الآية. ورضا الله سبحانه عنهم هو إرادته تعظيمهم وإثابتهم. وهذا إخبار منه سبحانه أنه رضي عن المؤمنين إذ بايعوا النبي ﷺ في الحديبية تحت الشجرة المعروفة، وهي شجرة السمرة. ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من صدق النية في القتال والكراهة له، لأنه بايعهم على القتال، عن مقاتل. وقيل: ما في قلوبهم من اليقين والصبر والوفاء ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ وهي اللطف القوي لقلوبهم والطمأنينة، ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يعني فتح خيبر، عن قتادة وأكثر المفسرين. وقيل: فتح مكة، عن الجبائي ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني غنائم خيبر، فإنها كانت مشهورة بكثرة الأموال والعقار. وقيل: يعني غنائم هوازن بعد فتح مكة، عن الجبائي ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: غالباً على أمره ﴿حَكِيمًا﴾ في أفعاله، ولذلك أمر بالصلح وحكم للمسلمين بالغنيمة، ولأهل الخيبر بالهزيمة.

ثم ذكر سبحانه سائر الغنائم التي يأخذونها فيما يأتي من الزمان، فقال: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ مع النبي ﷺ، ومن بعده إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ يعني غنيمة خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾، وذلك أن النبي ﷺ لما قصد خيبر، وحاصر أهلها، همّت قبائل من أسد وغطفان أن يُغيرُوا على أموال المسلمين وعيالهم بالمدينة، فكفَّ الله أيديهم عنهم، بإلقاء الرعب في قلوبهم. وقيل: إن مالك بن عوف، وعيينة بن حصين مع بني أسد وغطفان جاءوا لنصرة اليهود من خيبر، فقذف الله الرعب في قلوبهم وانصرفوا. ﴿وَلِتَكُونَ﴾

الغنيمة التي عجَّلها لهم ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على صدقك، حيث وعدهم أن يصيبوها فوقع المخبر على وفق الخبر. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: ويزيدكم هدى بالتصديق بمحمد ﷺ، وما جاء به مما ترون من عدة الله في القرآن بالفتح والغنيمة.

● **قصة فتح الحديبية:** قال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ خرج يريد مكة، فلما بلغ الحديبية وقفت ناقته، وزجرها فلم تنزجر، وبركت الناقة، فقال أصحابه: خلأت الناقة. فقال ﷺ: ما هذا لها عادة، ولكن حبسها حابس الفيل. ودعا عمر بن الخطاب ليرسله إلى أهل مكة، ليأذنوا له بأن يدخل مكة، ويحل من عمرته، وينحر هديه، فقال: يا رسول الله، مالي بها حميم، وإني أخاف قريشاً لشدة عداوتي إياها، ولكن أدلك على رجل هو أعز بها مني، عثمان بن عفان. فقال: صدقت. فدعا رسول الله ﷺ عثمان، فأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، مُعَظِّماً لحرمته، فاحتبسته قريش عندها. فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال ﷺ: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا الناس إلى البيعة، فقام رسول الله ﷺ إلى الشجرة فاستند إليها، وبايع الناس على أن يقاتلوا المشركين ولا يَفِرُّوا. قال عبد الله بن معقل: كنت قائماً على رأس رسول الله ﷺ ذلك اليوم، وبيدي غصن من السمرة أذُبُّ عنه، وهو يبايع الناس، فلم يبايعهم على الموت، وإنما بايعهم على ألا يفروا.

وروى الزهري، وعروة بن الزبير، والمسور بن مخرمة(١) قالوا: خرج رسول الله ﷺ من الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، حتى إذا كانوا بذي الحليفة، قلَّد رسول الله ﷺ الهدي، وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش. وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاط، قريباً من عُسفان أتاه عَينة الخزاعي، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش(٢)، وجمعوا جموعاً، وهم قاتِلوك أو مقاتلوك، وصادُّوك عن البيت. فقال ﷺ: رُوحوا، فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين، وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالثنية، بركت راحلته، فقال ﷺ: ما خلأت القصواء ولكن حبسها حابس الفيل. ثم قال: والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها. ثم زجرها فوثبت به، قال: فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، إنما يتبرَّضه الناس تبرُّضاً(٣)، فشكوا إليه العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه في الماء، فوالله ما زال يجيش لهم بالريِّ حتى صدروا عنه. فبينا هم كذلك، إذ جاءهم بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، ومعهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت.

---

(١) وفي بعض النسخ «محزمة».
(٢) جمع الأحبوش والأحبوشة أي: الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة.
(٣) تبرض الماء: أخذه قليلاً قليلاً من هُهنا، وهُهنا.

فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم. فإن شاءوا ما دونهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمعوا[(١)]. وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله تعالى أمره.

فقال بديل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل، وإنه يقول كذا وكذا، فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال: إنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته. فقالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ نحواً من قوله لبديل.

فقال عروة عند ذلك: أي: محمد، أرأيت إن استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تمكن الأخرى، فوالله إني لأرى وجوهاً وأرى أشاباً من الناس خلقاء أن يفروا ويدعوك.

فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفرُّ عنه وندعه؟

فقال: من ذا؟ قال: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها، لأجبتك.

قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما كلَّمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المغفر. فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل ألا ترجع إليك، فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. قال: أي: غدر ولست أسعى في غدرتك. قال: وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم. فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فقد قبلنا، وأما المال فإنه مال غدر لا حاجة لنا فيه».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ إذا أمرهم رسول الله ﷺ ابتدروا أمره، وإذا توضأ ثاروا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدُّون إليه النظر تعظيماً له. قال: فرجع عروة إلى أصحابه، وقال: أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مَلكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظِّم أصحاب محمد! إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، فإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال رسول الله ﷺ لأصحابه: هذا فلان، وهو من قوم يعظِّمون البدن فابعثوها. فبعثت له، واستقبله القوم يلبون. فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدُّوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ:

(١) في بعض النسخ: «جمّوا» وفي المخطوطة «حمّوا».

هذا مكرز، وهو رجل فاجر، فجعل يكلّم النبي ﷺ، فبينا هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال ﷺ: قد سَهُلَ عليكم أمركم.

فقال: اكتب بيننا وبينك كتاباً. فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام. فقال رسول الله: اكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم. فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم. فقال المسلمون: والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم. هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: إني لرسول الله وإن كذبتموني. ثم قال لعلي عليه السلام: امح رسول الله، فقال: يا رسول الله، إن يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوة، فأخذه رسول الله فمحاه.

ثم قال: اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكفُّ بعضهم عن بعض، وعلى أنه من قدِم مكة من أصحاب محمد حاجّاً أو معتمراً، أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله. ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام فهو آمن على دمه وماله. وإن بيننا عيبة مكفولة[١]، وإنه لا إسلال ولا إغلال. وإنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه. فتواثبت خزاعة، فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

فقال رسول الله ﷺ: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف، فقال سهيل: والله ما تتحدث العرب أنا أُخِذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب. فقال سهيل: على أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، ومن جاءنا ممن معك لم نرده عليك.

فقال المسلمون: سبحان الله؟! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟! فقال رسول الله ﷺ: من جاءهم منا فأبعده الله، ومن جاءنا منهم رددناه إليهم، فلو علم الله الإسلام من قلبه جعل له مخرجاً.

فقال سهيل: وعلى أنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، فإذا كان عام قابل، خرجنا عنها لك، فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، ولا تدخلها بالسلاح إلا السيوف في القراب، وسلاح الراكب. وعلى أن هذا الهدي حيث ما حبسناه محله، لا تقدمه علينا. فقال: نحن نسوق وأنتم تردون!

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف[٢] في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده، فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض بالكتاب بعد، قال: والله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً. فقال النبي ﷺ: فأجره لي. فقال: ما أنا بمجيره لك. قال: بلى فافعل. قال: ما

---

(١) وفي بعض النسخ مكفوفة.
(٢) رسَف يرسف رَسْفاً: مشى مشيَ المقيَّد.

أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجرناه. قال أبو جندل بن سهيل: معاشر المسلمين أأُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟! ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عُذِّبَ عذاباً شديداً.

فقال عمر بن الخطاب: والله ما شككت مذ أسلمت إلا يومئذٍ، فأتيت النبي ﷺ فقلت: ألست نبي الله؟ فقال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فَلِمَ نعط الدنية في ديننا إذاً؟ قال: إني رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصري، قلت: أولست كنت تحدثنا أنّا سنأتي البيت ونطوف حقاً؟ قال: بلى، أفأخبرتك أن نأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك تأتيه وتطوف به، فنحر رسول الله ﷺ بدنة، فدعا بحالقه فحلق شعره، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ﴾ الآية.

قال محمد بن إسحاق بن يسار: وحدثني بريدة بن سفيان، عن محمد بن كعب أن كاتب رسول الله ﷺ في هذا الصلح كان علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال له رسول الله ﷺ: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو، فجعل علي عليه السلام يتلكأ، ويأبى أن يكتب إلا محمداً رسول الله، فقال رسول الله: فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد. فكتب ما قالوا. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير، رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا. فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلا يأكلان من تمر لهم. قال أبو بصير لأحد الرجلين: وإني لأرى سيفك هذا جيداً جداً، فاستله وقال: أجل، إنّه لجيد، وجربت به ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه به حتى برد، وفرَّ الآخر حتى بلغ المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعراً. فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول. قال: فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد أوفى الله ذمتك ورددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: ويل أمه مسعر حرب، لو كان له أحد! فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت عليه عصابة. قال: فوالله لا يسمعون بعير لقريش قد خرجت إلى الشام، إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل ﷺ إليهم فأتوه.

● **قصة فتح خيبر:** ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية، مكث بها عشرين ليلة، ثم خرج منها غادياً إلى خيبر. ذكر ابن إسحاق بإسناده عن أبي مروان الأسلمي، عن أبيه عن جده قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، حتى إذا كنا قريباً منها وأشرفنا عليها، قال رسول الله ﷺ: قفوا، فوقف الناس، فقال: اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضلِلن، إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله.

وعن سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، فسرنا ليلًا، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنيهاتك، وكان عامر رجلًا شاعراً، فجعل يقول:

لا هـمَّ لَوْلا أنـت مـا حَـجَّـيْـنـا(١) ولا تـصـدَّقـنـا ولا صَـلَّـيْـنـا
فـاغـفـر فـداءً لـك مـا اقْـتَـنَـيْـنـا وَثَـبِّـتِ الأقـدامَ إن لاقَـيْـنـا
وأَنْـزِلَنْ سَـكِـيـنـةً عِـلـيـنـا إنـا إذا صِـيـحَ بـنـا أَتَـيْـنـا
وبـالـصِّـبـاحِ(٢) عَـوَّلـوا عـلـيـنـا

فقال رسول الله ﷺ: مَنْ هذا السابق(٣)؟ قالوا: عامر. قال: يرحمه الله. قال عمر وهو على جمل له وجيب: يا رسول الله! لولا أمتعتنا به، وذلك أن رسول الله ﷺ ما استغفر لرجل قط يخصه إلا استشهد، قالوا: فلما جد الحرب وتصافَّ القوم، خرج يهودي وهو يقول:

قـد عَـلِـمَـتْ خَـيْـبَـر أنـي مَـرْحَـبُ شـاكـي الـسـلاح بَـطَـلٌ مُـجَـرَّبُ
إذا الـحـروبُ أَقْـبَـلَـتْ تَـلـهَـبُ

فبرز إليه عامر وهو يقول:

قَـدْ عَـلِـمَـتْ خـيـبـرُ أنـي عـامـرُ شـاكـي الـسـلاحِ بَـطَـلٌ مُـغـامِـرُ

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف اليهودي في ترس عامر، وكان سيف عامر فيه قصر، فتناول به ساق اليهودي ليضربه، فرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبة عامر، فمات منه.

قال سلمة: فإذا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: بطل عمل عامر قتل نفسه، قال: فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي فقلت: قالوا: إن عامراً بطل عمله، فقال: من قال ذلك؟ قلت: نفر من أصحابك، فقال: كذب أولئك بل أوتي من الأجر مرتين.

قال: فحاضرناهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة، ثم إن الله فتحها علينا، وذلك أن النبي ﷺ أعطى اللواء عمر بن الخطاب، ونهض من نهض معه من الناس، فلقوا أهل خيبر، فانكشف عمر وأصحابه، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ يُجَبِّنه أصحابه ويُجَبِّنهم. وكان رسول الله ﷺ أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس، فقال حين أفاق من وجعه: ما فعل الناس بخيبر؟ فأُخْبِرَ. فقال: «لأُعْطِيَنَّ الراية غداً رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، كراراً غير فرارٍ، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه».

وروى البخاري ومسلم، عن قتيبة عن سعيد قال: حدثنا يعقوب عن عبد الرحمن الإسكندراني، عن أبي حازم قال: أخبرني سعد بن سهل أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين هذه الراية غداً رجلًا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، قال: فبات الناس يدوكون(٤) بجملتهم، أيهم يُعْطَاها. فلما أصبح الناس، غدوا على رسول

(١) وفي نسخة: ما اهتدينا.
(٢) وفي بعضها: وبالصياح.
(٣) وفي بعضها السائق.
(٤) أي: يخوضون، ويموجون، ويختلفون.

الله ﷺ، كلهم يرجون أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: يا رسول الله، هو يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه، فأتى به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، وعاد له فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي عليه السلام: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليه من حق الله، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم.

قال سلمة: فبرز مرحب وهو يقول: «قد علمت خيبر أني مرحب» الأبيات.

فبرز له علي عليه السلام وهو يقول:

أنـا الـذي سَـمَّـتْـنـي أمـي حَـيْـدَرَة كَـلَـيْـثِ غَـابـاتٍ كَـرِيـهِ الـمَـنْـظَـرَة

أُوفِـيـهـم بـالـصَّـاعِ كَـيْـلَ الـسَّـنْـدَرة[1]

فضرب مرحباً ففلق رأسه فقتله. وكان الفتح على يده. أورده مسلم في «الصحيح».

وروى أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن رافع[2] مولى رسول الله ﷺ قال: خرجنا مع علي عليه السلام حين بعثه رسول الله ﷺ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده، فتناول علي باب الحصن فتترَّس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده. فلقد رأيتني في نفر مع سبعة أنا منهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما استطعنا أن نقلبه.

وبإسناده عن ليث بن أبي سليم عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام قال: حدثني جابر بن عبد الله أن علياً عليه السلام حمل الباب يوم خيبر، حتى صعد المسلمون عليه فاقتحموها، وإنه حُرِّك بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلًا. قال: وروي من وجه آخر عن جابر: ثم اجتمع عليه سبعون رجلًا فكان جهدهم أن أعادوا الباب.

وبإسناده عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى قال: كان علي عليه السلام يلبس في الحر والشتاء القباء المحشو الثخين، وما يبالي الحر، فأتاني أصحابي فقالوا: إنا رأينا من أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً، فهل رأيت؟ فقلت: وما هو؟ قالوا: رأيناه يخرج علينا في الحر الشديد في القباء المحشو الثخين، وما يبالي الحر، ويخرج علينا في البرد الشديد في الثوبين الخفيفين وما يبالي البرد، فهل سمعت في ذاك شيئاً؟ فقلت: لا. فقالوا: فسل لنا أباك عن ذلك فإنه يسمر معه. فسألته فقال: ما سمعت في ذلك شيئاً، فدخل على عليّ عليه السلام فسمر معه، ثم سأله عن ذلك، فقال: أو ما شهدت[3] خيبر؟ قلت: بلى، قال: فما رأيت رسول الله ﷺ حين دعا أبا بكر فعقد له، ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقي القوم، ثم جاء بالناس وقد هُزِمَ؟ فقال: بلى، قال: ثم بعث إلى عمر فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقي القوم فقاتلهم، ثم رجع وقد هُزِم. فقال رسول

---

(١) ضرب من الكيل جراف، والمعنى: أقتلكم قتلًا واسعاً كبيراً.

(٢) [أبي رافع] بدل «رافع» وهو الصحيح.

(٣) وفي المخطوطة: «أو ما شهدت معنا خيبر».

الله ﷺ: «لأُعْطِيَنَّ الراية اليوم رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، كراراً غير فرار». فدعاني فأعطاني الراية، ثم قال: اللهم اكفه الحر والبرد، فما وجدت بعد ذلك حراً ولا برداً. وهذا كله منقول من كتاب دلائل النبوة للإمام أبي بكر البيهقي.

ثم لم يزل رسول الله ﷺ يفتح الحصون حصناً حصناً، ويحوز الأموال حتى انتهوا إلى حصن الوطيح والسلالم، وكان آخر حصون خيبر، افتتح وحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة.

قال ابن إسحاق: ولما افتتح القموص حصن ابن أبي الحقيق، أُتِيَ رسول الله ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب، وبأخرى معها، فمر بهما بلال، وهو الذي جاء بهما على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي معها صفية صاحت وصَكَّت وجهها، وحثت التراب على رأسها. فلما رآها رسول الله ﷺ قال: أَغْرِبُوا عني هذه الشيطانة، وأمر بصفية فحيزت[1] خلفه، وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه. وقال ﷺ لبلال لما رأى من تلك اليهودية ما رأى: أنزعت منك الرحمة يا بلال؟ حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟ وكانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، أن قمراً وقع في حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها، فقال: ما هذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز محمداً، ولطم وجهها لطمة أخضرت عينها منها، فأُتِيَ بها رسول الله ﷺ وبها أثر منها، فسألها رسول الله ﷺ ما هو؟ فأخبرته، وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ: انزل فأكلمك. قال: نعم، فنزل وصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأهلها بذراريهم، ويخلون بين رسول الله وبين من كان لهم من مال وأرض، على الصفراء والبيضاء، والكراع والحلقة[2]، وعلى البز إلا ثوباً على ظهر إنسان. وقال رسول الله ﷺ: فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئاً، فصالحوه على ذلك، فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا، بعثوا إلى رسول الله يسألونه أن يسيرهم ويحقن دماءهم ويخلون بينه وبين الأموال، ففعل. وكان ممن مشى بين رسول الله ﷺ وبينهم في ذلك محيّصة بن مسعود، أحد بني حارثة.

فلما نزل أهل خيبر على ذلك، سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأعمر لها. فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، وصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت أموال خيبر فيئاً بين المسلمين، وكانت فدك خالصة لرسول الله، لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب.

ولما اطمأنَّ رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم، هي ابنة أخي مرحب، شاة مصلية، وقد سألت: أي: عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ، فقيل لها: الذراع. فأكثرت فيها السم، وسمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يديه

---

(١) وفي المخطوطة: فجرت.

(٢) وفي بعض النسخ: الخلفة.

تناول الذراع فأخذها فلاك منها مضغة، وانتهش منها ومعه بشر بن البراء بن معرور، فتناول عظماً فانتهش منه، فقال رسول الله ﷺ: ارفعوا أيديكم، فإن كتف هذه الشاة تخبرني أنها مسمومة. ثم دعاها فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ فقالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان نبياً فسيخبر، وإن كان ملكاً استرحت منه. فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بشر بن البراء من أكلته التي أكل.

قال: ودخلت أم بشر بن البراء على رسول الله تعوده في مرضه الذي توفي فيه، فقال ﷺ: يا أم بشر ما زالت أكلة خيبر التي أكلت بخيبر مع ابنك تعاودني[(١)]، فهذا أوان قطعت أبهري[(٢)]. وكان المسلمون يرون أن رسول الله ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو: «بما يعملون» بالياء، والباقون: بالتاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه قول أبي عمرو: وكان الله بما عمل الكفار منْ كفرهم، وصدكم عن المسجد الحرام، ومنعكم من دخوله بصيراً، فيجازي عليه. ووجه التاء: الخطاب قد جرى للقبيلتين في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾، فالخطاب لتقدم هذا الخطاب.

● **اللغة:** التبديل: رفع أحد الشيئين وجعل الآخر مكانه، فيما حُكمَ أن يستمر على ما هو به، ولو رفع الله حكماً إلى خلافه لم يكن تبديلاً لحكمه، لأنه لا يرفع شيئاً إلا في الوقت الذي تقتضي الحكمة رفعه فيه. والمعكوف: الممنوع من الذهاب في جهة بالإقامة في مكانه،

---

(١) وفي الحجري «تعازني».
(٢) الأبهر: عرق مستبطن الصلب إذا انقطع لم يبق صاحبه.

ومنه الاعتكاف: وهو الإقامة في المسجد للعبادة. وعكف على هذا الأمر يعكف عكوفاً: إذا قام عليه. والمعرة: الأمر القبيح المكروه، يقال: عرَّ فلانٌ فلاناً: إذا شانه وألحق به عيباً، وبه سمي الجرب: عُرّاً، والعذرة: عرة.

● **الإعراب:** ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المصدر، والمعنى: سن الله خذلانهم سنة. وموضع ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ رفع، بدل من ﴿رِجَالٌ﴾ والمعنى: لولا أن تطأوا رجالًا مؤمنين ونساء مؤمنات. ثم قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا﴾ الآية، والتقدير[1]: وطء رجال ونساء، أي: قتلهم، وهو بدل الاشتمال، مثل: نفعني عبد الله علمه، وأعجبتني الجارية حسنها.

ويجوز أن يكون موضع ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ نصباً على البدل من الهاء والميم في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾، والتقدير: ولولا رجال ونساء لم تعلموا أن تطؤوهم، أي: لم تعلموا وطأهم، وهو بدل الاشتمال أيضاً.

وقوله: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ في موضع رفع صفة لرجال ونساء، وجواب «لولا» يغني عنه جواب «لو» في قوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

وقوله: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾ عطف على الكاف والميم في ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾، أي: صدوكم وصدوا الهدي، و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال. وقوله: ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ تقديره: كراهة أن يبلغ، فحذف المضاف. وقيل: معكوفاً من أن يبلغ، فحذف من.

● **النزول:** سبب نزول قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ الآية. أن المشركين بعثوا أربعين رجلًا عام الحديبية ليصيبوا من المسلمين. فأُتِيَ بهم إلى النبي ﷺ أسرى، فخلى سبيلهم، عن ابن عباس. وقيل: إنهم كانوا ثمانين رجلًا من أهل مكة، هبطوا من جبل التنعيم عند صلاة الفجر، عام الحديبية ليقتلوهم، فأخذهم رسول الله ﷺ فأعتقهم، عن أنس. وقيل: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة وبين يديه عليٌّ صلوات الله عليه يكتب كتاب الصلح، فخرج ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فدعا عليهم النبي ﷺ، فأخذ الله تعالى بأبصارهم، فقمنا فأخذناهم فخلى سبيلهم، فنزلت هذه الآية، عن عبد الله بن المغفل.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم يعد النبي ﷺ والمؤمنين فتوحاً أُخر، فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ معناه: ووعدكم الله مغانم أخرى لم تقدروا عليها بعد، فتكون ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ في محل النصب. وقيل معناه: وقرية أخرى لم تقدروا عليها قد أعدها الله لكم وهي مكة، عن قتادة. وقيل: هي ما فتح الله على المسلمين بعد ذلك إلى اليوم، عن مجاهد. وقيل: إن المراد بها فارس والروم، عن ابن عباس والحسن والجبائي قال: كما أن النبي ﷺ بشرهم كنوز كسرى وقيصر، وما كانت العرب تقدر على قتال فارس والروم وفتح مدائنهم، بل كانوا خولًا لهم، حتى قدروا عليها بالإسلام. ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: قدر الله عليها، وأحاط علماً بها، فجعلهم بمنزلة قوم قد أدير حولهم، فما يقدر أحد منهم أن يفلت. قال الفراء: أحاط الله

---

(١) وفي نسختين: لولا وطء.

بها لكم حتى يفتحها عليكم، فكأنه قال: حفظها عليكم ومنعها من غيركم حتى تفتحوها وتأخذوها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ من فتح القرى وغير ذلك ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قريش يوم الحديبية يا معشر المؤمنين، ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ منهزمين بنصرة الله إياكم، وخذلان الله إياهم، عن قتادة والجبائي. وقيل: الذين كفروا من أسد وغطفان الذين أرادوا نهب ذراري المسلمين. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يواليهم وينصرهم ويدافع عنهم، وهذا من علم الغيب.

وفي الآية دلالة على أنه يعلم ما لم يكن أن لو كان كيف يكون، وفي ذلك إشارة إلى أن المعدوم معلوم.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: هذه سنتي في أهل طاعتي وأهل معصيتي، أنصر أوليائي، وأخذل أعدائي، عن ابن عباس. وقيل معناه: هذه طريقة الله وعادته السالفة، أن كل قوم إذا قاتلوا أنبياءهم انهزموا وقُتِلوا. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾ في نصرة رسله ﴿تَبْدِيلًا﴾ أي: تغييراً.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ بالرعب ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ بالنهي ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعني الحديبية ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، ذكر الله منته على المؤمنين بحجزه بين الفريقين حتى لم يقتتلا، وحتى اتفق بينهم الصلح الذي كان أعظم من الفتح، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ مرَّ تفسيره.

ثم ذكر سبحانه سبب منعه رسول الله ﷺ ذلك العام دخول مكة، فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أن تطوفوا وتحلوا من عمرتكم، يعني قريشاً ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: وصدوا الهدي، وهي البُدن التي ساقها رسول الله ﷺ معه، وكانت سبعين بدنة، حتى بلغ ذا الحليفة فقلد البدن التي ساقها وأشعرها، وأحوم بالعمرة حتى نزل بالحديبية ومنعه المشركون، وكان الصلح. فلما تم الصلح نحروا البدن، فلذلك قوله: ﴿مَعْكُوفًا﴾ أي: محبوساً عن ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: منحره، وهو حيث يحل نحره، يعني مكة، لأن هدي العمرة لا يذبح إلا بمكة، كما أن هدي الحج لا يذبح إلا بمنى. ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ يعني المستضعفين الذين كانوا بمكة بين الكفار من أهل الإيمان ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ بأعيانهم لاختلاطهم بغيرهم ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بالقتل وتوقعوا بهم ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي: إثم وجناية، عن ابن زيد. وقيل: فيلحقكم بذلك عيب يعيبكم المشركون بأنهم قتلوا أهل دينهم. وقيل: هو غرم الدية والكفارة في قتل الخطأ، عن ابن عباس. وذلك أنهم لو كبسوا مكة وفيها قوم مؤمنون، لم يتميزوا من الكفار لم يأمنوا أن يقتلوا المؤمنين، فتلزمهم الكفارة، وتلحقهم السيئة بقتل من على دينهم. فهذه المعرة التي صان الله المؤمنين عنها. وجواب «لولا» محذوف، وتقديره: لولا المؤمنون الذين لم تعلموهم لوطأتم رقاب المشركين بنصرنا إياكم. قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ موضعه التقديم، لأن التقدير: لولا أن تطأوهم بغير علم. وقوله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ اللام متعلق بمحذوف دل عليه معنى الكلام، تقديره: فحال بينكم وبينهم ليدخل الله في رحمته من يشاء، يعني من أسلم من الكفار بعد الصلح، وقيل: ليدخل

الله في رحمته أولئك بسلامتهم من القتل، ويدخل هؤلاء في رحمته بسلامتهم من الطعن والعيب. ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: لو تميز المؤمنون من الكافرين ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل مكة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالسيف والقتل بأيديكم، ولكن الله تعالى يدفع[١] المؤمنين عن الكفار، فلحرمة اختلاطهم بهم لم يعذبهم.

●●●

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير، عن ابن فليح، وابن ذكوان: «شَطَأه» بفتح الطاء، والباقون بسكونها. وقرأ ابن عامر: «فأزره» بقصر الهمزة، والباقون: «فآزره» بالمد. وفي الشواذ قراءة الحسن: «أشداءَ على الكفار رحماءَ بينهم» بالنصب فيهما. وقراءة عيسى الهمداني: «شطاءه» بالمد والهمزة، و«شطاه» أيضاً.

● **الحجة:** قال أبو علي: يشبه أن يكون: «شطَأ». لغة في: شطْء. فيكون كالشَمَع والشمْع والنَهَر والنهْر. ومن خفف الهمزة في «شطاه» حذفها وألقى حركتها على الطاء، فقال: شَطاهُ. قال أبو زيد: أشطأت الشجرةُ بغصونها: إذا أخرجتْ غصونها. أبو عبيدة أخرج شطاه: فراخه، وأشطأ الزرعُ فهو مشطىء: أي: مُفرخ. وآزره على فاعله معناه: ساواه، أي: صار مثل الأم، وفاعله الشطء، أي: آزراً الشطء الزرع، فصار في طوله. قال امرؤ القيس:

بِمَحْنِيَةٍ قَدْ آزرَ الضَّالَ نَبْتُها ... مُضِمُّ جيوش غانمين وخُيَّبِ[٢]

---

(١) وفي نسختين: «يدفع بالمؤمنين».

(٢) الضال من السّدر: ما كان عِذياً أي: لا يسقيه إلا المطر. والمحنية: معطف الوادي أي: في معطف وادٍ قد ساوى نبته شجر الضال، وهو مجمع جيوش بعضها غانم، وبعضها خائب من الغنيمة.

أي: ساوى نبته الضال في قامته، لأنه لا يُرعَى. ويجوز أن يكون فاعل آزر الزرع، أي: آزر الزرع الشطْء، ومن الناس من يفسر «آزره»: أعانه وقواه، فعلى هذا يكون آزر الزُّراع الشطْء. قال أبو الحسن: آزره أفعله وهو الأشبه، ليكون قول ابن عامر: «أزَرَه» فعله، فيكون فيه لغتان: فعَل وأفعَل، لأنهما كثيراً ما يتعاقبان على الكلمة. ومن قرأ: «أشداءَ» بالنصب، فهو نصب على الحال من «معه» أي: هم معه على هذا الحال.

● **اللغة:** الحمية: الأنَفَة والإنكار، يقال: فلان ذو حمية منكرة، إذا كان ذا غضب وأنفة. والكفار: الزراع هنا، لأن الزراع يغطِّي البذر، وكل شيء قد غطيته فقد كفرته، ومنه يقال لليل: كافر، لأنه يستر بظلمته كل شيء. قال:

أَلْقَـت ذُكـاء يَـمِـيـنَـهـا فـي كـافـرِ

وقال لبيد:

فـي لَيْـلَةٍ كَـفَـرَ الـنُّـجـومَ غـمـامُـهـا

● **الإعـراب:** ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ مـبـتـدأ، و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ عـطـف بـيـان، ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ عـطـف على﴿مُّحَمَّدٌ﴾. و﴿أَشِدَّآءُ﴾ خبر ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ وما عطف عليه. وقيل: ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ مبتدأ، و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ خبره ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ مبتدأ، وما بعده خبره ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إن شئت كان في موضع الحال، وإن شئت كان خبراً بعد خبر، وإن شئت كان هو الخبر فيمن نصب ﴿أَشِدَّآءَ﴾، ويكون ﴿تَرَىٰهُمۡ﴾ أيضاً في موضع النصب مثل ﴿أَشِدَّآءَ﴾. ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾ ابتداء وخبر، والكلام تام. ثم ابتدأ فقال: ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ فلهم مثلان: أحدهما في التوراة، والثاني في الإنجيل. وقال مجاهد: بل قوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ مع ما بعده جميعاً في التوراة والإنجيل، وكذلك قوله: ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ في التوراة والإنجيل، فيكون قوله: ﴿كَزَرۡعٍ﴾ خبر مبتدأ مضمر، أي: هم كزرع أخرج شطأه.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ﴾: «إذ» يتعلق بقوله: ﴿لَعَذَّبۡنَا﴾ أي: لعذبنا الذين كفروا وأذِنَّا لك في قتالهم، حين جعلوا في قلوبهم الأنفة التي تحمي الإنسان، أي: حَميتْ قلوبهم بالغضب. ثم فسر تلك الحمية فقال: ﴿حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي: عادة آبائهم في الجاهلية ألا يذعنوا لأحد، ولا ينقادوا له، وذلك أن كفار مكة قالوا: قد قتَل محمدٌ وأصحابه آباءنا وإخواننا، ويدخلون علينا في منازلنا، فتتحدث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا. واللات والعزى لا يدخلونها علينا، فهذه الحمية الجاهلية التي دخلت قلوبهم.

وقيل: هي أنفتهم من الإقرار لمحمد ﷺ بالرسالة، والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم، حيث أراد أن يكتب كتاب العهد بينهم، عن الزهري. ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ وهي قوله: لا إله إلا الله، عن ابن عباس وقتادة ومجاهد. ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾ قيل: إن فيه تقديماً وتأخيراً، والتقدير: كانوا أهلها وأحق

بها، أي: كان المؤمنون أهل تلك الكلمة وأحق بها من المشركين. وقيل معناه: وكانوا أحق بنزول السكينة عليهم وأهلها. وقيل: وكانوا أحق بمكة أن يدخلوها وأهلها، وقد يكون حَقَّ أحق من غيره، ألا ترى أن الحق الذي هو طاعة يستحق بها المدح، أحق من الحق الذي هو مباح لا يستحق به ذلك. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ لما ذم الكفار بالحمية، ومدح المؤمنين بلزوم الكلمة والسكينة، بيَّن علمه ببواطن سرائرهم، وما ينطوي عليه عقد ضمائرهم.

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ قالوا: إن الله تعالى أرى نبيه ﷺ في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أن المسلمين دخلوا المسجد الحرام، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، فلما انصرفوا ولم يدخلوا مكة قال المنافقون: ما حلقنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل الله هذه الآية، وأخبر أنه أرى رسول الله ﷺ الصدق في منامه، لا الباطل، وأنهم يدخلونه. وأقسم على ذلك، فقال: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ يعني العام المقبل ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ قال أبو العباس ثعلب: استثنى الله فيما يعلم ليستثني الناس فيما لا يعلمون.

وقيل: إن الاستثناء من الدخول، وكان بين نزول الآية والدخول مدة سنة، وقد مات منهم أناس في السنة، فيكون تقديره: لتدخلن كلكم إن شاء الله، إذ عَلم الله أن منهم من يموت قبل السنة أو يمرض فلا يدخلها، فأدخل الاستثناء لئلا يقع في الخبر خلف، عن الجبائي.

وقيل: إن الاستثناء داخل على الخوف والأمن. فأما الدخول فلا شك فيه، وتقديره: لتدخلن المسجد الحرام آمنين من العدو إن شاء الله. فهذه الأقوال الثلاثة للبصريين.

وقيل: إن «إنْ» هنا بمعنى «إذ»، أي: إذ شاء الله حين أرى رسوله ذلك، عن أبي عبيدة. ومثله قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قال معناه: إذ كنتم. وهذا القول لا يرتضيه البصريون.

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: محرمين يحلق بعضكم رأسه ويقصر بعض، وهوأن يأخذ بعض الشعر. وفي هذا دلالة على أن المحرم بالخيار عند التحلل من الإحرام، إن شاء حلق، وإن شاء قصر. ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ مشركاً ﴿فَعَلِمَ﴾ من الصلاح في صلح الحديبية ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ وقيل: علم في تأخير دخول المسجد الحرام من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم، وهو خروج المؤمنين من بينهم. والصلح المبارك موقعه. ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من قبل الدخول ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يعني: فتح خيبر، عن عطاء ومقاتل. وقيل: يعني صلح الحديبية.

عمرة القضاء: وكذلك جرى الأمر في عمرة القضاء في السنة التالية للحديبية، وهي سنة سبع من الهجرة في ذي القعدة، وهو الشهر الذي صده فيه المشركون عن المسجد الحرام، فخرج النبي ﷺ ودخل مكة مع أصحابه معتمرين، وأقاموا بمكة ثلاثة أيام، ثم رجعوا إلى المدينة. وعن الزهري قال: بعث رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب عليه السلام بين يديه إلى ميمونة بنت الحرث العامرية، فخطبها عليه، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب، وكان تحته أختها أم الفضل بنت الحرث، فزوجها العباس رسول الله، فلما قدم رسول الله ﷺ أمر

أصحابه فقال: اكشفوا عن المناكب واسعوا في الطواف ليرى المشركون جلدهم وقوتهم. فاستكف[1] أهل مكة الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وهم يطوفون بالبيت، وعبد الله بن رواحة يرتجز بين يدي رسول الله ﷺ متوشحاً بالسيف، يقول:

خلُّوا بني الكفار عن سَبيلِهِ   قد أنزلَ الرحمنُ في تنزيلِهِ
في صُحُفٍ تُتلى على رَسُولِهِ   اليومَ نَضرِبكُمْ على تأويلِهِ
كما ضَرَبْناكُمْ على تنزيلِهِ   ضرباً يُزِيلُ الهامَ عن مَقيلِهِ
ويُذهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ   يا ربِّ: إني مُؤمِنٌ لِقيلِهِ
إني رأيتُ الحقَّ في قبولِهِ

ويشير بيده إلى رسول الله ﷺ، وأنزل الله في تلك العمرة: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهو أن رسول الله ﷺ اعتمر الشهر الحرام الذي صُد فيه.

ثم قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ يعني محمداً ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: بالدليل الواضح والحجة الساطعة. وقيل: بالقرآن ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: ليظهر دين الإسلام بالحجج والبراهين على جميع الأديان. وقيل: بالغلبة والقهر والانتشار في البلدان. وقيل: إن تمام ذلك عند خروج المهدي عليه السلام، فلا يبقى في الأرض دين سوى دين الإسلام، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ بذلك.

ثم قال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ نصَّ سبحانه على اسمه ليزيل كل شبهة. تم الكلام هنا. ثم أثنى على المؤمنين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ قال الحسن: بلغ من تشددهم على الكفار أن كانوا يَتحرَّزون من ثياب المشركين حتى لا تلتزق بثيابهم، وعن أبدانهم حتى لا تمس أبدانهم، وبلغ تراحمهم فيما بينهم أن كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه، ومثله قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ هذا إخبار عن كثرة صلواتهم ومداومتهم عليها. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: يلتمسون بذلك زيادة نعمهم من الله، ويطلبون مرضاته. ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: علامتهم يوم القيامة أن تكون مواضع سجودهم أشد بياضاً، عن ابن عباس وعطية. قال شهر بن حوْشب: يكون مواضع سجودهم كالقمر ليلة البدر. وقيل: هو التراب على الجباه، لأنهم يسجدون على التراب لا على الأثواب، عن عكرمة وسعيد بن جبير وأبي العالية. وقيل: هو الصفرة والنحول، عن الضحاك. قال الحسن: إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى. وقال عطاء الخراساني: دخل في هذه الآية كل من صلى الخمس. ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ يعني أن ما ذكر من وصفهم هو ما وصفوا به في التوراة أيضاً.

ثم ذكر نعتهم في الإنجيل فقال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي: فراخه، عن الضحاك. وقيل: ليس بينهما وقف، والمعنى: ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل جميعاً، عن

---

(١) استكفّ الناس حوله: أحاطوا به ينظرون إليه.

مجاهد. والمعنى: كمثل زرع أخرج شطأه، أي: فراخه. ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: شده وأعانه وقواه. وقال المبرد: يعني أن هذه الأفراخ لحقت الأمهات حتى صارت مثلها ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي: غلظ ذلك الزرع ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي: قام على قصبه وأصوله، فاستوى الصغار مع الكبار، والسوق: جمع الساق. والمعنى أنه تناهى وبلغ الغاية. ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي: يروع ذلك الزرع الزراع، أي: الأكرة الذين زرعوه. قال الواحدي: هذا مثل ضربه الله تعالى بمحمد وأصحابه، فالزرع محمد ﷺ، والشطء: أصحابه والمؤمنون حوله، وكانوا في ضعف وقلة كما يكون أول الزرع دقيقاً ثم غلظ وقوي وتلاحق. فكذلك المؤمنون قوّى بعضهم بعضاً حتى استغلظوا واستووا على أمرهم. ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: إنما كَثَّرهم الله وقوَّاهم ليكونوا غيظاً للكافرين بتوافرهم وتظاهرهم واتفاقهم على الطاعة. ثم قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: وعد من أقام على الإيمان والطاعة ﴿مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾ أي: ستراً على ذنوبهم الماضية ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ أي: ثواباً جزيلاً دائماً.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

مدنية/آياتها (١٨)

عن الحسن وقتادة وعكرمة، وعن ابن عباس، إلا آية قوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾.

● **عدد آيها:** ثماني عشرة آية بالإجماع.

● **فضلها:** أُبَيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الحجرات أُعطِي من الأجر عشر حسنات، بعدد من أطاع الله ومن عصاه». الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة الحجرات في كل ليلة وفي كل يوم، كان من زوار محمد ﷺ.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سبحانه سورة الفتح بذكر نبيه ﷺ، افتتح هذه السورة أيضاً بذكره، وما يختص به من الإجلال والإعظام، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)
يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ
عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)
إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ
تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب: «لا تَقدموا» بفتح التاء والدال، والباقون: «ولا تُقدِموا» بضم التاء وكسر الدال. وقرأ أبو جعفر: «الحُجَرات» بفتح الجيم، والباقون: بضمها.

● **الحجة:** قال ابن جني: معناه: لا تفعلوا ما تؤثرونه، وتتركوا ما أمركم الله ورسوله به. وهذا معنى القراءة المشهورة «لا تُقدِّموا» أي: لا تقدموا أمراً على ما أمركم الله به، فالمفعول هنا محذوف كما ترى. ومن قرأ: «الحُجَرات» أبدل من الضمة فتحة استثقالاً لتوالي الضمتين، ومنهم من أسكن فقال: «الحُجْرات» مثل عضُد وعضْد، وقال أبو عبيدة: حجرات جمع حجَر، فهو جمع الجمع.

● **اللغة:** قدَّم تقديماً، وأقدم إقداماً، واستقدم وقدِم كل ذلك بمعنى تقدم. والجهر:

ظهور الصوت بقوة الاعتماد، ومنه الجهارة في المنطق، وجاهر بالأمر مجاهرة، ويقال: جهاراً، ونقيض الجهر: الهمس. والحروف المجهورة تسعة عشر حرفاً يجمعها قولك: «أطلقن ضرغم عجز ظبي ذواد». وما عداه من الحروف مهموس، يجمعها قولك: «حث فسكت شخصه» والغض: الحط من منزلة على وجه التصغير، يقال: غض فلان: إذا صغّر حالة من هو أرفع منه، وغض بصره: إذا أضعفه عن حدة النظر، قال جرير:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نمير، فلا كَعْباً بَلَغْتَ، ولا كِلابا

● **الإعراب:** ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ في محل النصب، لأنه مفعول له، ويجوز أن يكون في محل جر باللام المقدرة، أي: لأن تحبط أعمالكم. وقيل تقديره: كراهة أن تحبط، أو حَذارِ أن تحبط.

● **النزول:** نزل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في وفد تميم: وهم عطارد بن حاجب بن زرارة، في أشراف من بني تميم، منهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وقيس بن عاصم، في وفد عظيم. فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات: أن أخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم، فقالوا: جئناك لنفاخرك، فَأْذن لشاعرنا وخطيبنا، فقال: قد أذنت. فقام عطارد بن حاجب وقال:

الحمد لله الذي جعلنا ملوكاً، الذي له الفضل علينا، والذي وهب علينا أموالًا عظاماً، نفعل بها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثر عدداً وعدة، فمن مثلنا في الناس؟ فمن فاخرنا فليعد مثل ما عددنا، ولو شئنا لأكثرنا من الكلام، ولكنا نستحي من الإكثار. ثم جلس.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: قم فأجبه، فقام فقال:

الحمد لله الذي في السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيُّه علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم كان من فضله أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولًا، أكرمهم نسباً وأصدقهم حديثاً، فأنزل الله عليه كتاباً وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله على العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان بالله، فآمن به المهاجرون من قومه، وذوي رحمه، أكرم الناس أحساباً، وأحسنهم وجوهاً، فكان أول الخلق إجابة، واستجابة لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار رسول الله ﷺ ورِدْؤه، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن نكث[1] جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله يسيراً. أقول هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم.

ثم قام الزبرقان بن بدر ينشد، وأجابه حسان بن ثابت، فلما فرغ حسان من قوله، قال الأقرع: إن هذا الرجل خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى

(١) وفي نسخة: «مكث» بدل «نكث».

من أصواتنا. فلما فرغوا أجازهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم، وأسلموا، عن ابن إسحاق.

وقيل: إنهم أناس من بني العنبر، كان النبي ﷺ أصاب من ذراريهم، فأقبلوا في فدائهم، فقدموا المدينة، ودخلوا المسجد، وعجلوا أن يخرج إليهم النبي ﷺ، فجعلوا يقولون: يا محمد، اخرج إلينا، عن أبي حمزة الثمالي، عن عكرمة عن ابن عباس.

● **المعنى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ روى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: ما سُلت السيوف، ولا أُقيمت الصفوف في صلاة ولا زحوف، ولا جُهر بأذان، ولا أنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حتى أسلم أبناء قبيلة الأوس والخزرج. ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بين اليدين عبارة عن الأمام، لأن ما بين يدي الإنسان أمامه، ومعناه: لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله، ولا تعجلوا به. قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا تقدم بين يدي الإمام، وبين يدي الأب، أي: لا تعجل بالأمر دونه والنهي. وقدَّم هنا بمعنى تقدم، وهو لازم. وقيل معناه: لا تقدموا أعمال الطاعة قبل الوقت الذي أمر الله ورسوله به، حتى إنه قيل: لا يجوز تقديم الزكاة قبل وقتها، عن الزجاج.

وقيل[1]: لا تُمَكِّنوا أحداً يمشي أمام رسول الله ﷺ، بل كونوا تُبَّعاً له، وأَخِّروا أقوالكم وأفعالكم عن قوله وفعله.

وقال الحسن: نزل في قوم ذبحوا الأضحية قبل صلاة العيد، فأمرهم رسول الله ﷺ بالإعادة. وقال ابن عباس: نُهوا أن يتكلموا قبل كلامه، أي: إذا كنتم جالسين في مجلس رسول الله ﷺ، فسئل عن مسألة فلا تسبقوه بالجواب، حتى يجيب النبي ﷺ أولًا. وقيل معناه: لا تسبقوه بقول ولا فعل حتى يأمركم به، عن الكلبي والسدي. والأولى حمل الآية على الجميع، فإن كل شيء كان خلافاً لله ورسوله، إذا فُعل، فهو تقديم بين يدي الله ورسوله، وذلك ممنوع. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اجتنبوا معاصيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالكم فيجازيكم بها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ لأن فيه أحد الشيئين: إما نوع استخفاف به فهو الكفر، وإما سوء الأدب فهو خلاف التعظيم المأمور به. ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: غضوا أصواتكم عند مخاطبتكم إياه وفي مجلسه، فإنه ليس مثلكم، إذ يجب تعظيمه وتوقيره من كل وجه. وقيل معناه: لا تقولوا له: يا محمد، كما يخاطب بعضكم بعضاً، بل خاطبوه بالتعظيم والتبجيل، وقولوا: يا رسول الله. ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: كراهة أن تحبط أو لئلا تحبط أعمالكم. وقيل: إنه في حرف عبد الله: «فتحبط أعمالكم» ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: وأنتم لا تعلمون أنكم أحبطتم أعمالكم بجهر صوتكم على صوته وترك تعظيمه.

قال أنس: لما نزلت هذه الآية، قال ثابت بن قيس: أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق

---

(١) [معناه].

صوت رسول الله ﷺ، فأجهر له بالقول، حبط عملي وأنا من أهل النار، وكان ثابت رفيع الصوت. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: هو من أهل الجنة. وقال أصحابنا: إن المعنى في قوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أنه ينحبط ثواب ذلك العمل، لأنهم لو أوقعوه على وجه تعظيم النبي ﷺ وتوقيره لاستحقوا الثواب، فلما فعلوه على خلاف ذلك الوجه، استحقوا العقاب وفاتهم ذلك الثواب، فانحبط عملهم، فلا تعلق لأهل الوعيد بهذه الآية، ولأنه تعالى عَلَّق الإحباط في هذه الآية بنفس العمل، وهم يُعَلِّقونه بالمستحق على العمل، وذلك خلاف الظاهر.

ثم مدح سبحانه من يُعَظِّم رسوله ويُوَقِّره، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: يخفضون أصواتهم في مجلسه إجلالاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: اختبرها فأخلصها للتقوى، عن قتادة ومجاهد. أُخِذَ من امتحان الذهب بالنار إذا أذيب حتى يذهب غشه ويبقى خالصه. وقيل معناه: إنه علم خلوص نياتهم، لأن الأنسان يمتحن الشيء ليعلم حقيقته. وقيل معناه: عاملهم معاملة المختبر بما تعبدهم به من هذه العبادة، فخلصوا على الاختبار كما يخلص جيِّد الذهب بالنار. ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من الله لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ على طاعتهم.

ثم خاطب النبي ﷺ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ وهم الجفاة من بني تميم، لم يعلموا في أي: حجرة هو، فكانوا يطوفون على الحجرات وينادونه. ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وصفهم الله سبحانه بالجهل وقلة الفهم والعقل، إذ لم يعرفوا مقدار النبي ﷺ، ولا ما استحقه من التوقير، فهم بمنزلة البهائم. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من أن ينادوك من وراء الحجرات، في دينهم بما يحرزونه من الثواب، وفي دنياهم باستعمالهم حسن الأدب في مخاطبة الأنبياء، ليعدوا بذلك في زمرة العقلاء. وقيل معناه: لأطلقت أسراهم بغير فداء، فإن رسول الله ﷺ كان سبى قوماً من بني العنبر، فجاءوا في فدائهم فأعتق نصفهم، وفادى النصف، فيقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ﴾ لكنت تعتق. كلهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب منهم.

●●●

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب: «فأصلحوا بين إخوتكم» بالتاء على الجمع، وهو قراءة ابن سيرين، والباقون: «بين أخويكم» على التثنية لقوله: «طائفتان». وفي الشواذ قراءة زيد بن ثابت والحسن: «إخوانكم» بالألف والنون على الجمع، وقد ذكرناه في سورة النساء اختلافهم في قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ والوجه في القراءتين. والمروي عن الباقر عليه السلام: «فتثبتوا» بالثاء والتاء.

● **اللغة:** العنت: المشقة، يقال: عنت الدابة تعنِت عنتاً، إذا حدث في قوائمها كسر بعد جبر لا يمكنها معه الجري. قال ابن الأنباري: أصل العنت: التشديد، يقال: فلان يعنِت فلاناً، أي: يشدد عليه ويلزمه ما يصعب عليه. ثم نقل إلى معنى الهلاك. والقسط: العدل، ونحوه الإقساط والقسوط، والقسط بالفتح: الجور والعدول عن الحق، فأصل الباب: العدول، فمن عدل إلى الحق فقد أقسط، ومن عدل عن الحق فقد أقسط.

● **الإعراب:** ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ خبر ﴿أَنَّ﴾ في الظرف الذي هو ﴿فِيكُمْ﴾ عند النحويين، وفيه نظر، لأن من حق الخبر أن يكون الخبر مفيداً، فلا يقال: النار حارة، لعدم الفائدة، والوجه عندي أن يكون لو مع ما في حيزه خبر أن، والمعنى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾. ويجوز على الوجه الأول أن يكون المراد التنبيه لهم على مكان رسول الله صلى الله عليه وآله، كما يقول القائل للرجل يريد أن يُنَبِّهه على شيء: فلان حاضر. والمخاطب يعلم حضوره، ولو قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله فيكم، احتمل أن يكون غير رسول الله فيهم ممن هو بمنزلته، فإذا قال: ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ لا يحتمل ذلك على هذا، فقوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ لو مع ما في حيزه، في محل رفع بأنه خبر، أن، خبر بعد خبر. ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مفعول له، والتقدير: فعل الله ذلك لكم فضلاً منه ونعمة. ويجوز أن يكون العامل فيه ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ وما فيه من الفعل، أي: رشداً وفضلاً من الله. وقوله: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ و﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ كلاهما في موضع نصب على الحال، والعامل في الأول ﴿تُصِيبُوا۟﴾ وفي الثاني ﴿فَأَصْلِحُوا۟﴾.

● **النزول:** قوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ﴾ نزل في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله في صدقات بني المصطلق، فخرجوا يتلقونه فرحاً به، وكانت بينهم عداوة في الجاهلية، فظن أنهم هموا بقتله، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: إنهم منعوا صدقاتهم، وكان الأمر بخلافه، فغضب النبي صلى الله عليه وآله وهَمَّ لا يغزوهم، فنزلت الآية، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وقيل: إنها نزلت فيمن قال للنبي صلى الله عليه وآله: إن مارية أم إبراهيم يأتيها ابن عم لها قبطي، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام وقال: يا أخي، خذ هذا السيف فإن وجدته عندها فاقتله، فقال: يا رسول الله، أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسكة المحماة، أمضي لما أمرتني، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ فقال صلى الله عليه وآله: بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. قال علي عليه السلام: فأقبلت متوشحاً بالسيف، فوجدته عندها، فاخترطت السيف، فلما عرف أني أريده أتى نخلة فرقى إليها، ثم رمى بنفسه على قفاه، وشغر برجليه. فإذا أنه أَجَبُّ أَمْسَحُ، ما له مما للرجال

قليل ولا كثير. فرجعت فأخبرت النبي ﷺ، فقال: الحمد لله الذي يصرف عنا السوء أهل البيت.

وقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ نزل في الأوس والخزرج، وقع بينهما قتال بالسعف والنعال، عن سعيد بن جبير. وقيل: نزل في رهط عبد الله بن أُبَيّ بن سلول من الخزرج، ورهط عبد الله بن رواحة من الأوس، وسببه أن النبي ﷺ وقف على عبد الله بن أُبَيّ، فراث حمار رسول الله ﷺ، فأمسك عبد الله أنفه وقال: إليك عني، فقال عبد الله بن رواحة: لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك ومن أبيك. فغضب قومه، وأعان ابن رواحة قومه، وكان بينهما ضرب بالحديد والأيدي والنعال.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه المؤمنين، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ أي: بخبر عظيم الشأن. والفاسق: الخارج عن طاعة الله إلى معصيته. ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ صدقه من كذبه، ولا تبادروا إلى العمل بخبره، ومن قال: «فتثبتوا» فمعناه: توقفوا فيه وتأنوا حتى يثبت عندكم حقيقته، ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ﴾ أي: حذراً من أن تصيبوا قوماً في أنفسهم وأموالهم بغير علم بحالهم، وما هم عليه من الطاعة والإسلام، ﴿فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ من إصابتهم بالخطأ ﴿نَـٰدِمِينَ﴾ لا يمكنكم تداركه.

وفي هذا دلالة على أن خبر الواحد لا يوجب العلم ولا العمل، لأن المعنى: إن جاءكم من لا تأمنون أن يكون خبره كذباً فتوقفوا فيه. وهذا التعليل موجود في خبر من يجوز كونه كاذباً في خبره. وقد استدل بعضهم بالآية على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان عدلاً، من حيث إن الله سبحانه أوجب التوقف في خبر الفاسق، فدل على أن خبر العدل لا يجب التوقف فيه، وهذا لا يصح، لأن دليل الخطاب لا يُعَوَّل عليه عندنا وعند أكثر المحققين.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: فاتقوا الله أن تكذبوه، أو تقولوا باطلاً عنده، فإن الله تعالى يخبره بذلك فتفضحوا. وقيل معناه: واعلموا بما أخبره الله تعالى من كذب الوليد أن فيكم رسول الله ﷺ، فهذه إحدى معجزاته. ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لو فعل ما يريدونه في كثير من الأمر لوقعتم في عنت، وهو الإثم والهلاك. فسمى موافقته لما يريدونه طاعة لهم مجازاً، ألا ترى أن الطاعة تراعى فيها الرتبة، فلا يكون الإنسان مطيعاً لمن دونه، وإنما يكون مطيعاً لمن فوقه إذا فعل ما أمره به. ثم خاطب المؤمنين الذين لا يكذبون، فقال: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ أي: جعله أحب الأديان إليكم، بأن أقام الأدلة على صحته، وبما وعد من الثواب عليه، ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ بالألطاف الداعية إليه، ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ بما وصف من العقاب عليه بوجوه الألطاف الصارفة عنه ﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾ أي: الخروج عن الطاعة إلى المعاصي ﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾ أي: جميع المعاصي. وقيل: الفسوق الكذب، عن ابن عباس وابن زيد، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام. ثم عاد سبحانه إلى الخبر عنهم، فقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ يعني الذين وصفهم بالإيمان وزيّنه في قلوبهم، هم المهتدون إلى محاسن الأمور. وقيل: هم الذين أصابوا الرشد واهتدوا إلى الجنة، ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي: تفضلاً مني

عليهم، ورحمة مني لهم، عن ابن عباس. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالأشياء كلها ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله. وفي هذه الآية دلالة على بطلان مذهب أهل الجبر من وجوه:

منها: إنه إذا حَبَّب في قلوبهم الإيمان وكرَّه الكفر، فمن المعلوم أنه لا يحبب ما لا يحبه ولا يكرِّه ما لا يكرهه.

ومنها: إنه إذا ألطف في تحبيب الإيمان بألطافه، دل ذلك على ما نقوله في اللطف. ثم قال:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ أي: فريقان من المؤمنين قاتل أحدهما صاحبه، ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ حتى يصطلحا، ولا دلالة في هذا على أنهما إذا اقتتلا بقيا على الإيمان، ويطلق عليهما هذا الاسم، ولا يمتنع أن يُفسَّق إحدى الطائفتين أو تفسَّقا جميعاً. ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ بأن تطلب ما لا يجوز لها، وتقاتل الأخرى ظالمة لها متعدية عليها ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾ لأنها هي الظالمة المتعدية دون الأخرى، ﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: حتى ترجع إلى طاعة الله، وتترك قتال الطائفة المؤمنة. ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ أي: رجعت وتابت وأقلعت، وأنابت إلى طاعة الله ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ أي: بينها وبين الطائفة التي هي على الإيمان ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط حتى يكونوا سواء، لا يكون من إحداهما على الأخرى جور ولا شطط فيما يتعلق بالضمانات من الأُروش. ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ أي: اعدلوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين الذين يعدلون فيما يكون قولًا وفعلًا.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ في الدين، يلزم نصرة بعضهم بعضاً. ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أي: بين رجلين تقاتلا وتخاصما، ومعنى الاثنين يأتي على الجمع، لأن تأويله: بين كل أخوين، يعني: فأنتم إخوة للمقاتلين، فأصلحوا بين الفريقين، أي: كفوا الظالم عن المظلوم، وأعينوا المظلوم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في ترك العدل والإصلاح، أو في منع الحقوق ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لكي ترحموا.

قال الزجاج: سمي المؤمنين إذا كانوا متفقين في دينهم إخوة؛ لاتفاقهم في الدين، ورجوعهم إلى أصل النسب، لأنهم لأم واحدة وهي حواء. وروى الزهري عن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة، فرَّج الله بها عنه كربة من كروب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً يستره الله يوم القيامة». أورده البخاري ومسلم في صحيحيهما. وفي وصية النبي ﷺ لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «سِرْ ميلًا عد مريضاً، سر ميلين شَيِّعْ جنازة، سر ثلاثة أميال أجب دعوة، سر أربعة أميال زُر أخاً في الله، سر خمسة أميال أجب دعوة الملهوف، سر ستة أميال انصر المظلوم، وعليك بالاستغفار».

● **النظم:** وجه اتصال قوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ بما قبله، أنه لما أمر بطاعة الله

ورسوله، بيَّن عقيبه أن الرسول لا يجوز أن يتبع أهواءهم، بل ينبغي أن يعمل بما عنده. ووجه اتصال قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ لئلا تقعوا في العنت[1]، وإنما قلنا ذلك لأن ﴿لَٰكِنَّ﴾ لا بد أن يتقدمه نفي إذا كان ما بعده إثباتاً، وقوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ معناه: إنه لم يطعكم فما عنتُّم.

• • •

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤)﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة: «لا يألتكم» بالألف، والباقون: «لا يلتكم» بغير الألف.

● **الحجة:** قال أبو زيد: ألته حقَّه يألته ألتاً: إذا نقصه، وقوم يقولون: لاتَ يَليت ليتاً، ويقول: لِتُّ الرجل أليته ليتاً: إذا عمَّيتَ عليه الخبر فأخبرته بغير ما يسألك عنه. قال رؤبة:

وليلةٍ ذاتِ ندىً سَرَيْتُ ... ولم يَلِتْني عن سَراها لَيْتُ

وقوم يقولون: ألاتني عن حقي، وألاتني عن حاجتي، أي: صرفني عنها. وحجة من قرأ: «لا يألتكم» قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾. ومن قرأ: «يلتكم» جعله من لات يليتُ.

● **اللغة:** الهمز واللمز: العيب والغضُّ من الناس، فاللمز: هو الرمي بالعيب لمن لا يجوز أن يؤذى بذكره، وهو المنهي عنه. فأما ذكر عيب الفاسق فليس بلمز. وقد ورد في الحديث: «قولوا في الفاسق ما فيه كي يحذَره الناس». والنبز: القذف باللقب، يقال: نبزته أنبزه. والغيبة: أن تذكر الإنسان من ورائه بسوء هو فيه، فإذا ذكرته بما ليس فيه، فهو البهْتُ والبهتان. والشعوب: هو الذي يصغّر شأن العرب، ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم، سموا بذلك لأنهم تأوّلوا ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا﴾ على أن الشعوب من العجم، كالقبائل من العرب. وقال

(١) [بما قبله: إنَّ قوله «لعنتُّم» بمنزلة أن يقول ما عنتُّم أي: ما عنتّم بطاعة كثير من الأمر، ولكن الله حبَّب إليكم الإيمان].

أبو عبيدة: الشعوب العجم، وأصله من التشعب، وهو كثرة تفرقهم في النسب. ويقال: شعَبتُه جمعته، وشعَّبته فرقته، وهو من الأضداد.

● **النزول:** نزل قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ في ثابت بن قيس بن شماس، وكان في أذنه وقر، وكان إذا دخل المسجد تفسَّحوا له حتى يقعد عند النبي، فيسمع ما يقول. فدخل المسجد يوماً والناس قد فرغوا من الصلاة وأخذوا مكانهم، فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا تفسحوا، حتى انتهى إلى رجل فقال له: أصبت مجلساً فاجلس، فجلس خلفه مغضباً، فلما انجلت الظلمة قال: من هذا؟ قال الرجل: أنا فلان، فقال ثابت: ابن فلانة، ذكر أماً له كان يُعَيَّر بها في الجاهلية، فنكس الرجل رأسه حياء، فنزلت الآية، عن ابن عباس.

وقوله: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ نزل في نساء النبي ﷺ، سخِرن من أم سلمة، عن أنس. وذلك أنها ربطت حَقْوَيها بسَبَنيَّة وهي ثوب أبيض، وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجره، فقالت عائشة لحفصة: أنظري ماذا تجرُّ خلفها كأنه لسان كلب، فلهذا كانت سخريتهما. وقيل: إنها عيَّرتها بالقصر وأشارت بيدها أنها قصيرة، عن الحسن.

وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ نزل في رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ اغتابا رفيقهما، وهو سلمان، بعثاه إلى رسول الله ﷺ ليأتي لهما بطعام، فبعثه إلى أسامة بن زيد، وكان خازن رسول الله ﷺ على رحله، فقال: ما عندي شيء، فعاد إليهما فقالا: بخل أسامة، وقالا لسلمان: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. ثم انطلقا يتجسسان عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله، فقال لهما رسول الله ﷺ: مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟ قالا: يا رسول الله، ما تناولنا يومنا هذا لحماً، قال: ظللتم تأكلون لحم سلمان وأسامة. فنزلت الآية. وعن أبي قلابة قال: إن عمر بن الخطاب حُدِّث أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر في بيته هو وأصحابه، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل، فقال أبو محجن: يا أمير المؤمنين، إن هذا لا يحل لك، قد نهاك الله عن التجسس. فقال عمر: ما يقول هذا؟ قال زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم: صدق يا أمير المؤمنين. قال: فخرج عمر وتركه. وخرج عمر بن الخطاب أيضاً ومعه عبد الرحمن بن عوف، يعسَّان. فتبينت لهما نار، فأتيا واستأذنا، ففتح الباب فدخلا، فإذا رجل وامرأة تغني، وعلى يد الرجل قدح، فقال عمر: من هذه منك؟ قال: امرأتي. قال: وما في هذا القدح؟ قال: ماء، فقال للمرأة: ما الذي تغنين؟ قالت: أقول:

تطاولَ هذا الليلُ واسْوَدَّ جانِبُهُ ... وأرَّقَني ألا حبيبٌ ألاعِبُهُ
فواللهِ لولا خشيةُ اللهِ والتقى ... لَزُعْزِعَ من هذا السريرِ جوانِبُهُ
ولكِنَّ عقلي والحياءَ يكفني ... وأُكْرِمُ بعلي أنْ تُنالَ مراكِبُهُ

ثم قال الرجل: ما بهذا أُمِرْنا يا أمير المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ فقال عمر: صدقت وانصرف.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ قيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وقوله للرجل الذي لم يتفسح له: ابن فلانة، فقال ﷺ: من الذاكر فلانة؟ فقام ثابت فقال: أنا يا رسول الله، فقال: انظر في وجوه القوم، فنظر إليهم، فقال: ما رأيت يا ثابت؟ قال: رأيت أبيض وأسود وأحمر، قال: فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى والدين. فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ الآية، عن ابن عباس. وقيل: لما كان يوم فتح مكة، أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى علا ظهر الكعبة وأذن، فقال عتاب بن أسيد: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم. وقال الحرث بن هشام: أما وجَد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟! وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيره لغيره. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً، أخاف أن يخبره به رب السماوات. فأتى جبرائيل عليه السلام رسول الله ﷺ فأخبره بما قالوا، فدعاهم رسول الله ﷺ وسألهم عما قالوا، فأقروا به، ونزلت الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنساب، والازدراء بالفقر، والتكاثر بالأموال، عن مقاتل.

● **المعنى:** لما أمر سبحانه بصلاح ذات البين، ونهى عن التفرق، عقَّب ذلك بالنهي عن أسباب الفرقة من السخرية والازدراء بأهل الفقر والمسكنة ونحو ذلك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ قال الخليل: القوم يقع على الرجال دون النساء، لقيام بعضهم مع بعض في الأمور. قال زهير:

وما أدري ولستُ أخالُ أدري ... أَقَومٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِساءُ؟!

فالمعنى: لا يسخر رجال من رجال، والسخرية: الاستهزاء. قال مجاهد معناه: لا يسخر غني من فقير لفقره، وربما يكون الفقير المهين في ظاهر الحال، خيراً وأجل منزلة عند الله من الغني الحسن الحال، ولو سخر مؤمن من كافر احتقاراً له لم يكن مأثوماً. وقال ابن زيد: هذا نهي عن استهزاء المسلمين بمن أعلن بفسقه، عسى أن يكون المسخور عند الله خيراً من الساخر معتقداً، أو أسلم باطناً. ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ على المعنى الذي تقدم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: لا يطعن بعضكم على بعض، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ لأن المؤمنين كنفس واحدة، فكأنه إذا قتل أخاه قتل نفسه، عن ابن عباس وقتادة. واللمز: العيب في المشهد، والهمز: العيب في المغيب. وقيل: إن اللمز يكون باللسان وبالعين وبالإشارة، والهمز لا يكون إلا باللسان. وقيل معناه: ولا يلعن بعضكم بعضاً، عن الضحاك. ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ جمع اللقب، وهو اسم غيرُ الذي سمي به الإنسان. وقيل: هو كل اسم لم يوضع له، وإذا دعي به يكرهه، فأما إذا كان لا يسوءه ولا يكرهه فلا بأس فيه، مثل الفقيه والقاضي. وقيل: هو قول الرجل للرجل: يا كافر، يا فاسق، يا منافق، عن قتادة وعكرمة. وقيل: كان اليهودي والنصراني يسلم، فيقال له بعد ذلك: يا يهودي، أو يا نصراني، فنهوا عن ذلك، عن الحسن. وقيل: هو أن يعمل إنسان شيئاً من القبيح ثم يتوب منه، فيعير بما سلف منه، عن ابن عباس.

وروى أن صفية بنت حيي بن أخطب جاءت إلى النبي ﷺ تبكي، فقال لها: ما وراءك؟

فقالت: إن عائشة تعيِّرني وتقول: يهودية بنت يهوديين، فقال لها: هلا قلت: أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد ﷺ. فنزلت الآية، عن ابن عباس.

﴿بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بئس الاسم أن يقول له: يا يهودي، يا نصراني، وقد آمن، عن الحسن وغيره. والمعنى: بئس الشيء تسميته باسم الفسوق، يعني الكفر بعد الإيمان. وقيل معناه: بئس الشيء اكتساب اسم الفسوق باغتياب المسلمين ولمزهم، وهذا لا يدل على أن اسم[(١)] الإيمان والفسق لا يجتمعان، لأن هذا كما يقال: بئس الحال الفسوق بعد الشيب. والمعنى: بئس الحال الفسوق مع الشيب، وبئس الاسم الفسوق مع الإيمان، على أن الظاهر أن المعنى: إن الفسوق الذي يتعقب الإيمان بئس الاسم، وذلك هو الكفر. ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ من التنابز والمعاصي ويرجع إلى طاعة الله تعالى ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ نفوسهم بفعل ما يستحقون به العقاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ قال الزجاج: وهو أن يُظن بأهل الخير سوء، فأما أهل السوء والفسق فلنا أن نظن بهم مثل ما ظهر منهم. وقيل: هو أن يظن بأخيه المسلم سوءاً، ولا بأس به ما لم يتكلم به، فإن تكلم بذلك الظن وأبداه أثم. وهو قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ يعني ما أعلنه مما ظن بأخيه، عن المقاتِلَين[(٢)]. وقيل: إنما قال: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ لأن من جملته ما يجب العمل به ولا يجوز مخالفته، وإنما يكون إثماً إذا فعله صاحبه وله الطريق إلى العلم بدلّا منه، فهذا ظن محرم لا يجوز فعله. فأما ما لا سبيل إلى دفعه بالعلم بدلّا منه فليس بإثم، ولذلك قال: ﴿بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ دون جميعه. والظن المحمود قد بيَّنه الله تعالى ودل عليه بقوله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ وقيل معناه: يجب على المؤمن أن يحسن الظن ولا يسيئه في شيء يجد له تأويلًا جميلًا، وإن كان ظاهراً قبيحاً.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: ولا تتبعوا عثرات المؤمنين، عن ابن عباس وقتادة ومجاهد. وقال أبو عبيدة: التجسس والتحسس واحد، وروي في الشواذ عن ابن عباس: «ولا تحسسوا» بالحاء. قال الأخفش: وليس يبعد أحدهما عن الآخر إلا أن التجسس عما يكتم، منه الجاسوس. والتحسس بالحاء: البحث عما تعرفه. وقيل: إن التجسس بالجيم في الشر، والجاسوس صاحب سر الشر، والناموس صاحب سر الخير[(٣)]. وقيل معناه: لا تتبعوا عيوب المسلمين لتهتكوا العيوب التي سترها أهلها. وقيل معناه: ولا تبحثوا عما خفي حتى يظهر، عن الأَوْزَاعي. وفي الحديث: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تقاطعوا، ولا تحاسدوا، ولا تنابزوا[(٤)]، وكونوا عباد الله إخواناً». وقوله:

---

(١) وفي نسخة ليس لفظة «اسم».

(٢) وفي نسخة: يعني مقاتل بن حسان، ومقاتل بن سليمان.

(٣) وفي نسخة: إن التجسس بالجيم في الشر، والجاسوس صاحب الشر. والتحسس في الخير، والحاسوس: صاحب سر الخير.

(٤) وفي النسخ: «ولا تدابروا» بدل «ولا تنابزوا».

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ الغيبة: ذكر العيب بظهر الغيب على وجه تمنع الحكمة منه. وفي الحديث: «إذا ذكرت الرجل بما فيه مما يكرهه الله فقد اغتبته، وإذا ذكرته مما ليس فيه فقد بَهَتَّه». عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشد من الزنا». ثم قال: «إن الرجل يزني ثم يتوب فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه». ثم ضرب سبحانه للغيبة مثلاً فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ وتأويله: إن ذكرك بالسوء من لم يحضرك، بمنزلة أن تأكل لحمه وهو ميت لا يحس بذلك، عن الزجاج. ولما قيل لهم: أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً؟ قالوا: لا، فقيل: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ أي: فكما كرهتم ذلك فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً، عن مجاهد. وقيل: فكما كرهتم لحمه ميتاً فاكرهوا غيبته حياً، عن الحسن. فهذا هو تقدير الكلام. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَۚ﴾ معطوف على هذا الفعل المقدر، ومثله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا﴾ أي: وقد شرحنا ووضعنا. ويقال للمغتاب: فلان يأكل لحوم الناس، قال:

وَلَيْسَ الذئبُ يأكُلُ لحمَ ذِئْبٍ ... ويأكلُ بعضُنا بعضاً عِيانا

وقال آخر:

فإن يَأْكُلوا لحمي وَفَرْتُ لحومَهُمْ ... وإن يَهْدِمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدا

وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً لكراهية الطبع، كذلك يجب أن يمتنع عن غيبته لكراهية العقل والشرع، لأن دواعي العقل والشرع أحق بالاتباع من دواعي الطبع، فإن داعي الطبع أعمى، وداعي العقل بصير. وعن ميمون بن شاة(١)، وكان يفضَّل على الحسن، لأنه قد لقي من لم يلقه الحسن، قال: بينا أنا نائم إذا بجيفة زنجي، وقائل يقول: كل يا عبد الله، قلت: ولِم آكل؟ قال: بما اغتيب عندك فلان، قلت: والله ما ذكرت فيه خيراً ولا شراً، قال: لكنك استمعت فرضيت. وكان ميمون بعد ذلك لا يدع أن يُغتاب عنده واحد. وقال رجل لابن سيرين: إني قد اغتبتك فاجعلني في حل، قال: إني أكره أن أُحِلَّ ما حَرَّمَ الله ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ قابل التوبة ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالمؤمنين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ أي: من آدم وحواء، والمعنى: إنكم متساوون في النسب، لأن كلكم يرجع في النسب إلى آدم حواء. زجر الله سبحانه عن التفاخر بالأنساب. وروى عِكْرِمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إنما أنتم من رجل وامرأة، كجمام الصاع، ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى». ثم ذكر سبحانه أنه إنما فرّق أنساب الناس ليتعارفوا لا ليتفاخروا، فقال: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ وهي جمع شعب، وهو الحي العظيم، مثل مضر وربيعة، وقبائل هي دون الشعوب، كبكر من ربيعة، وتميم من مضر. هذا قول أكثر المفسرين. وقيل: الشعوب دون القبائل، وإنما سميت بذلك لتشعبها وتفرقها، عن الحسن. وقيل: أراد بالشعوب الموالي، وبالقبائل العرب، في رواية عطاء عن ابن عباس. وإلى هذا ذهب قوم فقالوا:

---

(١) وفي نسخة: شاه.

الشعوب من العجم، والقبائل من العرب، والأسباط من بني إسرائيل. وروي ذلك عن الصادق عليه السلام. ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أي: جعلناكم كذلك لتعارفوا، فيعرف بعضكم بعضاً بنسبه وأبيه وقومه، ولولا ذلك لفسدت المعاملات، وخربت الدنيا، ولما أمكن نقل حديث. ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ أي: إن أكثركم ثواباً وأرفعكم منزلة عند الله أتقاكم لمعاصيه، وأعملكم بطاعته. وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «يقول الله تعالى يوم القيامة: أمرتكم فضيعتم ما عهدت إليكم فيه، ورفعتم أنسابكم، فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم، أين المتقون؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم». وروي أن رجلاً سأل عيسى بن مريم: أيُّ الناس أفضل؟ فأخذ قبضتين من تراب فقال: أي: هاتين أفضل؟ الناس خلقوا من تراب، فأكرمهم أتقاهم. أبو بكر البيهقي بالإسناد عن عباية بن ربعي، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله عز وجل جعل الخلق قسمين: فجعلني في خيرهم قسماً، وذلك قوله: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، فأنا من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين أثلاثاً، فجعلني في خيرها ثلثاً، وذلك قوله: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ فأنا من السابقين وأنا خير السابقين. ثم جعل الأثلاث قبائل، فجعلني في خيرها قبيلة، وذلك قوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾ الآية. فإني أتقى ولد آدم ولا فخر، وأكرمهم على الله ولا فخر. ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً، وذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ فأنا وأهل بيتي مُطَهَّرون من الذنوب». ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأعمالكم ﴿خَبِيرٞ﴾ بأحوالكم لا يخفى عليه شيء من ذلك.

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾ وهم قوم من بني أسد، أتوا النبي صلى الله عليه وآله في سنة جدبة، وأظهروا الإسلام، ولم يكونوا مؤمنين في السر، إنما كانوا يطلبون الصدقة. والمعنى: إنهم قالوا صدقنا بما جئت به، فأمره الله سبحانه أن يخبرهم بذلك ليكون آية معجزة له، فقال: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ أي: لم تصدقوا على الحقيقة في الباطن. ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ أي: أنقدنا واستسلمنا مخافة السبي والقتل، عن سعيد بن جبير وابن زيد. ثم بيَّن سبحانه أن الإيمان محله القلب دون اللسان، فقال: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ قال الزجاج: الإسلام إظهار الخضوع والقبول لما أتى به الرسول، وبذلك يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان، وصاحبه المؤمن المسلم حقاً. فأما من أظهر قبول الشريعة واستسلم لدفع المكروه، فهو في الظاهر مسلم وباطنه غير مصدق. وقد أخرج هؤلاء من الإيمان بقوله: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ أي: لم تصدقوا بعد بما أسلمتم تعوذاً من القتل، فالمؤمن مُبْطِنٌ من التصديق مثل ما يُظْهِر، والمسلم التام الإسلام مُظْهِرٌ للطاعة، وهو مع ذلك مؤمن بها. والذي أظهر الإسلام تعوذاً من القتل غير مؤمن في الحقيقة، إلا أن حكمه في الظاهر حكم المسلمين. وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «الإسلام علانية والإيمان في القلب»، وأشار إلى صدره. ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾ أي: لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً، عن ابن عباس ومقاتل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٦ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٧ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: «يعلمون» بالياء، والباقون: بالتاء.

● **الحجة:** وجه التاء أن قبله خطاباً، وهو قوله: ﴿لَّا تَمُنُّواْ﴾. ووجه الياء أن قبله غيبة، وهو قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

● **الإعراب:** خبر المبتدأ الذي هو ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صفة لهم.

● **المعنى:** ثم نعت سبحانه الصادقين في إيمانهم، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ أي: لم يشكوا في دينهم بعد الإيمان، ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في أقوالهم، دون من يقول بلسانه ما ليس في قلبه. قالوا: فلما نزلت الآيتان أتوا رسول الله ﷺ يحلفون أنهم مؤمنون صادقون في دعواهم الإيمان، فأنزل الله سبحانه: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتخبرون الله بالدين الذي أنتم عليه؟ والمعنى: إنه سبحانه عالم بذلك فلا يحتاج إلى إخباركم به. وهذا استفهام إنكار وتوبيخ، أي: كيف تعلمون الله بدينكم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأن العالم لنفسه يعلم المعلومات كلها بنفسه، فلا يحتاج إلى علم يعلم به، ولا إلى من يُعلِمه، كما أنه إذا كان قديماً موجوداً في الأزل لنفسه استغنى عن مُوجد أوجده، وكانوا[١] يقولون: آمنا بك من غير قتال، وقاتلك بنو فلان. فقال سبحانه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ﴾ أي: بأن أسلموا. والمعنى: إنهم يمنون عليك بالإسلام ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ أي: بإسلامكم ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بأن هداكم للإيمان وأرشدكم إليه، بأن نصب لكم من الأدلة عليه، وأزاح عللكم ووفقكم له، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ادعائكم الإيمان. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من طاعة ومعصية، وإيمان وكفر.

---

(١) وفي بعض النسخ: كان هؤلاء.

سُورَةُ قٓ

مكية/آياتها (٤٥)

قال الحسن: غير قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾. والمنقول عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية. وهي خمس وأربعون آية بالإجماع.

فضلها: أُبَيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «ومن قرأ سورة ق، هوَّن الله عليه تارات الموت وسكراته». أبو حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: ومن أدمن في فرائضه ونوافله سورة قٓ، وسَّع الله في رزقه، وأعطاه كتابه بيمينه، وحاسبه حساباً يسيراً.

● **تفسيرها:** لما ختم الله تلك السورة بذكر الإيمان وشرائطه للعبيد، افتتح هذه السورة بذكر ما يجب الإيمان به، من القرآن وأدلة التوحيد، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ
عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا
كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

ولم يُعَدّ «قٓ» آية، ولا نظير له غير نون وصاد، لأنه مفرد. وكل مفرد فإنه لا يعد لبعده من شبه الجملة. فأما المركب مما أشبه الجملة، ووافق رؤوس الآي، فإنه يعد مثل ﴿طه﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾ وما أشبه ذلك.

اللغة: المجيد: الكريم المعظم. والعظيم: المكرم، والمجد في كلامهم: الشرف الواسع، يقال: مَجُد الرجل ومَجَد مجداً، إذا عظم وكرم، وأصله من قولهم: مجدت الإبل مجوداً، إذا عظمت بطونها من كثرة أكلها، من كلأ الربيع. وأمجد فلان القوم قِرىً، قال:

أتيناه زوّاراً فأمجدَنا قِرىً   مِنَ البَثِّ والدّاء الدَّخيلِ المُخامِرِ[1]

والعجيب والعجب: هو كل ما لا يعرف علته ولا سببه. والمريج: المختلط الملتبس، وأصله إرسال الشيء مع غيره من المرج. قال الشاعر:

(١) أمجدنا قِرىً أي: آتانا ما كفى وفضل. وخامر الداء فلاناً: خالط جوفه أي: وفدنا عليه فآتانا من بثّ الشكوى، وما به من الداء الدفين، ما كفانا وفضل.

فجالت فالتمست به حشاها ... فخر كأنه غصن مريج

أي التبس بكثرة شعبه، ومرجت عهودهم وأمرجوها أي: خلطوها ولم يفوا بها.

● **الإعراب:** جواب القسم في ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ محذوف يدل على ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾ وتقديره: إنكم مبعوثون، فقالوا: أنبعث إذا متنا وكنا تراباً. ويجوز أن يكون الجواب ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ﴾، وحذفت اللام لأن ما قبلها عوض منها، كما قال: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ إلى قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾. والمعنى: لقد أفلح. والعامل في: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا﴾ مضمر، والتقدير: أإذا متنا بعثنا.

● **المعنى:** ﴿قٓ﴾ قد مر تفسيره. وقيل: إنه اسم من أسماء الله تعالى، عن ابن عباس. وقيل: هو اسم الجبل المحيط بالأرض من زمردة خضراء، خضرة السماء منها، عن الضحاك وعكرمة. وقيل معناه: قضي الأمر أو قضي ما هو كائن، كما قيل في حم: «حُم الأمر»(١). ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ أي: الكريم على الله العظيم في نفسه، الكثير الخير والنفع، لتبعثن يوم القيامة. وقيل: تقديره: والقرآن المجيد أن محمداً رسول الله ﷺ بدلالة قوله: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: ما كذبك قومك لأنك كاذب، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم، وحسبوا أنه لا يوحى إلا إلى ملك. ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: معجب، عجبوا من كون محمد ﷺ رسولًا إليهم، فأنكروا رسالته، وأنكروا البعث بعد الموت، وهو قوله: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾ أنبعث ونرد أحياء. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الرد الذي يقولون ﴿رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ أي: رد بعيد عن الأوهام، وإعادة بعيدة عن الكون، والمعنى: إنه لا يكون ذلك لأنه غير ممكن. ثم قال سبحانه: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ﴾ أي: ما تأكل الأرض من لحومهم ودمائهم، وتبليه من عظامهم، فلا يتعذر علينا ردهم. ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ أي: حافظ لعدتهم وأسمائهم، وهو اللوح المحفوظ، لا يشذ عنه شيء. وقيل: حفيظ أي: محفوظ عن البلى والدروس، وهو كتاب الحفظة الذين يكتبون أعمالهم. ثم أخبر سبحانه بتكذيبهم، فقال: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ والحق: القرآن. وقيل: هو الرسول. ﴿فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ أي: مختلط، فمرة قالوا: مجنون، وتارة قالوا: ساحر، وتارة قالوا: شاعر. فتحيروا في أمرهم(٢) لجهلهم بحاله، ولم يثبتوا على شيء واحد، وقالوا للقرآن: إنه سحر مرة، وزجر(٣) مرة، ومفترى مرة. فكان أمرهم ملتبساً عليهم. قال الحسن: ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ

---

(١) حُمّ الأمر بالبناء للمجهول أي: قُضي.
(٢) وفي بعضها: أمره.
(٣) وفي المخطوطة: رجز.

﴿وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

● **اللغة:** الفروج: الشقوق والصدوع، وفي الحائط فُرجة ـ بضم الفاء ـ، فإذا قيل: فَرجة ـ بفتح الفاء ـ فهو التفضي من الهم. قال:

ربما تكرهُ النفوسُ من الأمـ ـرِ له فَرجة كَحَلِّ العِقالِ(١)

أي: رب شيء تكرهه النفوس. و«ما» هاهنا نكرة موصوفة. والفَرْج: موضع المخافة، وفي عهد الحجاج: إني وليتك الفرجين، يعني: خراسان وسجستان. والحصيد: ما حصد من أنواع النبات. والباسقات: الطِّوَال، وبَسق النخل بُسوقاً. والطلع: طلع النخلة، سمي بذلك لطلوعه. والنضيد: ما نضد بعضه على بعض.

● **الإعراب:** ﴿كَيْفَ﴾ يجوز أن يكون في موضع نصب على الحال، ويجوز أن يكون مصدراً ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ في موضع نصب على الحال، تقديره: غير مفروجة. و﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ منصوبة بفعل مضمر يفسره هذا الظاهر، وتقديره: ومددنا. الأرض مددناها ﴿تَبْصِرَةً﴾ مفعول له، وكذلك ﴿وَذِكْرَىٰ﴾، ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ تقديره: وحب النبات الحصيد، و﴿ٱلْحَصِيدِ﴾ صفة لموصوف. و﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ نصب على الحال، وكذلك الجملة التي هي ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ حال بعد حال. و﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ مفعول له، أي: أنبتنا هذه الأشياء لرزق العباد، ويجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً، أعني المصدر، وتقديره: رزقناهم رزقاً.

● **المعنى:** ثم أقام سبحانه الدلالة على كونه قادراً على البعث، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ أي: ألم يتفكروا في بناء السماء مع عظمها، وحسن ترتيبها وانتظامها، ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ بغير علاقة ولا عماد ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالكواكب السيارة، والنجوم الثوابت ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي: شقوق وفتوق. وقيل معناه: ليس فيها تفاوت واختلاف، عن الكسائي. وإنما قال: فوقهم بنيناها، على أنهم يرونها ويشاهدونها ثم لا يتفكرون فيها. ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي: بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالاً رواسخ تمسكها على الميدان، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي: من كل صنف حسن المنظر، عن ابن زيد. والبهجة: الحسْن الذي له روعة عند الرؤية، كالزهرة والأشجار النضرة، والرياض الخضرة. وقال الأخفش: البهيج: الذي مَن رآه بهج به، أي: سر به، فهو بمعنى المبهوج به. ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ أي: فعلنا ذلك تبصيراً ليبصر به أمر الدين، وتذكيراً وتذكراً ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى الله تعالى.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ أي: مطراً وغيثاً بعظم النفع به ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين فيها أشجار تشتمل على أنواع الفواكه المستلذة، ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أي: حب البر والشعير، وكل ما يحصد، عن قتادة. لأن من شأنه أن يحصد إذا تكامل واستحصد،

---

(١) مر البيت في ج٦.

والحب هو الحصيد، فهو مثل ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ ومسجد الجامع، ونحوهما: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ أي: وأنبتنا به النخل طويلات عاليات ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي: لهذه النخل الموصوفة بالعلو طلع نُضِّد بعضه على بعض، عن مجاهد وقتادة. والطلع: الكُفُرَّى، وهو أول ما يظهر من ثمر النخل قبل أن ينشق، وهو نضيد في أكمامه، فإذا أخرج من أكمامه فليس بنضيد. ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: أنبتنا هذه الأشياء للرزق، وكل رزق فهو من الله تعالى بأن يكون قد فعله أو فعل سببه، لأنه مما يريده، وقد يرزق الواحد منا غيره، كما يقال: رزق السلطان جنده. ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء الذي أنزلناه من السماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: جدباً وقحطاً لا تنبت شيئاً، فنبتت وعاشت. ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ من القبور، أي: مثل ما أحيينا هذه الأرض الميتة بالماء، نحيي الموتى يوم القيامة، فيخرجون من قبورهم، فإن من قدر على أحدهما قدر على الآخر، وإنما دخلت الشبهة على هؤلاء من حيث إنهم رأوا العادة مستمرة في إحياء الموات من الأرض بنزول المطر، ولم تجر العادة بإحياء الموتى من البشر، ولو أنعموا الفكر، وأمعنوا النظر، لعلموا أن من قدر على أحد الأمرين قدر على الآخر.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ: قراءة أبي بكر عند خروج نفسه: «وجاءت سكرة الحق بالموت» وهي قراءة سعيد بن جبير وطلحة، ورواها أصحابنا عن أئمة الهدى عليهم السلام.

● **الحجة:** قال ابن جني: لك في الباء ضربان من التقدير: إن شئت علقتها بنفس «جاءت» كقوله: جئت بزيد، أي: أحضرته. وإن شئت علّقتها بمحذوف وجعلتها حالاً، أي: وجاءت سكرة الحق ومعها الموت، كقولك: خرج بثيابه، أي: وثيابه عليه. ومثله قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ أي: وزينته عليه، وكقول أبي ذؤيب:

يَعْثُرْنَ في حَدِّ الظُّباتِ كأنما كُسِيَتْ بُرودَ بني يَزيدَ الأذْرُعَ(١)

---

(١) الظُبة: حدّ السيف، أو السنان، ونحوه. والمراد بحد الظبات: المضارب بأسرها، يقول: إنّ بقر الوحش أيضاً لا تنجو من الموت، فيعثرن وهن في حد الظبات من السيف، بجرح الصياد إياهن، فتحمر أذرعهم من الدم، كبرود بني يزيد (وهي برود فيها خطوط حمر) وقد مر البيت أيضاً.

أي: يعثرن وهن في حد الظبات. وكقول الآخر:

ومُـسْـتَـنَّـةٍ كـاسْـتِـنَـانِ الـخَـروفِ   وقـد قَـطَـعَ الـحَـبْـلَ بـالـمِـرْوَدِ[1]

أي: قطعه وفيه مِرْوَدُه. وكذلك قراءة العامة. ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾: إن شئت علقت الياء بنفس «جاءت»، وإن شئت علقتها بمحذوف[2]: وجاءت سكرة الموت ومعها الحق.

● **اللغة:** يقال: عييتُ بالأمر: إذا لم تعرف وجهه، وتعذّر ذلك عليك، وأعْيَيت: إذا تعبت، وكل ذلك من التعب، إلا أن أحدهما في الطلب، والآخر فيما وقع الفراغ عنه. والوريد: عِرقٌ في الحلق، وهما وريدان في العنق، عن يمين وشمال، وكأنه العرق الذي يُرد إليه ما ينصبُّ من الرأس. وحبل الوريد: حبل العاتق، وهو منفصل من الحلق إلى العاتق. والرقيب: الحافظ. والعتيد: المعد للزوم الأمر.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه الأمم المكذّبة تسلية للنبي ﷺ وتهديداً للكفار، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ من الأمم الماضية ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾، فأغرقهم الله ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ وهم أصحاب البئر التي رسُّوا نبيهم فيها، بعد أن قتلوه، عن عكرمة. وقيل: الرس: بئر قتل فيها صاحب ياسين، عن الضحاك. وقيل: هم قوم كانوا باليمامة على آبار لهم، عن قتادة. وقيل: هم أصحاب الأخدود. وقيل: كان سحق النساء في أصحاب الرس. وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام. ﴿وَثَمُودُ﴾ وهم قوم صالح ﴿وَعَادٌ﴾ وهم قوم هود ﴿وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ أي: وكذب فرعون موسى وقوم لوط لوطاً، وسماهم إخوانه لكونهم من نسبه. ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو تبع الحميري الذي ذكرناه عند قوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾. ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ المبعوثة إليهم، وجحدوا نبوتهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: وجب عليهم عذابي الذي أوعدتهم به، فإذا كان مآل الأمم الخالية، إذ كذبوا الرسل، الهلاك والدمار، وإنكم معاشر العرب قد سلكتم مسالكهم في التكذيب والإنكار، فحالكم كحالهم في التباب والخسار.

ثم قال سبحانه جواباً لقولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾، ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: أفعجزنا حين خلقناهم أولًا ولم يكونوا شيئاً، فكيف نعجز عن بعثهم وإعادتهم؟ وهذا تقرير لهم لأنهم اعترفوا بأن الله هو الخالق، ثم أنكروا البعث. ويقال لكل من عجز عن شيء: عيي به. ثم ذكر أنهم في شك من البعث بعد الموت، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: بل هم في ضلال وشك من إعادة الخلق جديداً. واللبس منعٌ من إدراك المعنى بما هو كالستر له، والجديد: القريب الإنشاء ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أراد به الجنس يعني ابن آدم ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي: ما يحدث به قلبه وما يخفى ويُكِنُّ في نفسه، ولا يظهره لأحد من المخلوقين. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ بالعلم ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ وهو عرق يتفرق في البدن يخالط الإنسان في جميع

---

(١) المرود: حديدة توتد في الأرض يشد فيها حبل الدابة وقد مر البيت في ج٣.

(٢) [بمعنى].

أعضائه. وقيل: هو عرق الحلق، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: هو عرق متعلق بالقلب، يعني: نحن أقرب إليه من قلبه، عن الحسن. وقيل معناه: نحن أعلم به ممن كان منه بمنزلة حبل الوريد في القرب. وقيل معناه: نحن أملك له من حبل وريده مع استيلائه عليه وقربه منه. وقيل معناه: نحن أقرب إليه بالإدراك من حبل الوريد لو كان مدركاً.

ثم ذكر سبحانه أنه على علمه به، وكَّل به مَلَكَيْن يحفظان عليه عمله إلزاماً للحجة، فقال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ فـ«إذ» متعلقة بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي: ونحن أعلم به وأملك له حين يتلقى المتلقيان، وهما المَلَكَان يأخذان منه عمله فيكتبانه كما يكتب المملى عليه. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أراد عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، فاكتفى بأحدهما عن الآخر. والمراد بالقعيد هنا: الملازم الذي لا يبرح، لا القاعد الذي هو ضد القائم. وقيل: عن اليمين كاتب الحسنات، وعن الشمال كاتب السيئات، عن الحسن ومجاهد. وقيل: الحفظة أربعة: مَلَكَان بالنهار، ومَلَكَان بالليل، عن الحسن. ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: ما يتكلم بكلام فيلفظه، أي: يرميه مِن فيه إلا لديه حافظ حاضر معه. يعني الملك الموكل به، إما صاحب اليمين، وإما صاحب الشمال، يحفظ عمله لا يغيب عنه، والهاء في ﴿لَدَيْهِ﴾ تعود إلى القول أو إلى القائل.

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطىء أو المسيء، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها، وإلا كتب واحدة».

وفي رواية أخرى قال: «صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال، فإذا عمل حسنة كتبها له صاحب اليمين بعشر أمثالها، وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين: أمسك، فيمسك عنه سبع ساعات، فإن استغفر الله منها لم يكتب عليه شيء، وإن لم يستغفر الله كتب له سيئة واحدة».

وعن أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى وكَّل بعبده مَلَكَيْن يكتبان عليه، فإذا مات قالا: يا رب قد قبضت عبدك فلاناً فإلى أين؟ قال: سمائي بملائكتي يعبدونني، وأرضي مملوءة من خلقي يطيعونني، اذهبا إلى قبر عبدي فسبّحاني، وكبّراني، وهلّلاني، فاكتبا ذلك في حسنات عبدي إلى يوم القيامة».

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: جاءت غمرة الموت وشدته التي تغشي الإنسان وتغلب على عقله بالحق، أي: أمر الآخرة، حتى عرفه صاحبه واضطر إليه. وقيل معناه: جاءت سكرة الموت بالحق الذي هو الموت. قال مقاتل: يعني أنه حق كائن. والمراد: إن هذه السكرة قد قربت منكم فاستعدوا لها، فهي لقربها كالحاصلة، مثل قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾. وروي أن عائشة قالت عند وفاة أبي بكر:

لَعَمْرُكَ ما يُغْني الثَّراءُ عنِ الفتى إذا حَشْرَجَتْ[1] يوماً، وضاقَ بها الصدرُ

---

(١) حشرج حشرجة: غَرْغَر عند الموت، وتردد نفسه.

فقال أبو بكر: لا تقولي ذلك، ولكنه كما قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾. ويقال لمن جاءته سكرة الموت: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الموت ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: تهرب وتميل ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ قد مر تفسيره، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: ذلك اليوم يوم وقوع الوعيد الذي خوَّف الله به عباده، ليستعدوا ويقدموا العمل الصالح له.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع وأبو بكر: «يوم يقول» بالياء، والباقون: بالنون.

● **الحجة:** الياء على معنى: يقول الله تعالى، والنون أشبه بقوله: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

● **اللغة:** السَّوق: الحثُّ على السير. والحديد: الحاد، مثل الحفيظ والحافظ. والعنيد: الجائر عن القصد، وهو العنود والعاند. وناقة عنود: لا تستقيم في سيرها، والعنيد: المتجبر منه.

● **الإعراب:** ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ ﴿مَا﴾ هاهنا نكرة موصوفة، وتقديره: هذا شيء ثابت لدي عتيد، فالظرف صفة لـ«ما»، وكذلك عتيد. ﴿جَهَنَّمَ﴾ لا ينصرف للتعريف والتأنيث، وأصله من قولهم: بئر جَهنام: إذا كانت بعيدة القعر. وقيل: هو أعجمي فلا ينصرف للتعريف والعجمة. وقوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ قيل فيه أقوال[1]:

أحدها: إن العرب تأمر الواحد والقوم بما يؤمر به الاثنان، تقول للرجل الواحد: قوما واخرجا. ويحكى عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسي اضربا عنقه، يريد: اضرب. قال الفراء: سمعت مِنَ العرب مَنْ يقول: ويلك ارحلاها، وأنشدني بعضهم:

فقُلْتُ لصاحبي: لا تحبسانا   بنزع أُصُولِهِ، واجْتزَّ شِيحا[2]

(١) وفي نسخة: المتجبر.

(٢) الشيح: نبات كثير الأنواع، طيب الرائحة، يوقي طبخ اللحم سريعاً، ولا تحبسنا بقلع أُصول الأشجار للشيء حتى يطول المكث بل اجتزّ الشيح واشو به.

وأنشدني أبو ثروان:

فإن تزْجُراني يا ابن عفّانَ أنزجرْ ... وإنْ تَدعاني أحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعا(١)

قال: وترى أن ذلك منهم لأجل أنَّ أدنى أعوانِ الرجل في إبله وغنمه اثنان، وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة، فجرى كلام الواحد على صاحبيه، ألا ترى أن الشعراء أكثر شيء قيلًا: يا صاحبيَّ ويا خليليَّ، قال امرؤ القيس:

خليليّ مُرّا بي على أمّ جُندُبِ، ... لنَقْضيَ حاجاتِ الفُؤادِ المُعَذَّبِ

فإنّكما إنْ تُنظِرانيَ ليلةً ... مِنَ الدَّهرِ تَنفَعْني، لدَى أُمّ جُندُبِ

ثم قال:

أَلَمْ ترَ أنّي كُلّما جِئْتُ طارقاً ... وَجَدْتُ بها طِيباً وإن لم تُطَيَّبِ

فرجع إلى الواحد، لأن أول الكلام واحد في لفظ الاثنين، وأنشد أيضاً:

خَليلَيَّ قُومَا في عطالةَ فانظُرا ... أناراً تُرى من نَحْوِ ما بَيْنَ أَمْ بَرْقا(٢)

ولم يقل: تَرَيا.

والثاني: إنه إنما ثنّى ليدل على التكثير، كأنه قال: ألق ألق، فثنى الضمير ليدل على تكرير الفعل، وهذا لشدة ارتباط الفاعل بالفعل، حتى إذا كرر أحدهما فكأن الثاني كرر، وهذا قول المازني. ومثله عنده: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ إنما جمع ليدل على التكرير، كأن قال: أرجعني أرجعني أرجعني، وحمل عليه قول امرىء القيس:

قِفا نَبْكِ مِنْ ذكرى حَبيبٍ ومَنْزِلِ

ونحو ذلك، أي: كأنه قال: قف قف.

والثالث: إن الأمر تناول السائق والشهيد، فكأنه قال: يا أيها السائق، ويا أيها الشهيد ألقيا.

والرابع: إنه يريد النون الخفيفة فكان: أَلْقِيَنْ، فأجرى الوصل مجرى الوقف، فأبدل من النون ألفاً، كما قال الأعشى:

وذا النُّسكِ المَنصوبِ لا تنسُكَنَّهُ، ... ولا تَعْبُدِ الشيطانَ، واللهَ فاعبُدا(٣)

ويؤيد هذا القول ما روي عن الحسن أنه قرأ: «ألقياً» بالتنوين.

---

(١) الممنع: الممنوع شدد للمبالغة.

(٢) عطالة: جبل منيف بالسودة من ديارات بني سعد. وفي اللسان «أناراً ترى من ذي أبانين أم برقاً». وبين: اسم موضع.

(٣) قد مر البيت في ج١.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: إن كان مبتدأ فخبره وقوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ ويجوز أن يكون نصباً بمضمر يفسِّره ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ ويجوز أن يكون نصباً بدلًا من قوله: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾. ولا يجوز أن يكون جراً صفة لـ«كفار»؛ لأن النكرة لا توصف بالموصول، إنما الموصول وُصْلة إلى وصف المعارف بالجُمل.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن حال الناس بعد البعث، فقال: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: وتجيء كل نفس من المُكلَّفين في يوم الوعيد، ومعها سائق من الملائكة يسوقها، أي: يحثها على السير إلى الحساب، وشهيد من الملائكة يشهد عليها لما يعلم من حالها، وشاهده منها وكتبه عليها، فلا يجد إلى الهرب ولا إلى الجحود سبيلًا. وقيل: السائق من الملائكة، والشهيد الجوارح تشهد عليها، عن الضحاك. ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ﴾ أي: يقال له: لقد كنت في سهو ونسيان ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ اليوم في الدنيا. والغفلة: ذهاب المعنى عن النفس ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الذي كان في الدنيا يغشي قلبك وسمعك وبصرك، حتى ظهر لك الأمر، وإنما تظهر الأمور في الآخرة بما يخلق الله تعالى من العلوم الضرورية فيهم، فيصير بمنزلة كشف الغطاء لما يرى. وإنما يراد به جميع المُكلَّفين برهم وفاجرهم، لأن معارف الجميع ضرورية. ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: فعينك اليوم حادة النظر لا يدخل عليها شك ولا شبهة. وقيل معناه: فعلمك بما كنت فيه من أحوال الدنيا نافذ، ولا يراد به بصر العين، كما يقال: فلان بصير بالنحو والفقه. وقيل: هو خاص في الكافر، أي: فأنت اليوم عالم بما كنت تنكره في الدنيا، عن ابن عباس.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ يعني الملك الشهيد عليه، عن الحسن. وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام. وقيل: قرينه الذي قُيض له من الشياطين، عن مجاهد. وقيل: قرينه من الإنس، ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ إنه كان المراد به المَلَك الشهيد، فمعناه: هذا حسابه حاضر لدي في هذا الكتاب، أي: يقول لربه: كنت وكَّلتني به فما كتبت من عمله حاضر عندي، وإن كان المراد به الشيطان أو القرين من الإنس، فالمعنى: هذا العذاب حاضر عندي، معد لي بسبب سيئاتي. ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ هذا خطاب لخازن النار. وقيل: خطاب للمَلَكَيْن الموكَّلَيْن به، وهما السائق والشهيد، عن الزجاج. وقد ذكرنا ما قيل فيه. وروى أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن الأعمش أنه قال: حدثنا أبو المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى لي ولعليّ: ألقيا في النار من أبغضكما، وأدخلا الجنة من أحبكما، وذلك قوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾». والعنيد: الذاهب عن الحق وسبيل الرشد. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ الذي أمر الله به من بذل المال في وجوهه ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم متجاوز يتعدى حدود الله ﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: شاكٍ في الله وفيما جاء من عند الله. وقيل: متهم يفعل ما يرتاب بفعله، ويظن به غير الجميل، مثل «المليم» الذي يفعل ما يلام عليه. وقيل: إنها نزلت في الوليد بن المغيرة حين استشاره بنو أخيه في الإسلام فمنعهم، فيكون المراد بالخير الإسلام. ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ هذا تأكيد للأول، فكأنه قال: افعلا ما أمرتكما به فإنه مستحق لذلك.

و﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: شيطانه الذي أغواه، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. وإنما سمي قرينه لأنه يقرن به في العذاب. وقيل: قرينه من الإنس، وهم علماء السوء والمَتْبُوعُون. ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي: ما أضللته وما أوقعته في الطغيان باستكراه، أي: لم أجعله طاغياً، ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ﴾ من الإيمان ﴿بَعِيدٍ﴾ أي: ولكنه طغى باختياره السوء، ومثل هذا قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لهم ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ أي: لا يخاصم بعضكم بعضاً عندي، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ في دار التكليف ولم تنزجروا وخالفتم أمري. ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ المعنى: إن الذي قدمته لكم في دار الدنيا من أني أعاقب من جحدني، وكذب رسلي، وخالفني في أمري لا يبدل بغيره، ولا يكون خلافه. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لست بظالم أحداً في عقابي لمن أستحقه، بل هو الظالم لنفسه بارتكابه المعاصي التي استحق بها ذلك، وإنما قال: ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ على وجه المبالغة رداً على من أضاف الظلم إليه تعالى، وتقدّس عن ذلك.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ يتعلق يوم بقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ الآية. وقيل: يتعلق بتقدير: اذكر يا محمد ذلك اليوم الذي يقول الله فيه لجهنم: هل امتلأت من كثرة ما أُلْقِيَ فيك من العصاة؟ ﴿وَتَقُولُ﴾ جهنم ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾. قال أنس: طلبت الزيادة. وقال مجاهد: المعنى معنى الكفاية، أي: لم يبق مزيد لامتلائها، ويدل على هذا القول قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. وقيل في الوجه الأول: إن هذا القول كان منها قبل دخول جميع أهل النار فيها، ويجوز أن تكون تطلب الزيادة على أن يزاد في سعتها، كما جاء عن النبي ﷺ أنه قيل له يوم فتح مكة: ألا تنزل دارك؟ فقال: وهل ترك لنا عقيل من دار؟ لأنه كان قد باع دور بني هاشم لما خرجوا إلى المدينة. فعلى هذا يكون المعنى: وهل بقي زيادة؟ فأما الوجه في كلام جهنم فقيل فيه وجوه:

أحدها: إنه خرج مخرج المثل، أي: أن جهنم من سعتها وعظمتها بمنزلة الناطقة التي إذا قيل لها: هل امتلأت؟ تقول: لم أمتلىء، وبقي فيَّ سعة كثيرة. ومثله قول عنترة:

فـازْوَرَّ مِـن وَقْـعِ الـقَـنـا بِـلَبـانِـهِ وشـكـا إلـيَّ بِـعَـبْـرَةٍ وتَـحَـمْـحُـمِ[1]

قال آخر:

امـتـلأَ الـحَـوْضُ وقـالَ: قَـطْـنـي مـهـلًا رُوَيْـداً قـد مـلأتُ بَـطْـنـي[2]

وثانيها: إنه سبحانه يخلق آلة الكلام فتتكلم، وهذا غير منكر، لأن من أنطق الأيدي والجوارح والجلود قادر على أن ينطق جهنم.

---

(١) مرّ البيت في ج٦. (٢) مر البيت أيضاً في ج١.

وثالثها: إنه خطاب لخَزَنَة جهنم على وجه التقرير لهم، هل امتلأت جهنم؟ فيقولون: بلى لم يبق موضع لمزيد، ليعلم الخلق صدق وعده. عن الحسن قال: ومعناه: ما من مزيد، أي: لا مزيد، كقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ وهو قول واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ
﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾
لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا
فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى
ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا
مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ
وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الحجاز وحمزة وخلف: «وإدبار» بكسر الهمزة. والباقون: «وأدبار السجود» بالفتح. وفي الشواذ قراءة ابن عباس وأبي العالية ويحيى بن يعمر: «فنقِبوا في البلاد» بكسر القاف، وقراءة السدي: «وأُلقى السمع»، وقراءة أبي عبد الرحمٰن السلمي وطلحة: «وما مسنا من لَغوب» بفتح اللام.

● **الحجة:** قال أبو علي: «إدبار» مصدر، والمصادر تجعل ظروفاً على إرادة إضافة أسماء الزمان إليها وحذفها، كقولك: جئتك مقدم الحاج، وخفوق النجم، وخلافة فلان، تريد في ذلك كله وقت كذا. فكذلك يقدر هنا وقت إدبار السجود، إلا أن المضاف المحذوف في هذا الباب لا يكاد يظهر ولا يستعمل. فهذا أُدخِلَ في باب الظروف من قول من فَتح، فكأنه أمر بالتسبيح بعد الفراغ من الصلاة. ومن فتح جعله جمع دُبُر أو دِبْر مثل قُفل وأقفال، وطُنُب وأطناب. وقد استعمل ذلك ظرفاً نحو: جئتك في دبر الصلاة وفي أدبار الصلاة. قال أوس ابن حجر:

على دُبُرِ الشهرِ الحرامِ بأرضِنا، وما حَوْلَها جَدْبٌ، سِنُونٌ تَلَمَّعُ[1]

وأما من قرأ: «فنقِبوا» فقد قال ابن جني: إنه: فَعِلوا من النقب، أي: ادخلوا وغوّروا في الأرض، فإنكم لا تجدون لكم محيصاً. وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ معناه: أو ألقى السمع منه، وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ فيمكن أن يكون من المصادر التي جاءت على فعول، بفتح الفاء،

(١) تلمعت السنة كما قيل: عام أبقع أي: فهي خصب وجدب.

كالوضوء والولوغ والوزوغ والقبول، وهي صفات مصادر محذوفة، أي: توضأت وضوءاً، أي: وضوءاً[١] حسناً، وكذلك هذا، أي: وما مسنا من لغوبٍ، أي: تعبٌ متعب.

● **اللغة:** الإزلاف: التقريب إلى الخير، ومنه الزلفة، والزلفى. وازدلف إليه أي: اقترب. والمزدلفة: منزلة قريبة من الموقف، وهو المشعر وجمع، ومنه قول الراجز:

ناجٍ طواه الأينُ مما أوْجَفا طيَّ الليالي زُلَفاً فزُلفا
سماوَةَ الهِلَالِ حتى احْقَوْقَفا[٢]

والتنقيب: التفتيح بما يصلح للسلوك، وهو من النقب الذي هو الفتح. قال امرؤ القيس:

لقد نَقَّبْتُ في الآفاقِ حتى رَضِيتُ مِنَ الغَنِيمَةِ بالإيابِ

أي: طوَّفت في طرقها وسرت في نقوبها. واللغوب: الإعياء.

● **الإعراب:** ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ صفة مصدر محذوف تقديره: إزلافاً غير بعيد، ويجوز أن يكون منصوباً على الحال من الجنة. ولم يقل: غير بعيدة لأنه في تقدير النسب، أي: غير ذات بعد. وقوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع بأنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو لكل أواب. ولا يجوز أن يكون خبراً بعد خبر، تقديره: هذا الموعود هذا لكل أواب حفيظ ولا يجوز أن تتعلق اللام بـ﴿تُوعَدُونَ﴾ لأن الأوابين هم الموعودون، لا الموعود لهم. ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ ويجوز أن يكون في محل جر على البدل من أواب، فيتم الكلام عند قوله: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾. ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره محذوف على تقدير: يقال لهم: ادخلوها، فعلى هذا يكون تمام الكلام عند قوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾. ويقتضي أن يكون ادخلوها خطاباً للمتقين، وتقديره: وتزلف الجنة للمتقين، ويقال لهم: ادخلوها بسلام.

● **المعنى:** لما أخبر سبحانه عما أعده للكافرين والعصاة، عقَّبه بذكر ما أعده للمتقين، فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قُرِّبَتْ الجنة وأُدنيَت للذين اتقوا الشرك والمعاصي، حتى يروا ما فيها من النعيم. والجنة: هي البستان التي تجمع كل لذة من الأنهار والأشجار وطيب الثمار، ومن الأزواج الكرام والحور الحسان، والخدم من الولدان، ومن الأبنية الفاخرة المُزيَّنة بالياقوت الزمرد والعقيان، نسأل الله التوفيق لما يقرب من رضاه. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: هي قريبة منهم لا يلحقهم ضرر ولا مشقة في الوصول إليها. وقيل معناه: ليس ببعيد مجيء ذلك، لأن كل آت قريب. ومثله قول الحسن: كأنك بالدنيا كأن لم تكن، وبالآخرة كأن لم تزل. ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: هذا الذي ذكرناه هو ما وعدتم به من الثواب على ألسنة الرسل. ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أي: تواب

---

(١) وفي بعض النسخ: وَضوءاً حسناً.

(٢) ناجٍ: البعير السريع ينجو بمن ركبها. والأين: الإعياء وما في مما أوجفا مصدرية أي: من إيجافه، وهو اعدائه. وسماوة الهلال أي: شخصه. واحقوقب الهلال: اعوجّ وكل ما طال واعوجّ فقد احقوقف، كظهر البعير، وشخص القمر. وقد مر البيت في ج٥.

رجّاع إلى الطاعة، عن الضحاك وابن زيد. وقيل: لكل مسبح، عن ابن عباس وعطاء. ﴿حَفِيظٍ﴾ لما أمر الله به، مُتَحَفِّظ من الخروج إلى ما لا يجوز من سيئة تدنسه، أو خطيئة تحط منه وتشينه. ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: هو من خاف الله وأطاعه وآمن بثوابه وعقابه ولم يره. وقيل: بالغيب أي: في الخلوة بحيث لا يراه أحد، عن الضحاك والسدي. ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: ودام على ذلك حتى وافى في الآخرة بقلب مقبل على طاعة الله، راجع إلى الله بضمائره. ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أي: يقال لهم: ادخلوا الجنة بأمان من كل مكروه وسلامة من كل آفة. وقيل: بسلام من الله وملائكته عليهم، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ الوقت الذي يبقون فيه في النعيم مؤبدين لا إلى غاية ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أي: لهم في الجنة ما تشتهيه أنفسهم ويريدونه من أنواع النعم، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي: وعندنا زيادة على ما يشاءُونه مما لم يخطر ببالهم، ولم تبلغه أمانيهم. وقيل: هو الزيادة على مقدار استحقاقهم من الثواب بأعمالهم.

ثم خوَّف سبحانه كفار مكة، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: كثيراً أهلكنا قبل هؤلاء من القرون الذين كذبوا رسلهم، ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: الذين أهلكناهم كانوا أشد قوة من هؤلاء وأكثر عِدة وعُدة[1] ولم يتعذر علينا ذلك، فما الذي يؤمِّن هؤلاء من مثله؟ ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: فتحوا المسالك في البلاد بشدة بطشهم، أصله من النقب وهو الطريق. وقيل معناه: ساروا في البلاد وطَوَّفوا فيها بقوتهم، وسلكوا كل طريق، وسافروا في أعمال طويلة. ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: هل من محيد عن الموت ومنجىً من الهلاك؟ يعني لم يجدوا في جميع ذلك من الموت والهلاك منجىً ومهرباً. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما أخبرته وقصصته ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ أي: ما يعتبر به ويتفكر فيه ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ معنى القلب هنا العقل، عن ابن عباس. من قولهم: أين ذهب قلبك؟ وفلان قلبه معه. وإنما قال ذلك، لأن من لا يعي الذكر، لا يعتد بما له من القلب. وقيل: لمن كان له قلب حي، عن قتادة. ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يستمع، وهو شهيد لما يسمع فيفقهه، غير غافل عنه ولا ساه، عن ابن عباس ومجاهد والضحاك. يقال: ألق إليَّ سمعك، أي: اسمع.

قال ابن عباس: كان المنافقون يجلسون عند رسول الله ﷺ ثم يخرجون فيقولون: ماذا قال آنفاً[2]؟ ليس قلوبهم معهم. وقيل: هو شهيد على صفة النبي في الكتب السالفة، يريد أهل الكتاب، عن قتادة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي: نصب وتعب، أكذب الله تعالى بهذا اليهود، فإنهم قالوا: استراح الله يوم السبت، فلذلك لا تعمل[3] فيه شيئاً. ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يا محمد من بهتهم وكذبهم وقولهم أنك ساحر، أو مجنون، واحتمل ذلك حتى يأتي الله بالفرج، وهذا قبل أن أمر الله بالقتال، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: وصلِّ واحمد الله تعالى. سَمَّى الصلاة تسبيحاً لأن الصلاة تشتمل على التسبيح والتحميد، عن

---

(١) في المخطوطة: مدة بدل عدة.
(٢) فيها أيضاً [أي].
(٣) وفي بعض النسخ: لا نعمل.

ابن عباس وقتادة وابن زيد. وقيل: أراد به التسبيح بالقول تنزيهاً لله تعالى عما لا يليق به. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ يعني صلاة الفجر، وصلاة الظهر، والعصر، عن قتادة وابن زيد، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني المغرب والعشاء الآخرة. وقيل: ومن الليل يعني صلاة الليل، ويدخل فيه صلاة المغرب والعشاء، عن مجاهد. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ فقال: تقول حين تصبح وحين تمسي عشر مرات: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير. ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ فيه أقوال:

أحدها: إن المراد به الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم: الركعتان قبل الفجر، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، والحسن بن علي عليه السلام، والحسن والشعبي. وعن ابن عباس مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وآله.

وثانيها: إنه التسبيح بعد كل صلاة، عن ابن عباس ومجاهد.

وثالثها: إنه النوافل بعد المفروضات، عن ابن زيد والجبائي.

ورابعها: إنه الوتر من آخر الليل، روي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

● **الإعراب**: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ تقديره: واستمع حديث يوم ينادي المنادي، فحذف المضاف وهو مفعول به، وليس بالظرف. و﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ بدل من ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾وكذلك ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ﴾. ويجوز أن ينتصب ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ بقوله: ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: يصيرون إلينا في ذلك اليوم.

● **المعنى**: ثم قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله، والمراد به جميع المُكلَّفين: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: اصغ إلى النداء وتوقعه، يعني صيحة القيامة والبعث والنشور، ينادي بها المنادي وهي النفخة الثانية. ويجوز أن يكون المراد: واستمع ذكر حالهم يوم ينادي المنادي. وقيل: إنه ينادي مناد من صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المنقطعة، واللحوم المُتمزِّقة، قومي لفصل القضاء، وما أعد الله لكم من الجزاء، عن قتادة. وقيل: إن المنادي هو إسرافيل يقول: يا معشر الخلائق! قوموا للحساب، عن مقاتل. وإنما قال: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ لأنه يسمعه الخلائق كلهم على حد واحد، فلا يخفى على أحد قريب ولا بعيد، فكأنهم نودوا من مكان يقرب منهم. ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ والصيحة: المرة الواحدة من الصوت الشديد،

وهذه الصيحة[1] هي النفخة الثانية. وقوله: ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: بالبعث، عن الكلبي. وقيل: يعني أنها كائنة حقاً، عن مقاتل. ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ من القبور إلى أرض الموقف. وقيل: هو اسم من أسماء القيامة، عن أبي عبيدة، واستشهد بقول الشاعر:

أليس يومٌ سُمِّيَ الخروجا أعظمُ يومٍ رَجَّةً رجوجا

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾: أخبر سبحانه عن نفسه أنه هو الذي يحيي الخلق بعد أن كانوا جماداً أمواتاً، ثم يميتهم بعد أن كانوا أحياء، ثم يحييهم يوم القيامة، وهو قوله: ﴿وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾ ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: تشقق ﴿ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ﴾ تتصدع، فيخرجون منها ﴿سِرَاعٗاۚ﴾ يسرعون إلى الداعي بلا تأخير ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ﴾ والحشر: الجمع بالسَّوْق من كل جهة، ﴿عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾أي سهل علينا غير شاق، هيِّن غير متعذر مع تباعد ديارهم وقبورهم. ثم عزّى سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ أي: بما يقوله هؤلاء الكفار في تكذيبك، وجحود نبوتك، وإنكار البعث، لا يخفى علينا من أمرهم شيء، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ أي: بمُسَلَّط قادر على قلوبهم فتجبرهم على الإيمان، وإنما بُعِثْتَ منذراً داعياً مُرَغباً، وهذا معنى قول ابن عباس. وقال تغلب: جاءت أحرف على فَعّال بمعنى مُفعِل مثل دَرَّاك بمعنى مُدرك، وسَرَّاع بمعنى مسرع، وسيف سَقَّاط بمعنى مسقط، وبكّاء بمعنى مُبكي. قال علي بن عيسى: لم يسمع من ذلك إلا دراك من أدركت. وقيل: جبار من جَبَرْتَه على الأمر بمعنى أجْبرته، وهي لغة كنانة. وقيل معناه: ما أنت عليهم بفظ غليظ لا تحلم عنهم، فاحتمل أذاهم. ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ إنما خصَّ بالذكر من يخاف وعيد الله، لأنه الذي ينتفع به.

---

(١) وفي نسخة: من النفخة الثانية.

سُورَةُ الذارياتِ

مكية/آياتها (٦٠)

● **عدد آيها:** ستون آية بالإجماع.

● **فضلها:** أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الذاريات[1] أُعطِي من الأجر عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت في الدنيا». وروى أبو داود بن فرقد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة الذاريات في يومه أو ليلته أصلح الله له معيشته، وأتاه برزق واسع، ونوّر له في قبره[2] بسراج يزهر إلى يوم القيامة.

● **تفسيرها:** لما ختم الله تعالى سورة ق بالوعيد، افتتح هذه السورة بتحقيق الوعيد، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾
إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ
﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ
أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ
﴿١٤﴾﴾.

● **اللغة:** ذرت الريح التراب تذروه ذزواً: إذا طيَّرته، وأذرته تُذريه بمعناه. والحُبُك: الطرائق التي تجري على الشيء، كالطرائق التي ترى في السماء، وفي الصافي من الماء إذا مرت عليه الريح، وهو تكسُّر جار فيه. ويقال للشعر الجعْد: حُبُك، والواحد حِباك وحَبيكة، والحَبْك: حسن أثر الصنعة في الشيء واستواؤه، يقال: حبكه يحبُكه ويحبِكه، قال زهير في الحُبُك:

مُـكَـلَّلٌ بـأصـولِ الـنَّـجْـمِ تَـنْـسِـجُـهُ   ريـحٌ خَـريـقٌ لـضاحـي مـائِـهِ حُـبُـكُ[3]

---

(١) وفي بعض النسخ: في يومه وليلته.

(٢) وفي المخطوطة: ونور له قبره.

(٣) كلل فلاناً: ألبسه الإكليل: والنجم: النبات. والخريق: الريح الباردة الشديدة الهبابة. والضاحي: البارز الظاهر، يصف روضة.

والخراص: الكذاب، والخرص: الظن والحدس، وسمي الحَزْر[(١)] خرصاً منه، ويقال: كم خرص أرضك؟ بكسر الخاء، وأصل الخرص: القطع، من قولهم: خرص فلان كلاماً واخترصه: إذا اقتطعه من غير أصل. والغمرة: من غمره الماء يغمره، وغمره الديْن: إذا غطاه بكثرته، والغمْر: السيد الكثير العطاء، لأنه يغمر بعطائه.

● **الإعراب:** قال الزجاج: ﴿يَوْمَ﴾ نصب على وجهين:

أحدهما: أن يكون على معنى يقع الجزاء يوم هم على النار يفتنون.

والآخر: أن يكون لفظه لفظ نصب، ومعناه معنى رفع، لأنه مضاف إلى جملة كلام، تقول: يعجبني يوم أنت قائم، ويوم أنت تقوم. إن شئت فتحته، وإن شئت رفعته، كما قال الشاعر:

لم يمنعِ الشُّربَ منها غير أن نَطَقَتْ   حمامةٌ في غصونٍ ذاتِ أَوْقالِ[(٢)]

وروي: غيرُ أن نطقت، بالرفع. لما أضاف غيرَ إلى «أن» وليست بمتمكنة فتح، وكذلك كما أضاف ﴿يَوْمَ﴾ إلى الجملة فتح، وكما قرىء ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ ففتح يوم، وهو في موضع خفض، لأنك أضفته إلى غير متمكن. وقيل: إنه لما جرى في كلامهم ظرفاً، بقي في موضع الرفع على ذلك الاستعمال، وجاء مفتوحاً كما جاء في قوله: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ وقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾.

● **المعنى:** ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ روي أن ابن الكوا سأل أمير المؤمنين علي عليه السلام، وهو يخطب على المنبر، فقال: ما الذاريات ذرواً؟ قال: الرياح. قال: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ قال: السحاب. قال: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ قال: السفن. قال: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ قال: الملائكة. وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد. فالذاريات: الرياح تذرو التراب وهشيم النبت، أي: تفرقه. ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ السحاب تحمل ثقلاً من الماء من بلد، إلى بلد فتصير مُوقرة به. والوِقر بالكسر: ثقل الحمل على ظهر أو في[(٣)] بطن، والوِقر: ثقل الأذن. ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ السفن تجري ميسرة على الماء جرياً سهلاً إلى حيث سُيِّرت. وقيل: هي السحاب تجري يسراً إلى حيث سَيَّرها الله من البقاع. وقيل: هي النجوم السبعة السيارة: الشمس، والقمر، وزحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد. ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة يُقَسِّمون الأمور بين الخلق على ما أُمِروا به.

أقسم الله تعالى بهذه الأشياء لكثرة ما فيها من المنافع للعباد، ولما تتضمنه من الدلالة على وحدانية الله تعالى وبدائع صنعه. وقيل: إن التقدير فيها القسم برب هذه الأشياء، لأنه لا يجوز القسم إلا بالله عز اسمه. وقال أبو جعفر وأبو عبد الله عليهما السلام: إنه لا يجوز لأحد أن يقسم إلا بالله تعالى، والله سبحانه يقسم بما يشاء من خلقه.

---

(١) حزره أي: قدره بظن.

(٢) الوَقَل: أصول السعف التي لم تستقص، فبقيت بارزة في الجذع، فأمكن المرتقي أن يرتقي فيها.

(٣) وفي المخطوطة: أو بطن.

ثم ذكر المُقسَم عليه، فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أي: من الثواب والعقاب، والجنة والنار ﴿لَصَادِقٌ﴾ أي: صدق لا بد من كونه، فهو اسم وضع موضع المصدر. وقيل معناه: ذو صدق، كقوله: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾. ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ أي: إن الجزاء. وقيل: إن الحساب لكائن يوم القيامة.

ثم أنشأ قَسماً آخر، فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ أي: ذات الطرائق الحسنة، لكنا لا نرى تلك الحُبُك لبعدها عنا، عن الحسن والضحاك. وقيل: ذات الخلق الحسن المستوي، عن ابن عباس وقتادة وعكرمة والربيع. وقيل: ذات الحسن والزينة، عن علي عليه السلام. وروى علي بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن الحسين بن خالد، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ فقال: محبوكة إلى الأرض وشبك بين أصابعه. فقلت: كيف تكون محبوكة إلى الأرض والله تعالى يقول: ﴿رَفَعَ السَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ فقال: سبحان الله، أليس يقول: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ قلت: بلى، قال: فثمّ عمد ولكن لا تُرى! فقلت: فكيف ذلك جعلني الله فداك؟ قال: فبسط كفه اليسرى ثم وضع اليمنى عليها فقال: هذه أرض الدنيا والسماء الدنيا فوقها قبة، والأرض الثانية فوق السماء الدنيا، والسماء الثانية فوقها قبة، والأرض الثالثة فوق السماء الثانية، والسماء الثالثة فوقها قبة، ثم هكذا إلى الأرض السابعة فوق السماء السادسة، والسماء السابعة فوقها قبة، وعرش الرحمٰن فوق السماء السابعة، وهو قوله: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ وصاحب الأمر، وهو النبي صلى الله عليه وآله، والوصيُّ[1] عليٌّ بعده، وهو على وجه الأرض، وإنما يتنزل الأمر إليه من فوق، من بين السماوات والأرضين. قلت: وما تحتنا إلى أرض واحدة، قال: وما تحتنا إلا أرض واحدة، وإن الست لفوقنا. ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ هذا جواب القسم، أي: إنكم يا أهل مكة في قول مختلف في قول محمد صلى الله عليه وآله، فبعضكم يقول: شاعر، وبعضكم يقول: مجنون، وفي القرآن يقولون: إنه سحر، وكهانة، ورجز، وما سطره الأولون. وقيل معناه: منكم مُكذِّب بمحمد صلى الله عليه وآله، ومنكم مصدِّق به، ومنكم شاك فيه. وفائدته أن دليل الحق ظاهر، فاطلبوا الحق بدليله وإلا هلكتم.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: يصرف عن الإيمان به من صُرِف عن الخير، أي: المصروف عن الخيرات كلها من صرف عن هذا الدين. وقيل معناه: يؤفك عن الحق والصواب من أُفك، فدل ذكر القول المختلف على ذكر الحق، فجازت الكناية عنه. وقيل معناه: يصرف عن هذا القول، أي: بسببه ومن أجله، عن الإيمان، من صرف. فالهاء في ﴿عَنْهُ﴾ تعود إلى القول المختلف، عن مجاهد، فيكون الصارف لهم أنفسهم، كما يقال: فلان معجب بنفسه، وأعجب بنفسه، وكما يقال: أين: يذهب بك؟ لمن يذهب في شغله. وقيل: إن الصارف لهم رؤساء البدع وأئمة الضلال، لأن العامة تبع لهم. ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ أي: لُعِنَ الكذابون، يعني الذين يكذبون على الله

---

(١) وفي نسخة: والولي من بعده وفي نسخة: والوصي من بعده.

وعلى رسوله. وقيل معناه: لعن المرتابون، عن ابن عباس. قال ابن الأنباري: وإنما كان القتل بمعنى اللعنة هنا، لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك.

ثم وصف سبحانه هؤلاء الكفار، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ أي: في شبهة وغفلة غمرهم الجهل ﴿سَاهُونَ﴾ أي: لاهون عما يجب عليهم. وقيل: هم في ضلالتهم متمادون، عن ابن عباس. وقيل: في عمى مترددون، عن قتادة. وقيل: إن أول مراتب الجهل السهو ثم الغفلة، ثم الغمرة، فتكون الغمرة عبارة عن المبالغة في الجهل، أي هم في غاية الجهل ساهون عن الحق، وعما يراد بهم. ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: متى وقت الجزاء؟ إنكاراً واستهزاء، لا على وجه الاستفادة لمعرفته، فأجيبوا بما يسوءهم من الحق الذي لا محالة أنه نازل بهم، فقيل: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يكون هذا الجزاء في يوم يُعَذَّبون فيها، ويحرقون بالنار، وقال عكرمة: ألم تر أن الذهب إذا أُدْخِلَ النار قيل: فتن، أي: فهؤلاء يفتنون بالإحراق كما يفتن الذهب بإحراق الغش الذي فيه، ويقول لهم خزنة النار: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: عذابكم وحريقكم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا تكذيباً به، واستبعاداً له، فقد حصلتم الآن فيه وعرفتم صحته.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ
أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ
﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ
﴿٢٣﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير حفص «مثلُ» بالرفع، والباقون بالنصب.

● **الحجة:** قال أبو علي: من رفع «مثلاً» جعله وصفا لـ«حق»، وجاز أن يكون «مثل» وإن كان مضافاً إلى معرفة صفة للنكرة، لأن «مثلاً» لا يختص بالإضافة، لكثرة الأشياء التي يقع التماثل بها بين المتماثلين، فلما لم تخصه الإضافة، ولم يزل عنه الإبهام والشياع الذي كان فيه قبل الإضافة، بقي على تنكره. فقالوا: مررت برجل مثلك، فلذلك في الآية لم يتعرف بالإضافة إلى ﴿أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾؛ وإن كان قوله: ﴿أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ بمنزلة نطقكم، و«ما» في قوله: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ زائدة.

وأما من نصب فقال: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ﴾ فيحتمل ثلاثة أضرب:

أحدها: إنه لما أضاف مثل إلى مبني وهو قوله: ﴿أَنَّكُمْ﴾، بناه كما بنى يومئذٍ في نحو قوله: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ و[على حينَ عاتبت المشيب على الصبا]، وقوله:

لم يَمْنَعِ الشّربَ منها غيرَ أن نَطَقَتْ   حمامةٌ في غُصُونٍ ذاتِ أَوْقالِ

فغير في موضع رفع بأنه فاعل يمنع. وإنما بنيت هذه الأسماء المبهمة نحو: مثل ويوم وحين وغير، إذا أضيفت إلى المبني، لأنها تكتسي منه البناء، لأن المضاف يكتسي من المضاف إليه ما فيه من التعريف، والتنكير، والجزاء، والاستفهام. تقول: هذا غلام زيد، وصاحب القاضي، فيتعرف الاسم بالإضافة إلى المعرفة. وتقول: غلام مَن يضرب؟ فيكون استفهاماً، وتقول: صاحب مَن يضرب أضرب، فيكون جزاء. فمن بنى هذه المبهمة إذا أضافها إلى مبني، جعل البناء أحد ما يكتسيه من المضاف إليه، ولا يجوز على هذا: جاءني صاحب الخمسة عشر، ولا غلام هذا، لأن هذين من الأسماء غير المبهمة، والمبهمة في إبهامها وبعدها من الاختصاص، كالحروف التي تدل على أمور مبهمة، فلما أُضِيفَتْ إلى المبنية جاز ذلك فيها، والبناء على الفتح في ﴿مِثْلَ﴾ قولُ سيبويه.

والقول الثاني: أن تجعل «ما» مع «مثل» بمنزلة شيء واحد، وبنيته على الفتح، وإن كانت «ما» زائدة. وهذا قول أبي عثمان، وأنشد في ذلك قول الشاعر:

وتداعى مِنْخَراهُ بدَمٍ   مثلَ ما أَثْمَرَ حُمّاضُ الجَبَلِ(١)

فذهب إلى أن «مثل» مع «ما» بمنزلة شيء واحد، وينبغي أن يكون «أثمر» صفة لـ «مثل ما» لأنه لا يخلو من أن يكون صفة له، أو يكون مثلًا مضافاً إلى الفعل فلا تجوز الإضافة، لأنا لم نعلم مثلًا أُضيف إلى الفعل في موضع، فكذلك لا نضيفه في هذا الموضع إلى الفعل، فإذا لم تجز الإضافة كان وصفاً، وإذا كان وصفاً وجب أن يعود منه إلى الموصوف ذكر، فيحذف كما يحذف الذكر العائد من الصفة إلى الموصوف.

وقد يجوز ألا يقدر «مثل» مع «ما» كشيء واحد. ولكن تجعله مضافاً إلى «ما» فيكون التقدير: مثل شيء أثمره حماض الجبل، فبني «مثل» على الفتح لإضافتها إلى «ما» وهو غير متمكن، ولا يكون لأبي عثمان حينئذٍ في البيت حجة على كون «مثل» مع «ما» بمنزلة شيء واحد. ويجوز أن يكون «ما» والفعل بمنزلة المصدر، فيكون كقوله: ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وفي قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

والقول الثالث: هو أن ينصب على الحال من النكرة في النطق، وهو قول أبي عمرو الجرمي. وذو الحال الذكر المرفوع في قوله: ﴿لَحَقٌّ﴾، والعامل في الحال هو الحق، لأنه من المصادر التي وصف بها.

ويجوز أن يكون الحال من النكرة الذي هو حق في قوله: ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾، وإلى هذا ذهب أبو عمرو. ولا يعلم أنه جعله حالًا من الذكر الذي في حق، وهذا لا خلاف في جوازه. وقد حمل أبو الحسن قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۞ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ على الحال، وذو الحال ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وهو نكرة. فهذه وجوه النصب في «مثل ما».

---

(١) الحُمّاض: بقلة بريّة تنبت أيام الربيع في مسائل الماء، ولها ثمرة حمراء، وهي من ذكور البقول.

● **الإعراب:** ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ يجوز أن يكون ﴿قَلِيلًا﴾ خبر كان، وفاعله ﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾ والتقدير: كانوا قليلاً هجوعهم، ويجوز أن يكون ﴿قَلِيلًا﴾ صفة مصدر محذوف على تقدير: كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً، فتكون ﴿مَا﴾ زائدة، و﴿يَهْجَعُونَ﴾ خبر «كان».

و﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ يجوز أن يكون بمعنى الباء، كما يكون الباء بمعنى من في قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أي: منها. فيكون التقدير: كانوا يهجعون بالليل قليلاً. وقيل: إن قوله: ﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾ بمنزلة هجوعهم، وهو بدل من الواو في ﴿كَانُوا﴾ وقوله: ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ في موضع الصفة لقليل، والتقدير: كان هجوعهم قليلاً من الليل.

وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ إن رفعت «آيات» بالابتداء، وجعلت «في الأرض» خبراً، كان الضمير في قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ كالضمير في خبر المبتدأ. وإن قدرت «آيات» مرتفعة بالظرف، كان الضمير في قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ كالضمير في الفعل، كقولهم: قام زيد وقعد، والتقدير: وفي أنفسكم آيات، وكذا قوله فيما بعد: ﴿وَفِي مُوسَى﴾ أي: وفي موسى آيات، وفي هود آيات، وفي ثمود آيات، وفي قوم نوح آيات، وفي عاد آيات.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه ما أعده لأهل الجنة، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ مرَّ تفسيره ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ﴾ أي: ما أعطاهم من الخير والكرامة. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ يعني في دار التكليف ﴿مُحْسِنِينَ﴾ يفعلون الطاعات ويحسنون إلى غيرهم بضروب الإحسان. ثم ذكر إحسانهم في أعمالهم، فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي: كانوا يهجعون قليلاً من الليل يصلون أكثر الليل، عن الزهري وإبراهيم. والهجوع: النوم بالليل دون النهار. وقيل معناه: كانوا قلَّ ليلة تمرُّ بهم إلا صلوا فيها، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام. والمعنى: كان الذي ينامون فيه كله قليلاً، ويكون الليل اسماً للجنس. وقال مجاهد: لا ينامون كل الليل. وقيل: إن الوقف على قوله: ﴿قَلِيلًا﴾ على معنى: كانوا من الناس قليلاً، ثم ابتدأ فقال: ﴿مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ فيكون «ما» بمعنى النفي، عن الضحاك ومقاتل. وهذا على نفي النوم عنهم البتة، أي: كانوا يحيون الليل بالقيام في الصلاة وقراءة القرآن.

وأقول: إن «ما» إذا كان نفياً، لا يتقدم عليه ما كان في حيّزه، إلا أن يتعلق قوله: ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ بفعل محذوف، ويدل عليه قوله: ﴿يَهْجَعُونَ﴾ كما تقوله في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾، ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾: قال الحسن: مدوا الصلاة إلى الأسحار، ثم أخذوا بالأسحار في الاستغفار. وقال أبو عبد الله عليه السلام: كانوا يستغفرون الله في الوتر سبعين مرة في السحر. وقيل إن معناه: وبالأسحار هم يصلون، وذلك أن صلاتهم بالأسحار طلب منهم للمغفرة،عن مجاهد ومقاتل والكلبي.

ثم ذكر سبحانه صدقاتهم، فقال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ والسائل: هو الذي يسأل الناس، والمحروم: هو المحارف[1]، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: المحروم: المتعفف

---

(١) المحارف: المحروم المحدود إذا طلب فلا يُرزق، خلاف مبارك.

الذي لا يسأل، عن قتادة والزهري. وقيل: هو الذي لا سهم له في الغنيمة، عن إبراهيم النخعي. والأصل أن المحروم هو الممنوع الرزق بترك السؤال، أو ذهاب المال، أو خراب الضيعة، أو سقوط السهم من الغنيمة، لأن الإنسان يصير فقيراً بهذه الوجوه. ويريد سبحانه بقوله: ﴿حَقٌّ﴾ ما يلزمهم لزوم الديون من الزكوات وغير ذلك، أو ما ألزموه أنفسهم من مكارم الأخلاق.

قال الشعبي: أعياني أنْ أعلم ما المحروم! وفرَّق قوم بين الفقير والمحروم، بأنه قد يحرمه الناس بترك الإعطاء، وقد يحرم نفسه بترك السؤال، فإذا سأل لا يكون ممن حرم نفسه بترك السؤال، وإنما حرمه الغير، وإذا لم يسأل فقد حرم نفسه ولم يحرمه الناس.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ أي: دلالات بيِّنات وحجج نيِّرات ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ الذين يتحققون توحيد الله. وإنما خص الموقنين لأنهم ينظرون فيها فيحصل لهم العلم بموجبها، وآيات الأرض ما فيها من أنواع المخلوقات من الجبال والبحار والنبات والأشجار، كل ذلك دال على كمال قدرته وحكمته:

وفـــي كُـــلِّ شَـــيْءٍ لـــه آيَـــةٌ   تَـــدُلُّ عـــلى أَنَّـــهُ واحِـــدُ

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: وفي أنفسكم أيضاً آيات دالات على وحدانيته ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفلا ترون أنها مصرفة من حال إلى حال، ومنتقلة من صفة إلى أخرى إذ كنتم نطفاً فصرتم أحياء، ثم كنتم أطفالاً فصرتم شباباً، ثم كهولاً، فهلا دلكم ذلك على أن لها صانعاً صنعها، ومُدَبِّراً دبَّرها، ومُصَرِّفاً صرفها على مقتضى الحكمة. وقيل: إن المراد بذلك اختلاف الألسنة، والصور، والألوان، والطبائع، عن ابن عباس في رواية عطاء. وقيل: يريد سبيل الخلاء والبول، والأكل والشرب، من مدخل واحد، والمخرج من سبيلين. وتم الكلام عند قوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾. ثم عنفهم فقال: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وقيل: يعني أنه خلقك سميعاً بصيراً، تغضب وترضى، وتجوع وتشبع، وذلك كله من آيات الله تعالى، عن الصادق عليه السلام. وقيل: إن المعنى: أفلا تبصرون بقلوبكم نظر من كأنه يرى الحق بعينه.

﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ ينزله الله بأن يرسل الغيث والمطر عليكم، فيخرج به من الأرض أنواع ما تقتاتونه وتلبسونه وتنتفعون به. ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الثواب والعقاب، عن عطاء. وقيل: من الجنة والنار، عن مجاهد والضحاك. وقيل معناه: وفي السماء تقدير رزقكم، أي: ما قسمه لكم مكتوب في أم الكتاب، وجميع ما توعدون في السماء أيضاً، لأن الملائكة تنزل من السماء لقبض الأرواح، ولاستنساخ الأعمال، ولإنزال العذاب. ويوم القيامة للجزاء والحساب، كما قال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾. ثم قال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أقسم سبحانه بنفسه أن ما ذكر من أمر الرزق والآيات حق لا شك فيه، عن الزجاج. وقيل: يعني أن ما قضى في الكتاب كائن، عن الكلبي. ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي: مثل نطقكم الذي تنطقون به، فكما لا تشكون فيما تنطقون، فكذلك لا تشكون في حصول ما وُعِدْتُم به. شبَّه الله تعالى تحقق ما أخبر عنه بتحقيق نطق الآدمي ووجوده، فأراد أنه لحقٌّ كما أن الآدمي

ناطق. وهذا كما تقول: إنه لحق كما أنك هاهنا، وإنه لحق كما أنك تتكلم. والمعنى: إنه في صدقه وتحقق وجوده كالذي تعرفه ضرورة.

●●●

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

● **اللغة:** الروغ: الذهاب إلى الشيء في خفية، يقال: راغ يروغ رَوْغاً ورَوَغاناً، وهو أزوغ من ثعلب. والصرة: شدة الصياح، وهو من صرير الباب. ويقال للجماعة: صرة أيضاً، قال امرؤ القيس:

فألحقنا بالهاديات، ودونه جواحرها في صَرَّةٍ لم تُزَيَّلِ[1]

والصك: الضرب باعتماد شديد، وهو أن تصتك ركبتا الرجل. والعقيم: العاقر، وأصل العقم: الشدّ، وجاء في الحديث: «تعقم أصلاب المشركين فلا يستطيعون السجود» أي: تشدُّ، وداء عقام: إذا اشتد حتى ييئس منه أن يبرأ، ومعاقم الفرس: مفاصله يشدُّ بعضها ببعض، والعقيم والعُقمة: ثياب معلمة، أي: شُدَّت بها الأعلام، وعقمت المرأة فهي معقومة، وعقيم: من نساء عقم وعَقُمت أيضاً. ورجل عقيم من قوم عقمى. قال الشاعر:

عَقُمَ النساءُ فما يلدن شبيهَهُ إن النساء بِمِثْلِهِ عُقُم

والريح العقيم: التي لا تنشىء السحاب الممطر. والملك عقيم: يقطع الولادة، لأن الأب يقتل الابن على الملك. والخطاب: الأمر الجليل، ومنه الخطبة، لأنها كلام بليغ لعقد أمر جليل، يستفتح بالتحميد والتمجيد، والخطاب أجلُّ من الإبلاغ.

● **المعنى:** لما قدَّم سبحانه الوعد والوعيد، عقَّب ذلك بذكر بشارة إبراهيم، ومهلك قوم لوط، تخويفاً للكفار أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك، فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ يا محمد، وهذا اللفظ يستعمل إذا أخبر الإنسان بخبر ماض، فيقال: هل أتاك خبر كذا؟ إن علم أنه لم يأته،

---

(١) الهاديات: المتقدمات. والجواحر: المتخلفات. ولم تزيل: لم تتفرق.

﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ عند الله، وذلك أنهم كانوا ملائكة كراماً. ونظيره قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾. وقيل: أكرمهم إبراهيم فرفع مجالسهم، وخدمهم بنفسه، عن مجاهد[١]. لأن أضياف الكرام مُكرَّمون. وكان إبراهيم أكرم الناس وأظهرهم فتوة، وسماهم ضيفاً من غير أن يأكلوا من طعامه، لأنهم دخلوا مدخل الأضياف. واختلف في عددهم، فقيل: كانوا اثني عشر ملكاً، عن ابن عباس ومقاتل. وقيل: كان جبرائيل ومعه سبعة أملاك، عن محمد بن كعب. وقيل: كانوا ثلاثة: جبرائيل وميكائيل ومَلَكٌ آخر. ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَٰمًا﴾ أي: حين دخلوا على إبراهيم فقالوا له على وجه التحية: سلاماً، أي: أسلم سلاماً، فقال لهم جواباً عن ذلك: سلام﴿سَلَٰمٌ﴾. وقرىء: «سلِمٌ»، وهذا مفسَّر في سورة هود ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: قال في نفسه: هؤلاء قوم لا نعرفهم، وذلك أنه ظنهم من الإنس ولم يعرفهم، عن ابن عباس. والإنكار: نفي صحة الأمر، ونقيضه: الإقرار والاعتراف. ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي: ذهب إليهم خفياً، وإنما راغ مخافة أن يمنعوه من تكلف مأكول كعادة الظرفاء، ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ وكان مشوياً، لقوله في آية أخرى: ﴿حَنِيذٍ﴾. قال قتادة: وكان عامة مال إبراهيم عليه السلام البقر. ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ ليأكلوا، فلما رآهم لا يأكلون عرض عليهم ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وفي الكلام حذف كما ترى. ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: فلما امتنعوا من الأكل أوجس منهم خيفة، والمعنى: خاف منهم، وظن أنهم يريدون به سوءاً ﴿قَالُوا﴾ أي: قالت الملائكة ﴿لَا تَخَفْ﴾ يا إبراهيم ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أن يكون عالماً إذا كبر وبلغ، والغلام المبشر به هو إسماعيل، عن مجاهد. وقيل: هو إسحاق لأنه من سارة، وهذه القصة لها عن أكثر المفسرين، وهذا كله مفسر فيما مضى. ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي: فلما سمعت البشارة امرأته سارة أقبلت في ضجة، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. وقيل: في جماعة، عن الصادق عليه السلام. وقيل: في رفقة[٢]، عن سفيان. والمعنى: أخذت تصيح وتولول كما قالت: يا ويلتي. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي همعت أصابعها فضربت جبينها تعجباً، عن مقاتل والكلبي. وقيل: لطمت وجهها، عن ابن عباس. والصك: ضرب الشيء بالشيء العريض. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أنا عجوز عاقر فكيف ألد؟ ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي: كما قلنا لك قال ربك أنك ستلدين غلاماً فلا تشكّي فيه، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بخفايا الأمور.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام لهم ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: فما شأنكم؟ ولأي أمر جئتم؟ ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وكأنه قال: قد جئتم لأمر عظيم فما هو؟ ﴿قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي: عاصين لله كافرين لنعمه، استحقوا العذاب والهلاك. وأصل الجرم: القطع، فالمجرم القاطع للواجب بالباطل، فهؤلاء أجرموا بأن قطعوا الإيمان بالكفر. ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ هذا مُفسَّر في سورة هود. ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: للمكثرين من المعاصي المتجاوزين الحد فيها. وقيل: أُرسِلَت الحجارة على الغائبين، وقلبت القرية بالحاضرين. ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي: في قوم لوط ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ الآية. وذلك أن الله تعالى

---

(١) [قيل].
(٢) وفي نسختين: في رنة.

أمر لوطاً بأن يخرج هو ومن معه من المؤمنين لئلا يصيبهم العذاب. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: غير أهل بيت من المسلمين، يعني لوطاً وبنتيه، وصفهم الله بالإيمان والإسلام جميعاً، لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم. والإيمان: هو التصديق بجميع ما أوجب الله التصديق به، والإسلام: هو الاستسلام لوجوب عمل الفرض الذي أوجبه الله وألزمه، ووجدان الضالة: هو إدراكها بعد طلبها. ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ أي: وأبقينا في مدينة قوم لوط ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامة ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: تدلهم على أن الله أهلكهم فيخافون مثل عذابهم، والترك في الأصل ضد الفعل، ينافي الأخذ في محل القدرة عليه، والقدرة عليه قدرة على الأخذ، وعلى هذا فالترك غير داخل في أفعال الله تعالى. فالمعنى هنا: إنا أبقينا فيها عبرة، ومثله قوله: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ وقيل: إنه الانقلاب، لأن اقتلاع البلدان لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ
سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ
قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا
ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ
﴿٤٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ الكسائي: «والصعقة»، والباقون «الصاعقة» بالألف. وقرأ أبو عمرو وأهل الكوفة غير عاصم: «وقومِ نوح» بالجر، والباقون: «قومَ نوح» بالنصب.

● **الحجة:** قال أبو علي: قال أبو زيد: الصاعقة التي تقع من السماء، والصاقعة التي تصقع الرؤوس. وقال الأصمعي: الصاعقة والصاقعة سواء، وأنشد الأصمعي:

يَحْكُونَ بالمَصْقُولَةِ القواطعِ   تَشَقُّقَ البَرْقِ من الصَّوَاقِعِ

وأما الصعقة فقيل: إنها مثل الزجرة، وهو الصوت الذي يكون عن الصاعقة، قال بعض الرجاز:

لاحَ سحابٌ فرأينا برقَهُ   ثم تدانى فسمعنا صَعْقَهُ

ومن جرّ «قوم نوح» حمله على قوله: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ أي: وفي قوم نوح، وقوله: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ﴾ عطف على أحد شيئين: إما أن يكون على ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾، أو على قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ أي: وفي إرسال موسى آيات واضحة، وفي قوم نوح آية. ومن نصب فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ جاز في نصبه أيضاً أمران كلاهما حمل على المعنى.

أحدهما: إن قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ يدل على أهلكناهم، فكأنه قال: وأهلكنا قوم نوح.
والآخر: إن قوله: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ يدل على أغرقناهم، فكأنه قال: أغرقناهم وأغرقنا قوم نوح.

● **اللغة**: الركن: الجانب الذي يعتمد عليه، يقال: ركِن يركن، وركَن يَرْكُن أيضاً، مثل نصر ينصر. والمُليم: الذي أتى بما يلام عليه، والملوم: الذي وقع به اللوم، وفي المثل: «رب لائم مليم، ورب ملوم لا ذنب له». والعتوّ والتجبُّر والتكبُّر واحد. وجمع الريح: أرواح ورياح، ومنه: راح الرجل إلى منزله، أي: رجع كالريح. والرميم: الذي انتفى رَمُّه بانتفاء ملاءمة بعضه لبعض، وأما رمَّه يُرِمّه رمّاً والشيء مرموم، أي: مصلح بملاءمة بعضه لبعض، وأصل الرميم: السحيق البالي من العظم.

● **المعنى**: ثم بيَّن سبحانه ما نزل بالأُمم، فقال: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ أي: وفي موسى أيضاً آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة ظاهرة وهي العصا، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: فأعرض فرعون عن قبول الحق بما كان يتقوى به من جنده وقومه، كالركن الذي يقوى به البنيان. والباء في قوله: ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ للتعدية، أي: جعلهم يتولون. ﴿وَقَالَ﴾ لموسى ﴿سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: هو ساحر أو مجنون. وفي ذلك دلالة على جهل فرعون، لأن الساحر هو اللطيف الحيلة، وذلك ينافي صفة المجنون المختلط العقل، فكيف يوصف شخص واحد بهاتين الصفتين؟ ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: فطرحناهم في البحر، كما يلقى الشيء في البر، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أتى بما يلام عليه من الكفر والجحود والعتوّ.

﴿وَفِى عَادٍ﴾ عطف على ما تقدم، أي: وفي عاد أيضاً آية، أي: دلالة فيها عظة وعبرة. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ أي: حين أطلقنا عليهم ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وهي التي عقمت عن أن تأتي بخير من تنشئة سحاب، أو تلقيح شجر، أو تذرية طعام، أو نفع حيوان، فهي كالمرأة الممنوعة عن الولادة، إذ هي ريح الإهلاك. ثم وصفها فقال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: لم تترك هذه الريح شيئاً تمر عليه ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي: كالشيء الهالك البالي، وهو نبات الأرض إذا يبس وديس. وقيل: الرميم العظم البالي السحيق.

﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ أيضاً آية ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟﴾ وذلك أنهم لما عقروا الناقة قال لهم صالح: تمتعوا ثلاثة أيام، وهو قوله: ﴿تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: فخرجوا عن أمر ربهم ترفعاً عنه واستكباراً. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ بعد مضي الأيام الثلاثة، وهو الموت، عن ابن عباس. وقيل: هو العذاب، والصاعقة: كل عذاب مهلك، عن مقاتل ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها جهاراً لا يقدرون على دفعها ﴿فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ أي: من نهوض. والمعنى: إنهم لم ينهضوا من تلك الصَّرعة ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ممتنعين من العذاب. وقيل معناه: ما كانوا طالبين ناصراً يمنعهم من عذاب الله.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح من ﴿قَبْلُ﴾ أي: من قبل عاد وثمود، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله إلى معاصيه، وعن الإيمان إلى الكفر، فاستحقوا لذلك الإهلاك.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة يحيى والأعمش: «ذو القوة المتين» بالخفض.

● **الحجة:** قال ابن جني: هذا يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون وصفاً للقوة، وذكره على معنى الحبل، يريد قويَ الحبل كقوله: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾.

والآخر: أن يكون المراد الرفع وصفاً للرزاق، إلا أنه جاء على لفظ القوة لجوارها إياه على قولهم: «هذا جحُر ضبٍّ خربٍ» فهذا ضعيف.

● **اللغة:** الأيد: القوة، يقال: آد الرجل يئيد أيْداً: إذا اشتد وقوي، والمؤيد: الأمر العظيم. والإيساع: الإكثار من إذهاب الشيء في الجهات. والماهد: هو الموطىء للشيء وهو المهيِّىء لما يصلح الاستقرار عليه. يقال: مهَد مهْداً ومهَّد تمهيداً، مثل وطَّأ توطئة. والتواصي: أن يوصيَ القوم بعضهم إلى بعض، والوصيَّة: التقدمة في الأمر بالأشياء المهمة مع النهي عن المخالفة. وأصل الذنوب: الدلو الممتلىء ماء، يؤنث ويذكر، قال:

لـنـا ذنـوبٌ، ولـكـم ذنـوبُ، فـإن أبَـيْـتُـمْ فَـلَـنـا الـقَـلـيـبُ(١)

وقال علقمة:

وفي كل حَيٍّ قد خَبَطْتَ بنعمةٍ فَحَقَّ لِشاسٍ مِنْ نَداكَ ذَنُوبُ(٢)

● **المعنى:** ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ﴾ تقديره: وبنينا السماء بنيناها بقوة، عن ابن عباس ومجاهد وابن زيد وقتادة، أي: خلقناها ورفعناها على حسن نظامها. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: قادرون على خلق ما هو أعظم منها، عن ابن عباس. وقيل معناه: وإنا لموسعون الرزق على الخلق بالمطر، عن الحسن. وقيل معناه: وإنا لذو سعة لخلقنا، أي: قادرون على رزقهم لا نعجز عنه،

---

(١) يقسم الماء ويقول: لنا دلو منه، ولكم دلو، فإن لم ترضوا بالقسمة، فنقهركم نملك الماء نحن فقط.

(٢) خبط زيد عمراً بخير: أعطاه من غير معرفة بينهما. وشاس: أخو الشاعر.

فالموسع: ذو الوسع والسعة، أي: الغنى والجدة. ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ أي: وفرشنا الأرض فرشناها، أي: بسطناها، ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ نحن إذ فعلنا ذلك للمنافع ومصالح العباد، لا لجر نفع ولا لدفع ضرر. ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ أي: وخلقنا من كل شيء صنفين، مثل الليل والنهار، والأرض والسماء، والشمس والقمر، والجن والإنس، والبر والبحر، والنور والظلمة، عن الحسن ومجاهد. وقيل: الزوجين، الذكر والأنثى، عن ابن زيد. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي تعلموا أن خالق الأزواج واحد فرد لا يشبهه شيء. ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فاهربوا من عقاب الله إلى رحمته وثوابه بإخلاص العبادة له. وقيل: ففروا إلى الله بترك جميع ما يشغلكم عن طاعته، ويقطعكم عما أمركم به. وقيل معناه: حجوا، عن الصادق عليه السلام. ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ﴾ أي: من الله ﴿نَذِيرٞ﴾ مُخوِّف من عقابه ﴿مُّبِينٞ﴾ لكم ما أرسلت به. ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: لا تعبدوا معه معبوداً آخر من الأصنام والأوثان، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ والوجه في تكريره أن الثاني منعقد بغير ما انعقد به الأول، إذ تقديره: إني لكم منه نذير في الامتناع من جعل إله آخر معه، وتقدير الأول: إني لكم منه نذير في ترك الفرار إليه بطاعته، فهو كقولك: أُنذِرك أن تكفر بالله، أُنذِرك أن تتعرض لسخط الله. والنذير: المخبر بما يحذر منه، وهو يقتضي المبالغة، والمنذر صفة جارية على الفعل، والمبين الذي يأتي ببيان الحق من الباطل.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر كذلك وهو أنه ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ أي: لم يأتِ الذين من قبلهم ـ يعني كفار مكة من الأمم ـ رسول، إلا قالوا: ساحر محتال بالحيل اللطيفة، أو مجنون به جنون فهو مغطى على عقله، بما لا يتوجه للإدراك به. ثم قال سبحانه: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ﴾ أي: أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب، والاستفهام للتوبيخ. ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ معناه: لم يتواصوا بذلك، لكنهم طاغون طغوا في معصية الله، وحملهم الطغيان فيما أعطيتهم ووسعت عليهم على تكذيب أنبيائي. ثم قال للنبي صلى الله عليه وآله: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ أي: فأعرض عنهم يا محمد، فقد بلّغت وأنذرت، وهو قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ أي: في كفرهم وجحودهم، بل اللائمة والذم عليهم من حيث لا يقبلون ما تدعوهم إليه. قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية حزن رسول الله صلى الله عليه وآله والمؤمنون، وظنوا أن الوحي قد انقطع، وأن العذاب قد حل، حتى نزلت الآية الثانية. وروي بالإسناد عن مجاهد قال: خرج علي بن أبي طالب عليه السلام مغتماً مشتملاً في قميصه، فقال: لما نزلت ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ لم يبق أحد منا إلا أيقن بالهلكة حين قيل للنبي صلى الله عليه وآله: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾. فلما نزل ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ طابت نفوسنا، ومعناه: عِظ بالقرآن من آمن من قومك، فإن الذكرى تنفعهم، عن الكلبي. ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ أي: لم أخلق الجن والإنس إلا لعبادتي، والمعنى: لعبادتهم إياي، عن الربيع. فإذا عبدوني استحقوا الثواب. وقيل: إلا لآمرهم وأنهاهم وأطلب منهم العبادة، عن مجاهد. واللام لام الغرض، والمراد: إن الغرض في خلقهم تعريضهم للثواب، وذلك لا يحصل إلا بأداء العبادات، فصار كأنه سبحانه خلقهم للعبادة. ثم إنه إذا لم يعبده قوم لم يبطل الغرض، ويكون كمن هيأ طعاماً لقوم ودعاهم ليأكلوه، فحضروا ولم يأكله بعضهم، فإنه لا ينسب إلى السفه ويصح غرضه، فإن الأكل موقوف على اختيار الغير، وكذلك المسألة، فإن الله

إذا أزاح علل المُكَلّفين من القدرة، والآلة، والألطاف، وأمرهم بعبادته، فمن خالف فقد أُتِيَ من قبل نفسه، لا من قبله سبحانه. وقيل معناه: إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً، عن ابن عباس ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ هذا نفي الإبهام عن خلقهم لعبادته أن يكون ذلك لعائدة نفع يعود عليه تعالى، فبين أنه لعائدة النفع على الخلق دونه تعالى، لاستحالة النفع عليه، لأنه غني لنفسه فلا يحتاج إلى غيره، وكل الخلق يحتاج إليه. وقيل معناه: ما أريد أن يرزقوا أحداً من خلقي ولا أن يرزقوا أنفسهم، وما أريد أن يطعموا أحداً من خلقي، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه، لأن الخلق كلهم عيال الله، ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ لعباده وللخلائق كلهم، فلا يحتاج إلى معين، ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ﴾ أي: ذو القدرة ﴿ٱلۡمَتِينُ﴾ أي: القوي الذي يستحيل عليه العجز والضعف، إذ هو القادر لنفسه. يقال: مَتُن متانة فهو متين: إذا قوى ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾ أي: نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم الذين هلكوا، نحو قوم نوح وعاد وثمود، ﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ بإنزال العذاب عليهم، فإنهم لا يفوتون. ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ هذا يدل على أنهم أُخِّرُوا إلى يوم القيامة، والويل: كلمة تقولها العرب لكل من وقع في الهلكة.

● **النظم:** وجه اتصال قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ بما قبله هو أنه في قوم نوح آية، وفي السماء آية، فهو متصل به في المعنى.

سُورَةُ الطُّورِ

مكية/آياتها (٤٩)

● **عدد آيها:** تسع وأربعون آية كوفي شامي، وثمان بصري، وسبع حجازي.

● **اختلافها:** آيتان: ﴿وَالطُّورِ﴾ عراقي شامي ﴿دَعًّا﴾ كوفي شامي.

● **فضلها:** أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «ومن قرأ سورة والطور[(١)]، كان حقاً على الله أن يأمنه من عذابه، وأن ينعمه في جنته». وعن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بالطور في المغرب. وروى محمد بن هشام عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ سورة الطور، جمع الله له خير الدنيا والآخرة.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سورة الذاريات بالوعيد، افتتح هذه السورة بوقوع الوعيد، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾
يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ
فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا
تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ
عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

● **اللغة:** قال المبرد: يقال لكل جبل: طور، فإذا دخلت الألف واللام للمعرفة، فهو لشيء بعينه. والرق: جلد يكتب فيه، وأصله من اللمعان، يقال: ترقرق الشيء إذا لمع، والرقراق: ترقرق السراب. والمسجور: المملوء، يقال: سَجرت التنور. أي: ملأتها ناراً، وعين سَجْراء: ممتلئة فيها حمرة كأنها احمرت مما هو حولها، كالسجار للتنور، قال لبيد:

فتوسَّطا عرضَ السَّريِّ فصدَّعا ... مَسْجُورةً متجاوراً قُلاَّمُها[(٢)]

---

(١) وفي بعض النسخ: سورة الطور.

(٢) مر البيت في ج٦.

والمور: تردد الشيء بالذهاب والمجيء، كما يتردد الدخان ثم يضمحل، مار ممور موراً فهو مائر، وروي بيت الأعشى:

كأن مِشيتها مِنْ بَيْتِ جارتِها مَوْرُ السحابةِ لا ريثُ ولا عجَلُ

وقيل: مرُّ السحابة. والخوض: الدخول في الماء بالقدم، وشُبِّه به الدخول في القول. والدعُّ: الدفع، يقال: دَعَّه يدعُّه دعاً، وصكّه صكاً مثله.

● **الإعراب:** ﴿وَالطُّورِ﴾ الواو للقسم، وما بعده عطف عليه، والعامل في قوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾. قوله: ﴿وَاقِعٌ﴾ أي: يقع في ذلك اليوم، ويجوز أن يكون ﴿يَوْمَ﴾. هاهنا على تقدير: إذا، ويكون العامل فيه جوابه، وهو الفاء وما بعده من قوله: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، كما جاء ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾. وقوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ بدل من قوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ﴾، وإن شئت كان التقدير فيه: يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً، يقال لهم: هذه النار التي كنتم بها تكذبون، فيعمل فيه يُقال ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ مبتدأ وخبر ﴿أَمْ أَنْتُمْ﴾ أي: بل أنتم لا تبصرون.

● **المعنى:** ﴿وَالطُّورِ﴾ أقسم الله سبحانه بالجبل الذي كلّم عليه موسى عليه السلام بالأرض المقدسة، عن الجبائي وجماعة من المفسرين. وقيل: هو الجبل أقسم به لما أودع فيه من أنواع نعمه، عن مجاهد والكلبي. ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ أي: مكتوب وهو الكتاب الذي كتبه الله لملائكته في السماء، يقرأون فيه ما كان وما يكون، وقيل: هو القرآن مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، وهو الرق المنشور. وقيل: صحائف الأعمال التي تخرج إلى بني آدم يوم القيامة، فمنهم آخذ كتابه بيمينه وآخذ بشماله، وهذا كقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ عن الفراء، وقيل: هو التوراة كتبها الله لموسى فخص الطور بالذكر لبركتها، وكثرة منافعها في الدنيا، وذكر الكتاب لعظم موقعها من الدين، عن الكلبي. وقيل: إنه القرآن يكتبه المؤمنون ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ أي: وينشرونه لقراءته، والرق: ما يكتب فيه، وقيل: الرق هو الورق، عن أبي عبيدة. وقيل: إنما ذكر الرق لأنه من أحسن ما يكتب فيه، وإذا كتبت الحكمة فيما هو على هذه الصفة كان أبهى، والمنشور: المبسوط. ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ وهو بيت في السماء الرابعة بحال الكعبة، تعمره الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة، عن ابن عباس ومجاهد. وروي أيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ويدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك، ثم لا يعودون إليه أبداً. وروى عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «البيت المعمور في السماء الدنيا، وفي السماء الرابعة نهر يقال له: الحيران، يدخل فيه جبريل كل يوم طلعت فيه الشمس، وإذا خرج انتفض انتفاضة جرت منه(١) سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة مَلَكاً يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور فيصلون فيه، فيفعلون، ثم لا يعودون إليه أبداً». وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «البيت الذي في السماء الدنيا يقال له: الضراح، وهو بفناء

---

(١) وفي المخطوطة: عنه.

البيت الحرام لو سقط سقط عليه، يدخله كل يوم ألف[1] مَلَك لا يعودون إليه[2] أبداً». وقيل: البيت المعمور: هو الكعبة البيت الحرام، معمور بالحج والعمرة، عن الحسن، وهو أول مسجد وضع للعبادة في الأرض. ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ هو السماء، عن علي عليه السلام ومجاهد وقتادة وابن زيد، قالوا: هي كالسقف للأرض رفعها الله. ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ أي: المملوء، عن قتادة، وقيل: هو الموقد المحمى بمنزلة التنور، عن مجاهد والضحاك والأخفش وابن زيد. ثم قيل: إنه تحمي البحار يوم القيامة فتجعل نيراناً. ثم تفجر بعضها في بعض، ثم تفجر إلى النار، ورد به الحديث. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا جواب القسم، أقسم الله بهذه الأشياء للتنبيه على ما فيها من عظيم القدرة على أن تعذيب المشركين حق واقع لا محالة. ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ يدفع عنهم ذلك العذاب.

ثم بيّن سبحانه أنه متى يقع فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ أي: تدور دوراناً وتضطرب وتموج وتتحرك وتستدير كل هذه من عبارات المفسرين، ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي: تسير الجبال وتزول من أماكنها حتى تستوي بالأرض؛ ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة، والتقدير: إذا كان هذا فويل لمن يكذّب الله ورسوله، ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ﴾ أي: في حديث باطل يخوضون، وهو الحديث الذي كان يخوض فيه الكفار، من إنكار البعث وتكذيب النبي صلى الله عليه وآله، ﴿يَلْعَبُونَ﴾ أي: يلهون بذكره ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أي: يدفعون ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي: دفعاً بعنف وجفوة. قال مقاتل: هو أن تغل أيديهم إلى أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يدفعون إلى جهنم دفعاً على وجوههم، حتى إذا دنوا قال لهم خزنتها: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا، ثم وبّخوهم[3] لما عاينوا بما كانوا يكذبون به، وهو قوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ الذي ترون أنتم ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾؛ وذلك أنهم كانوا ينسبون محمداً صلى الله عليه وآله إلى السحر، وإلى أنه يغطي على الأبصار بالسحر، فلما شاهدوا ما وعدوا به من العذاب وبخوا بهذا. ثم قال لهم: ﴿اصْلَوْهَا﴾ أي: قاسوا شدتها ﴿فَاصْبِرُوا﴾ على العذاب ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ عليه ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ الصبر والجزع، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من المعاصي بكفركم، وتكذيبكم الرسول.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ

(١) في نسخة: سبعون ألف ملك.

(٢) في بعض النسخ: فيه.

(٣) وفي بعض النسخ: وبّخهم.

مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ
لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ
أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ
نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

القراءة: قرأ أبو عمرو: «وأتبعناهم» بالنون والألف وقطع الهمزة، «ذرياتهم» بالألف وكسر التاء و«ألحقنا بهم ذرياتهم» كذلك. وقرأ أهل المدينة: «وأتبعتهم» بالتاء ووصل الهمزة، «ذريتهم» بالرفع «ألحقنا بهم ذرياتهم» على الجمع. وقرأ ابن كثير، وأهل الكوفة: و«أتبعتهم ذريتهم» «ألحقنا بهم ذريتهم» كذلك، وقرأ ابن عامر ويعقوب وسهل: «اتبعتهم ذرياتهم» جمع(١)، «ألحقنا بهم ذرياتهم» أيضاً. وقرأ ابن كثير: «وما ألِتناهم» بكسر اللام، والباقون «وألتناهم» بفتح اللام. وقرأ أهل المدينة والكسائي: «أنه هو البر الرحيم» بالفتح، والباقون «إنه» بالكسر. وفي الشواذ قراءة عبد الله وإبراهيم: «وزوجناهم بعيس عين». وقراءة الأعرج «وما ألتّاهم» على أفعلناهم.

● **الحجة:** قال أبو علي: الذرية: تقع على الصغير والكبير، فالأول نحو قوله ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾، والثاني نحو قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ فإن حملت الذرية في الآية على الصغار، كان قوله: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ في موضع نصب على الحال من المفعولين، أي: اتبعتهم بإيمان من الآباء ذريتهم ألحقنا الذرية بهم في أحكام الإسلام، فجعلناهم في حكمهم في أنهم يرثون ويورثون، ويدفنون في مقابر المسلمين، وحكمهم حكم الآباء في أحكامهم، إلا فيما كان موضوعاً عن الصغير لصغره.

وإن جعلت الذرية للكبار كان قوله ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حالًا من الفاعلين الذين هم ذريتهم، أي: ألحقنا بهم ذريتهم في أحكام الدنيا، والثواب في الآخرة. ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم﴾ أي: من جزاء عملهم من شيء، كما قال: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ وكما قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

ومن قرأ «ذريتهم» فأفرد؛ فلأن الذرية تقع على الكثرة، فاستغنى بذلك عن جمعه، وكذا القول في ﴿بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في أنه أفرد: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وألحق التاء في ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ لتأنيث الاسم. ومن جَمَعَه فلأن المجموع قد يجمع، نحو: أقوام، وطرقات، وفي الحديث: «إنكنَّ صواحبات يوسف».

ومن قرأ «ألِتناهم» بكسر اللام، فيشبه أن يكون فعِلنا لغة، كما قالوا: نقَم ينقِم نقِم ينقَم. ومن قرأ «ندعوه أنه» بالفتح، فالمعنى: لأنه هو البر الرحيم. ومن كسر قطع الكلام عما قبله واستأنف. قال ابن جني: المرأة العيساء البيضاء، ومثله جمل أعيس، وناقة عيساء. قال: كأنها

---

(١) ليس في بعضها لفظة جمع.

البكرة العيساء. ويقال: ألته يألته ألتاً، وآلته يؤلته إيلاتاً، ولاته يليته ليتاً وولته يلته ولتاً، أي: نقصه. قال الحطيئة:

أبلغ لديكَ بني سَعْدٍ مُغَلْغَلة جهدَ الرسالةِ لا أَلْتاً ولا كَذِبا

● **المعنى:** لما تقدم وعيد الكفار، عقَّبه سبحانه بالوعد للمؤمنين. فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يجتنبون معاصي الله خوفاً من عقابه ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ أي: في بساتين تجنُها الأشجار، ﴿وَنَعِيمٍ﴾ أي: وفي نعيم ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: منعمين بما أعطاهم ربهم من أنواع النعيم. وقيل: فاكهين معجبين بما آتاهم ربهم، عن الزجاج والفراء. ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾ أي: وصرف عنهم ﴿رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾. ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أي: يقال لهم: كلوا واشربوا ﴿هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أكلًا وشرباً هنيئاً، مأمون العاقبة من التخمة والسقم. ثم ذكر حالهم في الأكل والشرب فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ والسرر: جمع سرير، والمصفوفة: المصطفة الموصول بعضها ببعض. وقيل: إن في الكلام حذفاً تقديره: متكئين على نمارق موضوعة على سرر، لكنه حذف لأن اللفظ يدل عليه، من حيث أن الاتكاء جلسة راحة ودعة، ولا يكون ذلك إلا على الوسائد والنمارق. ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ فالحور: البيض النقيات في حسن وكمال، والعين: الواسعات الأعين في صفار وبهاء، ومعناه قرنّا هؤلاء المتقين بحور عين على وجه التمتيع لهم والتنعيم. وعن زيد بن أرقم قال: «جاء رجل من أهل الكتاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا قاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون، فقال: والذي نفسي بيده إن الرجل منهم ليؤتى قوة مائة رجل على الأكل، والشرب، والجماع. قال: فإن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة؟ فقال: عرق يفيض مثل ريح المسك، فإذا كان ذلك ضمر بطنه».

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يعني بالذرية أولادهم الصغار والكبار، لأن الكبار يتبعون الآباء بإيمان منهم، والصغار يتبعون الآباء بإيمان من الآباء. فالولد يحكم له بالإسلام تبعاً لوالده، واتبع: بمعنى تبع. ومن قرأ «وأتبعناهم» فهو منقول من تبع، ويتعدى إلى المفعولين.

وقيل: الإتباع إلحاق الثاني بالأول في معنى يكون الأول عليه، لأنه لو ألحق به من غير أن يكون في معنى هو عليه، لم يكن اتباعاً وكان إلحاقاً. والمعنى: إنا نلحق الأولاد بالآباء في الجنة والدرجة من أجل إيمان الآباء، لتقرّ أعين الآباء باجتماعهم معهم في الجنة كما كانت تقر بهم في الدنيا، عن ابن عباس والضحاك وابن زيد. وفي رواية أخرى، عن ابن عباس: إنهم البالغون أُلحِقُوا بدرجات آبائهم وإن قصرت أعمالهم تكرمة لآبائهم، فإن قيل: كيف يلحقون بهم في الثواب ولم يستحقوه؟ فالجواب: إنهم يلحقون بهم في الجمع لا في الثواب والمرتبة.

وروى زاذان عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة»، ثم قرأ هذه الآية. وروي عن الصادق قال: أطفال المؤمنين يهدون إلى آبائهم يوم القيامة. ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: لم ننقص الآباء من الثواب حين ألحقنا بهم ذرياتهم، عن ابن عباس ومجاهد، وتم الكلام.

ثم ذكر سبحانه أهل النار فقال ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: كل امرىء كافر مرتهن في النار بما كسب، أي: عمل من الشرك، عن مقاتل. والمؤمن من لا يكون[1] مرتهناً لقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ ،فاستثنى المؤمنين. وقيل: معناه كل إنسان مُعامَل بما يستحقه، ويجازى بحسب ما عمله، إن عمل طاعة أُثِيبَ وإن عمل معصية عوقب، ولا يؤاخذ أحد بذنب غيره.

ثم ذكر سبحانه ما يزيدهم من الخير والنعمة فقال: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ أي: أعطيناهم حالًا بعد حال، فإن الإمداد هو الإتيان بالشيء، والفاكهة: جنس الثمار، ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: وأعطيناهم وأمددناهم بلحم من الجنس الذي يشتهونه. ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتعاطون كأس الخمر، ثم وصف الكأس فقال: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: لا يجزي بينهم باطل لأن اللغو ما يلغى، ولا ما فيه إثم، كما يجري في الدنيا بين شرب الخمر. والتأثيم: تفعيل من الإثم، يقال: أَثَّمَهُ إذا جعله ذا إثم، يعني أن تلك الكأس لا تجعلهم آثمين. وقيل: معناه لا يتسابون عليها، ولا يؤثم بعضهم بعضاً، عن مجاهد. ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمة ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ في الحسن، والصباحة، والصفاء، والبياض، والمكنون: المصون المخزون. وقيل: إنه ليس على الغلمان مشقة في خدمة أهل الجنة، بل لهم في ذلك اللذة والسرور، إذ ليست تلك الدار دار محنة. وذكر عن الحسن أنه قال: قيل: يا رسول الله، الخادم كاللؤلؤ فكيف المخدوم؟ فقال: «والذي نفسي بيده إن فضل المخدوم على الخادم، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: يتذاكرون ما كانوا فيه من التعب، والخوف في الدنيا، عن ابن عباس. وهو قوله ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين في دار الدنيا من العذاب ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: عذاب جهنم، والسموم: من أسماء جهنم، عن الحسن. وقيل: إن المعنى يسأل بعضهم بعضاً عما فعلوه في الدنيا فاستحقوا به المصير إلى الثواب، والكون في الجنان، فيقولون: إنا كنا في دار التكليف مشفقين، أي: خائفين رقيقي القلب. فإن الإشفاق: رقة القلب عما يكون من الخوف على الشيء، والشفقة: نقيض الغلظة، وأصله: الضعف من قولهم ثوب شفيق، أي: ضعيف النسج. ومنه الشفق للحمرة عند غروب الشمس، لأنها حمرة ضعيفة. وقوله: ﴿فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ يريد فيمن يختص به ممن هو أولى بنا، والأهل: هو المختص بغيره من جهة ما هو أولى به، والسموم: الحر الذي يدخل في مسام البدن يتألم به، وأصله من السَّم الذي هو مخرج النفس. فكل خرق سَم، أو من السم الذي يقتل. قال الزجاج: يريد عذاب سموم جهنم، وهو ما يوجد من لفحها وحرها. ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ أي: ندعو الله تعالى ونوحِّده ونعبده. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ أي: اللطيف، وأصله اللطف مع عظم الشأن، ومنه البرَّة للطفها مع عظم النفع بها. وقيل: البر الصادق فيما وعده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده.

●●●

(١) . وفي بعض النسخ: والمؤمن لا يكون.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: «المسيطرون» بالسين، وفي الغاشية «بمصيطر» بالصاد. وقرأ ابن عامر كليهما بالسين. وقرأ بإشمام الراء(١) فيهما حمزة إلا العجلي فإنه قرأ بالصاد فيهما. وقرأ الباقون بالصاد فيهما.

● **الحجة:** قال أبو عبيدة: المسيطرون: الأرباب، يقال: تسيطرتَ عليّ: اتخذتني خولاً. والأصل السين، وكل سين بعده طاء، يجوز أن تقلب صاداً، تقول: صطر وسطر. وقد مر بيانه في سورة الفاتحة.

● **اللغة:** الكاهن: الذي يذكر أنه يخبر عن الحق على طريق العزائم، والكهانة: صنعة الكاهن. والمنون: المنية، وريبها: الحوادث التي تريب عند مجيئها. قال:

تربص بها ريبَ المَنُونِ لعلّها ... سَيَهْلِكُ عنها بَعْلُها، أو سَيَجْنَح(٢)

والتربّص: انتظار بالشيء من انقلاب حال له إلى خلافها، والأحلام: جمع الحُلُم، وهو الإمهال الذي يدعو إليها العقل والحكمة. والمسيطر: الملزم غيره أمراً من الأمور قهراً، مأخوذ من السطر. والمثقل: المحمول عليه ما يشق حمله.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمد أي: فعظ هؤلاء المُكلَّفين، ولا تترك دعوتهم وإن أساءوا قولهم فيك ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: بإنعام ربك عليك بالنبوة وهذا قسم، ﴿بِكَاهِنٍ﴾ وهو الذي يوهم أنه يعلم الغيب بطريق خدمة الجن. ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وهو المُؤوف بما يغطي على عقله، وقد علم الكفار أنه ﷺ ليس بكاهن ولا مجنون، لكن قالوا ذلك على جهة التكذيب عليه، ليستريحوا إلى ذلك، كما يستريح السفهاء إلى التكذيب على أعدائهم. ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي: بل يقولون هو ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي: ننتظر به

---

(١) وفي نسخة: الزاء.

(٢) أي: انتظر بها حوادث الدهر، فإما يهلك بعلها، أو ينصرف عنها، ويتركها فتتزوجها.

حدثان الموت، وحوادث الدهر، فيهلك كما هلك من تقدم من الشعراء. والمنون يكون بمعنى الدهر، ويكون بمعنى المنية. وأم هذه[١] المنقطعة بمعنى الترك والتحول، كقول علقمة[٢]:

هل ما عَلِمْتَ، وما استَوْدَعْتَ، مَكتومُ أَمْ حَبْلُها، إذ نأتْكَ اليومَ، مصرُوم

فكأنه قال[٣]: حبلها مصروم، لأن بعده قوله:

أَمْ هَلْ كبيرٌ بكى، لم يقْضِ عَبرَتَهُ إِثْرَ الأحِبَّةِ، يومَ البَيْنِ مشْكُومُ[٤]

ثم قال سبحانه ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي: إنكم إن تربصتم في حوادث الدهر، فإني منتظر مثل ذلك بكم، وتربّص الكفار بالنبي ﷺ والمؤمنين قبيح، وتربص النبي ﷺ والمؤمنين بالكفار وتوقعهم لهلاكهم حسن. وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وإن كان بصيغة الأمر فالمراد به التهديد ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ أي: بل أتأمرهم عقولهم بما يقولونه لك ويتربصونه بك، قال المفسرون: كانت عظماء قريش توصف بالأحلام والعقول، فأزرى الله سبحانه بعقولهم، حيث لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل. ثم أخبر سبحانه عن طغيانهم فقال: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ وقرأ مجاهد: «بل هم قوم طاغون»، وبل في المعنى قريبة من أم هنا، إلا أن ما بعد بل متيقن، وما بعد أم مشكوك فيه. والمعنى: إن عقولهم لم تأمرهم بهذا، ولم تدعهم إليه، بل حملهم الطغيان على تكذيبك. ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي: افتعل القرآن وتكذّبه من تلقاء نفسه، والتقوُّل: تكلف القول، ولا يقال ذلك إلا في الكذب ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، بل ثبت أنه من عند الله ولكنهم لا يُصَدِّقون بذلك عناداً، وحسداً واستكباراً.

ثم ألزمهم سبحانه الحجة وتحداهم فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ أي: مثل القرآن وما يقاربه في نظمه، وفصاحته وحسن بيانه وبراعته. ﴿إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾ في أنه تقوّله محمد ﷺ، فإذا لم يقدروا على الإتيان بمثله فليعلموا أن محمداً ﷺ لم يتقوله من تلقاء نفسه، بل هو من عند الله تعالى. ثم احتجّ عليهم بابتداء الخلق فقال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي: أم خلقوا لغير شيء، أي: أخلقوا باطلًا لا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون ونحو هذا، عن الزجاج. وقيل: معناه أم خلقوا عبثاً وتركوا سدى، عن ابن كيسان. وهذا في المعنى مثل الأول. وقيل: معناه أخلقوا من غير خالق ومدبر دبرهم ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أنفسهم فلا يجب عليهم لله أمر، عن ابن عباس. ﴿أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ واخترعوهما فلذلك لا يقرون بالله وبأنه خالقهم، ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ بأن لهم إلٰهاً يستحق العبادة وحده، وأنك نبي من جهة الله. ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أي: بأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة فيضعونها حيث شاءوا، عن مقاتل

(١) وفي المخطوطة: هذه هي المنقطعة.
(٢) وفي نسختين: علقمة بن عبدة.
(٣) وفيهما: بل أحملها.
(٤) قوله: «لم يقض عبرته» حال من الضمير في «بكى» الراجع إلى الكبير. وبكى: وصف لكبير. «وإثر الأحبة» متعلق ببكى. والبين: الفراق. ومشكوم: مأخوذ من الشكيمة وهي حديدة معترضة في فم الفرس أي: مسدود فوه.

وعكرمة. وقيل: أراد خزائن المطر والرزق، عن الكلبي وابن عباس. وقيل: خزائنه مقدوراته فلا يأتيهم إلا ما يحبون، عن الجبائي[١]. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي: الأرباب المُسَلَّطون على الناس، فليس عليهم مسيطر ولا لهم ملزم ومقوم. وقيل: معناه أم هم المالكون الناس القاهرون لهم، عن الجبائي. ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ أي: مرقى ومصعد إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ الوحي من السماء، فقد وثقوا بما هم عليه، وردوا ما سواه. ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة ظاهرة واضحة إن ادّعى ذلك، والتقدير: يستمعون عليه فهو كقوله، ولأصلبنّكم في جذوع النخل، وإنما قيل لهم ذلك لأن كل من يدعي ما لا يعلم ببداية[٢] العقول، فعليه إقامة البيّنة والحجة. ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ وهذا تسفيه لأحلامهم، إذ أضافوا إلى الله سبحانه ما أنفوا منه، وهذا غاية في جهلهم، إذ جَوَّزُوا عليه سبحانه الولد، ثم ادعوا أنه اختار الأدون على الأعلى. ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: ثواباً على أداء الرسالة، وعلى ما جئتهم به من الدين والشريعة ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أثقلهم ذلك الغرم الذي تسألهم، فمنعهم ذلك عن الإيمان بك.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ
ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا
يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ
فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر وعاصم: «يُصْعَقون» بضم الياء، والباقون بفتحها. وقرأ زيد عن يعقوب: «وأدبار» النجوم بفتح الألف، والباقون بكسرها.

● **الحجة:** يقال: صعق الرجل يصعق. ومن قرأ «يُصْعَقون» بضم الياء، فإنه على نقل الفعل بالهمزة، صعقهم[٣] وأصعقهم غيرهم. وحكى أبو الحسن: صُعِق، فعلى هذا يجوز أن يكون يصعقون منه. ومن قرأ: «وأدبار النجوم» فإنه يكون كقولهم: أعقاب النجوم. قال:

فأصبحتُ من ليلى الغداة كناظرٍ مع الصُّبْحِ في أعقاب نَجمٍ مُغرِّبِ[٤]

---

(١) وفي نسخة: بدل «الجبائي»: «ابن عباس».

(٢) وفي نسخة: «ببداهة العقول».

(٣) في سائر النسخ: صعقوهم.

(٤) يشبّه حاله في وصال ليلى وهجرانها، ويأسه من الوصال، بمن ينظر في أعقاب النجم عند الصباح، وهو آيس منه، لأنه في حال الغروب.

● **اللغة:** الكيد: هو المكر، وقيل: هو فعل ما يوجب الغيظ في خفية. والكسف: جمع كسفة فهو مثل سدرة وسدر، والكسفة: القطعة من الغيم بقدر ما يكسف ضوء الشمس. والمركوم: هو الموضوع بعضه على بعض.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: عندهم الغيب حتى علموا أن محمداً ﷺ يموت قبلهم، وهذا جواب لقولهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾، عن قتادة. وقيل: أعندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ويخبرون به الناس، عن ابن عباس. وقيل: هو جواب لقولهم: إن كان أمر الآخرة حقاً كما تدعون، فلنا الجنة. ومثله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ عن الحسن. والغيب الذي لا يعلمه إلا الله، هو ما لا يعلمه العاقل ضرورة ولا عليه دلالة، فالله عالم به لأنه يعلمه لنفسه، والعالم لنفسه يعلم جميع المعلومات فلا يخفى عليه شيء منها. ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: مكراً بك وتدبير سوء في بابك سراً على ما دبروه في دار الندوة ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ أي: هم المجزيون بكيدهم، فإن ضرر ذلك يعود عليهم ويحيق بهم مكرهم، كما جزى الله سبحانه أهل دار الندوة بكيدهم أن قتلهم ببدر. ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يرزقهم ويحفظهم وينصرهم، يعني: إن الذين اتخذوهم آلهة لا تنفعهم ولا تدفع عنهم. ثم نزَّه سبحانه نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من الآلهة.

ثم ذكر سبحانه عنادهم وقسوة قلوبهم فقال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ يعني: إن عذَّبناهم بسقوط بعض من السماء عليهم، لن ينتهوا عن كفرهم، وقالوا: هو قطعة من السحاب وهو قوله: ﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ بعضه على بعض. وكل هذه الأمور المذكورة بعد أم في هذه السورة إلزامات لعبدة الأوثان على مخالفة القرآن. ثم قال سبحانه يخاطب النبي ﷺ: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا محمد أي: اتركهم، ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي: يهلكون بوقوع الصاعقة عليهم. وقيل: الصعقة النفخة الأولى التي يهلك عندها جميع الخلائق. ثم وصف سبحانه ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تنفعهم حيلتهم، ولا تدفع عنهم شيئاً، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ يعني كفار مكة ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دون عذاب الآخرة، يعني القتل يوم بدر، عن ابن عباس. وقيل: يريد عذاب القبر، عن ابن عباس أيضاً والبراء بن عازب. وقيل: هو الجوع في الدنيا، والقحط سبع سنين، عن مجاهد. وقيل: هو مصائب الدنيا، عن ابن زيد. وقيل هو عام جميع ذلك. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما هو نازل بهم.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الذي حكم به، وألزمك التسليم له إلى أن يقع عليهم العذاب الذي حكمنا عليهم. وقيل: واصبر على أذاهم حتى يرد أمر الله عليك بتخليصك: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منا ندركك، ولا يخفى علينا شيء من أمرك، ونحفظك لئلا يصلوا إلى شيء من مكروهك. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من نومك، عن أبي الأحوص. وقيل: حين تقوم إلى الصلاة المفروضة فقل: سبحانك اللهم وبحمدك، عن الضحاك. وقيل معناه: وصلِّ بأمر ربك حين تقوم من مقامك، عن ابن زيد. وقيل: الركعتان قبل صلاة الفجر، عن ابن

عباس والحسن. وقيل: حين تقوم من نوم القائلة، وهي صلاة الظهر، عن زيد بن أسلم. وقيل: حين تقوم من المجلس فقل: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت اغفر لي وتب عَليّ، عن عطاء وسعيد بن جبير. وقد روي مرفوعاً: إنه كفارة المجلس. وقيل: معناه اذكر الله بلسانك حين تقوم إلى الصلاة إلى أن تدخل في الصلاة، عن الكلبي. فهذه سبعة أقوال.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ يعني صلاة الليل، روى زرارة، وحمران، ومحمد بن مسلم، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في هذه الآية قالا: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقوم من الليل ثلاث مرات، فينظر في آفاق السماء ويقرأ الخمس من آل عمران إلى آخرها ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، ثم يفتتح صلاة الليل، الخبر بتمامه. وقيل: معناه صل المغرب والعشاء الآخرة، عن مقاتل ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني الركعتين قبل صلاة الفجر، عن ابن عباس وقتادة وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام. وذلك حين تدبر النجوم، أي: تغيب بضوء الصبح، يعني صلاة الفجر المفروضة، عن الضحاك. وقيل: إن المعنى لا تغفل عن ذكر ربك صباحاً ومساء، ونَزِّهه في جميع أحوالك ليلًا ونهاراً، فإنه لا يغفل عنك وعن حفظك. وفي هذه الآية دلالة على أنه سبحانه قد ضمن حفظه وكلاءته حتى يبلغ رسالته.

سُورَةُ النَّجْمِ

مكية/آياتها (٦٢)

المعدل عن ابن عباس وقتادة، غير آية منها نزلت بالمدينة ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الآية. وعن الحسن قال: هي مدنية.

● **عدد آيها:** اثنتان وستون آية كوفي، وآية في الباقين.

● **اختلافها:** ثلاث آيات ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ كوفي، ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾ شامي، ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ غير شامي.

● **فضلها:** أُبيّ بن كعب قال: قال: رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة النجم أُعطِي من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدق بمحمد ﷺ، ومن جحد به». يزيد بن خليفة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من كان يدمن قراءة والنجم في كل يوم، أو في كل ليلة، عاش محموداً بين الناس، وكان مفقوداً، وكان محبّباً بين الناس.

● **تفسيرها:** افتتح الله سبحانه هذه السورة بذكر النبي ﷺ، كما ختم بذكره سورة الطور، حتى اتصلت بها اتصال النظير فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ
هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ
﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ
﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** أمال حمزة والكسائي وخلف أواخر آيات هذه السورة كلها وجميع أشباهه. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو بين الفتح والكسر وإلى الفتح أقرب، وكذلك كل سورة آياتها على الياء، مثل سورة طه، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، والضحى، وأشباهها. وكل ما كان على وزن فَعلى أو فُعلى أو فِعلى في جميع القرآن، فإن أبا عمرو يقرأها بين الفتح والكسر أيضاً في رواية شجاع. وأكثر الروايات، عن اليزيدي. والباقون يفتحون ويفخمون، وابن كثير وعاصم أشد تفخيماً في ذلك كله.

● **الحجة:** أما ترك الإمالة والتفخيم للألف فهو قول كثير من الناس، والإمالة أيضاً قول كثير منهم، فمن ترك كان مصيباً، ومن أخذ بها كان مصيباً.

● **اللغة:** الهُويّ والنزول والسقوط نظائر، هوى يهوى هُوياً. أو هَوياً قال الهذلي:

وإذا رمَـيْـتَ بـهِ الـفـجـاجَ، رأيـتَـهُ   يَـهْـوي مـخـارمَـهـا، هُـوِيَّ الأَجْـدلِ[١]

ومنه سميت الهاوية، لأنها تهوي بأهلها من أعلاها إلى أسفلها. والغي: الخيبة ومنه الغواية. والوحي: إلقاء المعنى إلى النفس في خفية، إلا أنه صار كالعلم فيما يلقيه الملك إلى النبي من البشر[٢] عن الله تعالى. ومنه قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أي: ألهمها مراشدها. والقوة: القدرة، وأصله: الشدة. وأصل المرة: شدة الفتل ثم تجري المرة على القدرة، فالمرة والقوة والشدة نظائر. والأفق: ناحية السماء، وجمعه آفاق. وقد سمي نواحي الأرض آفاقاً على التشبيه. قال الشاعر في المعنى الأول:

أَخَـذْنـا بـآفـاقِ الـسـمـاءِ عـلـيـكُـمُ   لـنـا قَـمَـراهـا والـنـجـومُ الـطَّـوالِـعُ

وقال امرؤ القيس في المعنى الثاني:

لـقـد طَـوَّفْـتُ فـي الآفـاقِ حـتـى   رَضِـيـتُ مـن الـغَـنِـيـمـة بـالإيـابِ

والتدلي: الامتداد إلى جهة السفل، يقال: دلاه صاحبه فتدلى. والقاب والقيب، والقاد والقيد: عبارة عن مقدار الشيء.

● **الإعراب:** ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ مبتدأ وخبر في موضع الحال، وقال الفراء: هو معطوف على الضمير في ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي: استوى جبرائيل والنبي ﷺ بالأفق الأعلى، والتقدير: استوى هو وهو، قال: وحسن ذلك لئلا يتكرر «هو». وأنشد:

ألـم تَـرَ أنَّ الـنَّـبْـعَ يَـصْـلُـبُ عـودُهُ   ولا يـسـتـوي والـخِـرْوَعُ الـمُـتَـقَـصِّـفُ[٣]

قال الزجاج: وهذا لا يجوز إلا في الشعر، لأنهم يستقبحون استويت وزيد. وإنما المعنى فاستوى جبرائيل وهو بالأفق الأعلى على صورته الحقيقية، لأنه كان يتمثل للنبي ﷺ إذا هبط عليه بالوحي في صورة رجل، فأحب رسول الله ﷺ أن يراه على صورته الحقيقية، فاستوى في أفق المشرق فملأ الأفق.

● **المعنى:** ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قيل في معناه أقوال:

أحدها: إن الله أقسم بالقرآن إذ أنزل نجوماً متفرقة على رسول الله ﷺ، في ثلاث وعشرين سنة، عن الضحاك ومجاهد والكلبي. فسمي القرآن نجماً لتفرقه في النزول، والعرب تسمي التفريق تنجيماً، والمفرق منجماً.

---

(١) المخارم: أفواه الفجاج. والفجاج: جمع الفج، وهو الطريق الواسع الواضح بين جبلين. والأجدل: الصقر. يشبه فرساً بالصقر أي: إذا سرت به في فجاج الأرض، رأيته يهوي من أفواه الفجاج، هُوِيّ الصقر.

(٢) وفي نسخة: السر.

(٣) النبع: شجر ينبت في قلة الجبل، تتخذ منه القِسي، ومن أغصانه السهام. والخروع: نبت يعظم قرب المياه، ومن ثمره المسهل المعروف بزيت الخِروَع. والمتقصف: المزدحم بعضه على بعض، مقصوده عدم تساويهما في الشدة واللين.

وثانيها: إنه أراد بالنجم الثريا، أقسم بها إذا سقطت وغابت مع الفجر، عن ابن عباس ومجاهد. والعرب تطلق اسم النجم على الثريا خاصة. قال أبو ذؤيب:

فَـوَرَدْنَ والـعَـيُّـوقُ مَـقْـعَـدَ رابِـىءِ الـضُّـرَباءِ فَـوْقَ الـنـجـمِ لا يـتَـتَـلَّعُ(١)

قال ابن دريد: والثريا سبعة أنجم ستة ظاهرة، وواحد خفي، يمتحن الناس به أبصارهم.

وثالثها: إن المراد به جماعة النجوم إذا هوت، أي: سقطت وغابت وخفيت، عن الحسن، وأراد به الجنس، كما قال الراعي:

وبـاتَ يَـعُـدُّ الـنَّـجْـمَ فـي مُـسْـتَـحِـيـرَةٍ سـريـعٍ بـأيـدي الآكـلـيـن جُـمُـودُهـا(٢)

ثم(٣) قيل: أشار بأفول النجم إلى طلوعه، لأن ما يأفل يطلع، فاستدل بأفوله، وطلوعه على وحدانية الله تعالى، وحركات النجم توصف بالهوي، عن الجبائي. وقيل: إن هوية سقوطه يوم القيامة، فيكون كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾، عن الحسن.

ورابعها: إنه يعني به الرجوم من النجوم، وهو ما يرمى به الشياطين عند استراق السمع، عن ابن عباس. وروت العامة عن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: محمد رسول الله صلى الله عليه وآله(٤)، نزل من السماء السابعة ليلة المعراج، ولما نزلت السورة أخبر بذلك عتبة بن أبي لهب، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وطلق ابنته، وتفل في وجهه، وقال: كفرت بالنجم برب النجم، فدعا عليه، وقال: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك. فخرج عتبة إلى الشام فنزل في بعض الطريق، وألقى الله عليه الرعب، فقال لأصحابه: أنيموني بينكم ليلاً(٥)، ففعلوا. فجاء أسد فافترسه من بين الناس، وفي ذلك يقول حسان:

سـائـلْ بـنـي الأصـفـرِ إن جـئـتَـهُـمْ: مـا كـان أنـبـاءُ بـنـي واسـعِ
لا وسَّـعَ اللهُ لَهُ قـبـرَه بـل ضَـيَّـقَ اللهُ عـلـى الـقـاطِـعِ
رَمـى رسـولَ اللهِ مِـنْ بـيـنِـهِـمْ دونَ قـريـشٍ رمـيـةَ الـقـاذِعِ(٦)
واسـتـوجَـبَ الـدعـوةَ مـنـهُ بـمـا بـيَّـنَ لـلـنـاظـرِ والـسـامـعِ
فـسـلَّطَ اللهُ بـهِ كَـلْـبَـهُ يـمـشـي الـهـويـنـا مِـشـيـةَ الـخـادعِ(٧)
والْـتَـقَـمَ الـرأسَ بـيـافـوخِـه والـنَّـحْـرَ مِـنْـهُ قَـفْـرَةَ الـجـائـعِ

(١) ربأهم وربألهم أي: صار ربيئة لهم أي: راقبهم. والضرباء: جمع الضريبة بمعنى الضارب، ولا يتتلع أي: لا يشخص للأمر، ولا يرفع رأسه للنهوض. وعن ابن بري صوابه: خلف النجم، وكذا في رواية سيبويه.
(٢) المستحيرة: الجفنة الدسمة الكبيرة.
(٣) وفي نسخة: وقيل.
(٤) وفي المخطوطة ليس لفظة «رسول الله».
(٥) وليس فيها أيضاً.
(٦) قذعه: رماه بالفحش، وسوء القول.
(٧) وفي المخطوطة بعد هذا: حتى أتاه وسط أصحابه، وقد علاهم سنة الهاجع.

مَنْ كان يرجع العام إلى أهلِهِ فما أكِيلُ السَّبعِ بالرَّاجعِ
قد كان هذا لكم عبرةً للسَّيدِ المتبوعِ والتَّابعِ

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ يعني النبي، أي: ما عدل عن الحق، وما فارق الهدى إلى الضلال، وما غوى فيما يؤديه إليكم. ومعنى غوى: ضل، وإنما أعاده تأكيداً. وقيل معناه: عن إصابة الرشد. وقيل: ما خاب سعيه، بل ينال ثواب الله وكرامته. ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي: وليس ينطق بالهوى، وهكذا كما يقال: رميت بالقوس، وعن القوس. وقيل معناه: يتكلم بالقرآن وما يؤديه إليكم عن الهوى، الذي هو ميل الطبع. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أي: ما القرآن وما ينطق به من الأحكام إلا وحي من الله يوحى إليه، أي: يأتيه به جبرائيل، وهو قوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ يعني جبرائيل عليه السلام، أي: القوي في نفسه وخلقته، عن ابن عباس والربيع وقتادة. والقوَى جمع القوة. ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: ذو قوة وشدة في خلقه، عن الكلبي. قال: ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود فرفعها إلى السماء ثم قلبها، ومن شدته صيحته لقوم ثمود حتى هلكوا. وقيل معناه: ذو صحة وخلق حسن، عن ابن عباس وقتادة. وقيل: شديد القوى في ذات الله، ذو مِرة، أي صحة في الجسم، سليم من الآفات والعيوب. وقيل: ذو مرة، أي: ذو مرور في الهواء ذاهباً وجائياً ونازلاً وصاعداً، عن الجبائي. ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ جبرائيل على صورته التي خلق عليها بعد انحداره إلى محمد صلى الله عليه وآله ﴿وَهُوَ﴾ كناية عن جبرائيل عليه السلام أيضاً ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعني أفق المشرق، والمراد بالأعلى جانب المشرق، وهو فرق جانب المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء.

قالوا: إن جبرائيل كان يأتي النبي صلى الله عليه وآله في صورة الآدميين، فسأله النبي صلى الله عليه وآله أن يريه نفسه على صورته التي خلق عليها، فأراه نفسه مرتين، مرة في الأرض، ومرة في السماء، أما في الأرض ففي الأفق الأعلى وذلك أن محمداً صلى الله عليه وآله كان بحراء، فطلع له جبرائيل عليه السلام من المشرق، فسد الأفق إلى المغرب، فخرَّ النبي صلى الله عليه وآله مغشياً عليه، فنزل جبرائيل عليه السلام في صورة الآدميين فضمه إلى نفسه، وهو قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ وتقديره: ثم تدلى، أي: قرب بعد بُعْدِه وعلوه في الأفق الأعلى، فدنا من محمد صلى الله عليه وآله.

قال الحسن وقتادة: ثم دنا جبرائيل عليه السلام بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، فنزل إلى محمد صلى الله عليه وآله.

وقال الزجاج: معنى دنا وتدلى واحد، لأن معنى دنا: قرب، وتدلى: زاد في القرب، كما تقول: قد دنا مني فلان وقرب، ولو قلت: قرب مني ودنا، جاز.

وقيل: إن المعنى استوى جبرائيل عليه السلام، أي: ارتفع وعلا إلى السماء بعد أن علم محمداً صلى الله عليه وآله، عن سعيد بن المسيب.

وقيل: استوى، أي: اعتدل واقفاً في الهواء بعد أن كان ينزل بسرعة ليراه النبي صلى الله عليه وآله، عن الجبائي.

وقيل معناه: استوى جبرائيل عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم بالأفق الأعلى، يعني السماء الدنيا ليلة المعراج، عن الفراء.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: كان ما بين جبرائيل ورسول الله قاب قوسين، والقوس: ما يرمى به، عن مجاهد وعكرمة وعطاء عن ابن عباس. وخصت بالذكر على عادتهم، يقال: قاب قوس، وقيب قوس، وقيد قوس، وقاد قوس، وهو اختيار الزجاج.

وقيل معناه: وكان قدر ذراعين، عن عبد الله بن مسعود، وسعيد بن جبير، وشقيق بن سلمة. وروي مرفوعاً عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ قال: «قدر ذراعين أو أدنى من ذراعين». فعلى هذا يكون معنى القوس: ما يقاس به الشيء، والذراع يقاس به. قال ابن السكيت: قاس الشيء يقوسه قوساً لغة في قاسه يقيسه: إذا قدره. وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ قال الزجاج: إن العباد قد خوطبوا على لغتهم ومقدار فهمهم. وقيل: لهم في هذا ما يقال للذي يحدد، فالمعنى: فكان على ما تقدرونه أنتم قدر قوسين أو أقل من ذلك، وهو كقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ وقد مر القول فيه. وقال عبد الله بن مسعود: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبرائيل عليه السلام وله ستمائة جناح. أورده البخاري ومسلم في «الصحيح».

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ أي: فأوحى الله على لسان جبرائيل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى، و«ما» يحتمل أن تكون مصدرية، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي. وقيل معناه: فأوحى جبرائيل عليه السلام إلى عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله تعالى إليه، عن الحسن والربيع وابن زيد، وهو رواية عطاء عن ابن عباس. قال سعيد بن جبير: أوحى إليه ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾. وقيل: أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها أنت، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك. وقيل: أوحى الله إليه سراً بسر. وفي ذلك يقول القائل:

بَيْنَ المُحِبِّينَ سرٌّ ليسَ يُفْشِيه ... قولٌ ولا قَلَمٌ للخلقِ يَحكيهِ
سرٌّ يمازجُهُ أُنسٌ يُقابِلُهُ ... نورٌ تَحَيَّرَ في بحرٍ مِنَ التيهِ

●●●

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وهشام: «ما كذَّب» بالتشديد، والباقون: بالتخفيف. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم ويعقوب: «أفتمرونه» بغير ألف، والباقون: «أفتمارونه». وقرأ ابن كثير والشموني، عن الأعمش وأبي بكر: «ومناءة» بالمد والهمزة، والباقون: «ومناة» بغير همزة ولا

مد. وروي عن علي عليه السلام وأبي هريرة وأبي الدرداء وزر بن حبيش: «جنة المأوى» بالهاء، وعن ابن عباس ومجاهد: «اللاتّ» بتشديد التاء.

● **الحجة:** من قرأ: «كذّب» بتشديد الذال، فمعناه: ما كذب قلب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما رآه بعينه تلك الليلة، بل صدقه وحققه. ومن قرأ بالتخفيف فمعناه: ما كذب فؤاده فيما رأى، وقال أبو علي: كذب فعل يتعدى إلى مفعول، بدلالة قوله:

كَذَبَتْكَ عينُكَ أم رَأَيتَ بواسِطٍ غَلَسَ الظلامِ من الرَّبابِ خِيالا

ومعنى كَذَبَتْكَ عينك: أرتك ما لا حقيقة له. فعلى هذا يكون المعنى: لم يكذب فؤاده ما أدركه بصره، أي: كانت رؤيته صحيحة غيركاذبة وإدراكاً على الحقيقة. ويشبه أن يكون الذي شدد أراد هذا المعنى وأكده.

«أفتمارونه على ما يرى» أي: أترومون إزالته عن حقيقة ما أدركه وعَلِمه بمجادلتكم؟ أو أتجحدونه ما قد علمه ولم يعترض عليه فيه شك؟ فإن معنى قوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾: أتجادلونه جدالًا تريدون به دفعه عما علمه وشاهده من الآيات الكبرى؟ ومن قرأ: «أفتمرونه» معناه: أفتجحدونه؟ «ومناة» صنم من حجارة، واللات والعزى كانتا من حجارة أيضاً، ولعل «منآءة» بالمد لغة.

ومن قرأ: «جنهُ المأوى» يعني فعله، يريد: جن عليه فأجنه الله، و«المأوى» هو الفاعل، والمعنى: ستره، وقال الأخفش: أدركه.

وعن ابن عباس قال: كان رجل بسوق عكاظ يلتُّ السويق والسمن عند صخرة، فإذا باع السويق والسمن صب على الصخرة ثم يلت، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة، إعظاماً لذلك الرجل.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه ما رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء وحقَّق رؤيته، فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ أي: لم يكذب فؤاد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما رآه بعينه، فقوله: ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ مصدر في موضع نصب، لأنه مفعول ﴿كَذَبَ﴾. والمعنى: إنه ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم يره، بل صدقه الفؤاد رؤيته. قال المبرد: معنى الآية: إنه رأى شيئاً فصدق فيه. قال ابن عباس: رأى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ربه بفؤاده. وروي ذلك عن محمد بن الحنفية عن أبيه علي عليه السلام، وهذا يكون بمعنى العلم، أي: عَلمه علماً يقيناً بما رآه من الآيات الباهرات، كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ وإن كان عالماً قبل ذلك. وقيل: إن الذي رآه هو جبرائيل على صورته التي خلقه الله عليها، عن ابن مسعود وعائشة وقتادة. وقيل: إن الذي رآه هو ما رآه من ملكوت الله تعالى وأجناس مقدوراته، عن الحسن قال: وعرج بروح محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء وجسده في الأرض. وقال الأكثرون وهو الظاهر من مذهب أصحابنا والمشهور في أخبارهم: إن الله تعالى صعد بجسمه إلى السماء حياً سليماً، حتى رأى ما رأى من ملكوت السماوات بعينه، ولم يكن ذلك في المنام. وهذا المعنى ذكرناه في سورة بني إسرائيل.

والفرق بين الرؤية في اليقظة وبين الرؤية في المنام: إن رؤية الشيء في اليقظة هو إدراكه بالبصر على الحقيقة، ورؤيته في المنام تصوُّره بالقلب على توهّم الإدراك بحاسة البصر من غير

أن يكون كذلك. وعن أبي العالية قال: سُئِل رسول الله ﷺ: هلى رأيت ربك ليلة المعراج؟ قال: «رأيت نهراً، ورأيت وراء النهر حجاباً، ورأيت وراء الحجاب نوراً، لم أر غير ذلك». وروي عن أبي ذر وأبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ سئل عن قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ قال: «رأيت نوراً». وروي ذلك عن مجاهد وعكرمة.

وذكر الشعبي عن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس أنه قال: إن محمداً ﷺ رأى ربه. قال الشعبي: وأخبرني مسروق قال: سألت عائشة عن ذلك فقالت: إنك لتقول قولًا إنه ليقفُ شعري منه! قال مسروق: قلت: رويداً يا أم المؤمنين، وقرأت عليها ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ حتى انتهيت إلى قوله ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ فقالت: رويداً، أنى يذهب بك، إنما رأى جبرائيل في صورته، من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب، والله تعالى يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾، ومن حدثك أن محمداً ﷺ يعلم الشيء من الغيب فقد كذب، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلى آخره، ومن حدثك أن محمداً ﷺ كتم شيئاً من الوحي فقد كذب، والله تعالى يقول: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، ولقد بيَّن الله سبحانه ما رآه النبي ﷺ بياناً شافياً فقال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ أي: أفتجادلونه ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ وذلك أنهم جادلوه حين أُسْرِيَ به، فقالوا له: صف لنا بيت المقدس، وأخبرنا عن عيرنا في طريق الشام، وغير ذلك مما جادلوه به. ومن قرأ: «أفتمرونه» فالمعنى: أفتجحدونه، يقال: مريت الرجل حقه: إذا جحدته. وقيل معناه: أفتدفعونه عما يرى، و﴿عَلَىٰ﴾ في موضع «عن»، عن المبرد. والمعنيان متقاربان، لأن كل مجادل جاحد.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: رأى جبرائيل في صورته التي خُلِقَ عليها، نازلًا من السماء نزلة أخرى، وذلك أنه رآه مرتين في صورته على ما ذكره. ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي: رآه محمد ﷺ وهو عند سدرة المنتهى، وهي شجرة عن يمين العرش فوق السماء السابعة انتهى إليها علم كل مَلَكٍ، عن الكلبي ومقاتل. وقيل: إليها ينتهي ما يعرج إلى السماء، وما يهبط من فوقها من أمر الله، عن ابن مسعود والضحاك. وقيل: إليها تنتهي أرواح الشهداء. وقيل: إليها ينتهي ما يهبط به من فوقها ويقبض منها، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرواح ويقبض منها. والمنتهى: موضع الانتهاء، وهذه الشجرة حيث انتهى إليه الملائكة فأضيفت إليه. وقيل: هي شجرة طوبى، عن مقاتل. والسدرة: هي شجرة النبوة.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أي: عند سدرة المنتهى جنة المقام، وهي جنة الخلد، وهي في السماء السابعة. وقيل: في السماء السادسة. وقيل: هي الجنة التي كان آوى إليها آدم، وتصير إليها أرواح الشهداء، عن الجبائي وقتادة. وقيل: هي التي يصير إليها أهل الجنة، عن الحسن. وقيل: هي التي يأوي إليها جبرائيل والملائكة، عن عطاء عن ابن عباس.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قيل: يغشاها الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجر، عن الحسن ومقاتل. وروي أن النبي ﷺ قال: «رأيت على كل ورقة من أوراقها مَلَكاً قائماً

يسبح الله تعالى». وقيل: يغشاها من النور والبهاء والحسن والصفاء، الذي يروق الأبصار ما ليس لوصفه منتهى، عن الحسن. وقيل: يغشاها فراش من ذهب، عن ابن عباس ومجاهد. وكأنها ملائكة على صورة الفراش يعبدون الله تعالى، والمعنى: إنه رأى جبرائيل عليه السلام على ما صورته في الحال التي يغشى فيها السدرة من أمر الله، ومن العجائب المنبهة على كمال قدرة الله تعالى ما يغشاها. وإنما أبهم الأمر فيما يغشى لتعظيم ذلك وتفخيمه، كما قال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ وقوله: ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ أبلغ لفظ في هذا المعنى.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: ما زاغ بصر محمد صلى الله عليه وآله، ولم يمل يميناً ولا شمالاً وما طغى، أي: ما جاوز القصد ولا الحد الذي حد له، وهذا وصف أدبه، صلوات الله عليه وآله في ذلك المقام، إذ لم يلتفت جانباً، ولم يمل بصره ولم يمده أمامه إلى حيث ينتهي. ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ وهي الآيات العظام التي رآها تلك الليلة، مثل: سدرة المنتهى، وصورة جبرائيل عليه السلام ورؤيته وله ستمائة جناح قد سد الأفق بأجنحته، عن مقاتل وابن زيد والجبائي. و﴿مِنْ﴾ للتبعيض، أي: رأى بعض آيات ربه. وقيل: إنه رأى رفرفاً أخضر من رفارف الجنة قد سد الأفق، عن ابن مسعود. وقيل: إنه قد رأى ربه بقلبه، عن ابن عباس. فعلى هذا فيمكن أن يكون المراد أنه رأى من الآيات ما ازداد به يقيناً إلى يقينه، و﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ تأنيث الأكبر، وهو الذي يصغر مقدار غيره عنده في معنى صفته.

ولما قصَّ الله سبحانه هذه الأقاصيص، عقَّبها سبحانه بأن خاطب المشركين فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ أي: أخبرونا عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، وتعبدون معها الملائكة وتزعمون أن الملائكة بنات الله. وقيل معناه: أفرأيتم أيها الزاعمون أن اللات والعزى ومناة بنات الله، لأنه كان منهم من يقول: إنما نعبد هؤلاء لأنهم بنات الله، عن الجبائي. وقيل: إنهم زعموا أن الملائكة بنات الله، وصوروا أصنامهم على صورهم وعبدوها من دون الله، واشتقوا لها أسماء الله، فقالوا: اللات من الله، والعزى من العزيز. وكان الكسائي يختار الوقف على «اللات» بالتاء لإتباع المصحف، لأنها كتبت بالتاء. والعزى: تأنيث الأعز، وهي بمعنى العزيز. وقيل: إن اللات صنم كانت ثقيف تعبده، والعزى صنم أيضاً، عن الحسن وقتادة. وقيل: إنها كانت شجرة سمرة عظيمة لغطفان يعبدونها، فبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد فقطعها، وقال:

يا عُزَّ كفرانَكِ، لا سبحانك، إنـي رأيـتُ الله قـد أهـانَـكِ

عن مجاهد. وقال قتادة: كانت مناة صنماً بقديد بين مكة والمدينة. وقال الضحاك والكلبي: كانت لهذيل وخزاعة يعبدها أهل مكة. وقيل: إن اللات والعزى ومناة أصنام من حجارة، كانت في الكعبة يعبدونها. و﴿ٱلثَّالِثَةَ﴾ نعت لمناة و﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ نعت لها أيضاً. ومعنى الآية: أخبروني عن هذه الأصنام هل ضرت أو نفعت أو فعلت ما يوجب أن تعدل بالله؟ فحذف لدلالة الكلام عليه.

●●●

قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥) ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠)﴾ .

● **القراءة:** قرأ ابن كثير غير ابن فليح[١]: «ضئزى» بالهمز، والباقون: بغير همز.

● **الحجة:** قال أبو علي: قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أي: ما نسبتموه إلى الله سبحانه من اتخاذ البنات قسمة جائرة. وقولهم: قسمة ضيزى ومِشية حِيكى، حمله النحويون على أنه في الأصل فُعْلَى بالضم، وإن كان اللفظ على فِعلى، كما أن القسي والعِصيّ في الأصل فُعول وإن كانت الفاء مكسورة، وإنما حملوها على أنها فُعلى، لأنهم لم يجدوا شيئاً من الصفات على فِعلى كما وجدوا الفُعلى والفَعلى. وقال أبو عبيدة: ضِزْته حقَّه وضُزْته أضوزه، أي: نقصْته ومنعته، فمن جعل العين منه واواً فالقياس أن تقول: ضُوزَى. وقد حكي ذلك. فأما من جعله ياء من قولك: ضِزته، فكان القياس أيضاً أن يقول: ضُوزى، ولا يحفل بانقلاب الياء إلى الواو، لأن ذلك إنما ذكر في بِيض وعِين، جمع بيضاء وعيناء، لقربه من الطرف. وقد بعد من الطرف هاهنا بحرف التأنيث، وليست هذه العلامة في تقدير الانفصال كالتاء، فكان القياس أن لا يحفل بانقلابها إلى الواو.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه منكراً على كفار قريش قولهم: الملائكة بنات الله، والأصنام كذلك: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ أي: كيف يكون ذلك كذلك؟ وأنتم لو خُيِّرتم لاخترتم الذكر على الأنثى، فكيف أضفتم إليه تعالى ما لا ترضونه لأنفسكم؟ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أي: جائرة غير معتدلة، بمعنى أن القسمة التي قسمتم من نسبة الإناث إلى الله تعالى، وإيثاركم بالبنين قسمة غير عادلة. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ أي: ليس تسميتكم لهذه الأصنام بأنها آلهة وأنها بنات الله إلا أسامي لا معاني تحتها، لأنه لا ضر عندها ولا نفع، فهي تسميات ألقيت على جمادات. ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي: لم ينزل الله كتاباً لكم فيه حجة بما تقولونه، عن مقاتل. ثم رجع إلى الإخبار عنهم بعد المخاطبة فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ الذي ليس يعلم ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ أي: وما تميل إليهم نفوسهم. ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ أي: البيان

(١) وفي المخطوطة: الحسن.

والرشاد بالكتاب والرسول، عجب سبحانه من حالهم حيث لم يتركوا عبادتها مع وضوح البيان.

ثم أنكر عليهم تمنيهم شفاعة الأوثان فقال لهم: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ﴾ أي: للكافر ﴿مَا تَمَنَّىٰ﴾ من شفاعة الأصنام ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ فلا يملك فيهما أحد شيئاً إلا بإذنه. وقيل: معناه بل للإنسان ما تمنى من غير جزاء، لا ليس الأمر كذلك، لأن لله الآخرة والأولى، يعطي منهما من يشاء ويمنع من يشاء. وقيل: معناه ليس للإنسان ما تمنى من نعيم الدنيا والآخرة بل يفعله الله تعالى بحسب المصلحة، ويعطي الآخرة للمؤمنين دون الكافرين، عن الجبائي. وهذا هو الوجه الأوجه، لأنه أعم فيدخل تحته الجميع. ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ جمع الكناية لأن المراد بقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ الكثرة، ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ لهم في الشفاعة ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ لهم أن يشفعوا فيه، أي: من أهل الإيمان والتوحيد. قال ابن عباس: يريد لا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾. ثم ذمَّ سبحانه مقالتهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي: لا يُصدِّقون بالبعث والثواب والعقاب ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ حين زعموا أنهم بنات الله ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ﴾ أي: بذلك التسمية ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما يستيقنون أنهم إناث وليسوا عالمين[1] ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الذي يجوز أن يخطىء ويصيب في قولهم ذلك. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ الحق هنا معناه العلم، أي: الظن لا يغني عن العلم شيئاً، ولا يقوم مقام العلم.

ثم خاطب نبيه ﷺ فقال: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يا محمد ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ ولم يقرّ بتوحيدنا ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فمال إلى الدنيا ومنافعها، أي: لا تقابلهم على أفعالهم واحتملهم، ولا تدَع مع هذا وعظهم ودعاءهم إلى الحق؛ ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الإعراض عن التدبُّر في أمور الآخرة وصرف الهمة إلى التمتع باللذات العاجلة، منتهى علمهم، وهو مبلغ خسيس لا يرضى به لنفسه عاقل، لأنه من طباع البهائم أن يأكل في الحال ولا يَنْظُر العواقب. وفي الدعاء: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا». ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ منك ومن جميع الخلق ﴿بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: بمن جار وعدل عن سبيل الحق الذي هو سبيله ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إليها فيجازي كلا منهم على حسب أعمالهم.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾

(١) وفي نسخة: عالمين بذلك.

أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

● **اللغة:** قال الفراء: اللمم: أن يفعل الإنسان الشيء في الحين ولا يكون له عادة، ومنه إلمام الخيال. والإلمام: الزيارة التي لا تمتد، وكذلك اللمام: قال أمية:

إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ، تَغْفِرْ جماً، وأيُّ عَبْدٍ لَكَ لا أَلَمّا

وقد روي أن النبي ﷺ كان ينشدهما ويقولهما، أي: لم يلم بمعصيته، وقال أعشى باهلة:

تَكْفِيهِ حُزَّةُ فِلْذانٍ أَلَمَّ بها مِنَ الشواءِ ويَرْوِي شُربَهُ الغُمَرُ(١)

أجنة: جمع جنين، قال رؤبة:

أَجِنَّةٌ في مُسْتَكِنّاتِ الحلق(٢)

وقال عمرو بن كلثوم:

ولا شمطاءُ لَمْ يَتْرُكْ شقاها لها من تِسْعَةٍ إلا جَنِينا(٣)

أي: دفيناً في قبره. وأكدى: أي: قطع العطاء كما تقطع البئر الماء، واشتقاقه من كدية الركيَّة وهي صلابة تمنع الماء، إذا بلغ الحافر إليها يئس من الماء. فيقال: أكدى إذا بلغ الكُدية. ويقال: كدِيَت أصابعه: إذا كلت فلم تعمل شيئاً، وكديت أظافره: إذا غلظت، وكدى النبت: إذا قل ريعه. والأصل واحد فيها.

● **الإعراب:** ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ منصوبة على الاستثناء من ﴿ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ لأن ﴿ٱللَّمَمَ﴾ دونهما إلا أنه منهما. و﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾ العامل في «إذ» قوله: ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ يجوز أن يتعلق بنفس ﴿أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ وتقديره: إذ أنتم مستترون في بطون أمهاتكم. ويجوز أن يتعلق بمحذوف فيكون صفة لأجنة. وقوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تقديره: إنه لا تزر، وهو في موضع جر بدلًا من قوله: ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ و﴿مَا﴾ اسم موصول.

النزول: نزلت الآيات السبع ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ في عثمان بن عفان، كان يتصدق وينفق ماله، فقال أخوه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك ألا يبقى لك شيء. فقال عثمان: إن لي ذنوباً، وإني أطلب بما أصنع رضى الله، وأرجو عفوه. فقال له عبد الله: أعطي ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه

---

(١) الحُزَّة: القطعة من اللحم. والفلذان جمع الفلذة: وهي قطعة الكبد. والغمر: القدح الصغير.

(٢) مستكنات الحلق أي: بواطن الرحم.

(٣) الشمطاء: التي خالط بياض رأسها سواد.

وأمسك عن الصدقة، فنزلت ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ أي: يوم أُحد حين ترك المركز ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ ثم قطع نفقته إلى قوله ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾؛ فعاد عثمان إلى ما كان عليه، عن ابن عباس والسدي والكلبي وجماعة من المفسرين.

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه فَعَيَّره بعض المشركين، وقالوا: تركت الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم في النار، قال: إني خشيت عذاب الله. فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، ففعل فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له، ثم بخل ومنعه تمام ما ضمن له، فنزلت ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان، ﴿وَأَعْطَىٰ﴾ صاحبه الضامن ﴿قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي: بخل بالباقي، عن مجاهد وابن زيد.

وقيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وذلك أنه ربما كان يوافق رسول الله ﷺ في بعض الأمور، عن السدي. وقيل: نزلت في رجل قال لأهله: جهزوني حتى أنطلق إلى هذا الرجل، يريد النبي ﷺ، فتجهز وخرج فلقيه رجل من الكفار فقال له: أين تريد؟ فقال: محمداً، لعلي أصيب من خيره، قال له الرجل: أعطني جهازك وأحمل عنك إثمك، عن عطاء بن يسار. وقيل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنه قال: والله ما يأمرنا محمد إلا بمكارم الأخلاق، فذلك قوله: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي: لم يؤمن به، عن محمد بن كعب القرظي.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن كمال قدرته وسعة ملكه فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا اعتراض بين الآية الأولى وبين قوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ واللام في ﴿لِيَجْزِىَ﴾ تتعلق بمعنى الآية الأولى، لأنه إذا كان أعلم بهم جازى كلّاً منهم بما يستحقه، وذلك معنى لام العاقبة، وذلك أن علمه بالفريقين أدى إلى جزائهم باستحقاقهم، وإنما يقدر على مجازاة المحسن والمسيء إذا كان كثير الملك، ولذلك أخبر به في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾، أي: أشركوا بما عملوا من الشرك. ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ أي: وحدوا ربهم ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ أي: بالجنة. وقيل: إن اللام في ﴿لِيَجْزِىَ﴾ يتعلق بما في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأن المعنى في ذلك أنه خلقهم ليتعبدهم[1]، فمنهم المحسن ومنهم المسيء، وإنما كلّفهم ليجزي كلّاً منهم بعلمه[2] وعمله. فتكون اللام للغرض.

ثم وصف سبحانه الذين أحسنوا فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: عظائم الذنوب ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ جمع فاحشة وهي أقبح الذنوب وأفحشها، وقد بيّنّا اختلاف الناس في الكبائر في سورة النساء. وقد قيل: إن الكبيرة كل ذنب ختم بالنار، والفاحشة كل ذنب فيه الحد. ومن قرأ «كبير الإثم» فلأنه يضاف إلى واحد في اللفظ وإن كان يراد به الكثرة. ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ اختلف في معناه، فقيل: هو صغار الذنوب كالنظر والقبلة وما كان دون الزنا، عن ابن مسعود وأبي هريرة

(١) وفي نسخة: ليستعبدهم.
(٢) ليس في النسخ لفظة «بعلمه».

والشعبي. وقيل: هو ما ألموا به في الجاهلية من الإثم فهو معفو عنه في الإسلام، عن زيد بن ثابت. وعلى هذا فيكون الاستثناء منقطعاً. وقيل: هو أن يلم بالذنب مرة ثم يتوب ولا يعود، عن الحسن والسدي وهو اختيار الزجاج، لأنه قال: اللمم هو أن يكون الإنسان قد ألم بالمعصية ولم يقم على ذلك. ويدل على ذلك قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾. قال ابن عباس: لمن فعل ذلك وتاب، ومعناه أن رحمته تسع[1] جميع الذنوب لا تضيق عنه، وتم الكلام هنا.

ثم قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ يعني قبل أن خلقكم ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أنشأ أباكم آدم من أديم الأرض. وقال البلخي: يجوز أن يكون المراد به جميع الخلق، أي: خلقكم من الأرض عند تناول الأغذية المخصوصة التي خلقها من الأرض، وأجرى العادة بخلق الأشياء عند ضرب من تركيبها، وكأنه سبحانه أنشأهم منها. ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أي: في وقت كونكم أجنة في الأرحام، أي: علم من كل نفس ما هي صانعة وإلى ما هي صائرة، عن الحسن. وقيل: معناه أنه سبحانه علم ضعفكم وميل طباعكم إلى اللمم، وعلم حين كنتم في الأرحام ما تفعلون إذا خرجتم، وإذا علم ذلك منكم قبل وجوده، فكيف لا يعلم ما حصل منكم؟ ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تعظموها ولا تمدحوها بما ليس لها، فإني أعلم بها. وقيل معناه: لا تزكوها بما فيها من الخير ليكون أقرب إلى النسك والخشوع وأبعد من الرياء. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي: اتقى الشرك والكبائر. وقيل: هو أعلم بمن برَّ وأطاع وأخلص العمل.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ أي: أدبر عن الحق ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي: أمسك عن العطية وقطع، عن الفراء. وقيل: منع منعاً شديداً، عن المبرد. ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: ما غاب عنه من أمر العذاب ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أي: يعلم أن صاحبه يتحمل عنه عذابه ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ أي: بل لم يخبر ولم يحدث بما في أسفار التوراة. ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: وفي صحف إبراهيم ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ أي: تمم وأكمل ما أمر به. وقيل: بلغ قومه وأدى ما أمر به إليهم. وقيل: أكمل ما أوجب الله عليه من كل ما أمر وامتحن به.

ثم بيَّن ما في صحفها فقال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس حاملة حمل أخرى، والمعنى: لا تؤخذ نفس بإثم غيرها. ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ عطف على قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾، وهذا أيضاً مما في صحف إبراهيم وموسى، أي: ليس له من الجزاء إلا جزاء ما عمله، دون ما عمله غيره، ومتى دعا غيره إلى الإيمان فأجابه إليه فهو محمود على ذلك على طريق التبع، وكأنه من أجل عمله صار له الحمد على هذا، ولو لم يعمل شيئاً لما استحق جزاء، لا ثواباً ولا عقاباً[2].

عن ابن عباس في رواية الوالبي قال: إن هذا منسوخ الحكم في شريعتنا، لأنه سبحانه يقول: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ رفع درجة الذرية، وإن لم يستحقوها بأعمالهم، ونحو هذا قال

---

(١) وفي المخطوطة: واسعة تسع.
(٢) وفي نسخة: وعن ابن عباس.

عكرمة: إن ذلك لقوم إبراهيم وموسى. فأما هذه الأمة فلهم ما سعى غيرهم نيابة عنهم. ومن قال: إنه غير منسوخ الحكم قال: الآية تدل على منع النيابة في الطاعات، إلا ما قام عليه الدليل كالحج، وهو أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن أبي لم يحج، قال: فحجي عنه. ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ يعني أن ما يفعله الإنسان ويسعى فيه لا بد أن يرى فيما بعد، بمعنى أنه يجازى عليه. وبين ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أي: يجازى على الطاعات بأوفى ما يستحقه من الثواب الدائم. والهاء في ﴿يُجْزَىٰهُ﴾ عائدة إلى السعي، والمعنى أنه يرى العبد سعيه يوم القيامة ثم يجزى سعيه أوفى الجزاء.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة والبصرة غير سهل: «عادَ لُّولى» مدغمة غير منونة ولا مهموزة إلا في رواية قالون عن نافع، فإنه روي عنه «عاد لّؤلى» مهموزة ساكنة. وقرأ الباقون: «عاداً الأولى» منونة مهموزة غير مدغمة. وقرأ عاصم وحمزة ويعقوب: «وثمود فما أبقى» بغير تنوين، والباقون: «وثموداً» بالتنوين.

● **الحجة:** قال أبو علي: قال أبو عثمان: أساء عندي أبو عمرو في قراءته، لأنه أدغم النون في لام المعرفة، واللام إنما تحركت بحركة الهمزة وليست بحركة لازمة. والدليل على ذلك أنك تقول: الَحْمَر، فإذا طرحت حركة الهمزة على اللام، لم يحذف ألف الوصل، لأنها ليست بحركة لازمة. قال أبو عثمان: ولكن كان أبو الحسن روى عن بعض العرب أنه كان يقول: هذا لَحْمَر قد جاء. فيحذف ألف الوصل لحركة اللام.

وقال أبو علي: القول في ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ أن من حقق الهمزة في ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ سكن لام المعرفة، وإذا سكنت لام المعرفة، والتنوين من قولك ﴿عَادًا﴾ المنصوب ساكن، التقى ساكنان، النون في ﴿عَادًا﴾ ولام المعرفة، فحركت التنوين بالكسر لالتقاء الساكنين، وهذا وجه قول من لم يدغم. وقياس قول من قال: «أحد الله» فحذف التنوين لالتقاء الساكنين أن يحذفه هنا أيضاً كما حذفه في «أحد الله»، وكما حذفه في قوله: ولا ذاكراً الله: إلا أن ذا لا يدخل في القراءة وإن كان قياساً، وجاء في الشعر كثيراً، وجاء في بعض القراءة.

ويجوز في قول من خفف الهمزة من ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ على قول من قال: الَحْمَر فلم يحذف الهمزة للوصل، أن يحرك التنوين فيقول: «عادنِ لُولى»[١]، كما يقول في ذلك إذا حقق الهمزة، لأن اللام على هذا في تقدير السكون، فكما تكسر التنوين لالتقاء الساكنين كذا تكسره في هذا القول، لأن التنوين في تقدير الالتقاء مع الساكن.

ومن حرك لام المعرفة وحذف همزة الوصل، فقياسه أن يسكن النون من عادن فيقول: «عادن لولى» لأن اللام[٢] ليس في تقدير السكون، كما كان في الوجه الأول كذلك. ألا ترى أنه حذف همزة الوصل، فإذا كان كذلك ترك النون على سكونها، كما تتركه في نحو: عاد ذاهب. فأما قول أبي عمرو: «عاد لولى» فإنه لما خفف الهمزة ـ التي هي منقلبة عن الفاء لاجتماع الواوين أولاً ـ ألقى حركتها على اللام الساكنة وقبل اللام نون ساكنة، فأدغمها في اللام، كما يدغمها في الراء في نحو: من رّاشد، وذلك بعد أن يقلبها لاماً أو راءاً فإذا أدغمها فيها صار «عادَ لُولى».

وخرج عن الإساءة التي نسبها إليه أبو عثمان من وجهين:

أحدهما: أن يكون خفيف الهمزة من قوله: ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ على قول من قال: لَحْمَر كأنه يقول في التخفيف للهمزة قبل الإدغام: لولى، فخرجت اللام من حكم السكون بدلالة حذف همزة الوصل معه، فحسن الإدغام فيه.

والوجه الآخر: أن يكون أدغم على قول من قال: الُولى الَحْمَر، فلم يحذف الهمزة التي للوصل مع إلقاء الحركة على لام المعرفة، لأنه في تقدير السكون فلا يمتنع أن يدغم فيه، كما لا يمتنع أن يدغم في نحو: رد وفر وعض. وإن كانت لاماتهن سواكن للإدغام كما تحركت السواكن التي ذكرتا للإدغام.

وأما ما روي عن نافع من أنه همز فقال: «عاد لؤلى»، فإنه كما روى عن ابن كثير من قوله: «على سؤقه»، فوجهه أن الضمة لقربها من الواو وأنه لم يحجز بينهما شيء، صارت كأنها عليها، فهمزها كما تهمز الواوات إذا كانت مضمومة، نحو: أدؤر والغوؤر، وهذه لغة قد رويت وحكيت وإن لم تكن بتلك الفاشية.

● **اللغة:** المَنْيُ. التقدير، يقال: منى يَمنِي فهو مانٍ، قال الشاعر:

حتى تبيَّن ما يمني لك الماني

ومنه المنية لأنها المقدرة. والنشأة: الصنعة المخترعة خلاف المشيئة. وأقنى من القُنية وهي أصل المال، وما يقتنى، والاقتناء: جعل الشيء للنفس على الدوام، ومنه القناة لأنها مما تقتنى. والشعرى: النجم الذي خلف الجوزاء، وهو أحد كوكبي ذراع الأسد، وقسم[٣] المِرزم، وكانوا

(١) وفي نسختين: «عادن لولى».
(٢) وفيهما: «لأن اللام الآن».
(٣) في سائر النسخ: «فم المرزم».

يعبدونها في الجاهلية. والمؤتفكة: المنقلبة، وهي التي صار أعلاها أسفلها، وأسفلها أعلاها، ائتفكت بهم تأتفك ائتفاكاً، ومنه الإفك؛ الكذب، لأنه قلب المعنى على جهته. وأهوى أي: أنزل بها في الهواء، ومنه: أهوى بيده ليأخذ كذا وهوى يهوي: نزل في الهوى[1]، فأما إذا نزل في سلم أو درج فلا يقال أهوى ولا هوى. وأزفت الآزفة أي: دنت الدانية. قال النابغة:

أَزِفَ التَّرَجُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنا لَمَّا تَزُلْ بِرِجالِنا، وكَأَنْ قَدِ

وقال كعب بن زهير:

بانَ الشبابُ وأمسى الشيبُ قد أزِفا ولا أرى لِشَبابٍ ذاهبٍ خلفا

والسمود: اللهو، والسامد: اللاهي، يقال سمد يَسْمُد. قال:

رمى الحَدَثانُ نسوةَ آل حِرْبٍ بمقدارٍ سَمَدْنَ لَهُ سُمُودا
فَرَدَّ شعورَهُنَّ السُّودَ بيضاً، ورَدَّ وُجُوهَهُنَ البِيضَ سودا

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم فقال: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ يعني: وأن إلى ثواب ربك وعقابه آخر الأمر. والمنتهى والآخر واحد، وهو المصير إلى حيث ينقطع العمل عنده. ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ أي: فعل سبب الضحك والبكاء، من السرور والحزن كما يقال: أضحكني فلان وأبكاني، عن عطاء والجبائي. وقيل: أضحك أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار، عن مجاهد. والضحك والبكاء من فعل الإنسان، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ وقال: ﴿تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ﴾ فنسب الضحك إليهم. وقال الحسن: إن الله سبحانه هو الخالق للضحك والبكاء.

والضحك: تفتح أسرار الوجه عن سرور وعجب في القلب، فإذا هجم على الإنسان منه ما لا يمكنه دفعه فهو من فعل الله.

والبكاء: جريان الدمع على الخد عن غم في القلب، وربما كان عن فرح يمازجه تذكر حزن، فكأنه عن رقة في القلب. وقيل: معنى الآية أضحك الأشجار بالأنوار، وأبكى السحاب بالأمطار. وقيل: أضحك المطيع بالرحمة وأبكى العاصي بالسخطة.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي: خلق الموت فأمات به الأحياء، لا يقدر على ذلك غيره، لأنه لو قدر على الموت لقدر على الحياة، فإن القادر على الشيء قادر على ضده، ولا يقدر أحد على الحياة إلا الله تعالى. وخلق الحياة التي يحيا بها الحيوان فأمات الخلق في الدنيا وأحياهم في العقبى للجزاء. ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ أي: الصنفين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ من كل حيوان ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أي: إذا خرجت منهما وتنصب في الرحم. والنطفة: ماء الرجل والمرأة التي يخلق منها الولد، عن عطاء والضحاك والجبائي. وقيل: تمنى أي: تقدر وهو أصله، فالمعنى: تلقى على

(١) وفي نسخين «الهواء».

تقدير في رحم الأنثى. ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي: الخلق الثاني للبعث يوم القيامة، يعني عليه أن يبعث الناس أحياء للجزاء.

فإن قيل: إن لفظة «على» كلمة إيجاب، فكيف يجب على الله سبحانك ذلك؟ فالجواب: أنه سبحانه إذا كلف الخلق فقد ضمن الثواب، فإذا فعل فيهم الآلام فقد ضمن العوض، فإذا لم يعوض في الدنيا وخلى بين المظلوم والظالم، فلا بد من دار أخرى يقع فيها الجزاء والإنصاف والانتصاف، وقد وعد سبحانه بذلك فيجب الوفاء به.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي: أغنى الناس بالأموال وإعطاء القنية وأصول المال، وما يدخرونه بعد الكفاية، عن أبي صالح. وقيل: أقنى أي: أخدم، عن الحسن ومجاهد وقتادة. وقيل: أغنى موَّل، وأقنى أرضى بما أعطى، عن ابن عباس. وقيل: أغنى بالقناعة، وأقنى بالرضى، عن سفيان. وقيل: أغنى بالكفاية، وأقنى بالزيادة. وقيل: أغنى من شاء، وأقنى أي: أفقر، وحرم من شاء، عن ابن زيد.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ أي: خالق الشعرى ومخترعها ومالكها، أي: فلا تتخذوا المربوب المملوك إلهاً. وقيل: إن خزاعة كانت تعبدها، وأول من عبدها أبو كبشة أحد أجداد النبي ﷺ من قبل أمهاته، وكان المشركون يسمونه ﷺ ابن أبي كبشة، لمخالفته إياهم في الدين، كما خالف أبو كبشة غيره في عبادة الشعرى.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ وهو عاد بن إرم، وهم قوم هود، أهلكهم الله بريح صرصر عاتية، وكان لهم عقب فكانوا عاداً الأخرى. قال ابن إسحاق: أهلكوا ببغي بعضهم على بعض فتفانوا بالقتل. ﴿وَثَمُودَا۟﴾ أي: وأهلك ثمود ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ ولا يجوز أن يكون منصوباً بأبقى، لأن «ما» لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، لا يقال: زيداً ما ضربت، لأنها تجري مجرى الاستفهام في أن لها صدر الكلام. وإنما فتحت «أن» في هذه المواضع كلها لأن جميعها في صحف إبراهيم وموسى، فكأنه قال: أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى، بأنه ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وبأنه كذا وكذا. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ من غيرهم لطول دعوة نوح، وعُتُوِّهم على الله في الكفر والتكذيب. ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ يعني قرى قوم لوط المخسوفة ﴿أَهْوَىٰ﴾ أي: أسقط، أهواها جبرائيل بعد أن رفعها وأتبعهم الله بالحجارة، وذلك قوله: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أي: ألبسها من العذاب ما ألبس، يعني الحجارة المسوَّمة التي رُموا بها من السماء، عن قتادة وابن زيد. وقيل: إنه تفخيم لشأن العذاب الذي نالها من جهة إبهامه في قوله: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ فكأنه قال: قد حلَّ بهم من العذاب والتنكيل ما يجل عن البيان والتفصيل.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي: بأي نعم ربك ترتاب وتشك أيها الإنسان فيما أولاك أو فيما كفاك، عن قتادة. وقيل: لما عد الله سبحانه ما فعله مما يدل على وحدانيته، قال: فبأي نعم ربك التي تدل على وحدانيته تتشكك. وإنما ذكَّره بالنعم بعد تعديد النقم، لأن النقم التي عددت هي نعم علينا لما لنا فيها من اللطف في الانزجار عن القبيح، إذ نالهم تلك النقم بكفرانهم

النعم. ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أشار إلى رسول الله ﷺ، عن قتادة. و ﴿ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ الرسل قبله. وقيل: هو إشارة إلى القرآن، والنذر الأولى: صحف إبراهيم وموسى، عن أبي مالك. وقيل معناه: هذه الأخبار التي أخبر بها عن إهلاك الأمم الأولى نذير لكم، عن الجبائي.

﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ﴾ أي: دنت القيامة واقتربت الساعة، وإنما سميت القيامة آزفة أي: دانية، لأن كل ما هو آت قريب. ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: إذا غشيت الخلق شدائدها وأهوالها لم يكشف عنهم أحد ولم يردها، عن عطاء والضحاك وقتادة. وتأنيث «كاشفة» على تقدير: نفس كاشفة أو جماعة كاشفة، ويجوز أن يكون مصدر: كالعافية، والعاقبة، والواقية، والخائنة، فيكون المعنى: ليس لها من دون الله كشف، أي: لا يكشف عنها غيره، ولا يظهرها سواء. كقوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾. ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني بالحديث ما قدم من الأخبار، عن الصادق عليه السلام. وقيل معناه: أفمن هذا القرآن ونزوله من عند الله على محمد ﷺ وكونه معجزاً ﴿تَعْجَبُونَ﴾ أيها المشركون، ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ انزجاراً لما فيه من الوعيد؟ ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي: غافلون لاهون معرضون، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: هو الغناء، كانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء ليشغلوا الناس عن استماعه، عن عكرمة. ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾ أمرهم سبحانه بالسجود له، والعبادة خالصاً مخلصاً. وفي الآية دلالة على أن السجود هاهنا واجب على ما ذهب إليه أصحابنا، لأن ظاهر الأمر يقتضي الوجوب.

سُورَةُ القَمَرِ

مكية/آياتها (٥٥)

وهي خمس وخمسون آية بالإجماع.

● **فضلها:** أُبَيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «ومَن قرأ سورة اقتربت الساعة في كل غِبٍّ، بعث يوم القيامة ووجهه على صورة القمر ليلة البدر، ومن قرأها كل ليلة كان أفضل، وجاء يوم القيامة ووجهه مسفر على وجوه الخلائق». وروى يزيد بن خليفة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة اقتربت الساعة، أخرجه الله من قبره على ناقة، من نوق الجنة.

● **تفسيرها:** ختم الله سبحانه تلك السورة بذكر أزوف الآزفة، وافتتح هذه السورة بمثله، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ
﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ
مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ
إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا
وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: «وكلُّ أمرٍ مستقرٍ» بالجر، والباقون: بالرفع. وقرأ ابن كثير ونافع: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ بغير ياء، و﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ بياء في الوصل. وروي عن ورش «يوم يدع الداع» بياء في الوصل. وقرأهما أبو جعفر وأبو عمرو بإثبات الياء في الوصل، والباقون: بغير ياء في وصل ولا وقف. وقد تقدم القول في هذا النحو. وقرأ ابن كثير: «إلى شيء نُكْر» بالتخفيف، والباقون: «نُكُر» بضمتين. وقرأ أهل العراق غير عاصم: «خاشعاً أبصارهم»، والباقون: «خشعاً». وفي الشواذ قراءة حذيفة: «وقد انشق القمر»، وقراءة مجاهد والجحدري وأبي قلابة: «إلى شيء نُكِرَ».

● **الحجة:** من قرأ: «مستقرٍ» بالجر، جعله صفة لـ«أمر». ومن قرأ بالرفع جعله خبر لـ«كل أمر». وأما قراءة «نُكُر» فإنه على فُعُل، وهو أحد الحروف التي جاءت صفة على هذه الزنة، ومثله: ناقة أُجُد، ومِشية سُجُح صفة، قال حسّان:

دعوا التَّحاجُزَ وامْشُوا مَشْيَةً سُجُحاً، إنَّ الرجالَ ذَوُو عَضْبٍ، وتذكيرِ(١)

ومن قرأ: «نكْر» خففه، مثل: رسْل وكتْب، والضمة في تقدير الثبات. ومن قرأ: «خاشعاً أبصارهم» فإنه كما لم يلحق علامة التأنيث لم يجمع، وحسن ألا يؤنث، لأن التأنيث ليس بحقيقي. ومن قال: «خُشعاً» فقد أثبت ما يدل على الجمع، وهو على لفظ الإفراد، ودل لفظ الجمع على لفظ ما يدل عليه التأنيث الذي ثبت في نحو قوله في الآية الأخرى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾، ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾. قال الزجاج: ولك في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد، نحو قوله: «خاشعاً أبصارهم». ولك التوحيد والتأنيث نحو: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ ولك الجمع نحو: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾. تقول: مررت بشباب حَسَنٍ أوجههم، وحِسان وجوههم، وحَسنة أوجههم، قال:

وشبابٍ حَسَنٍ أَوْجُهُهُمْ مِنْ إيادِ بْنِ نزارِ بنِ مَعَد

قال ابن جني: قراءة حذيفة: «وقد انشق القمر» يجري مجرى الموافقة على إسقاط العذر ورفع التشكك، أي: قد كان انشقاق القمر متوقعاً، دلالة على قرب الساعة، فإذا كان قد انشق وانشقاقه من أشراطها، وقد يوكد الأمر في قرب وقوعها، وذلك أن «قد» إنما هو جواب وقوع أمر كان متوقعاً.

● **اللغة:** في «اقتربت» زيادة مبالغة على قرب، كما أن في اقتدر زيادة مبالغة على قدر، لأن أصل افتعل إعداد المعنى بالمبالغة، نحو: اشتوى إذا اتخذ شواء بالمبالغة في إعداده. والأهواء: جمع الهوى، وهو رقة القلب بميل الطباع كرقة هواء الجو. يقال: هوِي يهوي هوىً فهو هَوٍ، إذا مال طبعه إلى الشيء. والمزدجر: المتعظ، مفتعل من الزجر، إلا أن التاء أبدلت ذالاً لتوافق الزاي بالجهر. ويقال: أنكرت الشيء فهو مُنكر، ونكِرته فهو منكور. وقد جمع الأعشى بين اللغتين فقال:

وأنكَرَتْنِي وما كان الذي نَكِرَتْ من الحوادثِ إلا الشَّيبَ والصَّلَعا(٢)

والنكر والمنكر: الشيء الذي تأباه النفس، ولا تقبله من جهة نفور الطبع عنه، وأصله من الإنكار الذي هو نقيض الإقرار. والأجداث: القبور، جمع جدث، والجدف بالفاء لغة فيه. والإهطاع: الإسراع في المشي.

● **الإعراب:** ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ يجوز أن يكون «ما» للجحد فيكون حرفاً، ويجوز أن يكون استفهاماً فيكون اسماً، والتقدير في الأول: فلا تغني النذر، وفي الثاني: فأي شيء تغني النذر. قال الزجاج: قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾ وقف التمام: ﴿فَتَوَلَّ

---

(١) التحاجز: التمانع. والسَّجَح: اللين السهل. والعضب: السيف القاطع. وذكّر الفأس، وغيره: جعل على رأسه القطعة من الفولاذ.

(٢) الصَّلَع: انحسار شعر مقدّم الرأس.

عَنۡهُمۡ﴾. و﴿يَوۡمَ﴾ منصوب بقوله: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾. وأما حذف الواو من «يدعو» في الكتاب، فلأنها تحذف في اللفظ لالتقاء الساكنين، فأجريت في الكتاب على ما يلفظ بها. وأما «الداعي» فإثبات الياء فيه أجود، ويجوز حذفها لأن الكسرة تدل عليها. وقوله: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ منصوب على الحال من الواو في ﴿يَخۡرُجُونَ﴾، وفيه تقديم وتأخير، تقديره: يخرجون خشعاً أبصارهم من الأجداث. وإن شئت كان حالاً من الضمير في قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾. و﴿مُّهۡطِعِينَ﴾ أيضاً منصوب على الحال، و﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ﴾ تقديره: دعا ربه بأني مغلوب. وقرأ عيسى بن عمر «إني» بالكسر على إرادة القول، أي: فدعا ربه قال: إني مغلوب، ومثله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾ التقدير: ما نعبدهم إلا ليقربونا.

● **المعنى**: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: قربت الساعة التي تموت فيها الخلائق وتكون القيامة، والمراد: فاستعدوا لها قبل هجومها، ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ قال ابن عباس: «اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، فقال لهم رسول الله ﷺ: إن فعلت تؤمنون؟ قالوا: نعم: وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا، فانشق القمر فرقتين، ورسول الله ينادي: «يا فلان، يا فلان، اشهدوا». وقال ابن مسعود: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اشهدوا اشهدوا». وروي أيضاً عن ابن مسعود أنه قال: والذي نفسي بيده لقد رأيت حراء بين فلقي القمر. وعن جبير بن مطعم قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فرقتين، على هذا الجبل، وعلى هذا الجبل، فقال ناس: سحرنا محمد، فقال رجل: إن كان سحركم فلم يسحر الناس كلهم. وقد روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة، منهم عبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وحذيفة بن اليمان، وابن عمر، وابن عباس، وجبير بن مطعم، وعبد الله بن عمر، وعليه جماعة المفسرين، إلا ما روي عن عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: معناه: وسينشق القمر. وروي ذلك عن الحسن، وأنكره أيضاً البلخي، وهذا لا يصح، لأن المسلمين أجمعوا على ذلك فلا يعتد بخلاف من خالف فيه، ولأن اشتهاره بين الصحابة يمنع من القول بخلافه. ومن طعن في ذلك بأنه لو وقع انشقاق القمر في عهد رسول الله ﷺ لما كان يخفى على أحد من أهل الأقطار، فقوله باطل، لأنه يجوز أن يكون الله تعالى قد حجبه عن أكثرهم بغيم وما يجري مجراه، ولأنه قد وقع ذلك ليلاً، فيجوز أن يكون الناس كانوا نياماً فلم يعلموا بذلك، على أن الناس ليس كلهم يتأملون ما يحدث في السماء وفي الجو من آية وعلامة، فيكون مثل انقضاض الكواكب وغيره مما يغفل الناس عنه. وإنما ذكر سبحانه اقتراب الساعة مع انشقاق القمر لأن انشقاقه من علامة نبوة نبينا ﷺ، ونبوته وزمانه من أشراط اقتراب الساعة.

﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ﴾ هذا إخبار من الله تعالى، عن عناد كفار قريش، وأنهم إذا رأوا آية معجزة أعرضوا عن تأملها والانقياد لصحتها عناداً وحسداً. ﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ أي: قوي شديد يعلو كل سحر، عن الضحاك وأبي العالية وقتادة. وهو من إمرار الحبل وهو من شدة فتله. واستمر الشيء: إذا قوي واستحكم. وقيل: معناه سحر ذاهب مضمحل لا يبقى، عن مجاهد، وهو من المرور. وقال المفسرون: لما انشق القمر قال مشركو قريش: سحرنا محمد، فقال الله

سبحانه: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾ عن التصديق والإيمان بها. قال الزجاج: وفي هذا دلالة على أن ذلك قد كان وقع. وأقول: ولأنه تعالى قد بيَّن أنه يكون آية على وجه الإعجاز، وإنما يحتاج إلى الآية المعجزة في الدنيا ليستدل الناس بها على صحة النبوة. ويعرف صدق الصادق، لا في حال انقطاع التكليف والوقت الذي يكون الناس فيه ملجئين إلى المعرفة، ولأنه سبحانه قال: ﴿وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ وفي وقت الإلجاء لا يقولون عن المعجز أنه سحر. ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ أي: بالآية التي شاهدوها ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ في التكذيب وما زين لهم الشيطان من الباطل الذي هم عليه. ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ فالخير يستقر بأهل الخير، والشر يستقر بأهل الشر، عن قتادة. والمعنى: إن كل أمر خير وشر مستقر ثابت حتى يجازى به صاحبه إما في الجنة أو في النار. وقيل: معناه لكل أمر حقيقة ما كان منه في الدنيا فسيظهر، وما كان منه في الآخرة فسيعرف، عن الكلبي.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ أي: ولقد جاء هؤلاء الكفار ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ يعني الأخبار العظيمة في القرآن بكفر من تقدم من الأمم وإهلاكنا إياهم ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: متعظ وهو بمعنى المصدر، أي: ازدجار عن الكفر وتكذيب الرسل، ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ يعني القرآن حكمة(١) تامة قد بلغت الغاية والنهاية. ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: أي شيء تنفع النذر مع تكذيب هؤلاء وإعراضهم، وهو جمع النذير. وقيل: معناه فلا تغني النذر شيئاً، أي: إن الأنبياء الذين بعثوا إليهم لا يغنون عنهم شيئاً من عذاب الله الذي استحقوه بكفرهم، لأنهم خالفوه ولم يقبلوا منهم، عن الجبائي. وقيل: النذر هي الزواجر المُخَوِّفة وآيات الوعيد.

ثم أمره سبحانه بالإعراض عنهم فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم ولا تقابلهم على سفههم. وهاهنا وقف تام. ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي: منكر غير معتاد ولا معروف، بل أمر فظيع لم يروا مثله فينكرونه استعظاماً. واختلف في الداعي فقيل: هو إسرافيل يدعو الناس إلى الحشر قائماً على صخرة بيت المقدس، عن مقاتل: وقيل: بل الداعي يدعوهم إلى النار و﴿يَوْمَ﴾ ظرف ﴿يَخْرُجُونَ﴾ أي: في هذا اليوم يخرجون من الأجداث، ويجوز أن يكون التقدير: في هذا اليوم يقول الكافرون: وقوله: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ يعني خاشعة أبصارهم، أي: ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب، وإنما وصف الأبصار بالخشوع، لأن ذلة الذليل، أو عزة العزيز تتبين في نظره وتظهر في عينه. ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ والمعنى أنهم يخرجون فزعين يدخل بعضهم في بعض، ويختلط بعضهم ببعض، لا جهة لأحد منهم فيقصدها، كما أن الجراد لا جهة لها، فتكون أبداً متفرقة في كل جهة. قال الحسن: الجراد يتلبَّد حتى إذا طلعت عليها الشمس انتشرت. فالمعنى أنهم يكونوا ساكنين في قبورهم، فإذا دعوا خرجوا وانتشروا. وقيل: إنما شبَّههم بالجراد لكثرتهم. وفي هذه الآية دلالة على أن البعث إنما يكون لهذه البنية، لأنها الكائنة في الأجداث، خلافاً لمن زعم أن البعث يكون للأرواح. ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ أي: مقبلين إلى الصوت الداعي، عن قتادة. وقيل: مسرعين إلى

---

(١) [بالغة].

إجابة الداعي، عن أبي عبيدة. وقيل: ناظرين قبل الداعي قائلين: هذا يوم عسر، عن الفراء وأبي علي الجبائي. وهو قوله: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: صعب شديد، وقد قيل أيضاً في قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أقوال أخر:

أحدها: إن المعنى فأعرض عنهم إذا تعرضوا لشفاعتك يوم يدع الداعي، وهو يوم القيامة، فلا تشفع لهم ذلك اليوم كما لم يقبلوا منك اليوم.

وثانيها: إن معناه فتول عنهم، فإنهم يرون ما ينزل بهم من العذاب يوم يدع الداعي وهو يوم القيامة، فحذف الفاء من جواب الأمر.

وثالثها: إن معناه فتولى عنهم فإنهم يوم يدعو الداعي صفتهم كذا وكذا، وهي ما بيّنه إلى قوله ﴿يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

ورابعها: فتول عنهم واذكر يوم يدع الداع إلى آخره، عن الحسن.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل كفار مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ نوحاً كما كذبك يا محمد هؤلاء الكفار وجحدوا نبوتك، ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ أي: هو مجنون قد غطى على عقله ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: زُجِرَ بالشتم والرمي بالقبيح، عن ابن زيد. وقيل: معناه زُجِرَ بالوعيد وتوعد بالقتل فهو مثل قوله: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾. ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ أي: فقال: يا رب، قد غلبني الكفار بالقهر لا بالحجة، فانتصر، أي: فانتقم لي منهم بالإهلاك والدمار نصرة لدينك ونبيك. وفي هذا دلالة على وجوب الانقطاع إلى الله تعالى عند سماع الكلام القبيح من أهل الباطل.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب: «ففتّحنا» بالتشديد، والباقون بالتخفيف.

● **الحجة:** وجه التخفيف أن فعلنا بالتخفيف يدل على القليل والكثير، ووجه التثقيل أنه يخص الكثير(١)، ويقويه قوله: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾.

---

(١) وفي نسختين: «الكثير بالكثير». وفي نسخة: «الكثير بالتكثير».

● **اللغة:** الهمر: صب الدمع والماء بشدة، والانهمار: الانصباب، قال امرؤ القيس:

راح تَـمْـرِيـهِ الـصَّـبـا، ثُـمَّ انـتـحـى   فـيـه شـؤْبُـوبٌ جنُـوبٍ مُـنْـهَـمِـر(١)

والتفجير: تشقيق الأرض عن الماء. والعيون: جمع عين الماء. وهو ما يفور من الأرض مستديراً كاستدارة عين الحيوان، فالعين مشتركة بين عين الحيوان، وعين الماء، وعين الذهب(٢)، وعين السحاب، وعين الركبة. والدسر: المسامير التي تشد بها السفينة، واحدها دسار ودسير، ودسرت السفينة أدسرها دسراً: إذا شددتها. وقيل: إن أصل الباب الدفع، يقال: دسره بالرمح: إذا دفعه بشدة، والدسر: صدر السفينة لأنه يدسر به الماء أي: يدفع. ومنه الحديث في العنبر: «هو شيء دسره البحر». ومُدَّكر: أصله مذتكر، فقلبت التاء دالًا لتواخي الذال بالجهر، ثم أدغمت الدال فيها. والنذر: اسم من الإنذار يقوم مقام المصدر، يقال: أنذره نذراً بمعنى إنذاراً، ومثله أنزله نزلًا بمعنى إنزالًا، ويجوز أن يكون جمع نذير. والصرصر: الريح الشديدة الهبوب التي يسمع صوتها، وهو مضاعف صر، يقال: صرَّ وصرصر وكبَّ وكبكب ونَّه ونهنه. والمستمر: الجاري على طريقة واحدة. وأعجاز النخل: أسافله، والنخل يذكر ويؤنث. والمنقعر: المنقلع عن أصله، لأن قعر الشيء قراره، وتقعر في كلامه تقعراً: إذا تعمق.

● **الإعراب:** ﴿عُيُونًا﴾ نصب على التمييز أو الحال، والأصل: وفجرنا عيون الأرض، والمعنى: وفجرنا جميع الأرض عيوناً. ويجوز أن يكون تقديره: بعيون، فحذف الجار. ويجوز أن يكون التقدير: وفجرنا من الأرض عيوناً. وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٍ﴾(٣) في موضع نصب على الحال، وقوله: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ في موضع نصب بأنه ظرف مكان. ﴿جَزَآءً﴾ منصوب بأنه مفعول له، ويجوز أن يكون مصدراً وضع موضع الحال، والمعنى: فعلنا ذلك مجازين جزاء. و﴿ءَايَةً﴾ منصوبة على الحال من الهاء في ﴿تَّرَكۡنَٰهَآ﴾.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه إجابته لدعاء نوح عليه السلام، فقال: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هاهنا حذف معناه: فاستجبنا لنوح دعاءه ففتحنا أبواب السماء، أي: أجرينا الماء من السماء كجريانه إذا فتح عنه باب كان مانعاً له، وذلك من صنع الله الذي لا يقدر عليه سواه. وجاز ذلك على طريق البلاغة ﴿بِمَآءٍ مُّنۡهَمِرٍ﴾ أي: منصب انصباباً شديداً لا ينقطع. ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونًا﴾ أي: شققنا الأرض بالماء عيوناً حتى جرى الماء على وجه الأرض، ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ ماء السماء وماء الأرض. وإنما لم يُثَنَّ لأنه اسم جنس يقع على القليل والكثير. ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٍ قَدۡ قُدِرَ﴾ فيه هلاك القوم، أي: على أمر قد قدَّره الله تعالى وهو هلاكهم. وقيل: على أمر قدره الله تعالى وعرف مقداره، فلا زيادة فيه ولا نقصان. وقيل: معناه أنه كان قد قدر ماء السماء، مثل(٤) قدر ماء

---

(١) مرتِ الريح السحاب: استدره واستخرج ما فيها من الماء. وانتحى البعير: اعتمد في سيره على أيسره. والشؤبوب: الدفعة من المطر وشدّة دفع الشيء. والجنوب: يحتمل ريح الجنوب، أو نقطة الجنوب.

(٢) وفي نسخة: «عين الذهب، وعين الميزان» وفي نسخة «الميزاب».

(٣) في المخطوطة: «على أمر قد قدر».

(٤) ليس في سائر النسخ لفظة «ما».

الأرض، عن مقاتل. وقيل: معناه على أمر قدر عليهم في اللوح المحفوظ. ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ أي: وحملنا نوحاً على سفينة ذات ألواح مركبة[1] بعضها إلى بعض، وألواحها خشباتها التي منها جمعت ﴿وَدُسُرٍ﴾ أي: مسامير شدت بها السفينة، عن ابن عباس وقتادة وابن زيد. وقيل: هو صدر السفينة يدسر بها الماء، عن الحسن وجماعة. وقيل: هي أضلاع السفينة، عن مجاهد. وقيل: طرفاها وأصلها، والألواح: جانباها، عن الضحاك ﴿تَجْرِى﴾ السفينة في الماء ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحفظنا وحراستنا وبمرأى منا، ومنه قولهم: عين الله عليك. وقيل: معناه بأعين أوليائنا ومن وكلناهم بها من الملائكة. وقيل: معناه تجري بأعين الماء التي أنبعناها ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: فعلنا به وبهم ما فعلنا من إنجائه وإغراقهم ثواباً لمن كان قد كفر به وجحد أمره وهو نوح عليه السلام، والتقدير: لمن جحد نبوته وأنكر حقه بالله فيه.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي: تركنا هذه الفعلة التي فعلناها ﴿ءَايَةً﴾ علامة يُعتَبَر بها. وقيل: معناه تركنا السفينة ونجاة من فيها وإهلاك الباقين، دلالة باهرة على وحدانية الله تعالى. وعبرة لمن اتعظ بها، وكانت السفينة باقية حتى رآها أوائل هذه الأمة، عن قتادة. وقيل في كونها آية: إنها كانت تجري بين ماء السماء وماء الأرض، وقد كان غطاها على ما أمر الله تعالى. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: متذكر يعلم أن ذلك حق فيعتبر به ويخاف. وقيل: معناه فهل من طالب علم فيعان عليه، عن قتادة. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ هذا استفهام عن تلك الحالة ومعناه التعظيم لذلك العذاب، أي: كيف رأيتم انتقامي منهم وإنذاري إياهم. وقال الحسن: النذر: جمع نذير.

وإنما كرّر سبحانه هذا القول في هذه السورة، لأنه سبحانه لما ذكر أنواع الإنذار والعذاب، عقد التذكير بشيء منه على التفصيل.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: سهَّلناه للحفظ والقراءة حتى يقرأ كله ظاهراً، وليس من كتب الله المنزلة كتاب يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن، عن سعيد بن جبير. والتيسير للشيء هو تسهيله بما ليس فيه كثير مشقة على النفس، فمن سهل له طريق العلم فهو حقيق بأخذ الحظ الجزيل منه، لأن التسهيل أكبر داع إليه، وتسهيل القرآن للذكر هو خفة ذلك على النفس، بحسن البيان وظهور البرهان، في الحِكَم السَّنية والمعاني الصحيحة الموثوق بها لمجيئها من قبل الله تعالى. وإنما صار الذكر من أجل ما يدعى إليه ويحثّ عليه، لأنه طريق العلم، لأن الساهي عن الشيء أو عن دليله لا يجوز أن يعلمه في حال سهوه، فإذا تذكر الدلائل عليه والطرق المؤدية إليه تعرض لعلمه من الوجه الذي ينبغي له. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: مُتَّعِظ مُعتَبِر به ناظر فيه.

ثم قال سبحانه ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ أي: بالرسول الذي بعثه الله إليهم، وهو هود عليه السلام فاستحقوا الهلاك فأهلكهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى﴾ لهم ﴿وَنُذُرِ﴾ أي: وإنذاري إياهم. ثم بين كيفية إهلاكهم فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: شديدة الهبوب، عن ابن زيد. وقيل: باردة، عن ابن عباس وقتادة. من الصر وهو البرد. ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أي: في يوم شؤم ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي: دائم

---

(١) في سائر النسخ: «جمع بعضها».

الشؤم استمر عليهم بنحوسه سبع ليال وثمانية أيام حتى أتت عليهم، و﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ من صفة اليوم أي: يوم مستمر ضرره، عامّ هلاكه. وقيل: هو نعت للنحس، أي: استمر بهم العذاب والنحس في الدنيا حتى اتصل بالعقبى. قال[١] الزجاج: وقيل: إنه كان في يوم الأربعاء في آخر الشهر لا يدور، رواه العياشي بالإسناد عن أبي جعفر عليه السلام. ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: تقتلع هذه الريح الناس ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدقّ رقابهم، فيصيرون ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أي: أسافل نخل منقلع، لأن رؤوسهم سقطت عن أبدانهم، عن مجاهد. وقيل: معناه تنزع الناس من حفر حفروها ليستتروا بها عن الريح. وقيل: معناه تنزع أرواح الناس، عن الحسن. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ وهو تعظيم للعذاب النازل بهم، وتخويف لكفار مكة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر وحمزة: «ستعلمون» بالتاء، والباقون بالياء. وفي الشواذ قراءة ابن السماك: «أبشر منا» بالرفع، «واحداً نتبعه» بالنصب. وقراءة أبي قلابة: «الكذاب الأشرّ» بالتشديد. وقراءة مجاهد: «الأشُر» بضم الشين خفيفة. وقراءة الحسن: «كهشيم المحتظَر» بفتح الظاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه الياء أن قبله غيبة، وهو قوله: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا﴾[٢] ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾. ووجه التاء على أنه قيل لهم: «ستعلمون». وقال ابن جني، قوله: «أبشر» عندي مرفوع بفعل يدل عليه قوله: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ﴾، فكأنه قال: قال: أيبعث بشر منا. فأما انتصاب ﴿وَٰحِدًا﴾ فإن شئت جعلته حالاً من الضمير في قوله: ﴿مِّنَّا﴾ أي: ينبأ بشر كائن منا، والناصب لهذه الحال الظرف، كقولك: زيد في الدار جالساً. وإن شئت جعلته حالاً من الضمير في قوله: ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ أي: نتبعه واحداً، أي: منفرداً لا ناصر له.

وقوله: ﴿ٱلْأَشِرُ﴾ بتشديد الراء هو الأصل المرفوض، لأن أصل قولهم: هذا خير منه[٣] وشر منه، هذا أخير منه وهذا أشر منه، فكثر استعمال هاتين الكلمتين فحذفت الهمزة منهما.

(١) في نسخة «قاله».
(٢) في نسخة «فقيلي».
(٣) [هذا].

وأما «الأشر» فإنه مما جاء في فعِل وفَعُل من الصفات كحذِر وحذُر، ويقظ ويقُظ، ووطِف ووطُف، وعجِز وعجُز.

وأما «المحتَظَر» فإنه مصدر، أي: كهشيم الاحتظار، كقولك أجر البناء، وخشب النجارة، ويجوز أن يكون «المحتظر» الشجر أي: كهشيم الشجر المتخذة منه الحظيرة، أي: كما تتهافت من الشجر المجعول حظيرة. والهشيم: ما تهشم منه وانتثر.

● **اللغة:** السعر: جمع سعير وهو النار المسعرة، والسعر: الجنون، يقال: ناقة مسعورة، إذا كانت كأن بها جنوناً. وسُعِر[1] فلان جنوناً، وأصله: التهاب الشيء. والتعاطي: التناول. والمحتظر: الذي يعمل الحظيرة على بستانه أو غنمه[2]: وهو المنع من الفعل.

● **الإعراب:** ﴿أَبَشَرًا﴾ منصوب بفعل مضمر الذي ظهر تفسيره، وتقديره، أنتَّبع بشراً منا. وقوله: ﴿مِّنَّا﴾ صفة، أي: أبشراً كائناً منا. و﴿وَاحِدًا﴾ صفة بعد صفة. والبشر: يقع على الواحد والجمع. وقوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ في محل النصب على الظرف، و﴿فِتۡنَةً﴾ منصوب بأنه مفعول له، ويجوز أن يكون مصدراً وضع موضع الحال، أي: فاتنين لهم.

● **المعنى:** ثم أقسم سبحانه فقال: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ قد فسَّرناه. وقيل: إنه سبحانه إنما أعاد ذكر التيسير لينبيء أنه يسره على كل حال، وكل وجه من وجوه التيسير، فمن الوجوه التي يَسَّر الله تعالى بها القرآن هو أن أبان عن الحكم الذي يعمل عليه، والمواعظ التي يرتدع بها، والمعاني التي تحتاج إلى التنبيه عليها، والحجج التي يميز بها بين الحق والباطل، عن علي بن عيسى.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي: بالإنذار الذي جاءهم به صالح. وقد قال: إن النذر جمع نذير، قال معناه: إنهم كذَّبوا الرسل بتكذيبهم صالحاً، لأن التكذيب واحد من الرسل كتكذيب الجميع، لأنهم متفقون في الدعاء إلى التوحيد وإن اختلفوا في الشرائع. ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ أي: أنتبع آدمياً مثلنا وهو واحد؟ ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ﴾ أي: نحن إن فعلنا ذلك في خطأ وذهاب عن الحق، ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي: وفي عناء وشدة عذاب فيما يلزمنا من طاعته، عن قتادة. وقيل: في جنون، عن ابن عباس في رواية عطاء.

والفائدة في الآية بيان شبهتهم الركيكة التي حملوا أنفسهم على تكذيب الأنبياء من أجلها، وهي أن الأنبياء ينبغي أن يكونوا جماعة. وذهب عنهم أن الواحد من الخلق يصلح لتحمل أعباء الرسالة، وإن لم يصلح لها غيره من جهة معرفته بربه، وسلامة ظاهره وباطنه، وقيامه بما كُلِّف من الرسالة.

﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ هذا استفهام إنكار وجحود، أي: فكيف أُلقِي الوحي عليه وخُصَّ بالنبوة من بيننا وهو واحد منا؟ ﴿بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ﴾ فيما يقول، ﴿أَشِرٞ﴾ أي: بطر مُتَكبِّر يريد أن يتعظم علينا بالنبوة. ثم قال سبحانه: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ وهذا وعيد لهم، أي:

---

(١) وفي نسختين: «واستعر».

(٢) [وهو من الحظر].

سيعلمون يوم القيامة إذا نزل بهم العذاب، أهو الكذاب أم هم في تكذيبه؟ وهو الأشر البطر أم هم؟ فذكر مثل لفظهم مبالغة في توبيخهم وتهديدهم، وإنما قال: ﴿غَدًا﴾ على وجه التقريب على عادة الناس في ذكرهم الغد، والمراد به العاقبة. قالوا: إن مع اليوم غداً.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: نحن باعثو الناقة بإنشائها على ما طلبوها معجزة لصالح، وقطعاً لعذرهم، وامتحاناً واختباراً لهم، وهاهنا حذف وهو: إنهم تعنتوا على صالح، فسألوه أن يخرج لهم من صخرة ناقة حمراء عشراء تضع، ثم ترد ماءهم فتشربه، ثم تعود عليهم بمثله لبناً، فقال سبحانه: إنا باعثوها كما سألوها فتنة لهم، عن ابن عباس. ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ أي: انتظر ما يصنعون. ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على ما يصيبك من الأذى حتى يأتي أمر الله فيهم، ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ أي: أخبرهم ﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ يوم للناقة ويوم لهم، ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي: كل نصيب من الماء يحضره أهله، لا يحضر آخر معه، ففي يوم الناقة تحضره الناقة، وفي يومهم يحضرونه هم. وحضر واحتضر بمعنى واحد، وإنما قال: ﴿قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ تغليباً لمن يعقل. والمعنى: يوم لهم ويوم لها. وقيل: إنهم كانوا يحضرون الماء إذا غابت الناقة ويشربونه، وإذا حضرت حضروا اللبن وتركوا الماء لها، عن مجاهد. ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ أي: دبّروا في أمر الناقة بالقتل، فدعوا واحداً من أشرارهم، وهو قدار بن سالف، عاقر الناقة، ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ أي: تناول الناقة بالعقر فعقرها. وقيل: إنه كَمَنَ لها في أصل صخرة، فرماها بسهم فانتظم[1] به عضلة ساقها، ثم شد عليها السيف فكشف عرقوبها. وكان يقال له: أحمر ثمود وأُحَيْمِر ثمود. قال الزجاج: والعرب تغلط فتجعله أحمر عاد، فتضرب به المثل في الشؤم. قال زهير:

وتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمانَ أَشْأَمَ، كُلُّهُمْ، كَأَحْمَرِ عادٍ، ثم تُرْضِعْ فَتُفْطِمِ

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي: فانظر كيف أهلكتهم؟ وكيف كان عذابي لهم وإنذاري إياهم؟ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يريد جبرائيل عليه السلام، عن عطاء. وقيل: الصيحة: العذاب. ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ أي: فصاروا كهشيم، وهو حطام الشجر المنقطع بالكسر والرض الذي يجمعه صاحب الحظيرة، الذي يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها من برد الريح. والمعنى: إنهم بادوا وهلكوا فصاروا كيبيس الشجر المفتت[2] إذا تحطم، عن ابن عباس. وقيل معناه، صاروا كالتراب الذي يتناثر من الحائط، فتصيبه الرياح فيتحظر مستديراً، عن سعيد بن جبير.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ

(١) انتظم الصيد: طعنه، أو رماه حتى ينفذه.
(٢) وفي نسخة: «المتفتت».

أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

● **الإعراب:** «سحر» إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار. يقال: رأيت زيداً سحراً من الأسحار، فإذا أردت سحر يومك قلت: أتيته بسحر وأتيته سحَرَ. وقوله: ﴿نِعْمَةً﴾ مفعول له. وقوله: ﴿بُكْرَةً﴾ ظرف زمان، فإذا كان معرفة بأن تريد بكرة يومك، تقول: أتيته بكرةَ وغدوةَ، لم تصرفهما، فبكرة هنا نكرة.

● **المعنى:** ثم أقسم سبحانه فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ قال قتادة: أي: فهل من طالب علم يتعلم؟ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ أي: بالإنذار، وقيل: بالرسل على ما فسرناه. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحاً حصبتهم أي: رمتهم بالحجارة والحصباء. قال ابن عباس: يريد ما حصبوا به من السماء من الحجارة في الريح، قال الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شِمالَ الشَّامِ، تَضْرِبُنا بِحاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ(١)

ثم استثنى آل لوط فقال: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم﴾ أي: خلصناهم ﴿بِسَحَرٍ﴾ من ذلك العذاب الذي أصاب قومه. ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: إنعاماً، فيكون مفعولاً له، ويجوز أن يكون مصدراً، وتقديره: أنعمنا عليهم بذلك نعمة. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أنعمنا عليهم ﴿نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾. قال مقاتل: يريد من وحد الله تعالى لم يُعذَّب مع المشركين. ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لوط ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أي: أخذنا إياهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي: تدافعوا بالإنذار على وجه الجدال بالباطل. وقيل: معناه فشكوا ولم يصدقوه، وقالوا: كيف يهلكنا وهو واحد منا؟ وهو تفاعلوا من المرية. ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ أي: طلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أي: محوناها. والمعنى: عميت أبصارهم، عن الحسن وقتادة. وقيل: معناه أزلنا تخطيط وجوههم حتى صارت ممسوحة لا يرى أثر عين، وذلك أن جبرائيل عليه السلام صفق أعينهم بجناحه صفقة فأذهبها. والقصة مذكورة فيما مضى وتم الكلام.

ثم قال: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: فقلنا لقوم لوط لما أرسلنا عليهم العذاب ذوقوا عذابي ونذري. ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: أتاهم صباحاً عذاب نازل بهم حتى هلكوا جميعاً ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ووجه التكرار أن الأول عند الطمس، والثاني عند الائتفاك(٢). فكلما تجدَّد العذاب تجدد التقريع. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ مر معناه.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ أي: متابعي فرعون بالقرابة والدين ﴿النُّذُرُ﴾ أي: الإنذار.

---

(١) الضمير في «تضربنا» راجع إلى الشمال، والمراد: ريح الشمال أي: كانت ريح الشمال تضربنا بالحصباء منثورة فيها كالقطن المندوف. ومر البيت في ج٦.

(٢) ائتفكت البلدة بأهلها: انقلبت.

وقيل: هو جمع نذير، يعني الآيات التي أنذرهم بها موسى ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ أي: وهي الآيات التسع التي جاءهم بها موسى، وقيل: بجميع الآيات لأن التكذيب بالبعض تكذيب بالكل. ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ بالعذاب ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي: قادر لا يمتنع عليه شيء فيما يريد، ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ على ما يشاء.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ
جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ
﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ
﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ
أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ
صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ
مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب عن[1] رويس: «سنهزم الجمع»، والباقون: «سيهزم الجمع». وفي الشواذ قراءة أبي السماك: «إنا كلُّ شيء» بالرفع. وقراءة زهير[2] والقرقني والأعمش: «ونُهُر» بضمتين.

● **الحجة:** قال ابن جني: الرفع في قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ﴾ أقوى من النصب، وإن كانت الجماعة على النصب، وذلك أنه من مواضع الابتداء، فهو كقولك: زيد ضربته، فهو مذهب صاحب الكتاب، لأنها جملة وقعت في الأصل خبراً عن المبتدأ في قولك: نحن كل شيء خلقناه بقدر، فهو كقولك: زيد هند ضربها. ثم دخلت «إنّ» فنصبت الاسم وبقي الخبر على تركيبه الذي كان عليه، واختيار محمد بن يزيد النصب، لأن تقديره: إنا فعلنا كذا، قال: والفعل منتظر بعد «إنا»، فلما دل عليه ما قبله حسن إضماره. قال ابن جني: وهذا ليس بشيء، لأن الأصل في خبر المبتدأ أن يكون اسماً لا فعلاً جزاء[3] منفرداً، فما معنى توقع الفعل هنا؟ وخبر إن وأخواتها كأخبار المبتدأ. وقوله: «نُهُر» جمع «نَهَر» فيكون كأسَد وأُسُد، ووَثَن ووُثُن، ويجوز أن يكون جمع نهْر كسُقُف وسَقْف ورُهُن ورَهْن.

● **المعنى:** ثم خوّف سبحانه كفار مكة فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ﴾ وأشد وأقوى ﴿مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ الذين ذكرناهم وقد أهلكناهم. وهذا استفهام إنكار، أي: لستم أفضل من قوم نوح وعاد وثمود،

---

(١) وفي نسختين: «غير رويس»، بدل «عن رويس».
(٢) وفي نسختين: «زهير الفرقني» وفي نسخة: «والقرقبي».
(٣) وفي نسخة: «خبراً منفرداً». وفي أخرى: «لا خبراً منفرداً».

لا في القوة، ولا في الثروة، ولا في كثرة العدد والعدة، والمراد بالخير ما يتعلق بأسباب الدنيا لا أسباب الدين. والمعنى: إنه إذا هلك أولئك الكفار فما الذي يؤمنكم أن ينزل بكم ما نزل بهم؟ ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي: ألكم براءة من العذاب في الكتب السالفة أنه لن يصيبكم ما أصاب الأمم الخالية؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي: أم يقول هؤلاء الكفار نحن جميع أمرنا ننتصر من أعدائنا، عن الكلبي. والمعنى: إنهم يقولون: نحن يد واحدة على من خالفنا ننتصر ممن عادانا، فيدلون بقوتهم واجتماعهم ووحَّد ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ للفظ الجميع، فإنه واحد في اللفظ وإن كان اسماً للجماعة كالرهط، والجيش، أي: كما أنهم ليسوا بخير من أولئك ولا هم براءة، فكذلك لا جمع لهم يمنع عنهم عذاب الله وينصرهم، وإن قالوا: نحن مجتمعون متناصرون فلا نرام، ولا نقصد، ولا يطمع أحد في غلبتنا. ثم قال سبحانه ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ أي: جمع كفار مكة ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أي: ينهزمون فيولونكم أدبارهم في الهزيمة.

ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ أنه سيظهره عليهم ويهزمهم، فكانت هذه الهزيمة يوم بدر، فكان موافقة الخبر للمخبر من معجزاته.

ثم قال سبحانه ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي: إن موعد الجميع للعذاب يوم القيامة ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ فالأدهى الأعظم في الدهاء، والدهاء: عظم سبب الضرر مع شدة انزعاج النفس، وهو من الداهية، أي: البلية التي ليس في إزالتها حيلة. والمعنى: إن ما يجري عليهم من القتل والأسر يوم بدر وغيره لا يُخَلِّصهم من عقاب الآخرة، بل عذاب الآخرة أعظم من الضرر وأقطع وأمرّ، أي: أشد مرارة من القتل والأسر في الدنيا. وقيل: الأمر الأشد في استمرار البلاء، لأن أصل المر النفوذ. ثم بيَّن سبحانه حال القيامة فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: في ذهاب عن وجه النجاة، وطريق الجنة في نار مسعرة، عن الجبائي. وقيل: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: في هلاك وذهاب عن الحق ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي: عناء وعذاب ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ أي: يجرون ﴿فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يعني أن هذا العذاب يكون لهم، في يوم يجرهم الملائكة فيه على وجوههم في النار، يقال لهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ يعني إصابتهم إياهم بعذابها وحرها، وهو كقولهم: وجدت مس الحمى. و﴿سَقَرَ﴾: جهنم، وقيل: هي باب من أبوابها، وأصل السقر: التلويح، يقال: سقرته الشمس وصقرته إذا لوحته، وإنما لم ينصرف للتعريف والتأنيث.

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أي: خلقنا كل شيء، خلقناه مقداراً بمقدار توجبه الحكمة، لم نخلقه جزافاً ولا تخبيتاً(١)، فخلقنا العذاب أيضاً على قدر الاستحقاق، وكذلك كل شيء في الدنيا والآخرة، خلقناه مقدراً بمقدار معلوم، عن الجبائي. وقيل: معناه خلقنا كل شيء على قدر معلوم، فخلقنا اللسان للكلام، واليد للبطش، والرجل للمشي، والعين للنظر، والأذن للسماع، والمعدة للطعام، ولو زاد أو نقص عما قدرناه لما تم الغرض، عن الحسن. وقيل: معناه جعلنا لكل شيء شكلًا يوافقه ويصلح له، كالمرأة للرجل، والأتان للحمار، وثياب الرجال

(١) وفي نسخة: تنحيتاً، ولا معنى لهما. وفي نسخة: تعبثاً ولعله يناسب المورد.

للرجال، وثياب النساء للنساء، عن ابن عباس. وقيل: خلقنا كل شيء بقدر مقدر، وقضاء محتوم في اللوح المحفوظ. ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أي: وما أمرنا بمجيء الساعة السرعة إلا كطرف البصر، عن ابن عباس والكلبي. ومعنى اللمح: النظر بالعجلة، وهو خطف البصر. والمعنى: إذا أردنا قيام الساعة أعدنا الخلق وجميع المخلوقات[1] في قدر لمح البصر في السرعة. وقيل: معناه وما أمرنا إذا أردنا أن نُكوّن شيئاً إلا مرة واحدة لم نحتج فيه إلى ثانية. إنما نقول له: كن فيكون كلمح البصر في سرعته من غير إبطاء ولا تأخير، عن الجبائي.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي: أشباهكم ونظائركم في الكفر من الأمم الماضية، عن الحسن. وسماهم: أشياعهم لما وافقوهم في الكفر وتكذيب الأنبياء. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: فهل من متذكر لما يوجبه هذا الوعظ من الانزجار، في مثل ما سلف من أعمال الكفار، لئلا يقع به ما وقع بهم من الإهلاك؟ ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي: في الكتب التي كتبها الحفظة، وهذا إشارة إلى أنهم غير مغفول عنهم، عن الجبائي. وقيل: معناه أن جميع ذلك مكتوب عليهم في الكتاب المحفوظ، لأنه من أعظم العبرة في علم ما يكون قبل أن يكون على التفصيل. ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ أي: وما قدموه من أعمالهم من صغير وكبير مكتوب عليهم، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك. وقيل: معناه كل صغير وكبير من الأرزاق والآجال والموت والحياة ونحوها مكتوب في اللوح المحفوظ. ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي: أنهار، يعني أنهار الجنة من الماء والخمر والعسل[2]، وضع «نهر» في موضع أنهار، لأنه اسم جنس يقع على الكثير والقليل. والأولى أن يكون إنما وحّد لوفاق الفواصل. والنَّهر: هو المجرى الواسع من مجاري الماء. ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في مجلس حق لا لغوَ فيه ولا تأثيم. وقيل: وصفه بالصدق لكونه رفيعاً مرضياً. وقيل: لدوام النعيم به. وقيل: لأن الله صدق وعد أوليائه فيه. ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ أي: عند الله سبحانه، فهو المالك القادر الذي لا يعجزه شيء، وليس المراد قرب المكان ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ بل المراد أنهم في كنفه وجواره وكفايته، حتى تنالهم غواشي رحمته وفضله.

---

(١) وفي المخطوطة: الحيوانات.

(٢) في المخطوطة: الخمر، واللبن، والعسل.

سُورَةُ الرَّحمٰن

مدنية/آياتها (٧٨)

مكية، وقيل: مكية غير آية نزلت بالمدينة ﴿يَسْئَلُهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، عن عطاء وقتادة وعكرمة. وإحدى الروايتين عن ابن عباس. وقيل: مدنية، عن الحسن وهمام عن قتادة وأبي حاتم.

● **عدد آيها:** ثمان وسبعون آية كوفي شامي، سبع حجازي، ست بصري.

● **اختلافها:** خمس آيات ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ كوفي شامي، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الأول غير المدني، ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ غير المكي، ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ غير البصري، ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ حجازي.

● **فضلها:** أُبَيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الرحمن رَحِم الله ضعفه، وأدّى شكر ما أنعم الله عليه». وروي عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام، عن النبي ﷺ قال: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن جل ذكره».

أبو بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا تدعوا قراءة الرحمٰن والقيام بها، فإنها لا تَقرُّ في قلوب المنافقين، وتأتي ربها يوم القيامة في صورة آدمي، في أحسن صورة وأطيب ريح، حتى تقف من الله موقفاً لا يكون أحد أقرب إلى الله سبحانه منها، فيقول لها: من الذي كان يقوم بك في الحياة الدنيا ويُدمن قراءتك؟ فتقول: يا رب فلان وفلان وفلان، فتبيضّ وجوههم، فيقول لهم: اشفعوا فيمن أحببتم، فيشفعون حتى لا يبقى لهم غاية ولا أحد يشفعون له، فيقول لهم: ادخلوا الجنة واسكنوا فيها حيث شئتم.

حماد بن عثمان قال: قال الصادق عليه السلام: يجب أن يقرأ الرجل سورة الرحمن يوم الجمعة، فكلما قرأ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال: لا بشيء من آلائك يا رب[1] أكذّب.

وعنه عليه السلام قال: من قرأ سورة الرحمٰن ليلًا يقول عند كل ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: لا بشيء من آلائك يا رب أكذب، وكّل الله به مَلَكاً، إن قرأها في أول الليل يحفظه حتى يصبح، وإن قرأها حين يصبح وكّل الله به مَلَكاً يحفظه حتى يمسي.

● **تفسيرها:** ختم الله سبحانه سورة القمر باسمه، وافتتح هذه السورة أيضاً باسمه، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ٤

---

(١) وفي نسختين: ربنا نكذب.

ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر: «والحبَّ ذا العصفِ والريحانَ» بالنصب فيهما جميعاً. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: «والحبُّ ذو العصف» بالرفع، «والريحان» بالجر، والباقون: بالرفع في الجميع. وفي الشواذ قراءة أبي السماك: «والسماء رفعها» بالرفع. وقرأ بلال بن أبي بردة: «ولا تَخسَروا» بفتح التاء والسين، وبكسر السين أيضاً.

● **الحجة:** قال أبو علي: قال أبو عبيدة: العصف: الذي يعصف فيؤكل من الزرع، وهي العصيفة. قال علقمة بن عبدة:

تَسْقي مَذانبَ قد مالتْ عصيفَتُها حُدُورُها مِنْ أتيِّ الماءِ مطمُومُ[1]

والريحان: الحب الذي يؤكل. يقال: سبحانك وريحانَك، أي: ورزقك. قال النمر بن تغلب[2]:

سلامُ الإلٰهِ وريحانُهُ ورحمتُهُ، وسماءٌ دِرَرْ

وقيل: العصْف والعَصيفة: ورق الزرع. وعن قتادة: العصف: التبن. ومن قرأ: «والحبَّ ذا العصف» حمله على: وخلق الحب وخلق الريحان، وهو الرزق. ويقوي ذلك قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾.

ومن رفع «الريحان» فالتقدير: فيها فاكهة والريحان والحبُّ ذو العصف.

ومن جر فالتقدير: والحب ذو العصف، وذو الريحان، أي: من الحب الرزق. فإن قلت: فإن العصف والعصيفة رزق أيضاً، فكأنه قال: ذو الرزق وذو الرزق. قيل: هذا لا يمتنع، لأن العصيفة رزق غير الرزق الذي أوقع الريحان عليه، وكأن الريحان أُريدَ به الحب إذا خلص من لفائفه، فأوقع عليه الرزق لعموم المنفعة به، وأنه رزق للناس وغيرهم، ويبعد أن يكون الريحان المشموم في هذا الموضع، إنما هو قوت الناس والأنعام، كما قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾.

وقوله: «والسماءُ رفعها» قال ابن جني: الرفع هنا أظهر من قراءة الجماعة، وذلك أنه صرفه إلى الابتداء، لأنه عطفه على الجملة المركبة من المبتدأ والخبر، وهي قوله: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾. فأما قراءة العامة بالنصب فإنها معطوفة على «يسجدان» وحدها، وهي جملة من فعل

---

(١) المذنب: مسيل الماء إلى الأرض. ومسيل في الحضيض إذا لم يكن واسعاً. وطمّ الماء: غمر. وطمّ فلان الإناء: ملأه والأتي: السيل الغريب وبضم الألف مصدر «أتى» يصف عبرته، وكثرة بكائه.

(٢) وفي نسخة: التولب.

وفاعل. والعطف يقتضي بالتماثل في تركيب الجمل، فيصير تقديره: يسجدان ورَفَعَ السماء، فلما أضمر: رفع، فسَّره بقوله: «رفعها» كقولك: قام زيد وعمراً ضربته، أي: وضربت عمراً، لتعطف جملة من فعل وفاعل على أخرى مثلها.

وأما قوله: ﴿تَخسروا﴾ بفتح التاء، فإنه على حذف حرف الجر، أي: لا تخسروا في الميزان. فلما حذف حرف الجر أفضى إليه الفعل فنصبه، كقوله: ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: في كل مرصد، أو على كل مرصد. وأما «تَخسِروا» بفتح التاء وكسر السين، فعلى: خَسَرت الميزان، وإنما المشهور: أخسرته، تقول: خسر الميزان وأخسرته. ويشبه أن يكون خَسرته لغة في أخْسرته، نحو: أجبرتُ الرجلَ وجَبرتُه وأهْلكته وهلكته.

● **اللغة:** الرحمٰن: هو الذي وسعت رحمته كل شيء، فلذلك لا يوصف به إلا الله تعالى. وأما راحم ورحيم فيجوز أن يوصف بهما العباد. والبيان: هو الأدلة الموصلة إلى العلم، وقيل: البيان: إظهار المعنى للنفس بما يتميَّز به من غيره، كتميُّز معنى رجل من معنى فرس. ومعنى قادر من معنى عاجز، ومعنى عام من معنى خاص. والحسبان: مصدر حسبته أحسبه حساباً وحسباناً، نحو الشكران والكفران، وقيل: هو جمع حساب كشهاب وشهبان. والنجم: من النبات ما لم يقم على ساق، نحو العشب والبقل، والشجر: ما قام على ساق وأصله الطلوع، يقال: نجم القرن والنبات: إذا طلعا، وبه سمي نجم السماء لطلوعه. والأكمام: جمع كم، وهو وعاء ثمرة النخل تكمم في وعائه إذا اشتمل عليه. والآلاء: النِّعَم واحدها إلى، على وزن معى، وألى على وزن قفا، عن أبي عبيدة.

الإعراب: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ آية مع أنه ليس بجملة، لأنه في تقدير: الله الرحمن، حتى تصح الفاصلة، فهو خبر مبتدأ محذوف نحو قوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ أي: هذه سورة. ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ تقديره: لئلا تطغوا، فهو في محل نصب بأنه مفعول له، ولفظه نفي ومعناه نهي، ولذلك عطف عليه بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ﴾. وقوله: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ مبتدأ وخبر في موضع نصب على الحال.

● **المعنى:** ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾: افتتح سبحانه هذه السورة بهذا الاسم، ليعلم العباد أن جميع ما وصفه يعد من أفعاله الحسنى إنما صدرت من الرحمة التي تشتمل جميع خلقه، وكأنه جواب لقولهم: «وما الرحمن» في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾. وقد روى أنه لما نزل قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ قالوا: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، فقيل لهم: الرحمن ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أي: علم محمداً ﷺ القرآن، وعلمه محمد ﷺ أمته، عن الكلبي. وقيل: هو جواب لأهل مكة حين قالوا: إنما يعلمه بشر، فبيَّن سبحانه أن الذي علَّمه القرآن هو الرحمٰن. والتعليم: هو تبيين ما به يصير من لم يعلم عالماً، والإعلام: إيجاد ما به يصير عالماً. ذكر سبحانه النعمة فيما علم من الحكمة بالقرآن الذي احتاج إليه الناس في دينهم، ليؤدوا ما يجب عليهم، ويستوجبوا الثواب بطاعة ربهم. قال الزجاج: معنى علَّم القرآن يسَّره لأن يذكر. ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ أي: أخرجه من العدم إلى الوجود. والمراد بالإنسان هنا آدم عليه السلام، عن ابن عباس وقتادة. ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي: أسماء كل شيء واللغات كلها. قال الصادق عليه السلام: البيان الاسم الأعظم الذي به علم كل شيء. وقيل: الإنسان اسم الجنس.

وقيل[1]: معناه الناس جميعاً. علّمه البيان أي: النطق والكتابة والخط والفهم والإفهام، حتى يعرف ما يقول وما يقال له، عن الحسن وأبي العالية وأبي زيد والسدي، وهذا هو الأظهر الأعم. وقيل: البيان هو الكلام الذي يبين به عن مراده، وبه يتميز من سائر الحيوانات، عن الجبائي. وقيل: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ يعني محمداً ﷺ، علمه البيان يعني ما كان وما يكون، عن ابن كيسان، ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: يجريان بحسبان ومنازل لا يعدوانها، وهما يدلان على عدد الشهور والسنين والأوقات، عن ابن عباس وقتادة. فأضمر يجريان وحذفه لدلالة الكلام عليه، وتحقيق معناه أنهما يجريان على وتيرة واحدة، وحساب متفق على الدوام، لا يقع فيه تفاوت. فالشمس تقطع بروج الفلك في ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وشيء، والقمر في ثمانية وعشرين يوماً، فيجريان أبداً على هذا الوجه، وإنما خصهما بالذكر لما فيهما من المنافع الكبيرة للناس، من النور والضياء، ومعرفة الليل والنهار، ونضج الثمار إلى غير ذلك، فذكرهما لبيان النعمة بهما على الخلق. ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ يعني بالنجم: نبت الأرض الذي ليس له ساق، وبالشجر: ما كان له ساق يبقى في الشتاء، عن ابن عباس وسعيد بن جبير وسفيان الثوري. وقيل: أراد بالنجم نجم السماء، وهو موحد والمراد به جميع النجوم، والشجر، يسجدان لله بكرة وعشياً، كما قال في موضع آخر: ﴿وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾، عن مجاهد وقتادة. وقال أهل التحقيق: إن المعنى في سجودهما هو ما فيهما من الآية الدالة على حدوثهما، وعلى أن لهما صانعاً أنشأهما، وما فيهما من الصنعة والقدرة التي توجب السجود. وقيل: سجودهما سجود ظلالهما كقوله: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾، عن الضحاك وسعيد بن جبير. والمعنى فيه: إن كل جسم له ظل فهو يقتضي الخضوع بما فيه من دليل الحدوث، وإثبات المُحْدِث المدبّر. وقيل: معنى سجودهما: إنه سبحانه يصرفهما على ما يريده من غير امتناع، فجعل ذلك خضوعاً. ومعنى السجود: الخضوع كما في قوله: «ترى الأكم فيها سجداً للحوافز»، عن الجبائي ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ أي: ورفع السماء رفعها فوق الأرض، دل سبحانه بذلك على كمال قدرته، ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ يعني آلة الوزن للتوصل إلى الإنصاف والانتصاف، عن الحسن وقتادة. قال قتادة: هو الميزان المعهود ذو اللسانين. وقيل: المراد بالميزان العدل، والمعنى أنه أمرنا بالعدل، عن الزجاج. ويدل عليه قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ أي: لا تتجاوزوا فيه العدل والحق، إلى البخس والباطل. تقديره: فعلت ذلك لئلا تطغوا. ويحتمل أيضاً أن يكون: لا تطغوا، نهياً منفرداً، وتكون «أن» مفسرة بمعنى أي. وقيل: إن المراد بالميزان القرآن الذي هو أصل الدين، فكأنه تعالى بيّن أدلة العقل وأدلة السمع. وإنما أعاد سبحانه ذكر الميزان من غير إضمار ليكون الثاني قائماً بنفسه في النهي عنه، إذا قيل لهم: لا تطغوا في الميزان. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: أقيموا لسان الميزان بالعدل إذا أردتم الأخذ والإعطاء، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: لا تنقصوه بالبخس والجور، بل سووه بالإنصاف والعدل. قال سفيان بن عيينة: الإقامة باليد، والقسط بالقلب.

---

(١) ليس في المخطوطة لفظة «قيل».

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ لما ذكر السماء ذكر الأرض في مقابلتها أي: وبسط الأرض ووطأها للناس. وقيل: الأنام كل شيء فيه روح، عن ابن عباس. وقيل: الأنام الجن والإنس، عن الحسن. وقيل: جميع الخلق من كل ذي روح، عن مجاهد. وعبَّر عن الأرض بالوضع لما عبَّر عن السماء بالرفع، وفي ذلك بيان النعمة على الخلق، وبيان وحدانية الله تعالى كما في رفع السماء. ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ أي: في الأرض ما يَتَفَكَّه به من ألوان الثمار المأخوذة من الأشجار ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ أي: الأوعية والغلف وثمر النخل يكون في غلف ما لم ينشق. وقيل: الأكمام: ليف النخل الذي تكم فيه، عن الحسن. وقيل: معناه ذات الطلع لأنه الذي يتغطى بالأكمام، عن ابن زيد. ﴿وَٱلۡحَبُّ﴾ يريد جميع الحبوب مما يحرث في الأرض، من الحنطة والشعير وغيرهما ﴿ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ أي: ذو الورق، فإذا يَبس صار تبناً، عن مجاهد والجبائي. وقيل: العصف التبن لأن الريح تعصفه أي: تطيره، عن ابن عباس وقتادة والضحاك. وقيل: هو بقل الزرع وهو أول ما ينبت منه، عن السدي والفراء. ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ يعني الرزق في قول الأكثرين، وقال الحسن وابن زيد: هو ريحانكم الذي يشم. وقال الضحاك: والريحان الحب المأكول، والعصف: الورق الذي لا يؤكل، فهو رزق الدواب، والريحان رزق الناس. فذكر سبحانه قوت الناس والأنعام، ثم خاطب الإنس والجن بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نِعَم ربكما من هذه الأشياء المذكورة تكذبان؟ لأنها كلها منعم عليكم بها، والمعنى أنه لا يمكن جحد شيء من هذه النعم. فأما الوجه لتكرار هذه الآية في هذه السورة، فإنما هو التقرير بالنعم المعدودة، والتأكيد في التذكير بها كلها. فكلما ذكر سبحانه نعمة أنعم بها قرر عليها، ووبخ على التكذيب بها، كما يقول الرجل لغيره: أما أحسنت إليك حين أطلقت لك مالاً؟ أما أحسنت إليك حين ملَّكتك عقاراً؟ أما أحسنت إليك حين بنيت لك داراً؟ فيحسن فيه التكرار لاختلاف ما يقرره به. ومثله كثير في كلام العرب وأشعارهم. قال مهلهل بن ربيعة يرثي أخاه كليباً:

على أنْ لَيسَ عَدلًا مِنْ كُلَيبِ ... إذا طُرِدَ اليَتِيمُ عَنِ الجَزُورِ
على أنْ لَيسَ عَدلًا من كلَيب ... إذا ما ضِيمَ جيرانُ المُجيرِ
على أنْ لَيسَ عدلًا مِنْ كُلَيبِ ... إذا رُجِفَ العِضاةُ مِنَ الدَّبورِ
على أنْ لَيسَ عدلًا مِنْ كُلَيبِ ... إذا خرجَتْ مُخَبَّأةُ الخُدورِ
على أن ليس عدلًا من كليب ... إذا ما أعلِنَتْ نجوى الصدور

وقالت ليلى الأُخَيلِيَة ترثي توبة بن الحمير:

لَنِعْمَ الفتى ياتَوْبَ كنتَ، ولم تكُنْ ... لِتُسْبَقَ يوماً كُنتَ فيه تُجاوِلَ
وَنِعْمَ الفتى ياتَوْبَ كُنتَ إذا التَقَتْ ... صدورُ العوالي واستشالَ[1] الأسافلُ
ونِعْمَ الفتى ياتوبَ كُنتَ لِخائِفٍ ... أتاكَ لِكَيْ تحمِي وَنِعْمَ المُجامِلُ

---

(١) استشال: ارتفع.

ونِعْمَ الفتى ياتوبَ جاراً وصاحباً ... ونِعْمَ الفتى ياتوبَ حينَ تُناضِلُ
لَعَمْري لأَنْتَ المرءُ أَبْكِي لِفَقْدِهِ ... ولَوْ لامَ فيه ناقصُ الرأي جاهلُ
لَعَمْري لأَنْتَ المرءُ أبكِي لِفَقْدِهِ ... إذا كَثُرَتْ بالمُلْجِمِينَ التَّلاتِلُ(١)
أبىَ لكَ ذمَّ الناسِ ياتَوْبَ كلما ... ذُكِرتَ أمورٌ مُحْكَماتٌ كوامِلُ
أبى لك ذمَّ الناس ياتَوْبَ كلما ... ذُكِرْتَ سماحٌ حين تأوي الأرامِلُ
فلا يُبْعِدَنْكَ الله ياتَوْبَ إنما ... كذاكَ المنايا عاجِلاتٌ وآجِلُ
ولا يُبْعِدَنْكَ الله ياتَوْب إنما ... لقيتَ حِمَامَ الموتِ والمَوْتُ عاجِلُ

فخرجت في هذه الأبيات من تكرار إلى تكرار، لاختلاف المعاني التي عَدَّدتها. وقال الحارث بن عباد:

قرِّبا مربطَ النعامةِ مني ... لقِحتْ حربُ وائلٍ عن حِيالِ(٢)

وكرَّر هذه اللفظة: قربا مربط النعامة مني، في أبيات كثيرة، ومن أمثال هذا كثرة، وهذا هو الجواب بعينه عن التكرار لقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في المرسلات.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة والبصرة: «يخرج منهما» بضم الياء وفتح الراء، والباقون: «يَخرُج» بفتح الياء وضم الراء. وقرأ حمزة ويحيى عن أبي بكر: «المنشِئات» بكسر الشين، والباقون بفتح الشين.

● **الحجة:** قال أبو علي من قرأ: «يُخرَج» كان قوله بيِّناً، لأن ذلك إنما يُخرج ولا يَخرج بنفسه. ومن قرأ: «يَخرُج» جعل الفعل للؤلؤ والمرجان وهو اتساع، لأنه إذا أخرج ذلك فقد خرج، وقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ﴾ ولم يقل من أحدهما، على حذف المضاف، كما قال:

(١) التلاتل: الشدائد.
(٢) النعامة: اسم فرسه. ولقحت الناقة عن حيال أي: بعد أنْ لم تكن تلقح.

﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ على ذلك. وقال أبو الحسن: زعم قوم أنه يخرج من العذاب[١] أيضاً. والمرجان: صغار اللؤلؤ، واحدها مرجانة، قال ذو الرمة:

كأن عُرَى المَرْجانِ منها تَعَلَّقَتْ على أُمِّ خَشْفٍ من ظِباءِ المَشاقِرِ[٢]

المنشآت: المجريات المرفوعات، فمن فتح الشين فلأنها أُنشئت وأُجريت ولم تفعل ذلك أنفسها. ومن قرأ «المنشئات» نسب الفعل إليها على الاتساع، كما يقال: مات زيد، ومرض عمرو، ونحو ذلك مما يضاف الفعل إليه إذا وجد فيه، وهو في الحقيقة لغيره. وكان المعنى المنشِئات السير، فحذف المفعول للعلم به، وإضافة السير إليها اتساع أيضاً، لأن سيرها إنما يكون في الحقيقة بهبوب الريح أو دفع الصراري[٣].

● **اللغة:** الصلصال: الطين اليابس الذي يسمع منه صلصلة. والفخار: الطين الذي طبخ بالنار حتى صار خزفاً. والمارج: المضطرب المتحرك، وقيل: المختلط، يقال: مرج الأمر أي اختلط، ومرجت عهود القوم وأماناتهم، قال الشاعر:

مَرَجَ الدِّينُ فأَعْدَدْتُ لَهُ مُشْرِفَ الحارِكِ مَحْبُوكَ الكَتَدِ[٤]

ومرج الدابة في المرعى: إذا خلّاها لترعى. والبرزخ: الحاجز بين الشيئين. والجواري: السفن لأنها تجري في الماء، واحدتها: جارية، ومنه الجارية: المرأة الشابة لأنها يجري فيها ماء الشباب. والأعلام: الجبال، واحدها عَلَم. قالت الخنساء:

وإنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُداةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ

وقال جرير:

إذا قطعن عَلماً بدا[٥] علما

والفناء: انتفاء الأجسام، والصحيح أنه معنى يضاد الجواهر[٦] باق: فلا ينتفي إلا بضد، أو ما يجري مجرى الضد، وضده الفناء.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه عاطفاً على ما تقدم من الأدلة على وحدانيته، والإبانة عن نعمه على خلقه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني به آدم، وقيل: جميع البشر لأن أصلهم آدم عليه السلام ﴿مِن

---

(١) وفي نسخة: «العذب».
(٢) يصف امرأة. وعُرى المرجان أي: أطواقها. والخشف: ولد الظباء. المشاقر من الرمل: المنصوب في الأرض. واسم موضع.
(٣) الصراري: الملاح.
(٤) الحارك: أعلى الكاهل. والمحبوك: المحكم الخلق والصنع. والكَتَد والكَتِد مجتمع الكتفين من الإنسان والفرس.
(٥) وفي المخطوطة: أبدا علم. وفي أُخرى: علم بدا علم.
(٦) [لأن الجوهر].

﴿صَلۡصَٰلٖ﴾ أي: طين يابس، وقيل: حمأ منتن ويحتمل الوجهين جميعاً، لأنه كان حمأ مسنوناً ثم صار يابساً. ﴿كَٱلۡفَخَّارِ﴾ أي: كالآجر الخزف ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ﴾ أي: أبا الجن، قال الحسن: هو إبليس أبو الجن وهو مخلوق من لهب النار، كما أن آدم عليه السلام مخلوق من طين، ﴿مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ أي: من نار مختلط أحمر وأسود وأبيض، عن مجاهد. وقيل: المارج الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعمة تكذبان أيها الثقلان؟ أي: أبأنْ خلقكما من نفس واحدة، ونقلكما من التراب والنار، إلى الصورة التي أنتم عليها تكذبان؟ ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ يعني: مشرق الصيف ومشرق الشتاء، ومغرب الصيف ومغرب الشتاء. وقيل: المراد بالمشرقين مشرق الشمس والقمر، وبالمغربين مغرب الشمس والقمر. بيَّن سبحانه قدرته على تصريف الشمس والقمر، ومن قدر على ذلك قدر على كل شيء.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ﴾ ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾: ذكر سبحانه عظيم قدرته، حيث خلق البحرين العذب والمالح يلتقيان، ثم لا يختلط أحدهما بالآخر، وهو قوله: ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ﴾ أي: حاجز من قدرة الله فلا يبغي الملح على العذب فيفسده، ولا العذب على الملح فيفسده ويختلط به. ومعنى مرج: أرسل، عن ابن عباس. وقيل: المراد بالبحرين بحر السماء وبحر الأرض، فإن في السماء بحراً يمسكه الله بقدرته ينزل منه المطر، فيلتقيان في كل سنة، وبينهما حاجز يمنع بحر السماء من النزول، وبحر الأرض من الصعود، عن ابن عباس والضحاك ومجاهد.

وقيل: إنهما بحر فارس وبحر الروم، عن الحسن وقتادة. فإن آخر طرف هذا يتصل بآخر طرف ذلك، والبرزخ بينهما: الجزائر. وقيل: مرج البحرين خلط طرفيهما عند التقائهما من غير أن يختلط جملتهما، ﴿لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ أي: لا يطلبان ألا يختلطا(1).

﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ اللؤلؤ: كبار الدر، والمرجان: صغاره، عن ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك. وقيل: المرجان: خرز أحمر كالقضبان يخرج من البحر وهو البسذ، عن عطاء الخراساني، وأبي مالك، وبه قال ابن مسعود، لأنه قال: حجر. وإنما قال: ﴿مِنۡهُمَا﴾ وإنما يخرج من الملح دون العذب، لأن الله سبحانه ذكرهما وجمعهما وهما بحر واحد، فإذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما، عن الزجاج. قال الكلبي: وهو مثل قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ وإنما هو في واحدة منهن، وقوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ والرسل من الإنس دون الجن. وقيل: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا﴾ أي: من ماء السماء ومن ماء البحر، فإن القطر إذا جاء من السماء تفتحت الأصداف، فكان من ذلك القطر اللؤلؤ، عن ابن عباس. ولذلك حمل البحرين على بحر السماء وبحر الأرض. وقيل: إن العذب والملح يلتقيان، فيكون العذب كاللقاح للملح، ولا يخرج اللؤلؤ إلا من الموضع الذي يلتقي فيه الملح والعذب، وذلك معروف عند الغواصين.

---

(1) وفي نسختين: «أن يختلطا».

وقد روي عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وسفيان الثوري: إن البحرين علي وفاطمة عليها السلام، بينهما برزخ محمد صلى الله عليه وآله، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان الحسن والحسين عليهما السلام، ولا غرو أن يكونا بحرين لسعة فضلهما، وكثرة خيرهما، فإن البحر إنما يسمى بحراً لسعته، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله لفرس ركبه، وأجراه فأحمده: «وجدته بحراً. أي: كثير المعاني الحميدة.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ أي: السفن الجارية في الماء تجري بأمر الله ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي: المرفوعات، وهي التي رفع خشبها بعضها على بعض، وركب حتى ارتفعت وطالت. وقيل: هي المبتدآت للسير مُرتفعة القلاع. قال مجاهد: ما رفع له القلاع فهو منشأ، وما لم ترفع قلاعه فليس بمنشأ. والقلاع: جمع قِلع، وهو شراع السفينة. ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ أي: كالجبال. قال مقاتل: شبّه السفن في البحر بالجبال في البر. وقيل: ﴿المنشِئات﴾ بكسر الشين: وهي أن ينشىء الموجَ بصدرها حيث تجري، فيكون الأمواج كالأعلام من الله سبحانه على عباده بأن عَلمهم اتخاذ السفن ليركبوها، وأن جعل الماء على صفة تجري السفن عليه لأجلها.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي: كل من على الأرض من حيوان فهو هالك، يفنون ويخرجون من الوجود إلى العدم. كنى عن الأرض وإن لم يجر لها ذكر، كقول أهل المدينة: ما بين لابتيها، أي: لابتي المدينة، وإنما جاز ذلك لكونه معلوماً. ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: ويبقى ربك الظاهر بأدلته ظهور الإنسان بوجهه، ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ﴾ أي: العظمة والكبرياء، واستحقاق الحمد والمدح، بإحسانه الذي هو في أعلى مراتب الإحسان، وإنعامه الذي هو أصل كل إنعام. ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ يكرم أنبياءه وأولياءه بألطافه وأفضاله مع عظمته وجلاله. وقيل معناه: إنه أهل أن يُعظم وينزه عما لا يليق بصفاته، كما يقول الإنسان لغيره: أنا أُكرِمُكَ عن كذا وأُجِلُّكَ عنه، كقوله: ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: أهل أن يتقي. وتقول العرب: هذا وجه الرأي، وهذا وجه التدبير، بمعنى أنه الرأي والتدبير، قال الأعشى:

وأولِ الحُكْمَ على وَجْهِهِ لَيْسَ قَضائي بِالهَوَى الجائِرِ

أي: قرر الحكم كما هو. وقيل: إن المراد بالوجه ما يتقرب به إلى الله تعالى، وأنشد:

أَسْتَغْفِرُ الله ذنباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ، رَبَّ العِبادِ إليهِ الوَجْهُ، والعَمَلُ

ومتى قيل: وأي نعمة في الفناء؟ فالجواب: إن النعمة فيه التسوية بين الخلق فيه، وأيضاً فإنه وصلة إلى الثواب، وتنبيه على أن الدنيا لا تدوم، وأيضاً فإنه لطف للمُكلَّف، لأنه لو عجل الثواب لصار ملجأ إلى العمل ولم يستحق الثواب، ففصل بين الثواب والعمل، ليفعل الطاعة لحسنها فيستحل الثواب.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يستغني عنه أهل السماوات والأرض فيسألونه حوائجهم، عن قتادة، وقيل: يسأله أهل الأرض الرزق والمغفرة، وتسأل الملائكة لهم أيضاً الرزق والمغفرة، عن مقاتل. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ اختلف في معناه:

فقيل: إن شأنه سبحانه إحياء قوم، وإماتة آخرين، وعافية قوم، ومرض آخرين، وغير ذلك من الإهلاك والإنجاء، والحرمان والإعطاء، والأمور الأُخر التي لا تحصى. وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في قوله: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ قال: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويُفَرِّج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين».

وعن ابن عباس أنه قال: إن مما خلق الله تعالى لوحاً من درة بيضاء، دواته ياقوتة حمراء، قلمه نوره وكتابه نور، ينظر الله فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء، فذلك قوله: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾.

وقال مقاتل: نزلت في اليهود حين قالوا: إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً.

وقيل: إن الدهر كله عند الله يومان. أحدهما مدة أيام الدنيا، والآخر يوم القيامة، فالشأن الذي هو فيه في اليوم الذي هو مدة الدنيا، الاختبار بالأمر والنهي، والإحياء والإقامة، والإعطاء والمنع. وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب، والثواب والعقاب، عن سفيان بن عيينة.

وقيل: شأنه جل ذكره أن يخرج في كل يوم وليلة ثلاثة عساكر: عسكراً من أصلاب الآباء إلى الأرحام، وعسكراً من الأرحام إلى الدنيا، وعسكراً من الدنيا إلى القبر، ثم يرتحلون جميعاً إلى الله تعالى. وقيل: شأنه إيصال المنافع إليك ودفع المضار عنك، فلا تغفل عن طاعة من لا يغفل عن برك، عن أبي سليمان الداراني.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٢ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٦ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٨ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٠ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ٤١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٤٣ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ٤٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٥﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «سيفرغ» بالياء، والباقون بالنون. وقرأ ابن كثير: «شواظ» بكسر الشين، والباقون بضمها. وقرأ ابن كثير وأهل البصرة غير يعقوب: «ونحاس» بالجر، والباقون بالرفع. وفي الشواذ قراءة قتادة والأعمش: «سنَفرَغ» بفتح النون والراء. وقراءة الأعرج: «سَيفرَغ» بفتح الياء والراء. ورواية أبي حاتم عن الأعمش: «سيفرغ»، وقراءة عيسى الثقفي: «سنفرغ» بكسر النون وفتح الراء. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام: «هذه جهنم التي كنتما بها تكذبان، اصلياها فلا تموتان فيها ولا تحييان».

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه الياء في «سيفرغ» أن الغيبة قد تقدم في قوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾، وقوله: ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ويقال: فَرَغَ يَفْرُغُ، وفَرِغَ يَفْرَغ، وليس الفراغ هنا فراغاً عن شغل، ولكن تأويله القصد، كما قال جرير:

الآن فَقَدْ فَرَغْتُ إلى نُمَيْرٍ فَهذا حِينَ صِرْتُ لَهُمْ عَذابا

وقرأ ابن عامر: «أيهُ الثقلان» بضم الهاء، وقد مضى الوجه فيه. والشُواظ والشِواظ فيه لغتان. أبو عبيدة: هو اللهب لا دخان فيه. قال رؤبة:

إنّ لَهُمْ مِنْ حَرْبِنا أيقاظاً[1] ونارَ حربٍ تُسعِرُ الشُّواظا

والنحاس: الدخان. قال الجعدي:

تُضِيءُ كَضَوْءِ سراج السَّليطِ[2] لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فيهِ نُحاسا

قال أبو علي: إذا كان الشواظ اللهب لا دخان فيه، ضعفت قراءة من قرأ «ونحاس» بالجر، ولا يكون على تفسير أبي عبيدة إلا الرفع في «نحاس» على تقدير: يرسل عليكما شواظ ويرسل نحاس. أي: يرسل هذا مرة، وهذا أخرى. وقد يجوز من وجه آخر على أن تقديره: يرسل عليكما شواظ من نار وشيء من نحاس، فتحذف الموصوف وتقيم الصفة مقامه، كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾، ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾، ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾، ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾، فحذف الموصوف في ذلك كله فكذلك في الآية، فإن قلت: هذا فاعل والفاعل لا يحذف، فقد جاء:

فما راعَنا إلّا يَسِيرُ بِشرطَةٍ وَعَهْدِي به قيناً يَفُشُّ بكيرِ[3]

على أن هذا الحذف قد جاء في المبتدأ في الآي التي تَلَوْنا[4] أو بعضها، وقد قالوا:

تسمع بالمعيدي لا أن تراه

فإذا حذف الموصوف بقي بعده «من نحاس»، الذي هو صفة لشيء محذوف، وحذف «من» لأن ذكره قد تقدم في قوله: ﴿مِن نَّارٍ﴾، فحسن لذلك حذفها، كما حسن حذف الجار من قولهم: على من تنزل أنزل (أي عليه). وكما أنشده أبو زيد من قول الشاعر:

وأصبحَ من أسماءَ قَيْسٌ كقابضٍ على الماءِ لا يدرِي بما هُوَ قابضُ

أي: بما هو قابض عليه، فحذف لدلالة الكلام المتقدم عليه، وكما حذف الجار عند الخليل في قوله:

إن لم يجد يوماً على من يتكل

---

(١) وفي بعض النسخ: اقياظاً.
(٢) السليط: الزيت وكل دهن عصر من حبّ جيّد.
(٣) فشّ الوطب: أخرج ما فيه من الريح، وذلك بأن يحل وكاؤه، ويفتح فاه، فتخرج منه الريح التي كان قد نفخها فيه.
(٤) في نسخة: تلوتها.

يريد: من يتكل عليه، فحذف الجار لأنه جرى ذكره قبل، فيكون انجرار «نحاس» على هذا بمن المضمرة، لا بالإشراك في من التي جرت في قوله: ﴿مِن نَّارٍ﴾، فإذا انجر بمن لم يكن للشواظ الذي هو اللهب قسط من الدخان.

● **اللغة:** الثقلان: أصله من الثقل، وكل شيء له وزن وقدر فهو ثِقل، ومنه قيل: لبيض النعامة: ثقل قال:

فتذكّرا ثَقَلًا رثيداً بَعْدَ ما ... أَلْقَتْ ذُكاءُ يمينَها في كافرِ(١)

وإنما سميت الإنس والجن ثقلين لعظم خطرهما وجلالة شأنهما، بالإضافة إلى ما في الأرض من الحيوانات، ولثقل وزنهما بالعقل والتمييز، ومنه قول النبي ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي». سماهما ثقلين لعظم خطرهما وجلالة قدرهما. وقيل: إن الجن والإنس سميا ثقلين لثقلهما على الأرض أحياء وأمواتاً، ومنه قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي: أخرجت ما فيها من الموتى. والعرب تجعل السيد الشجاع ثِقلًا على الأرض. قالت الخنساء:

أَبَعْدَ ابن عَمرو من آل الشَّريدِ ... حَلَّتْ به الأرضُ أثقالَها

والمعنى: إنه لما مات حل عنها ثقل بموته لسؤدده ومجده. وقيل: إن المعنى: زينت موتاها به من التحلية. والأقطار: جمع القُطر: وهو الناحية. يقال: طعنه فقطره إذا ألقاها على أحد قطريه، وهما جانباه. والسيماء: مشتق من السوم: وهو رفع الثمن عن مقداره، والعلامة ترفع بإظهارها لتقع المعرفة بها. والناصية: شعر مقدم الرأس، وأصله: الاتصال من قول الشاعر:

قِيٌّ تناصيها بلاد قِيّ(٢)

أي: تتصل بها، فالناصية متصلة بالرأس. والأقدام: جمع قدم: وهو العضو الذي يقدم صاحبه للوطء به على الأرض. والآني: الذي بلغ نهاية حره، أنى يأني أنياً.

● **المعنى:** لما ذكر سبحانه الفناء والإعادة، عقَّب ذلك بذكر الوعيد والتهديد، فقال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ أي: سنقصد لحسابكم أيها الجن والإنس، عن الزجاج: قال: والفراغ في اللغة على ضربين:

أحدهما: القصد للشيء يقال: سأفرغ لفلان، أي: سأجعله قصدي.

والآخر: الفراغ من شغل، والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن.

وقيل: معناه سنعمل عمل من يفرغ للعمل فيجوده من غير تضجيع فيه. وقيل: سنفرغ لكم من الوعيد بتقضي أيامكم المتوعد فيها، فشبه ذلك بمن فرغ من شيء وأخذ في آخر. والشغل والفراغ من صفات الأجسام التي تحلها الأعراض، وتشغلها عن الأضداد في تلك الحال، ولذلك وجب أن يكون في صفة القديم تعالى مجازاً.

---

(١) فتذكرا أي الظليم والنعامة والرثيد ما رثد أي نضد ووضع بعضه فوق بعض.

(٢) القيّ بالكسر: قفر الأرض.

ويدل على أن الثقلين المراد بهما الجن والإنس قوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ﴾ أي: تخرجوا هاربين من الموت. يقال: نفذ الشيء من الشيء إذا خلص منه، كالسهم ينفذ من الرمية. ﴿مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: جوانبهما ونواحيهما، والمعنى: حيث ما كنتم أدرككم الموت، ﴿فَٱنفُذُواْۚ﴾ أي: فاخرجوا فإن تستطيعوا أن تهربوا منه. ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ أي: حيث توجهتم فَثَمَّ ملكي، ولا تخرجون من سلطاني، فأنا آخذكم بالموت، عن عطاء. ومعنى السلطان: القوة التي سلط[1] بها على الأمر، ثم الملك، والقدرة، والحجة كلها سلطان.

وقيل: لا تنفذون إلا بسلطان أي: لا تخرجون إلا بقدرة من الله وقوة يعطيكموها، بأن يخلق لكم مكاناً آخر سوى السماوات والأرض، ويجعل لكم قوة تخرجون بها إليه. فبيَّن سبحانه بذلك أنهم في حبسه وأنه مُقتَدِرٌ عليهم لا يفوتونه، وجعل ذلك دلالة على توحيده وقدرته، وزجراً لهم عن معصيته ومخالفته.

وقيل: إن المعنى في الآية: إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات والأرض فاعلموا، فإنه لا يمكنكم ذلك، لا تنفذون إلا بسلطان، أي: لا تعلمونه إلا بحجة وبيان، عن ابن عباس.

وقيل: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ معناه: حيثما شاهدتم حجة الله وسلطانه الذي يدل على توحيده، عن الزجاج. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: بأي نعمه تكذبان؟ أبإخباره عن تحيركم لتحتالوا له بعمل الطاعة واجتناب المعصية، أو بإخباره عنكم أنكم لا تنفذون إلا بحجة لتستعدوا لذلك اليوم؟

﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ﴾ وهو اللهب الأخضر المنقطع من النار، ﴿وَنُحَاسٞ﴾ وهو الصُفْرُ المذاب للعذاب، عن مجاهد وابن عباس وسفيان وقتادة. وقيل: النحاس الدخان، عن ابن عباس في رواية أخرى وسعيد بن جبير. وقيل: النحاس المُهْلُ، عن ابن مسعود والضحاك. والمعنى: لا تنفذون ولو جاز أن تنفذوا وقدرتم عليه لأرسل عليكم العذاب من النار المحرقة. وقيل: معناه أنه يقال لهم ذلك يوم القيامة، ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا﴾ أي: يرسل على من أشرك منكما، وقد جاء في الخبر: يحاط على الخلق بالملائكة بلسان[2] من نار، ثم ينادون ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ ﴾، إلى قوله: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ﴾.

وروى مسعدة بن صدقة عن كليب قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام فأنشأ يحدثنا فقال: إذا كان يوم القيامة جمع الله العباد في صعيد واحد، وذلك أنه يوحي إلى السماء الدنيا أن اهبطي بمن[3] فيك، فيهبط أهل السماء الدنيا بمثل من في الأرض من الجن والإنس والملائكة، ثم يهبط أهل السماء الثانية بمثل الجميع مرتين، فلا يزالون كذلك حتى يهبط أهل سبع سماوات،

---

(١) وفي المخطوطة: يتسلط.
(٢) في نسخة: وبلسان.
(٣) في نسخة: «بما».

فيصير الجن والإنس في سبع سرادقات من الملائكة. ثم ينادي مناد: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾، الآية. فينظرون فإذا قد أحاط بهم سبعة أطواق من الملائكة. وقوله: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: فلا تقدران على دفع ذلك عنكما وعن غيركما، وعلى هذا فيكون فائدة الآية: إن عجز الثقلين عن الهرب من الجزاء، كعجزهم عن النفوذ من الأقطار، وفي ذلك اليأس من رفع الجزاء بوجه من الوجوه. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: بإخباره إياكم عن هذه الحالة لتتحرزوا عنها أم بغيره من النعم، فإن وجه النعمة في إرسال الشواظ من النار والنحاس على الثقلين، هو ما في ذلك لهم من الزجر في دار التكليف عن مواقعة القبيح، وذلك نعمة جزيلة.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ يعني يوم القيامة، إذا تصدعت السماء وانفك بعضها من بعض ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةً﴾ أي: فصارت حمراء كلون الفرس الورد، وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة أو الصفرة، فيكون في الشتاء أحمر وفي الربيع أصفر، وفي اشتداد البرد أغبر، سبحان خالقها والمصرف لها كيف يشاء. والوردة: واحدة الورد، فشبه السماء يوم القيامة في اختلاف ألوانها، بذلك. وقيل: أراد به وردة النبات وهي حمراء. وقد تختلف ألوانها ولكن الأغلب في ألوانها الحمرة، فتصير السماء كالورد في الاحمرار، ثم تجري ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ وهو جمع الدهن عند انقضاء الأمر وتناهي المدة. قال الحسن: هي كالدهان التي يصب بعضها على بعض بألوان مختلفة. قال الفراء: شبَّه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل، وشبه الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه، وهو قول مجاهد والضحاك وقتادة. وقيل: الدهان: الأديم الأحمر: وجمعه أدهنة، عن الكلبي. وقيل: هو عكر الزيت يتلون ألواناً، عن عطاء بن أبي رباح. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وجه النعمة في انشقاق السماء حتى وقع التقرير بها، هو ما في الإخبار به من الزجر والتخويف في دار الدنيا.

﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ يعني يوم القيامة ﴿لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾ أي: لا يسأل المجرم عن جرمه في ذلك الموطن، لما يلحقه من الذهول الذي تحار له العقول، وإن وقعت المسألة في غير ذلك الوقت، بدلالة قوله: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ وتقدير الآية: فيومئذ لا يسأل إنس عن ذنبه، ولا جان عن ذنبه. وقيل معناه: «فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان» سؤال استفهام، ليعرف ذلك بالمسألة من جهته، لأن الله تعالى قد أحصى الأعمال وحفظها على العباد. وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ للمحاسبة. وقيل: إن أهل الجنة حسان الوجوه، وأهل النار سود الوجوه، فلا يسألون من أي الحزبين هم، ولكن يسألون عن أعمالهم سؤال تقريع. وروي عن الرضا عليه السلام أنه قال: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ﴾ منكم ﴿عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾ والمعنى: إن من اعتقد الحق ثم أذنب ولم يتب في الدنيا عُذِّب عليه في البرزخ، ويخرج يوم القيامة وليس له ذنب يسأل عنه.

﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ أي: بعلامتهم، وهي سواد الوجوه، وزرقة العيون، عن الحسن وقتادة. وقيل: بإمارات الخزي. ﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ فتأخذهم الزبانية فتجمع بين نواصيهم وأقدامهم بالغل، ثم يسحبون في النار، ويقذفون فيها، عن الحسن وقتادة. وقيل: تأخذهم الزبانية

بنواصيهم وبأقدامهم، فتسوقهم إلى النار، والله أعلم. ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: ويقال لهم: هذه جهنم ﴿ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرون في الدنيا، قد أظهره الله تعالى حتى زالت الشكوك فادخلوها. ويمكن أنه لما أخبر الله سبحانه أنهم يؤخذون بالنواصي والأقدام قال للنبي ﷺ: هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون من قومك فسيردونها، فليهُن عليك أمرهم. ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي: يطوفوا مرة بين الجحيم، ومرة بين الحميم، فالجحيم النار، والحميم الشراب، عن قتادة. وقيل معناه: إنهم يعذبون بالنار مرة، ويتجرَّعون من الحميم يصب عليهم، ليس لهم من العذاب أبداً فرج، عن ابن عباس. والآني: الذي انتهت حرارته. وقيل: الآني: الحاضر. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الوجه في ذلك أن التذكير بفعل العقاب والإنذار به من أكبر النعم، لأن في ذلك زجراً عما يستحق به العذاب، وحثاً وبعثاً على فعل ما يستحق به الثواب.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ الكسائي وحده: «لم يطمِثهن» بكسر الميم في إحداهما، وضمها في الأخرى، والباقون بكسر الميم في الحرفين معاً.

● **الحجة:** قال أبو علي: يطمِث ويطمُث لغتان، وقال أبو عبيدة: لم يطمثهن أي: لم يمسهن. يقال: ما طمث هذا البعير حبل قط، أي: ما مسه. قال رؤبة:

كالبيض لم يطمث بهن طامث

● **اللغة:** الأفنان: جمع فنن وهو الغصن الغضّ الورق، ومنه قولهم: هذا فن آخر، أي: نوع آخر، ويجوز أن يكون جمع فن. والاتكاء: الاستناد للتكرمة والامتناع، والتكأة: تطرح للإنسان في مجالس الملوك للإكرام والإجلال، وهو من وكأت السقاء: إذا شددته. ومنه قولهم: العين وكاء السنة. والفرش: جمع فراش، وهو الموطأ الممهد للنوم عليه. والبطائن: جمع بطانة، وهو باطن الظهارة. والجنى: الثمرة التي قد أدركت على الشجرة، وهو صلح أن يجنى. ومنه قول عمرو بن عدي:

هذا جنايَ وخِيارُهُ فيهِ إذْ كُلُّ جانٍ يَدُهُ إلى فيهِ

وتمثل به علي عَلَيْهِ السَّلَامُ. وأصل الطمث: الدم، يقال: طمثت المرأة إذا حاضت. وطمثت: إذا دميت بالافتضاض، وبعير لم يطمث: إذا لم يمسه حبل ولا رحل. قال الفرزدق:

دُفِعْنَ إليَّ لم يُطْمَثْنَ قَبْلي وَهُنَّ أَصَحُّ مِنْ بَيْضِ النَّعامِ

● **الإعراب:** ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من المجرور باللام، أي: لهم جنتان في هذه الحالة، وما بين قوله: ﴿جَنَّتَانِ﴾ إلى قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ صفات لجنتين. ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ ابتداء وخبر في موضع الجر وصف لفرش. وقوله: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ اعتراض. وقوله: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ صفة أخرى لفرش. وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ حال ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: مشابهات للياقوت والمرجان. وقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، والتقدير: ولهم من دونهما جنتان.

● **المعنى:** ثم عقَّب سبحانه الوعيد بالوعد فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: مقامه بين يدي ربه للحساب، فترك المعصية والشهوة. قال مجاهد: وهو الذي يهم بالمعصية فيذكر الله تعالى فيدعها. وقيل: هذا لمن راقب الله تعالى في السر والعلانية جملة، فما عرض له من محرم تركه من خشية الله، وما عرض له من خير عمله وأفضى به إلى الله تعالى، لا يطلع عليه أحد. قال الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول من خير وشر، فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فله ﴿جَنَّتَانِ﴾ أي: جنة عدن، وجنة النعيم، عن مقاتل. وقيل: بستانان من بساتين الجنة، إحداهما داخل القصر، والأخرى خارج القصر، كما يشتهي الإنسان في الدنيا. وقيل: إحدى الجنتين منزله، والأخرى منزل أزواجه وخدمه، عن الجبائي. وقيل: جنة من ذهب، وجنة من فضة. ثم وصف الجنتين فقال: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ أي: ذواتا ألوان من النعيم، عن ابن عباس. وقيل: ذواتا ألوان من الفواكه، عن الضحاك. وقيل: ذواتا أغصان، عن الأخفش والجبائي ومجاهد. أي: ذواتا أشجار لأن الأغصان لا تكون إلا من الشجر، فدل بكثرة أغصانها على كثرة أشجارها، وبكثرة أشجارها على تمام حالها وكثرة ثمارها، لأن البستان إنما يكمل بكثرة الأشجار، والأشجار لا تحسن إلا بكثرة الأغصان. ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي: في الجنتين عينان من الماء تجريان بين أشجارهما. وقيل: عينان: إحداهما السلسبيل، والأخرى التسنيم، عن الحسن. وقيل: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين، عن عطية العوفي. ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي: في كلتا الجنتين من كل ثمرة نوعان، وضربان متشاكلان كتشاكل الذكر والأنثى، فلذلك سماهما زوجين، وذلك كالرطب واليابس من العنب والزبيب، والرطب واليابس من التين، وكذلك سائر الأنواع لا يقصر يابسه عن رطبه في الفضل والطيب. وقيل: معناه فيهما من كل نوع من الفاكهة ضربان، ضرب معروف وضرب من شكله غريب، لم يعرفوه في الدنيا.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال ممن ذكروا في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: قاعدين كالملوك ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ أي: من ديباج غليظ. ذكر البطانة ولم يذكر الظهارة؛ لأن البطانة تدل على أن لها ظهارة، والبطانة دون الظهارة، فتدل على أن الظهارة فوق الإستبرق. وقيل: إن

الظهائر من سندس وهو الديباج الرقيق، والبطانة من إستبراق. وقيل: الإستبرق الحرير الصيني، وهو بين الغليظ والدقيق. وروي عن ابن مسعود أنه قال: هذه البطائن فما ظنكم بالظهائر؟ وقيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظهائر؟ قال: هذا مما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾. ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾ الجنى: الثمر المجتنى أي: تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولي الله، إن شاء قائماً، وإن شاء قاعداً، عن ابن عباس. وقيل: ثمار الجنتين دانية إلى أفواه أربابها فيتناولونها متكئين. فإذا اضطجعوا نزلت بإزاء أفواههم فيتناولونها مضطجعين، لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك، عن مجاهد.

﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في الفرش التي ذكرها، ويجوز أن يريد في الجنان، لأنها معلومة وإن لم تذكر ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ قصرن طرفهن على أزواجهن لم يردن غيرهم، عن قتادة. قال أبو ذر(١): إنها تقول لزوجها: وعزة ربي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلني زوجتك، وجعلك زوجي. والطرف: جفن العين، لأنه طرف لها ينطبق عليها تارة، وينفتح تارة. ولم ﴿يَطۡمِثۡهُنَّ﴾ أي: لم يفتضهن، والافتضاض: النكاح بالتدمية، والمعنى: لم يطأهن ولم يغشهن ﴿إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾، فهن أبكار لأنهن خلقن في الجنة. فعلى هذا القول هؤلاء من حور الجنة. وقيل: هن من نساء الدنيا لم يمسهن منذ أنشئن خلق، عن الشعبي والكلبي، أي: لم يجامعهن في هذا الخلق الذي أنشئن فيه إنس ولا جان.

قال الزجاج: وفي هذه الآية دليل على أن الجني يغشى كما يغشى الإنسي. وقال ضمرة بن حبيب: وفيها دليل على أن للجن ثواباً وأزواجاً من الحور، فالإنسيات للإنس، والجنيات للجن. قال البلخي: المعنى أن يهب الله لمؤمني الإنس من الحور لم يطمثهن إنس، وما يهب الله لمؤمني الجن من الحور لم يطمثهن جان.

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ أي: هن على صفاء الياقوت في بياض المرجان، عن الحسن وقتادة. وقال الحسن: المرجان أشد اللؤلؤ بياضاً وهو صغاره، وفي الحديث: «إن المرأة من أهل الجنة يرى مخ ساقها(٢) من وراء سبعين حلة من حرير ـ عن ابن مسعود ـ كما يرى السلك من وراء الياقوت».

﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ أي: ليس جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة. وقيل: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة، عن ابن عباس. وجاءت الرواية عن أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال: «هل تدرون ما يقول ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن ربكم يقول: هل جزاء من أنعمنا عليه بالتوحيد إلا الجنة». وقيل: معناه هل جزاء من أحسن إليكم بهذه النعم إلا أن تحسنوا في شكره وعبادته. وروى العياشي بإسناده عن الحسين بن سعيد عن عثمان بن عيسى، عن علي بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: آية في(٣) كتاب الله مسجلة، قلت: ما

---

(١) وفي نسخة: ابن زيد بدل أبو ذر.

(٢) وفي نسخة: ساقيها.

(٣) وفي نسخة: من.

هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ جرت في الكافر والمؤمن، والبر والفاجر، ومن صنع إليه معروف فعليه أن يكافىء به، وليس المكافأة أن تصنع كما صنع حتى يربي، فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر: «ذو الجلال» بالرفع، والباقون بالجر. وفي الشواذ قراءة النبي ﷺ والجحدري ومالك بن دينار وابن محيصن والحسن وزهير القرقبي: «على رفارف خضر وعباقري حسان». وقراءة الأعرج: «خُضُر» بضمتين.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ «ذي الجلال» فجر، جعله صفة «لربك». وزعموا أن ابن مسعود قرأ «ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام» بالياء في كلتيهما. وقال الأصمعي: لا يقال: الجلال إلا في الله تعالى، فهذا يقوي الجر إلا أن الجلال قد جاء في غير الله، قال:

فلا ذا جلال هِبْنَه لجلاله ... ولا ذا ضياعٍ هُنَّ يَتْرُكْنَ للفقرِ

ومن رفع أجراه على الاسم. قال ابن جني: روى قطرب «عباقري» بكسر القاف غير مصروف. ورويناه عن أبي حاتم: «عباقَري» بفتح القاف غير مصروف أيضاً. قال أبو حاتم: ولا يشبه إلا أن يكون عباقر بفتح[1] القاف على ما تتكلم به العرب، قال: ولو قال: عباقري بكسر القاف وصرفوا، لكان أشبه بكلام العرب، كالنسب إلى مداين مدايني. والرفارف: رياض الجنة، عن سعيد بن جبير. وعبقر: موضع. قال امرؤ القيس:

كأنَّ صَليلَ المَروحين تَشُدُّهُ ... صليلُ زُيُوفٍ يُنْتَقَدْنَ بِعَبْقَرا[2]

---

(١) وفي نسختين: بكسر القاف.

(٢) الصليل: صوت وقع الحديد بعضه على بعض. والمرو: الحجارة الصلبة. والزيف: الدرهم الردي. وانتقد الدرهم: أخرج منه الزيف. يصف فرسه بأنّ وقع الحجارة بعضها على بعض حين شدة عَدْوه، بمنزلة وقع الدراهم الزائفة بعضها على بعض، حين ينتقدها النقاد في قرية بعبقر.

وقال زهير:

بِخَيْلٍ عليها جِنّةٌ عبقرية[١] جَدِيرُونَ يوماً أنْ يَنالوا أوْ يَسْتَعْلُوا

وأما ترك صرف «عباقري» فشاذ في القياس، ولا يستنكر شذوذ في القياس مع استمراره في الاستعمال، كما جاء عن الجماعة: «واستحوذ عليهم الشيطان» فهو شاذ في القياس مطرد في الاستعمال. وليس لنا أن نتلقى قراءة رسول الله ﷺ إلا بقبولها. وأما «خضُر» بضم الضاد فقليل، وهو من مواضع الشعر، كما قال طرفة:

وِرَاد أو شُقر

● **اللغة:** الدهمة: السواد، وادهام الزرع: إذا علاه السواد رِيّاً، ومنه: الدهماء، وتصغيره: الدهيماء للداهية، سميت بذلك لظلامها، والدهماء: القدر. والنضخ بالخاء المعجمة، أكثر من النضح بالحاء غير المعجمة، لأن النضح: الرش، وبالخاء كالبزل، والنضاخة: الفوارة التي ترمي بالماء صعداً. والرمان: مشتق من رَمَّ يرم رماً. لأن من شأنه أن يرم الفؤاد بجلائه له. والخيرات: جمع خيرة، والرجل خير والرجال خيار وأخيار. قال:

ولقد طَعَنْتُ مجامعَ الربلاتِ ربلاتِ هندٍ خيرةَ المَلكاتِ[٢]

وقال الزجاج: أصل خَيْرات خيِّرات فخفف. والخيام: جمع خيمة وهي بيت من الثياب على الأعمدة والأوتاد مما يتخذ للإصحار. والرفرف: رياض الجنة، من قولهم: رف النبات يرف أي: صار غضاً نضراً، وقيل: الرفرف: المجالس، وقيل: الوسائد، وقيل: إن كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف. قال ابن مُقبل:

وإنا لنَزّالونَ تَغْشى نِعالَنا سَواقِطُ مِنْ أَصْنافِ رَيْطٍ ورَفْرَفِ[٣]

والعبقري: عتاق الزرابي، والطنافس المخملة الموشمة، وهو اسم الجنس، واحدته عبقرية، قال أبو عبيدة: كل شيء من البُسُط عبقري، وكل ما بولغ في وصفه بالجودة نسب إلى عبقر، وهو بلد كان يوشى فيه البسط وغيرها.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي: ومن دون الجنتين اللتين ذكرناهما لمن خاف مقام ربه، جنتان أخريان دون الجنتين الأوليين، فإنهما أقرب إلى قصره ومجالسه في قصره، ليتضاعف له السرور بالتنقل من جنة إلى جنة، على ما هو معروف من طبع البشر، من شهوة مثل ذلك. ومعنى «دون» هنا مكان قريب من الشيء بالإضافة إلى غيره مما ليس له مثل قربه، وهو ظرف مكان. وإنما كان التنقل من جنة إلى جنة أخرى أنفع لأنه أبعد من الملل الذي

---

(١) المراد من عبقر في هذا البيت: هو الموضع الذي كانت العرب تزعم أنه كثير الجن.

(٢) الرَبلة والرَبَلة: كل لحمة غليظة. وقيل: أصول الأفخاذ. والمراد من مجامع الربلات: الفرج. ومن الطعن: الجماع.

(٣) الربط: جمع الربطة، وهي كل ملاءة ليست ذات قطعتين متشامّتين، بل كلها نسج واحد، وقطعة واحدة.

طبع عليه البشر. وقيل: إن المعنى أنهما دون الجنتين الأوليين في الفضل، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما».

وروى العياشي بالإسناد عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك أخبرني عن الرجل المؤمن، تكون له امرأة مؤمنة، يدخلان الجنة، يتزوج أحدهما الآخر؟ فقال: يا أبا محمد، إن الله حكم عدل، إذا كان هو أفضل منها خَيَّره، فإن اختارها كانت من أزواجه، وإن كانت هي خيراً منه خيَّرها، فإن اختارته كان زوجاً لها.

قال: وقال أبو عبد الله عليه السلام: لا تقولن الجنة واحدة، إن الله يقول: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، ولا تقولن درجة واحدة إن الله يقول: ﴿بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ إنما تفاضل القوم بالأعمال. قال: وقلت له: إن المؤمِنَين يدخلان الجنة، فيكون أحدهما أرفع مكاناً من الآخر، فيشتهي أن يلقى صاحبه، قال: من كان فوقه فله أن يهبط، ومن كان تحته لم يكن له أن يصعد، لأنه لا يبلغ ذلك المكان، ولكنهم إذا أحبوا ذلك واشتهوه التقوا على الأسرة.

وعن العلاء بن سيابة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: إن الناس يتعجبون منا إذا قلنا: يخرج قوم من جهنم(١) فيدخلون الجنة، ، فيقولون لنا: فيكونون مع أولياء الله في الجنة؟ فقال: يا غلام، إن الله يقول: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ لا والله لا يكونون مع أولياء الله، قلت كانوا كافرين؟ قال عليه السلام: لا والله لو كانوا كافرين ما دخلوا الجنة، قلت: كانوا مؤمنين؟ قال: لا والله لو كانوا مؤمنين ما دخلوا النار، ولكن بين ذلك. وتأويل هذا لو صح الخبر أنهم لم يكونوا من أفاضل المؤمنين وأخيارهم.

ثم وصف الجنتين فقال ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي: من خضرتهما قد اسودّتا من الري. وكل نبت أخضر فتمام خضرته أن يضرب إلى السواد، وهو على أتم ما يكون من الحسن، وهذا على قول من قال: إن الجنات الأربع لمن خاف مقام ربه، وهو قول ابن عباس. وقيل: الأوليان للسابقين، والأخريان للتابعين، عن الحسن. ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي: فوارتان بالماء، ينبع من أصلهما ثم يجريان، عن الحسن. قال ابن عباس: ينضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور. وقيل: ينضخان بأنواع الخيرات.

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾ يعني ألوان الفاكهة ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾. وحكى الزجاج عن يونس النحوي وهو من قدماء النحويين، أن النخل والرمان من أفضل الفواكه، وإنما فصلا بالواو لفضلهما. قال الأزهري: ما علمت أن أحداً من العرب قال في النخل والكرم وثمارها: إنها ليست من الفاكهة، وإنما قال ذلك من قال، لقلة علمه بكلام العرب، وتأويل القرآن العربي المبين. والعرب تذكر الأشياء جملة، ثم تختص شيئاً منها بالتسمية، تنبيهاً على فضل فيه، كما قال سبحانه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾.

﴿فِيهِنَّ﴾ يعني في الجنات الأربع ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أي: نساء خيرات الأخلاق، حسان

---

(١) وفي نسخة: من النار.

الوجوه، روته أم سلمة عن النبي ﷺ. وقيل: خيرات فاضلات في الصلاح والجمال، عن الحسن. حسان في المناظر والألوان. وقيل: إنهن نساء الدنيا ترد عليهم في الجنة وهن أجمل من الحور العين. وقيل: خيرات مختارات، عن جرير بن عبد الله. وقيل: لسن بذربات، ولا زفرات، ولا بَخِرات، ولا متطلعات، ولا متسوفات[1] ولا متسلطات، ولا طماخات ولا طوّافات في الطرق، ولا يَغِرن ولا يؤذين. وقال عقبة بن عبد الغفار: نساء أهل الجنة يأخذ بعضهن بأيدي بعض، ويتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها: نحن الراضيات فلا نسخط، ونحن المقيمات فلا نظعن، ونحن خيرات حسان، حبيبات لأزواج كرام. وقالت عائشة: الحور العين إذا قلن هذه المقالة، أجابتهن المؤمنات من نساء الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن، فغلبتهن والله.

﴿حُورٌ﴾ أي: بيض حسان البياض، عن ابن عباس ومجاهد. ومنه الدقيق الحواري لشدة بياضه. والعين الحوراء إذا كانت شديدة بياض البياض، شديدة سواد السواد، وبذلك يتم حسن العين. ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ أي: محبوسات في الحجال مستورات في القباب، عن ابن عباس وأبي العالية والحسن. والمعنى أنهن مصونات مخدرات لا يبتذلن[2]. وقيل: مقصورات أي: قصرن على أزواجهن، فلا يرون بدلًا منهم، عن مجاهد والربيع. وقيل: إن لكل زوجة خيمة طولها ستون ميلًا، عن ابن مسعود. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الخيمة درة واحدة طولها في السماء ستون ميلًا، في كل زاوية منها أهل للمؤمن، لا يراه الآخرون». وعن ابن عباس. قال: الخيمة درة مجوفة، فرسخ في فرسخ، فيها أربعة آلاف مصراع، عن وهب[3]. وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «مررت ليلة أُسْرِيَ بي بنهر حافتاه قباب المرجان، فنوديت منه: السلام عليك يا رسول الله، فقلت: يا جبرائيل، ومن هؤلاء؟ قال: هؤلاء جوار[4] من الحور العين، استأذنّ ربهن عز وجل أن يسلمن عليك فأذن لهن، فقلن: نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نَيأس[5]، أزواج رجال كرام. ثم قرأ ﷺ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾». ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ مر معناه، والوجه في التكرير الإبانة عن أن صفة الحور المقصورات في الخيام كصفة القاصرات الطرف.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ أي: على فرش مرتفعة، عن الجبائي. وقيل: الرفرف رياض الجنة، والواحد رفرفة، عن سعيد بن جبير. وقيل: هي المجالس، عن ابن عباس وقتادة والضحاك. وقيل: هي المرافق، يعني الوسائد، عن الحسن. ﴿وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾ أي: وزرابي

---

(١) وفي المخطوطة: المتشوقات. والمتشوق: من يظهر الشوق تكلفاً.

(٢) وفي المخطوطة: «لا يتبدلن».

(٣) وفي سائر النسخ: «عن ذهب».

(٤) وفي نسخة: «حور».

(٥) وفي نسخة: «لانبئس» وفي أخرى: «لا نيبس».

حسان، عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة، وهي الطنافس. وقيل: العبقري الديباج، عن مجاهد. وقيل: هي البُسُط، عن الحسن. قال القتيبي: كل ثوب موشى فهو عبقري، وهو جمع، ولذلك قال ﴿حِسَانٍ﴾. ثم ختم السورة بما ينبغي أن يبجل به ويعظّم، فقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ أي: تعاظم وتعالى اسم ربك، لأنه استحق أن يوصف بما لا يوصف به غيره، من كونه قديماً وإلٰهاً وقادراً لنفسه، وعالماً لنفسه، وحياً لنفسه، وغير ذلك. ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ أي: ذي العظمة والكبرياء ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ يكرم أهل دينه وولايته، عن الحسن. وقيل معناه: عظمة البركة في اسم ربك، فاطلبوا البركة في كل شيء بذكر اسمه. وقيل: إن اسم صلة لمعنى «تبارك ربك». قال لبيد:

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عَلَيْكما ... ومَنْ يَبْكِ حولًا كاملًا فَقَدِ اعْتَذَرَ

وقيل: إن المعنى أن اسمه منزّه عن كل سوء، له الأسماء الحسنى. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «أنطقوا بيا ذا الجلال والإكرام». أي: داوموا عليه.

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

مكية/آياتها (٩٦)

مكية، وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة وهي: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، وقيل: إلا قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ نزلت في سفره إلى المدينة.

● **عدد آيها:** تسع وتسعون حجازي شامي، سبع بصري، ست كوفي.

● **اختلافها:** أربع عشرة آية ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ﴾، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ ثلاثهن غير الكوفي. والمدني الأخير ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ غير البصري. ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ غير المكي، ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ﴾ مكي، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ مكي. والمدني الأخير ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ حجازي كوفي ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ كوفي والمدني الأول. ﴿تَأْثِيمًا﴾ عراقي شامي، والمدني الأخير ﴿وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ غير شامي والمدني الأخير، ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ شامي. والمدني الأخير ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ شامي.

● **فضلها:** أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الواقعة كُتب ليس من الغافلين». وعن مسروق قال: من أراد أن يعلم نبأ الأولين[1] والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ الدنيا، ونبأ الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة.

وروي أن عثمان بن عفان، دخل على عبد الله بن مسعود، يعوده في مرضه الذي مات فيه، فقال له: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: ما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: أفلا ندعو الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: أفلا نأمر بعطائك؟ قال: منعتنيه وأنا محتاج إليه، وتعطينيه وأنا مستغن عنه، قال: يكون لبناتك، قال: لا حاجة لهن فيه فقد أمرتهن أن يقرأن سورة الواقعة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة، لم تصبه فاقة أبداً».

وروى العياشي بالإسناد عن زيد الشحام، عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ سورة الواقعة قبل أن ينام لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر. وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ في كل ليلة جمعة الواقعة أحبه الله، وحبَّبه إلى الناس أجمعين، ولم ير في الدنيا بؤساً أبداً، ولا فقراً، ولا آفة من آفات الدنيا، وكان من رفقاء أمير المؤمنين. تمام الخبر.

● **تفسيرها:** ختم الله سبحانه سورة الرحمٰن بصفة الجنة، وافتتح هذه السورة أيضاً بصفة القيامة والجنة، فاتصلت إحداهما بالأخرى اتصال النظير بالنظير، فقال:

---

(١) [والاخرين].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة الحسن والثقفي وأبي حيوة: «خافضةً رافعةً» بالنصب.

● **الحجة:** هذا منصوب على الحال، قال ابن جني: وقوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ حال أخرى قبلها، أي: إذا وقعت الواقعة صادقة الوقعة خافضةً رافعة، فهذه ثلاثة أحوال. ومثله: مررت بزيد جالساً متكئاً ضاحكاً، وإن شئت أن تأتي بأضعاف ذلك جاز وحسن، كما أن لك أن تأتي للمبتدأ من الأخبار بما شئت، فتقول: زيد عالمٌ فارس كوفيٌّ بزازٌ، ونحو ذلك. ألا ترى أن الحال زيادة في الخبر وضرب منه.

● **اللغة:** الكاذبة: مصدر مثل العافية والعاقبة. والرج: التحريك باضطراب واهتزاز، ومنه قولهم: ارتج السهم عند خروجه من القوس. والبس: الفتُّ كما يبسُّ السويق، أي: يلت. قال الشاعر:

لا تـخـبـزا خـبـزاً وبُـسّـاً بـسـا

والبسيس: السويق أو الدقيق يتخذ زاداً، وبُست أيضاً: سيقت، عن الزجاج. قال الشاعر:

وانـبـسَّ حـبّـاتُ الـكـثـيـب الأهـيـل

والهباء: غبار كالشعاع في الرقة، وكثيراً ما يخرج مع شعاع الشمس من الكوة النافذة. والانبثاث: افتراق الأجزاء الكثيرة في الجهات المختلفة. والأزواج: الأصناف التي بعضها مع بعض، كما يقال للخفين: زوجان. والثلاثة: الجماعة، وأصله القطعة من قولهم: ثُل عرشه، إذا قطع ملكه بهدم سريره. والثلة: القطعة من الناس. والموضونة: المنسوجة المتداخلة، كصفة الدرع المتضاعفة. قال الأعشى:

وَمِـــنْ نَـــسْـــجِ داودَ مَـــوْضُـــونَـــةً ... تُـساقُ إلـى الـحـيِّ عـيـراً فـعـيـرا

ومنه: وضين الناقة، وهو البطان من السيور[1]، إذا نسج بعضه على بعض مضاعفاً.

● **الإعراب:** ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ظرف من معنى ليس، لأن التقدير: لا يكون لوقعتها

---

(١) السيور: جمع السير، وهو قطعة مستطيلة من جلد غير مدبوغ، يخصف به النعل.

كاذبة. و﴿لَيۡسَ﴾ نفي الحال، فلا يكون ﴿إِذَا﴾ ظرفاً منه. ويجوز أن يكون العامل في ﴿إِذَا﴾ محذوفاً لدلالة الموضع عليه، كأنه قال: إذا وقعت الواقعة كذلك، فاز المؤمنون وخسر الكافرون.

وقال أبو علي: تقديره: فهي خافضة رافعة، فأضمر المبتدأ مع الفاء، وجعلها جواب «إذا»، أي: خفضت قوماً ورفعت قوماً إذ ذاك، ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ خبر المبتدأ المحذوف.

وقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾ بدل من قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾. ويجوز أن يكون ظرفاً من: يقع، أي: يقع في ذلك الوقت، ويجوز أن يكون خبراً عن ﴿إِذَا﴾ الأولى. ونظيره: إذا تزروني، إذاً أزور زيداً، أي: وقت زيارتك إياي، وقت زيارتي زيداً. قال ابن جني: ويجوز أن يفارق «إذا» الظرفية، كقول لبيد:

حتى إذا أَلْقَتْ يداً في كافرٍ وأَجَنَّ عَوْراتِ الثُّغُورِ ظَلامُها

وقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ فإذا مجرورة عند أبي الحسن بـ«حتى»، وذلك يخرجها من الظرفية.

وأقول: فعلى هذا لا يكون قوله «إذا» ظرفاً في الموضعين، بل كل واحد منهما في موضع الرفع، لكونهما مبتدأ وخبراً، بخلاف ما ظنه بعض المجودين من محققي زماننا في النحو. فإنه قال: قال عثمان ـ يعني ابن جني ـ : العامل في ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾ قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾، وهذا خطأ فاحش.

﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ رفع بالابتداء، والتقدير: فأصحاب الميمنة ما هم أي: أي شيء هم. وأصحاب المشئمة؟ أي: أي شيء هم. وهذه اللفظة مجراة مجرى التعجب. و﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ و﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ نصب على الحال.

● **المعنى:** ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ أي: إذا قامت القيامة، عن ابن عباس. والواقعة: اسم القيامة كالآزفة وغيرها، والمعنى: إذا حدثت الحادثة، وهي الصيحة عند النفخة الأخيرة لقيام الساعة. وقيل: سميت بها لكثرة ما يقع فيها من الشدة أو لشدة وقعها، وتقديره: اذكروا إذا وقعت الواقعة، وهذا حث على الاستعداد لها. ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: ليس لمجيئها وظهورها كذب، ومعناه: إنها تقع صدقاً وحقاً، فليس فيها ولا في الإخبار عنها ووقوعها كذب. وقيل: معناه ليس لوقوعها قضية كاذبة، أي: ثبت وقوعها بالسمع والعقل. ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ أي: تخفض ناساً وترفع آخرين، عن ابن عباس. وقيل: تخفض أقواماً إلى النار، وترفع أقواماً إلى الجنة، عن الحسن والجبائي. والمعنى الجامع للقولين: إنها تخفض رجالاً كانوا في الدنيا مرتفعين وتجعلهم أذلة بإدخالهم النار، وترفع رجالاً كانوا في الدنيا أذلة وتجعلهم أعزة بإدخالهم الجنة. ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾ أي: حركت حركة شديدة. وقيل: زلزلت زلزالاً شديداً، عن ابن عباس وقتادة ومجاهد، أي: رجفت بإماتة مَنْ على ظهرها من الأحياء. وقيل: معناه رجت بما فيها كما يرج الغربال بما فيه، فيكون المراد: ترج بإخراج مَنْ في بطنها من الموتى. ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ

بَسًّا﴾ أي: فُتّت[1] فتاً، عن ابن عباس ومجاهد ومقاتل. وقيل: معناه كسرت كسراً، عن السدي[2] عن سعيد بن المسيب. وقيل: قلعت من أصلها، عن الحسن. وقيل: سيرت عن وجه الأرض تسييراً، عن الكلبي. وقيل: بسطت بسطاً كالرمل والتراب، عن ابن عطية. وقيل: جعلت كثيباً مهيلًا بعد أن كانت شامخة طويلة، عن ابن كيسان. ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ أي: غباراً متفرقاً كالذي يرى في شعاع الشمس إذا دخل من الكوة.

ثم وصف سبحانه أحوال الناس بأن قال: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ أي: أصنافاً ثلاثة. ثم فسَّرها فقال: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ يعني اليمين وهم الذين يعطون كتبهم بإيمانهم، عن الضحاك والجبائي. وقيل: هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة. وقيل: هم أصحاب اليمين والبركة على أنفسهم، والثواب من الله سبحانه بما سعوا من الطاعة، وهم التابعون بإحسان، عن الحسن والربيع. ثم عجَّب سبحانه رسوله من حالهم تفخيماً لشأنهم فقال: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي: أي شيء هم؟ كما يقال: هم ما هم؟

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ وهم الذين يُعْطَوْنَ كتبهم بشمالهم. وقيل: هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار. وقيل: هم المشائيم على أنفسهم بما عملوا من المعصية. ثم عجَّب سبحانه رسوله من حالهم تفخيماً لشأنهم في العذاب فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾.

ثم بيَّن سبحانه الصنف الثالث فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ أي: والسابقون إلى اتباع الأنبياء الذين صاروا أئمة الهدى، فهم السابقون إلى جزيل الثواب عند الله، عن الجبائي. وقيل: معناه السابقون إلى طاعة الله، وهم السابقون إلى رحمته، والسابق إلى الخير إنما كان أفضل لأنه يقتدى به في الخير، وسبق إلى أعلى المراتب قبل من يجيء بعده، فلهذا يميز[3] بين التابعين. فعلى هذا يكون السابقون الثاني خبراً عن الأول، ويجوز أن يكون الثاني تأكيداً للأول، والخبر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: والسابقون إلى الطاعات يقربون إلى رحمة الله في أعلى المراتب، وإلى جزيل ثواب الله في أعظم الكرامة.

ثم أخبر تعالى أين محلهم فقال: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ لئلا يتوهم مُتَوَهِّم أن التقريب يخرجهم إلى دار أخرى، فأعلم سبحانه أنهم مُقَرَّبون من كرامة الله في الجنة، لأن الجنة درجات ومنازل بعضها أرفع من بعض.

وقد قيل في السابقين: إنهم السابقون إلى الإيمان، عن مقاتل وعكرمة. وقيل: السابقون إلى الهجرة، عن ابن عباس. وقيل: إلى الصلوات الخمس، عن علي عليه السلام. وقيل إلى الجهاد، عن الضحاك. وقيل: إلى التوبة وأعمال البر، عن سعيد بن جبير. وقيل: إلى كل ما دعا الله إليه، عن ابن كيسان. وهذا أولى لأنه يعم الجميع. وكان عروة بن الزبير يقول: تقدموا تقدموا.

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: السابقون أربعة: ابن آدم المقتول، وسابق في[4] أمة

---

(١) فتّ الشيء: دقه وكسره.

(٢) في المخطوطة: وسعيد بن المسيب.

(٣) في المخطوطة: «من التابعين».

(٤) فيها أيضاً سابق أُمة... بدون لفظة «في».

موسى عليه السلام، وهو مؤمن آل فرعون، وسابق في أمة عيسى عليه السلام وهو حبيب النجار، والسابق في أمة محمد ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: هم ثلة يعني جماعة كثيرة العدد من الأولين، من الأمم الماضية. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ من أمة محمد ﷺ، لأن من سبق إلى إجابة نبينا ﷺ قليل، بالإضافة إلى من سبق إلى إجابة النبيين قبله، عن جماعة من المفسرين. وقيل: معناه جماعة من أوائل هذه الأمة، وقليل من أواخرهم ممن قرب حالهم من حال أولئك. قال مقاتل: يعني سابقي الأمم، وقليل من الآخرين من هذه الأمة. ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ أي: منسوجة، كما يُوضَن حلق الدرع، فيدخل بعضها في بعض. قال المفسرون: منسوجة بقضبان الذهب، مشبكة بالدر والجواهر ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ أي: مستندين جالسين جلوس الملوك. ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ أي: متحاذين، كل واحد منهم بإزاء الآخر، وذلك أعظم في باب السرور، والمعنى: إن بعضهم ينظر إلى وجه بعض، لا ينظر في قفاه لحسن معاشرتهم، وتهذب أخلاقهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي: «وحورٍ عينٍ» بالجر، والباقون: بالرفع. وفي الشواذ قراءة ابن أبي إسحاق: «ولا ينزِفون» بفتح الياء وكسر الزاي، وقراءة أُبيّ بن كعب وابن مسعود: «وحوراً عيناً».

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه الرفع في «وحور عين» أنه لما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ دل الكلام، وما ذكر بعد، على أن لهم فيها كذا وكذا، ولهم فيها حور عين، وكذلك من نصب حمل على المعنى، لأن الكلام دل على يمنحون ويملكون، وهذا مذهب سيبويه.

ويجوز أن يحمل الرفع على قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾، التقدير: وعلى سرر موضونة حور عين، أو وحور عين على سرر موضونة، لأن الوصف قد جرى عليهن فاختصصن، فجاز أن يرفع بالابتداء، ولم يكن كالنكرة إذا لم يوصف نحو: «فيها عين». وقوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ خبر لقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ فكذلك يجوز أن يكون خبراً عنهن.

ويجوز في ارتفاع «وحورٌ عينٌ» أن يكون عطفاً على الضمير في ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾، ولم يؤكد لكون طول الكلام بدلاً من التأكيد. ويجوز أيضاً أن يعطفه على الضمير في ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ ولم يؤكد لطول الكلام أيضاً، وقد جاء: ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ فهذا أجدر.

وقال الزجاج: الرفع أحسن الوجهين، لأن معنى: يطوف عليهم ولدان مخلدون بهذه الأشياء، أنه قد ثبت لهم ذلك، فكأنه قال: ولهم حور عين، ومثله مما حمل على هذا[١] المعنى قول الشاعر:

بَـادَتْ وغَـيَّـرَ آيَـهُـنَّ مَـعَ الـبِـلى، إلا رواكِـدَ جَـمْـرُهُـنَّ هَـبَـاءُ

ثم قال بعده:

وَمُـشَـجَّـجٌ أمَّـا سَـواءُ قَـذالِـهِ فَـبَـدا، وَغَـيَّـرَ سَـارَهُ الـمَـعْـزاءُ[٢]

لأنه لما قال: إلا رواكد، كان المعنى: بها رواكد، فحمل: ومشجج، على المعنى. وقال غيره: تقديره: وهناك حور عين.

قال أبو علي: وجه الجر أن يكون يحمله على قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ التقدير: أولئك المقربون في جنات النعيم، وفي حور عين، أي: وفي مقاربة حور عين، أو معاشرة حور عين، فحذف المضاف. فإن قلت: فَلِمَ لا تحمله على الجار في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ بكذا، وبحور عين، فهذا يمكن أن يقال، إلا أن أبا الحسن قال: في ذا بعض الوحشة.

قال ابن جني[٣]: نزف البئر ينزفها نزفاً، إذا استقى ماءها، وأنزفت الشيء: إذا أفنيته. قال الشاعر:

لَعَـمْـري لَئِنْ أَنْـزَفْـتُـمُ أَوْ صَـحَـوْتُـمُ لَبِـئْس الـنَّـدامـى كُـنْـتُـمُ آلَ أَبْـجَـرا[٤]

● **المعنى**: ثم أخبر سبحانه أنه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ﴾ أي: وُصفاء وغلمان للخدمة، ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: باقون لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون، عن مجاهد. وقيل: مقرَّطون. والخَلَد: القرط، يقال: خلد جاريته إذا حلاها بالقرطة، عن سعيد بن جبير والفراء. واختلف في هذه الولدان، فقيل: إنهم أولاد أهل الدنيا، لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها، ولا سيئات فيعاقبوا[٥]، فأُنزِلُوا هذه المنزلة، عن علي عليه السلام والحسن. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه سئل عن أطفال المشركين، فقال: «هم خدم أهل الجنة». وقيل: بل هم من خدم الجنة على صورة الولدان، خلقوا لخدمة أهل الجنة.

﴿بِأَكْوَابٍ﴾ وهي القداح الواسعة الرؤوس، لا خراطيم لها، عن قتادة، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ وهي التي

---

(١) ليس في المخطوطة لفظة هذا.
(٢) مر البيت ومعناه في هذا الجزء.
(٣) في المخطوطة: قال ابن جني يقال..
(٤) الندامى: جمع ندمان، وهو المنادم على الشرب أي: بئس المصاحبون أنتم في حال السكر، والصحو.
(٥) في نسخة: فيعاقبوا عليها.

لها خراطيم وعرى، وهو الذي يبرق من صفاء لونه. ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: ويطوفون أيضاً عليهم بكأس من خمر معين، أي: ظاهر للعيون جار. ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: لا يأخذهم من شربها صداع. وقيل: لا يتفرقون عنها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا تنزف عقولهم، بمعنى لا تذهب بالسكر، عن مجاهد وقتادة والضحاك. ومن قرأ «ينزفون» حمله على أنه لا تفنى خمرهم. ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي: ويطوفون عليهم بفاكهة مما يختارونه ويشتهونه. يقال: تخيرت الشيء: أخذت خيره. ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: وبلحم طير مما يتمنون، فإن أهل الجنة إذا اشتهوا لحم الطير خلق الله سبحانه لهم الطير نضيجاً، حتى لا يحتاج إلى ذبح الطير وإيلامه. قال ابن عباس: يخطر على قلبه الطير، فيصير[1] ممثلاً بين يديه على ما اشتهى. ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قد مرَّ بيانه. ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ أي: الدر المصون المخزون في الصدف، لم تمسه الأيدي. قال عمر بن أبي ربيعة:

وهي زهراءُ مثلُ لؤلؤةِ الغوّا ص، ميزت من جوهرٍ مكنونِ

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: نفعل ذلك لجزاء أعمالهم وطاعاتهم التي عملوها في دار التكليف الدنيا.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿لَغْوًا﴾ أي: ما لا فائدة فيه من الكلام، لأن كل ما يتكلمون به، فيه فائدة. ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي: لا يقول بعضهم لبعض: أثمت، لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم، عن ابن عباس. وقيل: معناه لا يتخالفون على شرب الخمر، كما يتخالفون في الدنيا، ولا يأثمون بشربها كما يأثمون في الدنيا. ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ أي: لا يسمعون إلا قول بعضهم لبعض على وجه التحية: سلاماً سلاماً، والمعنى أنهم يتداعون بالسلام على حسن الآداب، وكرم الأخلاق اللذين يوجبان التوادّ. ونصب ﴿سَلَٰمًا﴾ على تقدير: سلمك الله سلاماً بدوام النعمة وكمال الغبطة[2]. ويجوز أن يعمل سلام في ﴿سَلَٰمًا﴾، لأنه يدل على عامله كما يدل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ على العامل في نبات، فإن المعنى: أنبتكم فنبتم نباتاً. ويجوز أن يكون ﴿سَلَٰمًا﴾ نعتاً لقوله: ﴿قِيلًا﴾. ويجوز أن يكون مفعول قيل؛ فالوجوه الثلاثة تحتملها الآية.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

(١) وفي نسختين: فيطير.
(٢) في نسخة: العطية.

● **القراءة:** قرأ إسماعيل وحمزة وحماد ويحيى، عن أبي بكر وخلف: «عزباً» ساكنة الراء، والباقون: «عرباً» بضمتين.

● **الحجة:** العروب: الحسنة التبعل، قال لبيد:

وفي الحُدُوج عَرُوبٌ، غير فاحشةٍ، ريّا الروادفِ، يَعشَى دونها البصرُ[(١)]

والفَعول يجمع على فُعْل وفُعُل، فمن الثقيل قوله:

فاصبري إنك من قوم صُبُر

والتخفيف في ذلك شائع مطرد.

● **اللغة:** السدر: شجر النبق. وأصل الخضد: عطف العود اللين. فمن هاهنا المخضود: الذي لا شوك له، لأن الغالب أن الرَّطب اللين لا شوك له. والطلح: قال أبو عبيدة: هو كل شجر عظيم كثير الشوك، قال بعض الحداة:

بَشَّرها دليلُها وقالا: غداً تَرَيْنَ الطَّلْحَ، والجبالا

وقال الزجاج: الطلح: شجر أم غيلان، فقد يكون على أحسن حال. والمنضود: من نضدت المتاع إذا جعلت بعضه على بعض. والبكر: التي لم يفترعها الرجل، فهي على خلقتها الأولى من حال الإنشاء، ومنه البكرة: لأول النهار، والباكورة: لأول الفاكهة، والبكر: الفتي من الإبل، وجمعه بكار وبكارة. وجاء القوم على بكرتهم وبكرة أبيهم، عن الأزهري. والأتراب: جمع ترب: وهو اللدة الذي ينشأ مع مثله في حال الصبا، وهو مأخوذ من لعب الصبي بالتراب، أي: هم كالصبيان الذين هم على سن واحده قال ابن[(٢)] أبي ربيعة:

أَبْرَزُوها مِثْلَ المهاةِ، تُهادى بَيْنَ عَشْرٍ، كَواعِبٍ، أَتْرابِ[(٣)]

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أصحاب اليمين وعجب من شأنهم فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ وهو مثل قوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ وقد مرَّ معناه. ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ أي[(٤)]: منزوع الشوكة قد خضد شوكهُ، أي: قطع، عن ابن عباس وعكرمة وقتادة. وقيل: هو الذي خضد بكثرة حمله، وذهاب شوكه. وقيل: هو الموقر حملًا، عن الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان. وقال الضحاك: نظر المسلمون إلى وج، وهو واد مخصب بالطائف، فأعجبهم سدره،

---

(١) الحدج: مركب من مراكب النساء، نحو الهودج والمحفّة. والريّا: مؤنث الريان، وهو الأخضر الناعم من الأغصان وغيرها. ووجه ريان: كثير اللحم. والروادف: الأعجاز، جمع ردف أو الرادفة.

(٢) في المخطوطة: عمر بن أبي ربيعة.

(٣) المهاة: الشمس... والبقرة الوحشية. وقيل: نوع من البقر الوحشي، وهي أشبه بالمعز الأهلية. وقرونها صلاب جداً تشبه بها المرأة في سمنها وجمالها، وحسن عينيها. وفلان يهادي بين اثنين أي: يتمايل، أو بالبناء للمفعول أي: يمشي بينهما معتمداً عليهما، لضعفه. والمراد: مشية المتبختر.

(٤) وفي المخطوطة: (في سدر) أي: في نبق (مخضود) أي: منزوع.

وقالوا: يا ليت لنا مثل هذا، فنزلت الآية. ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو شجر الموز. وقيل: ليس بالموز، ولكنه شجر له ظل بارد ورطب، عن الحسن. وقيل: هو شجر يكون باليمن وبالحجاز، من أحسن الشجر منظراً. وإنما ذكر هاتين الشجرتين لأن العرب كانوا يعرفون ذلك، فإن عامة أشجارهم أم غيلان ذات أنوار، ورائحة طيبة. وروت العامة عن علي عليه السلام أنه قرأ عنده رجل ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ فقال: ما شأن الطلح؟ إنما هو «وطلع» كقوله: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، فقيل له: ألا تغيره؟ فقال: إن القرآن لا يهاج اليوم ولا يحرك. رواه عنه ابنه الحسن، وقيس بن سعد[1]، ورواه أصحابنا عن يعقوب بن شعيب، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قال: لا، وطلع منضود، والمنضود: الذي نضد بعضه على بعض، نضد بالحمل من أوله إلى آخره، فليستْ له سوق بارزة، فمن عروقه إلى أفنائه ثمر كله. ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي: دائم لا تنسخه الشمس، فهو باق لا يزول. والعرب تقول لكل شيء طويل لا ينقطع: ممدود، قال لبيد:

غَلَبَ البَقاءَ، وكانَ غيرَ مُغَلَّبِ، دهرٌ طويلٌ دائمٌ، ممدودُ

وقد ورد في الخبر: أن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها، اقرأوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾. وروي أيضاً: إن أوقات الجنة كغدوات الصيف، لا يكون فيها حر ولا برد. ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي: مصبوب يجري الليل والنهار ولا ينقطع عنهم، فهو مسكوب بسكب الله إياه في مجاريه. وقيل: مسكوب مصبوب على الخمر ليشرب بالمزاج. وقيل: مسكوب يجري دائماً في غير أخدود، عن سفيان وجماعة. وقيل: ليشرب على ما يرى من حسنه وصفائه، لا يحتاجون إلى تعب في استقائه. ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي: وثمار مختلفة كثيرة غير قليلة، والوجه في تكرير ذكر الفاكهة: البيان عن اختلاف صفاتها، فذكرت أولًا بأنها متخيرة، وذكرت هنا بأنها كثيرة، ثم وصفت بقوله: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي: لا تنقطع كما تنقطع فواكه الدنيا في الشتاء، وفي أوقات مخصوصة، ولا تمتنع ببعد متناول أو شوك يؤذي اليد، كما يكون ذلك في الدنيا. وقيل: إنها غير مقطوعة بالأزمان، ولا ممنوعة بالأثمان، لا يتوصل إليها إلا بالثمن.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ أي: بُسُط عالية كما يقال: بناء مرفوع. وقيل: مرفوع بعضها فوق بعض، عن الحسن والفراء. وقيل: معناه نساء مرتفعات القدر في عقولهن وحسنهن وكمالهن، عن الجبائي قال: ولذلك عقبه بقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾. يقال لامرأة الرجل: فراشه، ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر». ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ أي: خلقناهن خلقاً جديداً. قال ابن عباس: يعني النساء الآدميات. والعجز: الشمط، يقول: خلقناهن بعد الكبر والهرم في الدنيا خلقاً آخر. وقيل: معناه أنشأنا الحور العين كما هن عليه على هيئاتهن، لم ينتقلن من حال إلى حال، كما يكون في الدنيا. ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي: عذارى، عن الضحاك. وقيل: ولا يأتيهن أزواجهن إلا وجدوهن أبكاراً. ﴿عُرُبًا﴾ أي: متحننات على أزواجهن، متحببات إليهم. وقيل:

---

(١) قيل أيضاً: قيس بن سعيد.

عاشقات لأزواجهن، عن ابن عباس. وقيل: العروب اللعوب مع زوجها أُنساً به، كأنس العرب بكلام العربي. ﴿أَتْرَابًا﴾ أي: متشابهات مستويات في السن، عن ابن عباس وقتادة ومجاهد. وقيل: أمثال أزواجهن في السن. ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: هذا الذي ذكرناه لأصحاب اليمين جزاءً وثواباً على طاعتهم.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: جماعة من الأمم الماضية التي كانت قبل هذه الأمة، وجماعة من مؤمني هذه الأمة. قال الحسن: سابقو الأمم الماضية أكثر من سابقي هذه الأمة، وتابعو الأمم الماضية مثل تابعي هذه الأمة، يعني: إن أصحاب اليمين منهم مثل أصحاب اليمين منا.

وإنما نكر سبحانه الثلة ليدل على أنه ليس لجميع الأولين والآخرين، وإنما هو لجماعة منهم، كما يقال: رجل من جملة الرجال. وهذا الذي ذكرناه قول مقاتل وعطاء وجماعة من المفسرين.

وذهب جماعة منهم أن الثلتين جميعاً من هذه الأمة، وهو قول مجاهد والضحاك واختيار الزجاج. وروي ذلك مرفوعاً عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «جميع الثلتين من أمتي».

ومما يؤيد القول الأول، ويعضده من طريق الرواية، ما رواه نقلة الأخبار بالإسناد عن ابن مسعود قال: تحدثنا عند رسول الله ﷺ ليلة حتى أكثرنا الحديث، ثم رجعنا إلى أهلنا، فلما أصبحنا غدونا إلى رسول الله ﷺ، فقال: عرضت علي الأنبياء الليلة بأتباعها من أممها، فكان النبي تجيء معه الثلة من أمته، والنبي معه العصابة من أمته، والنبي معه النفر من أمته، والنبي معه الرجل[1] من أمته، والنبي ما معه من أمته أحد، حتى إذا أتى أخي موسى في كبكبة من بني إسرائيل. فلما رأيتهم أعجبوني، فقلت: أي رب! من هؤلاء؟ فقال: هذا أخوك موسى بن عمران، ومن معه من بني إسرائيل. فقلت: رب، فأين أمتي؟ قال: انظر عن يمينك، فإذا ظراب[2] مكة قد سدت بوجوه الرجال، فقلت[3]: من هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء أمتك، أرضيت؟ قلت: رب، رضيت. وقال[4]: أُنظر عن يسارك. فإذا الأفق قد انسد[5] بوجوه الرجال. فقلت: رب من هؤلاء؟ قيل: هؤلاء أُمتك أرضيت؟ قلت: رب رضيت. فقيل: إن مع هؤلاء سبعين ألفاً من أمتك يدخلون الجنة لا حساب عليهم. قال: فأنشأ عكاشة بن محصن من بني أسد[6] من خزيمة، فقال: يا نبي الله، ادع ربك أن يجعلني منهم، فقال: اللهم اجعله منهم. ثم أنشأ رجل آخر فقال: يا نبي الله ادع ربك أن يجعلني منهم، فقال: سبقك بها عكاشة. فقال نبي الله: فداكم أبي وأمي، إن استطعتم أن تكونوا من السبعين فكونوا، وإن عجزتم وقصرتم فكونوا

---

(١) وفي المخطوطة: رجل.
(٢) الظراب.
(٣) في المخطوطة: رب من. . .
(٤) فيها قيل.
(٥) فيها أيضاً: سد.
(٦) فيها أيضاً: ابن خزيمة.

من أهل الظراب، فإن عجزتم[١] وقصرتم فكونوا من أهل الأفق. وإني قد رأيت ثَمَّ ناساً كثيراً يتهاوشون كثيراً، فقلت: هؤلاء السبعون ألفاً. فاتفق رأينا على أنهم ناس ولدوا في الإسلام، فلم يزالوا يعملون به حتى ماتوا عليه. فانتهى[٢] حديثهم إلى رسول الله ﷺ، فقال: ليس كذلك، ولكنهم الذين لا يسرفون ولا يتكبَّرون ولا يتطيَّرون، وعلى ربهم يتوكَّلون. ثم قال: إني لأرجو أن يكون من تبعني ربع أهل الجنة، قال: فكبرنا، ثم قال: إني لأرجو أن يكون ثلث من أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: إني لأرجو أن يكون شطر أهل الجنة، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر. «أإذا متنا» بهمزتين، «أئنا لمبعوثون» بهمزتين أيضاً، ولم يجمع بين استفهامين إلا في هذا الموضع من القرآن. وقد ذكرنا مذهب غيره من القراء فيما تقدم، ومذهبه أيضاً في أمثاله. وقرأ أهل المدينة وعاصم وحمزة: «شُرب الهيم» بضم الشين، والباقون بفتحها.

● **الحجة:** قال أبو علي: إن ألحق ألف الاستفهام في قوله: ﴿أَءِنَّا﴾ أو لم تلحق، كان «إذا» متعلقاً بشيء دل عليه قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾. ألا ترى أن «إذا» ظرف من الزمان، فلا بد له من فعل أو معنى فعل يتعلق به، ولا يجوز أن يتعلق بقوله: ﴿مِتْنَا﴾ لأنه مضاف إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، وإذا لم يجز حمله على هذا الفعل، ولا على ما بعد «إن»، من حيث لم يعمل ما بعد «إن» فيما قبلها، كما لا يعمل ما بعد «لا» فيما قبلها، فكذلك لا يجوز أن يعمل ما بعد الاستفهام فيما قبله، علمت أنه يتعلق بشيء دل عليه قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وذلك: نحشر أو نبعث ونحوهما، مما يدل عليه هذا الكلام.

وأما الشُّرب فهو نحو الأكل والضرب، والشُّرب كالشغل والنكر. وأما الشِّرب فالمشروب كالطحن ونحوه. وقد يكون الشَّرب جمع شارب، مثل راكب ورَكْب وتاجر وتَجْر وراجل ورجل.

---

(١) فيها: فقصرتم.

(٢) في نسختين: فانهى.

● **اللغة:** السموم: الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن، ومسام البدن: خروقه، ومنه أُخِذَ السم الذي يدخل في المسام. واليحموم: الأسود الشديد السواد باحتراق النار، وهو يفعول من الحم، وهو الشحم المسود باحتراق النار. يقال: حممت الرجل: إذا سخمت وجهه بالفحم. والمترف: الممتنع من أداء الواجبات طلباً للترفه، وهي الرفاهية والنعمة. والحنث: نقض العهد المؤكد بالحلف. والهيم: الإبل العطاش التي لا تروى من الماء لداء يصيبها، والواحد أهيم، والأنثى: هيماء.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أصحاب الشمال فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ وهم الذين يُؤْخَذ بهم ذات الشمال إلى جهنم، أو الذين يأخذون كتبهم بشمالهم، أو الذين يلزمهم حال الشؤم والنكد. ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ أي: في ريح حارة تدخل مسامهم وخروقهم، وفي ماء مغلي حار انتهت حرارته. ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أي: دخان أسود شديد السواد، عن ابن عباس، وأبي مالك، ومجاهد، وقتادة. وقيل: اليحموم: جبل في جهنم يستغيث أهل النار إلى ظله. ثم نعت ذلك الظل فقال: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي: لا بارد المنزل ولا كريم المنظر، عن قتادة. وقيل: لا بارد يستراح إليه لأنه دخان جهنم، ولا كريم فيشتهى مثله. وقيل: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي: ولا منفعة فيه بوجه من الوجوه. والعرب إذا أرادت نفي صفة الحمد عن شيء نفت عنه الكرم. وقال الفراء: العرب تجعل الكريم تابعاً لكل شيء نفت عنه وصفاً تنوي به الذم، تقول: ما هو بسمين ولا كريم، وما هذه الدار بواسعة ولا كريمة.

ثم ذكر سبحانه أعمالهم التي أوجبت لهم هذه فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي: كانوا في الدنيا مُتَنَعِّمِين، عن ابن عباس. وذلك أن عذاب المترف أشد ألماً. وبيَّن سبحانه أن الترف ألهاهم عن الانزجار، وشغلهم عن الاعتبار، وكانوا(١) يتركون الواجبات طلباً لراحة أبدانهم. ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: الذنب العظيم، عن مجاهد وقتادة. والإصرار: أن يقيم عليه فلا يقلع عنه، ولا يتوب منه. وقيل: الحنث العظيم: الشرك، أي: لا يتوبون عنه، عن الحسن، والضحاك، وابن زيد. وقيل: كانوا يحلفون لا يبعث الله مَنْ يموت، وأن الأصنام أنداد الله، عن الشعبي والأصم. ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: ينكرون البعث والنشور، والثواب والعقاب، فيقولون مستبعدين لذلك منكرين له: أإذا خرجنا من كوننا أحياء وصرنا تراباً أنبعث؟ ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: أو يبعث آباؤنا الذين ماتوا قبلنا ويحشرون؟! إن هذا لبعيد. ومن قرأ: «أوَ آباؤنا» بفتح الواو فإنها واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي: الذين تَقَدَّمُوكم من آبائكم وغير آبائكم، والذين يتأخرون عن زمانكم ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ يجمعهم الله ويبعثهم، ويحشرهم إلى وقت يوم معلوم عنده، وهو يوم القيامة. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ الذين ضللتم عن طريق الحق، وجزتم عن الهدى، ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، ونبوة نبيه.

---

(١) في بعض النسخ: فكانوا.

﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ مُفَسَّر في سورة الصافات. ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾: الشجر: يؤنث ويذكر، فلذلك قال ﴿مِنْهَا﴾ ثم قال ﴿عَلَيْهِ﴾ وكذلك: الثمر: يؤنث ويذكر. ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ أي: كشرب الهيم، وهي الإبل التي أصابها الهيام: وهو شدة العطش، فلا تزال تشرب الماء حتى تموت، عن ابن عباس، وعكرمة، وقتادة. وقيل: هي الأرض الرملية التي لا تروى بالماء، عن الضحاك، وابن عيينة. ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ النُزُل: الأمر الذي ينزل عليه صاحبه، والمعنى: هذا طعامهم وشرابهم يوم الجزاء في جهنم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: «نحن قدرنا» بالتخفيف، والباقون: «قدَّرنا» بالتشديد. وقرأ أبو بكر: «أإنا لمغرمون» بهمزتين، والباقون بهمزة واحدة.

● **الحجة:** قال أبو علي: «قدرنا» في معنى «قدرنا»، ويدل عليه قوله:

وَمُفْرِهَةٍ، عَنْسٍ، قَدَرْتُ لِساقِها، فَخَرَّتْ كَما تتَايَعُ الرِّيحُ بالقَفْلِ(١)

والمعنى: قدرت ضربي لساقها فضربتها فخرت. ومثله في المعنى:

فإن تَعْتَذِر بالمَحْلِ مِنْ ذي ضُرُوعِها على الضَّيْفِ، نَجْرَحْ في عَراقِيبِها نَصْلي(٢)

● **اللغة:** يقال أمنى يمني، ومنى يمني، بمعنى. ومنه قراءة أبي السماك: «تَمنون» بفتح التاء. والأصل من المِنى وهو التقدير. قال الشاعر:

---

(١) أفرهت الناقة: إذا كانت تنتج الفره أي: النوق الخفيفات في السير. والعنس: الناقة الصلبة القوية. وتتايع الريح بورق الشجر، فأذهبت به. والقفل: ما يبس من الشجر.

(٢) المحل: الجدب. الكيد. السعاية. العرقوب: عصب غليظ موتر فوق عقب الإنسان. ومن الدابة في رجلها. ومنزلة الركبة في يدها. والنصل: حديدة السهم، والسيف، والرمح، والسكين. يقول: إن تعتذر للضيف بأن ليس في ضروعها لبن نشق عراقيبها بالنصل، ونجرحها.

لا تـأمَـنَـنَّ وإن أمـسَـيْـتَ فـي حَـرَمٍ حـتـى تُـلاقِـيَ مـا يَـمْـنـي لَكَ الـمـانـي

ومنه: المنية لأنها مقدرة تأتي على مقدار. والحطام: الهشيم الذي لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء، وأصل الحطم: الكسر، والحطم: السواق بعنف، يحطم بعضها على بعض. قال:

قـد لَفَّـهـا الـلَّيْـلُ بِـسَـوّاقٍ حُـطَـم

والتفكه: أصله تناول ضروب الفواكه للأكل، والفكاهة: المزاح، ومنه حديث زيد: كان من أفكه الناس مع أهله، ورجل فكه: طيب النفس. والمغرم: الذي ذهب ماله بغير عوض، وأصل الباب: اللزوم، والغرام: العذاب اللازم. قال الأعشى:

إن يـعـاقـبْ يَـكُـنْ غـرامـاً وإن يُـعـ ـطِ جـزيـلًا، فـإنـه لا يـبـالـي

والنار: مأخوذة من النور. قال الحارث:

فَـتَـنَـوَّرْتُ نـارَهـا مِـنْ بَـعـيـدٍ، بِـخَـزازى، هَـيْـهـاتَ مِـنْـكِ الـصَّلاءُ(١)

والإيراء: إظهار النار بالقدح، يقال: أورى يوري، ووريت بك زنادي أي: أضاء بك أمري. ويقال: قدح فأورى إذا أظهر النار، فإذا لم يور قيل: قدح فأكبى. والمقوي: النازل بالقواء من الأرض ليس بها أحد، وأقوت الدار: خلت من أهلها. قال النابغة:

أقْـوى وأَقْـفَـرَ مِـنْ نَـعْـمٍ وَغَـيَّـرهـا هُـوْجُ الـرِّيـاحِ بـهـابـي الـتُّـربِ مَـوّارُ(٢)

وقال عنترة:

حُـيِّـيـتَ مِـنْ طَـلَلٍ تَـقـادَمَ عَـهْـدُهُ أقْـوى، وأَقْـفَـرَ، بَـعْـدَ أُمِّ الـهَـيْـثَـمِ(٣)

● **المعنى**: ثم احتجَّ سبحانه عليهم في البعث بقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: نحن خلقناكم ولم تكونوا شيئاً وأنتم تعلمون ذلك، عن مقاتل. ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: فهلّا تصدقون؟ ولم لا تصدقون بالبعث؟ لأن من قدر على الإنشاء والابتداء قدر على الإعادة. ثم نبَّههم سبحانه على وجه الاستدلال على صحة ما ذكره فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي: ما تقذفون وتصبون في أرحام النساء من النطف فيصير ولداً ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾، أي: أأنتم تخلقون ما تمنون بشراً ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ فإذا لم تقدروا أنتم وأمثالكم على ذلك، فاعلموا أن الله سبحانه الخالق لذلك، وإذا ثبت أنه قادر على خلق الولد من النطفة، وجب أن يكون قادراً على إعادته بعد موته، لأنه ليس بأبعد منه.

(١) تنور النار من بعيد: تبصّرها. وخزازى: جبل كانوا يوقدون عليه غداة الغارة. والصلاء: الشواء، والوقود، والعظيم من النار.

(٢) الهوج: جمع الهوجاء، وهي الريح التي لا تستوي في هبوبها، وتقلع البيوت. والهابي: من هبا الغبار أي: سطع. وموضع هابي التراب أي: كأن ترابه هباء في الرقة. وتراب هابٍ أي: منتشر في الجو. وموّار: مبالغة من مار الشيء أي: تحرّك بسرعة، وجاء، وذهب.

(٣) مر البيت في ج٣.

ثم بيَّن سبحانه أنه كما بدأ الخلق فإنه يميتهم فقال: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ التقدير: ترتيب الأمر على مقدار. أي: نحن أجرينا الموت بين العباد على مقدار كما تقتضيه الحكمة، فمنهم من يموت صبياً، ومنهم من يموت شاباً، ومنهم من يموت كهلًا وشيخاً وهرماً، عن مقاتل. وقيل: معناه قدرناه بأن سوينا فيه بين المطيع والعاصي، وبين أهل السماء والأرض، عن الضحاك. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ قيل: إنه من تمام ما قبله، أي: لا يسبقنا أحد منكم على ما قدرناه من الموت حتى يزيد في مقدار حياته. وقيل: إنه ابتداء كلام يتصل به ما بعده، والمعنى: وما نحن بمغلوبين ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: نأتي بخلق مثلكم بدلًا منكم، وتقديره: نُبَدِّلكم بأمثالكم، فحذف المفعول الأول، والجار من المفعول الثاني. قال الزجاج: معناه إن أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق ولا يفوتنا. ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الصُّوَر، أي: إن أردنا أن نجعل منكم القردة والخنازير، لم نُسْبَق، ولا فاتنا ذلك وتقديره: كما لم نعجز عن تغيير أحوالكم بعد خلقكم، لا نعجز عن أحوالكم بعد موتكم. وقيل: أراد النشأة الثانية أي: ننشئكم فيما لا تعلمون من الهيئة المختلفة، فإن المؤمن يخلق على أحسن هيئة وأجمل صورة، والكافر على أقبح صورة. وقيل: إنما قال ذلك لأنهم علموا حال النشأة الأولى كيف كانت في بطون الأمهات، وليست الثانية كذلك لأنها تكون في وقت لا يعلمه العباد. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ أي: المرة الأولى من الإنشاء، وهو ابتداء الخلق حين خلقتم[١] من نطفة وعلقة ومضغة. ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فهلا تعتبرون وتستدلون بالقدرة عليها، على الثانية؟

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أي: ما تعملون في الأرض، وتلقون فيها من البذر ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ أي: أأنتم تنبتونه وتجعلونه زرعاً أم نحن المنبتون؟ فإن من قدر على إنبات الزرع من الحبة الصغيرة، وأن يجعلها حبوباً كثيرة؛ قدر على إعادة الخلق إلى ما كانوا عليه. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقولن أحدكم زرعت، وليقل حرثت». ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: جعلنا ذلك الزرع ﴿حُطَامًا﴾ أي: هشيماً لا يُنْتَفَعُ به في مطعم ولا غذاء. وقيل: تبناً لا قمح فيه، عن عطاء ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: تتعجبون مما نزل بكم في زرعكم، عن عطاء والكلبي ومقاتل. وقيل: معناه تندمون وتتأسفون على ما أنفقتم فيه، عن عكرمة وقتادة والحسن. وأصله من التفكه بالحديث وهو التلهي به، فكأنه قال: فظلتم تتروَّحون إلى التندم، كما يتروَّح الفَكِهُ إلى الحديث بما يزيل الهم. وقيل: معناه يتلاومون، عن عكرمة، أي: يلوم بعضكم بعضاً على التفريط في طاعة الله. ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي: تقولون: إنا لمغرمون، والمعنى: إنا قد ذهب مالنا كله، ونفقتنا، وضاع وقتنا ولم نحصل على شيء. وقيل: معناه إنا لمعذبون مجدودون[٢] عن الحظ، عن مجاهد. وفي رواية أخرى عنه: إنا لمولع بنا. وفي رواية أخرى: إنا لملقون في الشر. وقيل: محارفون، عن قتادة.

ومن قرأ: «أإنا» على الاستفهام، حمله على أنهم يقومون فيقولون منكرين لذلك.

---

(١) في بعض النسخ: خلقهم.

(٢) وفي سائر النسخ محدودون بالمهملة. وجدّ النخل بالجيم أي: صرمه وقطعه. وحدّ الله عنا الشر أي: كفّه وصرفه.

ومن قر: «إنا» على الخبر، حمله على أنهم مُخْبِرُون بذلك عن أنفسهم. ثم يستدركون فيقولون: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ أي: مبخوسو[1] الحظ محارفون، ممنوعون من الرزق والخير.

ثم قال سبحانه مُنبِّهاً على دلالة أخرى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ﴾ ﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ﴾ أي: من السحاب ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ﴾ نعمة منا عليكم، ورحمة بكم، ثم قال: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾ أي: مراً شديد المرارة. وقيل: هو الذي اشتدت ملوحته. ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ أي: فهلا تشكرون على هذه النعمة السنية التي لا يقدر عليها أحد غير الله.

ثم نبَّه سبحانه على دلالة أخرى فقال: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ أي: تستخرجونها وتقدحونها بزنادكم من الشجر، ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ﴾ التي تنقدح النار منها، أي: أأنتم أنبتّموها وابتدأتموها؟ ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾ لها؟ فلا يمكن لأحد أن يقول: إنه أنشأ تلك الشجرة غير الله تعالى. والعرب تقدح بالزند والزندة، وهو خشب يحك بعضه ببعض فتخرج منه النار، وفي المثل: في كل شجر نار واستمجد[2] المَرْخُ والعفار.

﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ﴾ أي: نحن جعلنا هذه النار تذكرة للنار الأخرى الكبرى، فإذا رآها الرائي ذكر جهنم، واستعاذ بالله منها، عن عكرمة ومجاهد وقتادة. وقيل: معناه تذكرة يتذكر بها ويتفكر فيها، فيعلم أن من قدر عليها وعلى إخراجها من الشجر الرطب قدر على النشأة الثانية. ﴿وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ أي: وجعلناها بلغة ومنفعة للمسافرين، عن ابن عباس والضحاك وقتادة. يعني الذين نزلوا الأرض القِيّ وهو القفر. وقيل: للمستمتعين بها من الناس أجمعين، المسافرين والحاضرين، عن عكرمة ومجاهد. والمعنى أن جميعهم يستضيئون بها من الظلمة، ويصطلون من البرد، وينتفعون بها في الطبخ والخبز. وعلى هذا فيكون المقوي من الأضداد، فيكون المقوي الذي صار ذا قوة من المال والنعمة. والمقوي أيضاً الذاهب ماله، النازل بالقِواء من الأرض، فالمعنى: ومتاعاً للأغنياء وللفقراء.

ولما ذكر سبحانه ما يدل على توحيده وإنعامه على عبيده قال: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: فبرِّىء الله تعالى مما يقولونه في وصفه، ونزِّهه عما لا يليق بصفاته. وقيل: معناه: قل: سبحان ربي العظيم، فقد صح عن النبي ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية قال: «اجعلوها في ركوعكم».

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ

(١) وفي نسخة: محبوسو الحظ.
(٢) أي: استكثرا من النار، ومعنى المثل: كأنهما أخذا من النار ما هو حسبهما. يقال: شبّها بمن يكثر العطاء طلباً للمجد، يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض.

تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «بموقع النجوم» بغير ألف، والباقون: «بمواقع النجوم» على الجمع. وروى بعضهم عن عاصم: «أنكم تكذبون» بالتخفيف، والقراءة المشهورة بالتشديد. وفي الشواذ قراءة الحسن والثقفي: «فلا قسم» بغير ألف. وقراءة علي عليه السلام وابن عباس، ورويت عن النبي ﷺ: «وتجعلون شكركم».

● **الحجة:** قال أبو عبيدة: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: فأقسم، ومواقعها: مساقطها حيث تغيب. وقال غيره: إنه مواقع القرآن حين نزل على النبي ﷺ نجوماً. فأما الجمع في ذلك وإن كان مصدراً، فلاختلاف ذلك، فإن المصادر وسائر أسماء الأجناس إذا اختلفت جاز جمعها. ومن قرأ «بموقع» فأفرد فلأنه اسم جنس، ومن قرأ «تَكْذِبون» فالمعنى: تجعلون رزقكم الذي رزقكموه الله فيما قال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ إلى قوله: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾. وقال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ إنكم تَكْذِبون في أن تنسبوا هذا الرزق إلى غير الله تعالى، فتقولون: مطرنا بنوء كذا. فهذا وجه التخفيف.

ومن قرأ «تُكذِّبون» فالمعنى: إنكم تكذِّبون بالقرآن؛ لأن الله تعالى هو الذي رزقكم ذلك على ما جاء في قوله تعالى: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ فتنسبونه أنتم إلى غيره، فهذا تكذيبكم بما جاء به التنزيل.

وأما ما روي من قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ فالمعنى: تجعلون مكان الشكر الذي يجب عليكم التكذيب. وقد يكون المعنى: وتجعلون شكر رزقكم التكذيب، فحذف المضاف. وقال ابن جني: هو على وتجعلون بدل شكركم، ومثله قول العجاج:

رَبَّيْتُهُ حتى إذا تَمَعْدَدا[1] كان جزائي بالعصا أنْ أُجْلَدا

أي: كان بدل جزائي الجلد بالعصا. وأما قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ فالتقدير: لأنا أقسم، وهو فعل الحال يدل على ذلك أن جميع ما في القرآن من الأقسام إنما هو حاضر الحال لا وَعْدُ الأقسام، كقوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ولذلك حملت لا على الزيادة في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ ونحوه: نعم. ولو أُريدَ به الفعل المستقبل للزمت فيه النون، فقيل: لأقسمن.

● **اللغة:** القسم: جملة من الكلام يؤكَّد بها الخبر، بما يجعله في قسم الصواب دون الخطأ. والعظيم: هو الذي يقصر مقدار ما يكون من غيره عما يكون منه، وهو ضربان: عظيم

---

(١) تَمَعْدَد الغلام: شبّ وغلظ وذهبت عنه رطوبة الصبا.

الشخص، وعظيم الشأن. والكريم: هو الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير. فلما كان القرآن من شأنه أن يعطي الخير الكثير بأدلته المؤدية إلى الحق كان كريماً على حقيقة معنى الكريم، لا على التشبيه بطريق المجاز. والكريم في صفات الله تعالى، من الصفات النفسية التي يجوز أن يقال فيها: لم يزل كريماً، لأن حقيقته تقتضي ذلك، من جهة أن الكريم هو الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير، فلما كان القادر على الكرم، الذي لا يمنعه مانع، من شأنه أن يعطي الخير الكثير، صح أن يقال: إنه لم يزل كريماً. والمدهن: الذي يجري في الباطن على خلاف الظاهر، كالدهن في سهولة ذلك عليه، والإسراع فيه. يقال: أدهن يدهن، وداهن يداهن، مثل نافق. والدَّيْن: هو الجزاء، ومنه قولهم: كما تدين تُدان. أي: كما تجزي تجزى، والدَّيْن: العمل الذي يستحق الجزاء.

● **الإعراب:** ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ العامل في «إذا» محذوف يدل عليه الفعل الواقع بعد «لولا»، وهو ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ في ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ﴾. وجواب الشرط أيضاً هو مدلول قوله: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ و﴿لَوْلَا﴾ هذه للتحضيض بمعنى: هلا، ولا يقع بعدها إلا الفعل. ويكون التقدير: فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم، فلولا إن كنتم. فكرَّر لولا ثانياً لطول الكلام.

● **المعنى:** ثم أكَّد سبحانه ما تقدم ذكره بقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ و«لا» زائدة، والمعنى: فأقسم، عن سعيد بن جبير. ويجوز أن يكون «لا» رداً لما يقوله الكفار في القرآن، من أنه سحر وشعر وكهانة. ثم استأنف القسم فقال: أُقسِم. وقيل: إن «لا» تزاد في القسم، فيقال: لا والله لا أفعل. وقال امرؤ القيس:

لا وأبـيـكِ ابـنـةَ الـعـامِـرِيّ، لا يَـدَّعـي الـقـومُ أنّـي أفِـرُّ

والمعنى: وأبيك. وقيل: إن المعنى لا أقسم على هذه الأشياء، فإن أمرها أظهر وآكد من أن يحتاج فيه إلى اليمين، عن أبي مسلم.

واختلف في معنى مواقع النجوم، فقيل: هي مطالع النجوم ومساقطها، عن مجاهد وقتادة. وقيل: انكدارها وهو انتشارها يوم القيامة، عن الحسن. وقيل: هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا مطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا، فيكون المعنى: فلا أُقسِمُ بها. وروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: إن مواقع النجوم رجومها للشياطين، وكان المشركون يقسمون بها، فقال سبحانه: فلا أقسم بها. وقيل: معناه أقسم بنزول القرآن، فإنه نزل متفرقاً قطعاً نجوماً، عن ابن عباس. ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ قال الزجاج، والفراء: وهذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن. والضمير في «إنه» يعود إلى القسم، ودل عليه قوله: أقسم، والمعنى: إن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون، ففصل بين الصفة والموصوف بالجملة.

ثم ذكر المقسم به فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ معناه: إن الذي تلونا عليك لقرآن كريم، أي: عام المنافع كثير الخير، يُنَال الأجر العظيم بتلاوته والعمل بما فيه. وقيل: كريم عند الله

تعالى، أكرمه الله تعالى وأعزه، لأنه كلامه، عن مقاتل. وقيل: كريم لأنه كلام رب العزة، ولأنه محفوظ عن التغيير والتبديل، ولأنه معجز، ولأنه يشتمل على الأحكام والمواعظ، وكل جليل خطير وعزيز فهو كريم. ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ أي: مستور من خلقه عند الله، وهو اللوح المحفوظ، أثبت الله فيه القرآن ـ عن ابن عباس. وقيل: هو المصحف الذي في أيدينا، عن مجاهد.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ معناه في القول الأول: لا يمسه إلا الملائكة، الذين وُصِفوا بالطهارة من الذنوب، وفي القول الثاني: إلا المطهرون من الشرك، عن ابن عباس. وقيل: المطهرون من الأحداث والجنابات. وقالوا[1]: لا يجوز للجنب، والحائض، والمحدث، مس المصحف، عن محمد بن علي الباقر عليه السلام، وطاووس وعطاء وسالم وهو مذهب مالك والشافعي، فيكون خبراً بمعنى النهي. وعندنا أن الضمير يعود إلى القرآن، فلا يجوز لغير الطاهر مس كتابة القرآن. ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: هذا القرآن منزل من عند الله تعالى الذي خلق العباد، ودبَّرهم على ما أراد على نبيه محمد صلى الله عليه وآله.

ثم خاطب سبحانه أهل مكة فقال: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ الذي حدَّثناكم به، وأخبرناكم فيه عن حوادث الأمور، وهو القرآن، ﴿أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، أي: مكذبون، عن ابن عباس. وقيل: مدهنون: ممالئون للكفار على الكفر به، عن مجاهد. وقيل: منافقون على التصديق به، أي: تقولون: آمنا به وتدهنون فيما بينكم وبين المشركين، إذا خلوتم فقلتم: إنا معكم. قال مؤرج: هو الذي يلين جانبه ليخفي كفره، وأصله من الدهن. ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: وتجعلون حظكم من الخير الذي هو كالرزق لكم أنكم تكذبون به. وقيل: وتجعلون شكر رزقكم التكذيب، عن ابن عباس قال: أصاب الناس عطش في بعض أسفاره فدعا صلى الله عليه وآله فسقوا، فسمع رجلًا يقول: مطرنا بنوء كذا، فنزلت الآية. وقيل: معناه وتجعلون حظكم من القرآن الذي رزقكم الله التكذيب به، عن الحسن.

﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ أي: فهلّا إذا بلغت النفس الحلقوم عند الموت ﴿وَأَنتُمۡ﴾ يا أهل الميت ﴿حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ﴾ أي: ترون تلك الحال، وقد صار إلى أن تخرج نفسه. وقيل: معناه تنظرون لا يمكنكم الدفع ولا تملكون شيئاً. ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾ بالعلم والقدرة ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ ذلك ولا تعلمونه. وقيل: معناه ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم، ولكن لا تبصرون رسلنا القابضين روحه. ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ ﴿تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ يعني: فهلا ترجعونها، أي: فهلا ترجعون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم، وتردونها إلى موضعها إن كنتم غير مجزيين بثواب وعقاب، وغير محاسبين. وقيل: غير مدينين معناه غير مملوكين. وقيل: غير مبعوثين، عن الحسن. والمراد أن الأمر إن كان كما تقولونه من أنه لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء، ولا إله يحاسب ويجازي، فهلا رددتم الأرواح والنفوس من

(١) وفي نسخة: وقيل بدل قالوا.

حلوقكم إلى أبدانكم إن كنتم صادقين في قولكم، فإذا لم تقدروا على ذلك، فاعلموا أنه من تقدير مُقْدِر حكيم، وتدبير مُدَبِّر عليم.

●●●

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب: «فرُوح» بضم الراء، وهو قراءة النبي ﷺ وابن عباس وأبي جعفر الباقر عليه السلام، وقتادة والحسن والضحاك وجماعة. والباقون: «فروح» بفتح الراء.

● **الحجة:** قال ابن جني: هو راجع إلى معنى الروح، فكأنه قال: فتمسك روح، وممسكها هو الروح، وكما تقول: هذا الهواء هو الحياة، وهذا السماع هو العيش، وهو الروح.

● **الإعراب:** ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ قال علي بن عيسى: دخلت كاف الخطاب كما تدخل في: ناهيك به شرفاً، وحسبك به كرماً، أي: لا تطلب زيادة على جلالة حاله، فكذلك «سلام لك» منهم، أي: لا تطلب زيادة على سلامهم، جلالة وعظم منزلة.

قال ابن جني: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: مهما يكن من شيء فسلام لك من أصحاب اليمين، إن كان من أصحاب اليمين، ولا ينبغي أن يكون موضع ﴿إِن كَانَ﴾ إلا هذا الموضع، لأنه لو كان موضعه بعد الفاء يليها، لكان قوله: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ جواباً في اللفظ لا في المعنى. ولو كان جواباً له في اللفظ لوجب إدخال الفاء عليه، لأنه لا يجوز في سعة الكلام: إن كان من أصحاب اليمين، سلام له. فلما وجد[1] الفاء فيه، ثبت أنه ليس بجواب لقوله: ﴿إِن كَانَ﴾ في اللفظ، وإذا ثبت أنه ليس بجواب له في اللفظ، ثبت أن موقع ﴿إِن كَانَ﴾ بعده، لا قبله.

قال: فإن قيل: إنما بدل الفاء التي تكون جواباً لقوله: ﴿إِن كَانَ﴾ لأجل الفاء التي تدخل جواباً لأما، لأنه لا يدخل حرف معنى على مثله. قيل: إنما تدخل الفاء التي لأما عليه؛ لأنه ليس بجواب لقوله: ﴿إِن كَانَ﴾ فلو كان جواباً له، لما دخلت عليه هذه الفاء في قوله: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ على أن «فاء» أما قد يكون موقعه بعد الفاء لا يليها.

وأما، لها موضعان من الكلام.

أحدهما: أن يكون لتفصيل الجمل، نحو قولك: جاءني القوم، فأما زيد فأكرمته، وأما عمرو فأهنته، ومنه ما في الآية.

(١) وفي نسخة هكذا: علما وجد (لم يوجد خ).

والثاني: أن تكون مركبة من «أن» و«ما»، ويكون «ما» عوضاً من «كان»، وذلك قولك: أما أنت منطلقاً انطلقت معك. والمعنى: إن كنت منطلقاً انطلقت معك. فموضع «أن» نصب لأنه مفعول له، وأنشد سيبويه:

أبا خُراشَةَ أما أنتَ ذا نَفَرٍ فإنَّ قومي لم تأكُلهُمُ الضَّبُعُ

أي: من أجل أن كنت. والضبع: السنة الشديدة.

● **المعنى**: ثم ذكر سبحانه صفات الخلق عند الموت فقال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ أي: فإن كان ذلك المحتضر الذي بلغت روحه الحلقوم من المقرَّبين عند الله، وهم السابقون الذين ذكروا في أول السورة؛ ﴿فَرَوۡحٞ﴾ أي: فله روح وهو الراحة والاستراحة، عن ابن عباس ومجاهد. يعني من تكاليف الدنيا ومشاقها. وقيل: الروح: الهواء الذي تستلذه النفس ويزيل عنها الهم. ﴿وَرَيۡحَانٞ﴾ يعني الرزق في الجنة. وقيل: هو الريحان المشموم من ريحان الجنة، يؤتى به عند الموت فيشمه، عن الحسن وأبي العالية وقتادة. وقيل: الروح: الرحمة، والريحان: كل نباهة وشرف. وقيل: الروح: النجاة من النار، والريحان: الدخول في دار القرار. وقيل: روح في القبر وريحان في الجنة. وقيل: روح في القبر، وريحان في القيامة. ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ يدخلونها.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: إن كان المتوفى من أصحاب اليمين ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: فترى فيهم ما تحب لهم من السلامة من المكاره والخوف. وقيل: معناه فسلام لك أيها الإنسان الذي هو من أصحاب اليمين من عذاب الله، وسلمت عليك ملائكة الله، عن قتادة. قال الفراء: فسلام لك إنك من أصحاب اليمين، فحذف إنك. وقيل: معناه فسلام لك منهم في الجنة لأنهم يكونون معك، ويكون لك بمعنى عليك.

سؤال: يقال: لِمَ يتبرك باليمين؟ **والجواب**: إن العمل مُيسَّر بها، لأن الشمال مُعسَّر العمل بها من نحو الكتابة والأعمال الدقيقة.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث والرسل وآيات الله ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن الهدى، الذاهبين عن الصواب والحق؛ ﴿فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ أي: فنزلهم الذي أعد لهم من الطعام والشراب، من حميم جهنم. ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: إدخال نار عظيمة، كما قال: «ويُصَلّى سعيراً» في قراءة من شدد.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾: أضاف الحق إلى اليقين وهما واحد للتأكيد. أي: هذا الذي أخبرتك به من منازل هؤلاء الأصناف الثلاثة، هو الحق الذي لا شك فيه، واليقين الذي لا شبهة معه. وقيل: تقديره: حق الأمر اليقين. ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: نزّه الله سبحانه عن السوء والشرك وعظّمه بحسن الثناء عليه. وقيل: معناه نزّه اسمه عما لا يليق به، فلا تضف إليه صفة نقص أو عملًا قبيحاً. وقيل: معناه قولوا: سبحان ربي العظيم، العظيم في صفة الله تعالى معناه أن كل شيء سواه يقصر عنه، فإنه القادر العالم الغني، الذي لا يساويه شيء، ولا يخفى عليه شيء، جلّت آلاؤه وتقدّست أسماؤه.

سُورَةُ الحَدِيدِ

مدنية/آياتها (٢٩)

● **عدد آيها:** تسع وعشرون آية عراقي، وثمان في الباقين.

● **اختلافها:** آيتان: ﴿مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ كوفي، و﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ بصري.

● **فضلها:** أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الحديد، كتب من الذين آمنوا بالله ورسله». العِرباض بن سارية قال: إن النبي ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ويقول: «إن فيهن آية أفضل من ألف آية». وروى عمرو بن شمَّر، عن جابر الجعفي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ المسبحات كلها قبل أن ينام، لم يمت حتى يدرك القائم عليه السلام، وإن مات كان في جوار رسول الله ﷺ. الحسين بن أبي العلاء، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة الحديد والمجادلة، في صلاة فريضة أدمنها، لم يعذِّبه الله حتى يموت أبداً، ولا يرى في نفسه ولا في أهله سوءاً أبداً، ولا خصاصة في بدنه.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سبحانه سورة الواقعة بالتسبيح، افتتح هذه السورة بالتسبيح، وعقَّبه بالدلائل الموجبة للتسبيح، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ
يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ
مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا
كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾
يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

● **المعنى:** ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أي: نزَّهه وأثنى عليه بما هو أهله، وبرَّأه من كل سوء ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ قال مقاتل: يعني كل شيء من ذي الروح وغيره، وكل خلق فيهما، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، وتحقيقه أن العقلاء يسبحونه قولاً واعتقاداً ولفظاً ومعنى، وما ليس بعاقل من سائر الحيوانات والجمادات فتسبيحه ما فيه من الأدلة الدالة على وحدانيته، وعلى الصفات التي باين بها جميع خلقه، وما فيه من الحجج على أنه لا يشبه خلقه، وأن خلقه لا يشبهه، فعبَّر سبحانه عن ذلك بالتسبيح. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ هاهنا بمعنى «من» كما حكى أبو زيد عن

أهل الحجاز أنهم كانوا إذا سمعوا الرعد قالوا: «سبحان ما سبحت له»، فيكون واقعاً على العقلاء من الملائكة والجن والإنس. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، المُحْكِم لأفعاله، العليم بوجوه الصواب في التدبير ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: له التصرف في جميع ما في السماوات والأرض من الموجودات، بما يشاء من التصرف، وليس لأحد منعه منه، وذلك هو الملك الأعظم، فإن كل ما يملكه من عداه فإنه سبحانه هو الذي ملكه إياه وله منعه منه. ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يحيي الأموات للبعث، ويميت الأحياء في الدنيا. وقيل: يحيي الأموات بأن يجعل النطفة وهي جماد حيواناً، ويميت الأحياء إذا بلغوا آجالهم التي قدرها لهم. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على المعدومات بإيجادها وإنشائها، وعلى الموجودات بتغييرها وإفنائها، وعلى أفعال العباد ومقدراتهم بالإقدار عليها، وسلبهم القدرة عليها.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ أي: أول الموجودات، وتحقيقه أنه سابق لجميع الموجودات بما لا يتناهى من تقدير الأوقات، لأنه قديم وما عداه محدث. والقديم يسبق المحدث بما لا يتناهى من تقدير الأوقات. ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ بعد فناء كل شيء، لأنه يفني الأجسام كلها وما فيها من الأعراض ويبقى وحده، ففي هذا دلالة على فناء الأجسام. وقيل: الأول قبل كل شيء بلا ابتداء، والآخر بعد كل شيء بلا انتهاء، فهو الكائن لم يزل، والباقي لا يزال. ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ وهو الغالب العالي على كل شيء، فكل شيء دونه. ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ العالم بكل شيء فلا أحد أعلم منه، عن ابن عباس. وقيل: الظاهر بالأدلة والشواهد، والباطن الخبير العالم بكل شيء. وقيل: معنى الظاهر والباطن أنه العالم بما ظهر، والعالم بما بطن. وقيل: الظاهر بأدلته، والباطن من إحساس خلقه.

وقيل: الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، والظاهر بلا اقتراب، والباطن بلا احتجاب. وقيل: الأول ببرِّه إذ هداك، والآخر بعفوه إذ قبل توبتك، والظاهر بإحسانه وتوفيقه إذا أطعته، والباطن بستره إذا عصيته، عن السدي. وقيل: الأول بالخلق والآخر بالرزق، والظاهر بالإحياء، والباطن بالإماتة، عن ابن عمر. وقيل: هو الذي أوَّل الأول، وأخَّر الآخر، وأظهر الظاهر، وأبطن الباطن، عن الضحاك. وقيل: الأوَّل بالأزلية، والآخر بالأبدية، والظاهر بالأحدية، والباطن بالصمدية، عن أبي بكر الوراق. وقيل: إن الواوات مقحمة، والمعنى هو: الأول الآخر الظاهر والباطن، لأن كل من كان منا أولاً، لا يكون آخراً، ومن كان ظاهراً لا يكون باطناً، عن عبد العزيز بن يحيى. وقيل: هو الأول القديم، والآخر الرحيم، والظاهر الحكيم، والباطن العليم، عن يمان. وقال البلخي: وهو كقول القائل: فلان أول هذا الأمر وآخره وظاهره وباطنه، أي: عليه يدور الأمر وبه يتم. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ يصح أن يكون معلوماً ﴿عَلِيمٌ﴾ لأنه عالم لذاته.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ لما في ذلك من اعتبار الملائكة، بظهور شيء بعد شيء من جهته، ولما في الإخبار به من المصلحة للمكلفين، ولولا ذلك لكان يخلقهما في لحظة واحدة، لأنه القادر لذاته. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ المعروف في السماء، وقيل: استوى على الملك. فمن قال: بالأول قال: استواؤه عليه كونه قادراً على خلقه وإفنائه وتصريفه، قال البُعيث:

ثُمَّ استوى بِشْرُ على العِراقِ، مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ، وَدَمٍ مُهْراقِ

وبشر هذا هو بشر بن مروان، ولّاه أخوه عبد الملك العراق. وقيل: معناه ثم عمد وقصد إلى خلق العرش، وقد مرَّ بيانه. ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: يعلم ما يدخل في الأرض ويستقر فيها، ويعلم ما يخرج من الأرض، من سائر أنواع النبات والحيوان والجماد، لا يخفى عليه شيء منها، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: ويعلم ما ينزل من السماء، من مطر وغير ذلك من أنواع ما ينزل منها، ويعلم ما يعرج في السماء من الملائكة، وما يُرْفَعُ إليها من أعمال الخلق. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ بالعلم الذي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأحوالكم، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: عليم.

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهما كيف يشاء ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ يوم القيامة. يعني أن جميع من ملكه شيئاً في الدنيا يزول ملكه عنه، وينفرد سبحانه بالملك، كما كان كذلك قبل أن خلق الخلق. ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ أي: يُدخِل ما نقص من الليل في النهار، وما نقص من النهار في الليل، أي: حسب ما دبره فيه من مصالح عباده، عن عكرمة وإبراهيم. ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: هو عالم بأسرار خلقه، وما يخفونه من الضمائر والاعتقادات، والإرادات والكرامات، والعزائم في قلوبهم، لا يخفى عليه شيء منها، وفي هذا تحذير من المعاصي.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو وحده: «وقد أُخِذ» بضم الهمزة، «ميثاقُكم» بالرفع، والباقون: «أَخذ» بفتح الهمزة، «ميثاقَكم» بالنصب. وقرأ ابن عامر: «كلٌّ وعد الله الحسنى» بالرفع، والباقون: «كلاً» بالنصب.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ «وقد أَخذ» أنه قد تقدم ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، والضمير يعود إلى اسم الله تعالى. وحجة من قرأ «وقد أُخِذ» أنه على هذا المعنى، وأنه قد عرف آخذ الميثاق، وأن الله قد أخذه. وحجة النصب في «كلًّا وعد الله الحسنى» بيِّن؛ لأنه

بمنزلة زيداً وعدت خيراً. وحجة ابن عامر أن الفعل إذا تقدم عليه مفعوله، لم يقْوَ عمله في قوّته إذا تأخر. ألا ترى أنهم قالوا في الشعر(١): زيد ضربت. ولو تأخر المفعول فوقع بعد الفاعل لم يجز ذلك فيه، ومما جاء من ذلك في الشعر قوله:

قَدْ أَصْبَحَتْ أمُّ الخِيارِ تدَّعِي عَلَيَّ ذَنْباً كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ

فَرَوَوْهُ بالرفع لتقدمه على الفعل، وإن لم يكن شيء يمنع من تسلط الفعل عليه، فكذلك قوله: «وكلٌّ وعد الله الحسنى» يكون على إرادة الهاء وحذفها، كما يحذف من الصفات والصلات.

● **المعنى**: ثم خاطب سبحانه المكلفين فقال: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ معاشر العقلاء، أي: صَدِّقوا الله، وأقِرُّوا بوحدانيته وإخلاص العبادة له ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: وصدِّقوا رسوله واعترفوا بنبوته، ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ في طاعة الله والوجوه التي أمركم بالإنفاق فيها. ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي: من المال الذي استخلفكم الله فيه، بوراثتكم إياه عمن قبلكم، عن الحسن. ونبَّه سبحانه بهذا على أن ما في أيدينا يصير لغيرنا، كما صار إلينا مِمنْ قبلنا، وحَثَّنا على استيفاء الحظ منه قبل أن يصير(٢) لغيرنا. ثم بيَّن سبحانه ما يكافيهم على ذلك إذا فعلوه فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ بالله ورسوله ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ في سبيله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: جزاء وثواب عظيم دائم، لايشوبه كدر ولا تنغيص، ثم وبَّخهم سبحانه فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: أي شيء يمنعكم من الإيمان بالله مع وضوح الدلائل على وحدانيته، ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ إلى ما ركب الله في عقولهم من معرفة الصانع وصفاته ﴿لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ بما أودع الله قلوبكم مِنْ دلالات العقل، الموصلة إلى الإيمان به، فإن الميثاق هو الأمر المؤكد الذي يجب العمل به. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مُصَدِّقِين بحق، فالآن فقد ظهرت أعلامه، ووضحت براهينه، والمعنى: أي: عذر لكم في ترك الإيمان، وقد ازاحت(٣) العلل وارتفعت الشبه، ولزمتكم الحجج العقلية والسمعية. فالعقلية: ما في فطرة العقول، والسمعية: دعوة الرسول المؤيدة بالأدلة المؤدية إلى المدلول، والذي يبين هذا قوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: حججاً منيرة وبراهين واضحة؛ ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ الله بالقرآن والأدلة. وقيل: ليخرجكم الرسول بالدعوة. وقيل: ليخرجكم المنزل. والأول أوجه. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من الكفر إلى الإيمان، وبالتوفيق والهداية والألطاف والأدلة. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث بعث الرسول، ونصب الأدلة. والرأفة والرحمة واحد، وإنما جمع بينهما للتأكيد. وقيل: الرأفة: النعمة على المضرور، والرحمة: النعمة على المحتاج. وفي هذا دلالة على بطلان مذهب أهل الجبر، فإنه بيَّن أن الغرض في إنزال القرآن الإيمان به.

---

(١) ليس في بعض النسخ لفظة: «في الشعر».
(٢) في نسخة: «يصير الأمر لغيرنا».
(٣) في نسختين: «وقد انزاحت».

ثم حثّهم سبحانه على الإنفاق فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أيُّ شيء لكم في ترك الإنفاق فيما يُقرِّب إلى الله تعالى؟ ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: يفني الخلق ويبقى هو، والمعنى فيه: إن الدنيا وأموالها ترجع إلى الله، فلا يبقى لأحد فيها ملك ولا أمر، كما يرجع الميراث إلى مستحقيه، فاستوفوا حظكم من أموالكم قبل أن تخرج من أيديكم.

ثم بيّن سبحانه فضل من سبق بالإنفاق في سبيل الله فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ بين سبحانه أن الإنفاق قبل فتح مكة، إذا انضم إليه الجهاد، أكثر ثواباً عند الله من النفقة والجهاد بعد ذلك. وذلك أن القتال قبل الفتح كان أشد، والحاجة إلى النفقة وإلى الجهاد كان أكثر وأمسّ. وفي الكلام حذف تقديره: لا يستوي هؤلاء مع الذين أنفقوا بعد الفتح، فحذف لدلالة الكلام عليه. وقال الشعبي: أراد فتح الحديبية. ثم سوّى سبحانه بين الجميع في الوعد بالخير والثواب في الجنة، فقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنة والثواب فيها، وإنْ تفاضلوا في مقادير ذلك ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من إنفاقكم وجهادكم، فيجازيكم بحسب نياتكم وبصائركم، وإخلاصكم في سرائركم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)
يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ
آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ
فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ
أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤)
فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
(١٥)﴾.

● **القراءة:** القراءة[١] في: «فيضاعفه» والاختلاف فيه، قد مضى ذكره في سورة البقرة. وقرأ حمزة: «أَنظِرونا» بقطع الهمزة وفتحها وكسر الظاء، والباقون: «انظُرونا» بهمزة الوصل وضم الظاء. وقرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب: «لا تؤخذ منكم» بالتاء، والباقون بالياء. وفي الشواذ قراءة سهل بن شعيب: «وبإيمانهم» بكسر الهمزة. وقراءة سماك بن حرب: «وغركم بالله الغُرور» بضم الغين.

---

(١) ليس في نسخة: القراءة في.

● **الحجة:** قال أبو علي: النظر: هو تقليب العين إلى الجهة التي فيها المرئي، والمراد رؤيته[١]. ومما يدل على ذلك قوله:

فيا ميَّ هلْ يُجزَى بُكائِي بِمِثْلِهِ مِراراً، وأَنْفاسِي إليكِ الزَّوافِرُ
وإني متى أُشْرِفُ على الجانبِ الذي بِه أنتِ مِنْ بَيْنِ الجوانبِ ناظِرُ

فلو كان النظر الرؤية، لم يطلب عليه الجزاء، لأن المحب لا يستثيب من النظر إلى محبوبه شيئاً، بل يريد ذلك ويتمناه، ويدل على ذلك قول الآخر:

ونظرةِ ذِي شَجَنٍ وامِقٍ إذا ما الرَّكائِبُ جاوَزْنَ مِيلا

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فالمعنى أنه سبحانه لا ينيلهم رحمته. وقد تقول: نظر إليّ فلان إذا كان ينيلك شيئاً. ويقول القائل: انظر إليَّ نظر الله إليك، يريد: أنلني خيراً أنالك الله. ونظرت فعل يستعمل وما تصرف منه على ضروب:

أحدها: أن تريد به: نظرت إلى الشيء، فتحذف الجار وتوصل الفعل، ومن ذلك ما أنشده أبو الحسن:

ظاهراتُ الجمالِ، والحُسْنِ، يَنْظُرْ نَ كما ينظرُ الأراكَ الظِّباءُ

والمعنى: ينظرن إلى الأراك، فحذف الجار.

والآخر: أن تريد به: تأملت وتدبّرت، وهو فعل غير متعد، فمن ذلك قولهم: اذهب فانظر زيداً أبو مَنْ هو؟ فهذا يراد به التأمل. ومن ذلك قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ و﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. وقد يتعدى هذا بالجار كقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ فهذا حضٌّ على التأمل، وقد يتعدى هذا بفي نحو قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

فأما قول امرىء القيس:

فلما بَدا حَوْرانُ، والآلُ دونَهُ[٢]، نَظَرْتَ فَلَمْ تنظُر بعينِكَ مَنْظَراً

فيجوز أن يكون نظرتَ[٣] فلم تر بعينك منظراً إلى الآل[٤]. وقد جوّز أن يعني بالنظر الرؤية على الاتساع، لأن تقليب البصر نحو المبصر تتبعه الرؤية. وقد يجري على الشيء لفظ ما يتبعه ويقترن به، كقولهم للمزادة رَاويةِ وللفناء: عُذْرة[٥]، وقد يكون: نظرت فلم تَنظر مثل تكلمت

---

(١) أي: مقصود الناظر رؤيته في تلك الجهة من بين الجوانب أي: يقلّب الحدقة.
(٢) حوران: موضع بالشام. والآل: هو الذي تراه في أول النهار وآخره، كأنه يرفع الشخوص. وقيل: هو والسراب واحد.
(٣) في نسخة: بمعنى نظرت.
(٤) في نسخة منظراً تعرف به الآل، وفي أخرى تعرفه في الآل.
(٥) العذرة: فناء الدار سميت بذلك، لأن العذرة كانت تلقى في الأفنية. وفي أصل النسخة، (ط صيدا) للقناء غدرة والقناء: الجانب يفيء عليه الفيء. والغدرة: الليلة المظلمة، ولا يبعد صحته أيضاً.

ولم تتكلم، أي: لم تأت بكلام على حسب ما يراد، فكذلك نظرتَ فلم تنظر بعينك منظراً كما تريد، أو لم ترَ منظراً يروق.

وضرب آخر من نظرت هو أن تريد به انتظرته، من ذلك قوله: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾. ومثله قول الفرزدق:

نظرتُ كما انتظرتَ اللهَ حتى ... كفاكَ الماحِلينَ لكَ المحالا(١)

يريد انتظرتُ كما انتظرتَ.

وقد يكون انتظرتُ في معنى انتظرتَ، تطلب بقولك: أنظِرْني التنفيس الذي يطلب بالانتظار، فمن ذلك قوله:

أبا هِندٍ فلا تعجلْ علينا ... وأَنظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليَقِينا

ومن ذلك قوله: ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ إنما هو طلب الإمهال والتسويف، فالمطلوب بقوله: «وأنظرنا نخبرك اليقينا» تنفيس، وفي قوله: ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ تسويف وتأخير، وكذلك ما جاء في الحديث من إنظار المعسر، وكذلك قوله: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: نفسونا نقتبس، وانتظروا علينا، وليس تسرع من تسرع إلى تخطئة من قال: «أنظرونا» بشيء، ولا ينبغي أن يقال فيما لطف إنه خطأ.

وقوله: «فاليوم لا تؤخذ منكم فدية» حسن التاء لتأنيث الفاعل، ويحسن الياء للفصل الواقع بين الفعل والفاعل، ولأن التأنيث غير حقيقي. وأما قوله: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ فقد قال ابن جني: هو معطوف على قوله: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، ويكون الظرف الذي هو ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ معناه الحال، فيتعلق بمحذوف، أي: يسعى كائناً بين أيديهم. وإذا كان كذلك جاز أن يعطف عليه الباء وما جرته، أي: كائناً بأيمانهم كقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾. وقوله: ﴿الْغَرُورُ﴾ معناه الاغترار، وهو مقدر على حذف المضاف، أي: وغركم بالله سلامة الاغترار، أي: سلامتكم مع اغتراركم، وقال الزجاج: الغرور: كل ما غر من متاع الدنيا.

● **اللغة:** القرض: ما تعطيه غيرك ليقضيكه، وأصله القطع، فهو قطعه عن مالكه بإذنه على ضمان رد مثله. والعرب تقول: لي عندك قرض صدق، وقرض سوء، إذا فعل به خيراً أو شراً، قال الشاعر:

ويقضي(٢) سُلامان بْنُ مفرجَ قَرضَها ... بما قَدَّمَتْ أيديهمُ وأَزلَّت

والمضاعفة: الزيادة على المقدار مثله أو أمثاله. والاقتباس: أخذ النار، ويقال: قبسته ناراً، واقتبسته علماً. والتربص: الترقب والانتظار.

● **الإعراب:** ﴿مَّن ذَا﴾ قال الفراء: ذا صلة لـ«مَنْ». قال: ورأيتها في مصحف عبد الله

---

(١) محل به إلى السلطان: كاده بسعاية إليه.

(٢) وفي ثلاث نسخ: ويجزي.

«منذ الذي» والنون موصولة بالذال، والذي[1]. قيل: إن المعنى: من هذا الذي؟ و«منْ» في موضع رفع بالابتداء، و﴿ٱلَّذِى﴾ خبره على القول الأول. وعلى القول الثاني يكون ﴿ذَا﴾ مبتدأ و﴿ٱلَّذِى﴾ خبره، والجملة خبر ﴿مَن﴾. كذا ذكره ابن فضال. وأقول: إن الصحيح أن يكون ﴿ذَا﴾ مبتدأ و﴿ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾، صفته. و«من» خبر المبتدأ قدم عليه لما فيه من معنى الاستفهام. ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يتعلق بقوله: ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ و﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ يتعلق بقوله: ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ويجوز أن يكون التقدير: واذكر يوم يقول، ويجوز أن يكون بدلًا من ﴿يَوْمَ تَرَى﴾. ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ في موضع جر صفة لـ «سُور». ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ صفة لـ«باب».

● **المعنى:** ثم حثَّ سبحانه على الإنفاق فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: طيبة به نفسه، عن مقاتل. وقد تقدم تفسيره في سورة البقرة. ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي: يضاعف له الجزاء من بين سبع إلى سبعين إلى سبعمائة. وقال أهل التحقيق: القرض الحسن أن يجمع عشرة أوصاف، أن يكون من الحلال، لأن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب». وأن يكون من أكرم ما يملكه، دون أن يقصد الرديء بالإنفاق، لقوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾، وأن يتصدق وهو يحب المال ويرجو الحياة، لقوله لما سئل عن[2] الصدقة: «أفضل الصدقة أن تعطيه وأنت صحيح شحيح، تأمل العيش وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت النفس التراقي، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا». وأن يضعه في الأخلِّ الأحوج الأوْلَى بأخذه، ولذلك خصَّ الله أقواماً بأخذ الصدقات، وهم أهل السهمان. وأن يكتمه ما أمكن لقوله: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وألا يتبعه المنّ والأذى لقوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾، وأن يقصد به وجه الله ولا يرائي بذلك، لأن الرياء مذموم. وأن يستحقر ما يعطي وإن كثر لأن متاع الدنيا قليل. وأن يكون من أحب ماله إليه لقوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. فهذه الأوصاف العشرة إذا استكملتها الصدقة كان ذلك قرضاً حسناً. ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: جزاء خالص لا يشوبه صفة نقص، فالكريم: الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير، فلما كان ذلك الأجر يعطي النفع العظيم وصف بالكريم، والأجر الكريم هو الجنة.

﴿يَوْمَ تَرَى﴾ يا محمد ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ على الصراط يوم القيامة، وهو دليلهم إلى الجنة، ويريد بالنور الضياء الذي يرونه ويمرون فيه، عن قتادة. وقيل: نورهم: هديهم، عن الضحاك. وقال قتادة: إن المؤمن يضيء له نور كما بين عدن إلى صنعاء، ودون ذلك، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلا موضع قدميه. وقال عبد الله بن مسعود: ويؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من نوره مثل الجبل، وأدناهم نوراً نوره على إبهامه، يطفأ مرة ويقد أخرى. وقال الضحاك: وبأيمانهم يعني: كتبهم التي أعطوها، ونورهم بين أيديهم، وتقول لهم الملائكة: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ أي: الذي تبشرون به اليوم جنات ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مؤبدين دائمين لا تفنون. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: الظفر بالمطلوب.

---

(١) ليس في نسختين لفظة: الذي.

(٢) في نسختين: عن أفضل.

ثم ذكر حال المنافقين في ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ظاهراً وباطناً ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾. قال الكلبي: يستضيء المنافقون بنور المؤمنين، ولا يعطوْن النور. فإذا سبقهم المؤمنون قالوا: انظرونا نقتبس من نوركم، أي: نستضيء بنوركم ونبصر الطريق فنتخلص من هذه الظلمات. وقيل: إنهم إذا خرجوا من قبورهم اختلطوا، فيسعى المنافقون في نور المؤمنين، فإذا مُيِّزوا[1] بقوا في الظلمة، فيستغيثون ويقولون هذا القول. ﴿قِيلَ﴾ أي: فيقال للمنافقين ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ أي: ارجعوا إلى المحشر حيث أعطينا النور ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾. فيرجعون فلا يجدون نوراً، عن ابن عباس. وذلك أنه قال: تغشى الجميع ظلمة شديدة، ثم يقسم النور ويعطى المؤمن نوراً، ويترك الكافر والمنافق. وقيل: معنى قوله: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ ارجعوا إلى الدنيا إن أمكنكم فاطلبوا النور منها، فإنا حملنا النور منها بالإيمان والطاعات، وعند ذلك يقول المؤمنون: «ربنا أتمم لنا نورنا».

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ أي: ضرب بين المؤمنين والمنافقين سور، والباء مزيدة، لأن المعنى. حيل بينهم وبينهم بسور، وهو حائط بين الجنة والنار، عن قتادة. وقيل: هو سور على الحقيقة ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ أي: لذلك السور باب، ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ﴾ أي: من قِبل ذلك الظاهر ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ وهو النار. وقيل: باطنه، أي: باطن ذلك السور فيه الرحمة، أي: الجنة التي فيها المؤمنون، وظاهره، أي: وخارج السور من قِبله يأتيهم العذاب. يعني أن المؤمنين يسبقونهم ويدخلون الجنة، والمنافقون يجعلون في النار والعذاب، وبينهم السور الذي ذكره الله.

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا نصوم ونصلي كما تصومون وتصلون، ونعمل كما تعملون؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: يقول المؤمنون لهم: بلى كنتم معنا، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: استعملتموها في الكفر والنفاق، وكلها فتنة. وقيل: معناه تعرضتم للفتنة بالكفر والرجوع عن الإسلام، وقيل معناه: أهلكتم أنفسكم بالنفاق. ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بمحمد ﷺ الموت، وقلتم: يوشك أن يموت فنستريح منه، عن مقاتل. وقيل: تربصتم بالمؤمنين الدوائر ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتم في الدين ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ التي تمنيتموها بأن تعود الدوائر من المؤمنين؛ ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الموت. وقيل: إلقاؤهم في النار، عن قتادة. وقيل: جاء أمر الله في نصرة دينه ونبيه وغلبته إياكم. ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يعني: الشيطان غركم بحلم الله وإمهاله. وقيل: الغرور الدنيا. ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أيها المنافقون، أي: بدل بأن تفدوا أنفسكم من العذاب ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: ولا من سائر الكفار الذين أظهروا الكفر. ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مقركم وموضعكم الذين تأوون إليه النار ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: هي أولى بكم لما أسلفتم من الذنوب. والمعنى: إنها هي التي تلي عليكم، لأنها قد ملكت أمركم، فهي أَوْلَى بكم من كل شيء. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: بئس المأوى والمرجع الذي تصيرون إليه.

●●●

(١) في نسخة: تميزوا.

قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ
ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ
﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ
﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ
وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع وحفص «ما نزل من الحق» خفيفة الزاي، والباقون: «نزّل» بالتشديد. وقرأ رويس: «ولا تكونوا» بالتاء، والباقون بالياء. وقرأ ابن كثير وأبو بكر: «إن المصدقين والمصدقات» بتخفيف الصاد، والباقون بالتشديد.

● **الحجة:** قال أبو علي: من خفَّف «ما نزل» ففي «نزل» ذكر مرفوع بأنه الفاعل يعود إلى الموصول. ويقوي التخفيف قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾. ومن شدَّد ففاعل الفعل الضمير العائد إلى اسم الله تعالى، والعائد إلى الموصول الضمير المحذوف من الصلة. ومن قرأ: «ولا تكونوا» فإنه على الخطاب والنهي. ومن قرأ: «ولا يكونوا» بالياء فإنه عطف على ﴿تَخْشَعَ﴾ وهو منصوب. ويجوز أن يكون مجزوماً على النهي للغائب.

ومن خفف «المَصدقين والمصدقات» فإن معناه: إن المؤمنين والمؤمنات. وأما قوله: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فهو في المعنى كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأن إقراض الله من الأعمال الصالحة. وحجة من خفَّف أنه أعم من «المصدقين»، ألا ترى أن «المصّدّقين» مقصور على الصدقة، و«المصدقين» يعم التصديق والصدقة، فهو أذهب في باب المدح.

ومن حجة من ثقَّل أنهم زعموا أن في قراءة أُبيّ: «إن المتصدقين والمتصدقات» ومن حجتهم أن قوله: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ اعتراض بين الخبر والمخبر عنه، والاعتراض بمنزلة الصفة، فهو للصدقة أشد ملاءمة منه للتصديق، وليس التخفيف كذلك.

ومن حجة من خفَّف أن يقول: لا تحمل قوله: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ على الاعتراض، ولكنا نعطفه على المعنى، ألا ترى أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ معناه: إن الذين صدقوا. فكأنه في المعنى: إن المصدقين وأقرضوا، فحمل وأقرضوا الله على المعنى لما كان من معنى المصدقين الذين صدقوا، فكأنه قال: إن الذين صدقوا وأقرضوا.

● **اللغة:** يقال: أنى يأني أنىً: إذا حان. والخشوع: لين القلب للحق والانقياد له، ومثله الخضوع، والحق: ما دعا إليه العقل، وهو الذي من عمل به نجا، ومن عمل بخلافه هلك. والحق: مطلوب كل عاقل في نظره وإن أخطأ طريقه. والقسوة: غلظ القلب بالجفاء عن قبول الحق. والأمد: الوقت الممتد، وهو والمدة واحد. والهيج: جفاف النبت.

● **النزول:** قيل إن قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الآية نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا: حدثنا عما في التوراة فإن فيها العجائب، فنزلت ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾. فخبَّرهم أن هذا القرآن أحسن القصص، وأنفع لهم من غيره، فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله، ثم عادوا فسألوا سلمان عن مثل ذلك، فنزلت آية ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾. فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله. ثم عادوا فسألوا سلمان، فنزلت هذه الآية، عن الكلبي ومقاتل.

وقيل: نزلت بالمؤمنين، قال ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضاً.

وقيل: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن بهذه الآية، عن ابن عباس.

وقيل: كانت الصحابة بمكة مجدبين. فلما هاجروا أصابوا الريف والنعمة، فتغيروا عما كانوا عليه فقست قلوبهم، والواجب أن يزدادوا الإيمان واليقين والإخلاص في طول صحبة الكتاب، عن محمد بن كعب.

● **المعنى:** ثم دعاهم سبحانه إلى الطاعة بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: أما حان للمؤمنين ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾؟ أي: ترق وتلين قلوبهم ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لما يذكرهم الله به من مواعظه ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني القرآن. ومن شدَّد فالمراد: وما نزله الله من الحق ﴿يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي: طال الزمان بينهم وبين أنبيائهم. وقيل: طال عليهم الأمد للجزاء، أي: لم يعاجلوا بالجزاء فاغتروا بذلك. ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فغلظت قلوبهم، وزال خشوعها، ومرنوا على المعاصي واعتادوها، وقيل: طالت أعمارهم وساءت أعمالهم فقست قلوبهم. وينبغي أن يكون هذا متوجهاً إلى جماعة مخصوصة لم يوجد منهم الخشوع التام، فحثوا على الرقة والخشوع. فأما من وصفهم الله تعالى بالخشوع والرقة والرحمة فطبقة من المؤمنين فوق هؤلاء، عن الزجاج. ومن كلام عيسى عليه السلام: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله، ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد. والناس رجلان: مبتلىً، ومعافىً، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله تعالى إلى معصيته، أي: فلا تكونوا مثلهم فيحكم الله فيكم بمثل ما حكم فيهم.

ثم قال: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: يحييها بالنبات بعد اليبس والجدوبة، أي: فكذلك يحيي الكافر بالهدى إلى الإيمان، بعد موته بالضلال والكفر، بأن

يلطف له ما يؤمن عنده. وقيل: معناه[1] أن الله يُلَيِّن القلوب بعد قسوتها بالألطاف والتوفيقات. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: الحجج الواضحات، والدلائل الباهرات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فترجعون إلى طاعتنا، وتعملون بما أمرناكم به.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ قد مضى الوجه في اختلاف القراءتين ومعناهما. ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: وأنفقوا في وجوه الخير ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ ذلك القرض الحسن، أي: يجازون أمثال ذلك ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ مرَّ معناه. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ أي: صدَّقوا بتوحيد الله وأقرُّوا بنبوة رسله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صديق شهيد. وقرأ هذه الآية. والصديق: الكثير الصدق المبالغ فيه، وهو اسم مدح وتعظيم. ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: أولئك الشهداء عند ربهم، والتقدير: أولئك الصديقون عند ربهم، والشهداء عند ربهم. ثم قال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: لهم ثواب طاعاتهم، ونور إيمانهم الذين يهتدون به إلى طريق الجنة. وهذا قول عبد الله بن مسعود، ورواه البراء بن عازب عن النبي ﷺ.

وروى العياشي بالإسناد عن منهال القصاب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ادع الله أن يرزقني الشهادة، فقال: إن المؤمن شهيد، وقرأ هذه الآية. وعن الحرث بن المغيرة قال: كنا عند أبي جعفر عليه السلام فقال: العارف منكم هذا الأمر، المنتظر له، المحتسب فيه الخير، كمن جاهد[2] والله مع قائم آل محمد عليه السلام بسيفه، ثم قال: بل والله كمن جاهد مع رسول الله ﷺ بسيفه. ثم قال الثالثة: بل والله كمن استشهد مع رسول الله ﷺ في فسطاطه، وفيكم آية من كتاب الله. قلت: وأي آية جعلت فداك؟ قال: قول الله «عز وجل»: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. ثم قال: صرتم والله صادقين شهداء عند ربكم. وقيل: إن الشهداء منفصل مما قبله مستأنف، والمراد بالشهداء الأنبياء عليهم السلام الذين يشهدون للأمم وعليهم، وهو قول ابن عباس ومسروق ومقاتل بن حيان، واختاره الفراء والزجاج. وقيل: هم الذين استشهدوا في سبيل الله، عن مقاتل بن سليمان وابن جرير.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ يبقون فيها دائمين.

ثم زهد سبحانه المؤمنين في الدنيا والركون إلى لذاتها فقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني أن الحياة في هذه الدار الدنيا ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: بمنزلة اللهو واللعب. إذ لا بقاء لذلك ولا دوام، ويزول عن وشيك كما يزول اللهو واللعب، قال مجاهد: كل لعب لهو. وقيل: اللعب ما رغب في الدنيا، واللهو ما ألهى عن الآخرة. ﴿وَزِينَةٌ﴾ تزينون بها في الدنيا: وقيل: أراد بذلك أنها تتحلى في أعين أهلها، ثم تتلاشى. ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يفاخر الرجل بها قرينه وجاره، عن ابن عباس. ﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ قال: يجمع ما لا يحل له تكاثراً به، ويتطاول على أولياء الله لماله، وولده، وخدمه، والمعنى: إنه يفني عمره في هذه الأشياء. ثم

(١) في نسختين: اعلموا أن.
(٢) في المخطوطة: كمن جالد.

بيَّن سبحانه لهذه الحياة شبهاً فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي: مطر ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي: أعجب الزرَّاع ما ينبت من ذاك الغيث. قال الزجاج: ويجوز أن يكون المراد الكفار بالله، لأن الكافر أشد إعجاباً بالدنيا من غيره. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: ييبس ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ وهو إذا قارب اليبس ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ يتحطم ويتكسر بعد يبسه. وشرح هذا المثل قد تقدم في سورة يونس. ﴿وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لأعداء الله، عن مقاتل، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ لأوليائه وأهل طاعته. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ لمن اغتر بها ولم يعمل لآخرته. قال سعيد بن جبير: متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، ومن اشتغل بطلبها فهي له متاع بلاغ إلى ما هو خير منه. وقيل معناه: والعمل للحياة الدنيا متاع الغرور، وأنه كهذه الأشياء التي مثل بها في الزوال والفناء.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو: «بما أتاكم» مقصوراً، والباقون بالمد. وقرأ أهل المدينة والشام: «فإن الله الغني الحميد» لأنهم وجدوا في مصاحفهم كذلك، والباقون: «فإن الله هو الغني» بإثبات «هو» وكذلك هو في مصاحفهم.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قصر «أتاكم» أنه معادل به «فاتكم»، فكما أن الفعل للفائت في قوله: «فاتكم» فكذلك(١) للآتي في قوله: «بما أتاكم» قال الشاعر:

ولا فرِحٍ بخيرٍ إن أتاه، ولا جزعٍ من الحدثانِ لاعِ(٢)

وحجة من مدَّ أن الخير الذي يأتيهم هو من عند الله، وهو المعطي لذلك، وفاعل «آتاكم» هو الضمير العائد إلى اسم الله، والهاء محذوفة من الصلة، تقديره: بما آتاكموه. وقوله: «إن الله هو الغني الحميد» ينبغي أن يكون «هو» فصلًا، ولا يكون مبتدأ، لأن الفصل حذفه أسهل. ألا ترى أنه لا موضع للفصل من الإعراب، وقد يحذف فلا يخلُّ بالمعنى.

---

(١) في نسخة: فكذلك يكون الفعل.

(٢) اللاعي: من يفزع من أدنى شيء.

● **اللغة:** أعدت: مشتقة من العدد، والإعداد: وضع الشيء لما يكون في المستقبل على ما يقتضيه من عدد الأمر الذي له. الفضل والإفضال والتفضل واحد، وهو النفع الذي كان للقادر أن يفعله بغيره، وله ألا يفعله. والأسى: الحزن، والتآسي: تخفيف الحزن بالمشاركة في حاله.

● **الإعراب:** ﴿فِي كِتَابٍ﴾ يتعلق بمحذوف تقديره: إلا هي كائنة في كتاب، فهو في محل الرفع بأنه خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يتعلق بفعل محذوف تقديره: إلا قد كتبت في كتاب، فيكون الجار والمجرور في موضع نصب على الحال، أي: إلا مكتوبة. ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾: ﴿تَأْسَوْا﴾ منصوب بنفس كي، واللام هي اللام الجارة. ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ في موضع جر على البدل من ﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، فعلى هذا لا يجوز الوقف على ﴿فَخُورٍ﴾ ويجوز أن يكون محله رفعاً على الابتداء، ويكون خبره محذوفاً كما حذف جواب «لو» من قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾. ويكون التقدير: الذين يبخلون فإنهم يستحقون العذاب. ويجوز أن يكون محله رفعاً أو نصباً على الذم.

● **المعنى:** ثم رغب سبحانه في المسابقة لطلب الجنة، فقال: ﴿سَابِقُوا﴾ أي: بادروا العوارض القاطعة عن الأعمال الصالحة، وسارعوا إلى ما يوجب الفوز في الآخرة ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال الكلبي: إلى التوبة. وقيل: إلى الصف الأول. وقيل: إلى النبي ﷺ. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: وسابقوا إلى استحقاق ثواب جنة هذه صفتها وذكر في ذكر العرض دون الطول وجوه:

أحدها: إن عظم العرض يدل على عظم الطول.

والآخر: إن الطول قد يكون بلا عرض، ولا يكون عرض بلا طول.

وثالثها: إن المراد به أن العرض مثل السماوات والأرض، وطولها لا يعلمه إلا الله تعالى.

قال الحسن: إن الله يفني الجنة ثم يعيدها على ما وصفه، فلذلك صح وصفها بأن عرضها كعرض السماء والأرض. وقال غيره إن الله قال: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والجنة المخلوقة في السماء السابعة، فلا تنافي.

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ادُّخِرت وهُيِّئَت للمؤمنين ﴿بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ معناه أنه يجزي الدائم الباقي على القليل الفاني، ولو اقتصر على الجزاء على قدر ما يستحق بالأعمال، كان عدلًا منه، لكنه تفضل بالزيادة. وقيل: معناه أن أحداً لا ينال خيراً في الدنيا والآخرة إلا بفضل الله، فإنه سبحانه لو لم يَدْعُنا إلى الطاعة، ولم يبيِّن لنا الطريق، ولم يوفِّقنا للعمل الصالح، لما اهتدينا إليه، وذلك كله من فضل الله. وأيضاً فإنه سبحانه تفضل بالأسباب التي يفعل بها الطاعة، من التمكين والألطاف وكمال العقل، وعرض المُكَلَّف للثواب. فالتكليف أيضاً تفضل وهو السبب الموصل إلى الثواب. وقال أبو القاسم البلخي والبغداديون من أهل العدل: إن الله سبحانه وتعالى، لو اقتصر لعباده في طاعاتهم على مجرد إحساناته السالفة إليهم، لكان عدلًا، فلهذا جعل سبحانه الثواب والجنة فضلًا، وفي هذه الآية أعظم رجاء لأهل

الإيمان، لأنه ذكر أن الجنة معدة للمؤمنين، ولم يذكر مع الإيمان شيئاً آخر. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: ذو الإفضال العميم، والإحسان الجسيم إلى عباده.

ثم قال ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مثل قحط المطر، وقلة النبات، ونقص الثمرات ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من الأمراض والثكل بالأولاد، ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ يعني: إلا وهو مثبت مذكور في اللوح المحفوظ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي: من قبل أن نخلق الأنفس. المعنى: إنه تعالى أثبتها في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الأنفس، ليستدل ملائكته به على أنه عالم لذاته، يعلم الأشياء بحقائقها. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إثبات ذلك على كثرته هَيِّنٌ على الله، يسير سهل غير عسير.

ثم بيَّن سبحانه لِمَ فعل ذلك فقال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: فعلنا ذلك لئلا تحزنوا على ما يفوتكم من نعم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: بما أعطاكم الله منها، والذي يوجب نفي الأسى والفرح من هذا، أن الإنسان إذا علم أن ما فات منها ضمن الله تعالى عليه العوض[1] في الآخرة، فلا ينبغي أن يحزن لذلك، وإذا علم أن ما ناله منها كلف الشكر عليه، والحقوق الواجبة فيه، فلا ينبغي أن يفرح به. وأيضاً فإذا علم أن شيئاً منها لا يبقى فلا ينبغي أن يهتم له، بل يجب أن يهتم لأمر الآخرة التي تدوم ولا تبيد.

وفي هذه الآية إشارة إلى أربعة أشياء:

الأول: حسن الخلق، لأن من استوى عنده وجود الدنيا وعدمها لا يحسد، ولا يعادي، ولا يشاح، فإن هذه من أسباب سوء الخلق، وهي من نتائج حب الدنيا.

وثانياً: استحقار الدنيا وأهلها، إذا لم يفرح بوجودها، ولم يحزن لعدمها.

وثالثها: تعظيم الآخرة لما ينال فيها من الثواب الدائم، الخالص من الشوائب.

ورابعها: الافتخار بالله دون أسباب الدنيا. ويروى أن علي بن الحسين عليه السلام جاءه رجل فقال له: ما الزهد؟ فقال: الزهد عشرة أجزاء، فأعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضى، وإن الزهد كله في آية من كتاب الله ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾. وقيل لبزر جمهر: ما لك أيها الحكيم لا تأسف على ما فات ولا تفرح بما هو آت؟ فقال: إن الفائت لا يتلافى بالعبرة، والآتي لا يستدام بالخبرة. وعن عبد الله بن مسعود قال: لئن[2] جمرة الحسرة أحرقت وأبقت ما أبقت، أحب إليّ من أن أقول لشيء كان: ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن: ليته كان.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: متكبِّر بما أوتي، فخور على الناس بالدنيا ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بمنع الواجبات ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾. وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأل عن

---

(١) في المخطوطة بدل عليه العوض في الآخرة: العوض في غيره.

(٢) في نسخة لأن ألحَسَ جمرة... وفي أخرى: لأن ألحَسَنَّ جمرات حرقت. وفي أخرى أيضاً: لأن ألحَسَنَ جمرة أحرقت.

سيِّد بني عوف، فقالوا: جد بن قيس على أنه يُزنُّ[1] بالبخل. فقال ﷺ: وأي داء أدوى من البخل؟ سيدكم البراء بن معرور. ومعنى يزن: يتهم ويقرف. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: يعرض عما دعاه الله إليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عنه وعن طاعته وصدقته، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في جميع أفعاله.

ثم أقسم سبحانه فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالدلائل والمعجزات، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المكتوب الذي يتضمن الأحكام، وما يحتاج إليه الخلق من الحلال والحرام، كالتوراة والإنجيل والقرآن. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: وأنزلنا معهم من السماء الميزان ذا الكفتين، الذي يوزن به، عن ابن زيد والجبائي، ومقاتل بن سليمان. وقيل: معناه أنزلنا صفة الميزان. ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾ في معاملاتهم ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، والمراد: وأمرنا بالعدل، كقوله: و﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾، عن قتادة، ومقاتل بن حيان. ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ روي عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: أنزل الحديد، والنار، والماء، والملح». وقال أهل المعاني: معنى أنزلنا الحديد: أنشأناه وأحدثناه، كقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ وإلى هذا ذهب مقاتل، فقال: معناه بأمرنا كان الحديد. وقال قطرب: معنى «أنزلنا» هنا هيأنا، وخلقنا، من النُزُل: وهو ما يهيأ للضيف، أي: أنعمنا بالحديد وهيأناه لكم. وقيل: أنزل مع آدم من الحديد العلاة وهي السندان، والكلبتان، والمطرقة، عن ابن عباس. ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يمتنع به ويحارب به، عن الزجاج. والمعنى: إنه يتخذ منه آلتان: آلة للدفع، وآلة للضرب، كما قال مجاهد. فيه جنة وسلاح. ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ يعني ما ينتفعون به في معاشهم، مثل السكين، والفأس، والإبرة، وغيرها مما يتخذ من الحديد من الآلات. وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: ليعاملوا بالعدل، وليعلم الله نصرة من ينصره موجودة، وجهاد من جاهد مع رسوله موجوداً، وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: بالعلم الواقع بالاستدلال والنظر من غير مشاهدة بالبصر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾ على الانتقام من أعدائه ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: منيع من أن يعترض عليه في أرضه وسمائه.

● **النظم:** وجه اتصال قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ الآية بما قبلها، أنه سبحانه لما بيَّن الثواب على الطاعات، عقَّبه ببيان الأعواض على مقاساة المصائب والملمات، فقال: لا يذهب علينا عوض من أصابته مصيبة ما، فإن كانت من فعلنا نعوضه بالأضعاف من جزائنا، وإن كان من فعل عبادنا فباستيفائنا ذلك منهم. ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ الآية؛ لأن المصيبة لو كانت بغير عوض في العاقبة لازداد الأسى والحزن، فإن الحزن كل الحزن في الخسران الذي ليس له جبران. ثم عقَّب ذلك بقوله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الآية، فبيَّن أنه سبحانه لطف لعباده بما يدعو إلى الخشوع والخضوع وترك الخيلاء.

● ● ●

(١) زنّ فلاناً بخير أو شر أي: ظنه به.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

● **اللغة:** التقفية: جعل الشيء في أثر الشيء على الاستمرار فيه، ولهذا قيل لمقاطع الشعر: قواف، إذ كانت تتبع البيت على أثره، مستمرة في غيره على منهاجه. والرهبانية: أصلها من الرهبة، وهي الخوف، إلا أنها عبادة مختصة بالنصارى، لقول النبي ﷺ: «لا رهبانية في الإسلام». والابتداع: ابتداء أمر لم يحتذ فيه على مثال، ومنه البدعة: إذ هي إحداث أمر على خلاف السنة. والكفل: الحظ، ومنه الكفل الذي يتكفل به الراكب، وهو كساء أو نحوه، يحويها على الإبل إذا أراد أن يرقد فيه، فيحفظه من السقوط، ففيه حظ من التحرز من الوقوع.

● **الإعراب:** ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ منصوب بفعل مضمر، يفسِّره قوله: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾. التقدير: وابتدعوا رهبانية ابتدعوها. وقوله: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ في محل النصب، لأنه صفة لرهبانية. ﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ نصب، لأنه بدل من «ها» في ﴿كَتَبْنَٰهَا﴾. والتقدير: كتبناها عليهم ابتغاء رضوان الله، أي: اتباع أوامره، ولم نكتب عليهم الرهبانية. و«لا» في ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ زائدة، و«أن» في ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ مخففة من الثقيلة، واسمه محذوف، وتقديره: إنهم لا يقدرون، و«لا» هنا يدل على الإضمار في أن مع تخفيف أن.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدَّم من ذكر الأنبياء، بقصة إبراهيم عليه السلام، ونوح عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ وإنما خصَّهما بالذكر لفضلهما، ولأنهما أبوا الأنبياء. ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني أن الأنبياء كلهم من نسلهما وذريتهما، وعليهم أنزل الكتاب. ثم أخبر عن حال ذريتهما، فقال: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ إلى طريق الحق، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله إلى معصيته. ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي: ثم أتبعنا بالإرسال على آثار من ذكرناهم من الأنبياء، برسل آخرين إلى قوم آخرين، وأنفذناهم رسولًا بعد رسول. ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ بعدهم فأرسلناه رسولًا ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ أي: وأعطينا عيسى بن مريم الإنجيل ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ في دينه، يعني الحواريين وأتباعهم، اتبعوا عيسى ﴿رَأْفَةً﴾، وهي أشد الرقة[1] ﴿وَرَحْمَةً﴾ وإنما أضاف الرأفة

(١) في نسخة: أشدّ: الرقة والرحمة.

والرحمة إلى نفسه، لأنه سبحانه جعل في قلوبهم الرأفة والرحمة، بالأمر والترغيب فيه، ووعد الثواب عليه. وقيل: لأنه خلق في قلوبهم الرأفة والرحمة، وإنما مدحهم على ذلك وإن كان من فعله، لأنهم تعرضوا لهما. ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ وهي الخصلة من العبادة يظهر فيها معنى الرهبة، إما في كنيسة أو انفراد عن الجماعة، أو غير ذلك من الأمور التي يظهر فيها نسك صاحبه، والمعنى: ابتدعوها رهبانية لم نكتبها عليهم. وقيل: إن الرهبانية التي ابتدعوها هي رفض النساء، واتخاذ الصوامع، عن قتادة قال[1]: وتقديره: ورهبانية ما كتبناها عليهم ﴿إِلَّا﴾ أنهم اتبعوها ﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾. وقيل: إن الرهبانية التي ابتدعوها لحاقهم بالبراري والجبال. في خبر مرفوع عن النبي ﷺ، فلما رعاها الذين بعدهم حق رعايتها، وذلك لتكذيبهم بمحمد ﷺ، عن ابن عباس. وقيل: إن الرهبانية هي الانقطاع عن الناس للانفراد بالعبادة. ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا﴾ أي: ما فرضناها عليهم. وقال الزجاج: إن تقديره: ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وابتغاء رضوان الله اتِّباع ما أمر به، فهذا وجه. قال: وفيها وجه آخر جاء في التفسير: إنهم كانوا يرون من ملوكهم ما لا يصبرون عليه، فاتخذوا أسراباً، وصوامع، وابتدعوا ذلك. فلما ألزموا أنفسهم ذلك التطوع ودخلوا عليه، لزمهم تمامه، كما أن الإنسان إذا جعل على نفسه صوماً لم يُفرَضْ عليه لزمه أن يتمّه. قال: وقوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ على ضربين:

أحدهما: أن يكونوا قصَّروا فيما ألزموه أنفسهم.

والآخر: وهو الأجود أن يكونوا حين بُعِثَ النبي ﷺ، فلم يؤمنوا به، كانوا تاركين لطاعة الله، فما رعوا تلك الرهبانية حق رعايتها، ودليل ذلك قوله: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ يعني: الذين آمنوا بالنبي ﷺ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: كافرون. انتهى كلام الزجاج.

ويعضد هذا ما جاءت به الرواية عن ابن مسعود قال: كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار، فقال: يا ابن أم عبْد، هل تدري من أين أَحْدَثَتْ بنو إسرائيل الرهبانية؟ فقلت: الله ورسوله أعلم، فقال: ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله، فغضب أهل الإيمان، فقاتلوهم، فهُزم أهل الإيمان ثلاث مرات، فلم يبق منهم إلا القليل، فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا، ولم يبق للدين أحد يدعو إليه، فتعالوا نتفرَّق في الأرض، إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى عليه السلام، يعنون محمداً ﷺ. فتفرقوا في غِيران الجبال، وأحدثوا رهبانية، فمنهم من تمسك بدينه، ومنهم من كفر. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخرها. ثم قال: يا بن أم عبد، أتدري ما رهبانية أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: الهجرة، والجهاد، والصلاة، والصوم، والحج، والعمرة.

وعن ابن مسعود قال: دخلت على النبي ﷺ، فقال: يا ابن مسعود، اختلف من كان

---

(١) ليس في أكثر النسخ لفظة قال.

قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة، نجا منها اثنتان، وهلك سائرهن. فرقة قاتلوا الملوك على دين عيسى عليه السلام فقتلوهم، وفرقة لم تكن لهم طاقة لموازاة الملوك، ولا أن يقيموا بين ظهرانيهم، يدعونهم إلى دين الله تعالى، ودين عيسى عليه السلام، فساحوا في البلاد وترهبوا، وهم الذين قال الله لهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾. ثم قال النبي ﷺ: «من آمن بي، وصدَّقني، واتبعني، فقد رعاها حق رعايتها، ومن لم يؤمن بي، فأولئك هم الهالكون».

ثم قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: اعترفوا بتوحيد الله وصدَّقوا بموسى وعيسى عليهما السلام ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ، عن ابن عباس. وقيل: معناه: يا أيها الذين آمنوا ظاهراً، آمنوا باطناً ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أي: يؤتكم نصيبين ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾. نصيباً لإيمانكم بمن تقدم من الأنبياء، ونصيباً لإيمانكم بمحمد ﷺ، عن ابن عباس ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ أي: هدى تهتدون به، عن مجاهد. وقيل: النور القرآن، وفيه الأدلة على كل حق، والبيان لكل خير، وبه يستحق الضياء الذي يمشي به يوم القيامة، عن ابن عباس. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: ويستر عليكم ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال سعيد بن جبير: بعث رسول الله ﷺ جعفراً في سبعين راكباً إلى النجاشي يدعوه، فقدِم عليه ودعاه فاستجاب له، وآمن به، فلما كان عند انصرافه، قال ناس ممن آمن به، من أهل مملكته، وهم أربعون رجلًا: ائذن لنا فنأتي هذا النبي فنسلم[1] به. فقدموا مع جعفر، فلما رأوا ما بالمسلمين من الخَصاصة، استأذنوا رسول الله ﷺ، وقالوا: يا نبي الله! إن لنا أموالًا، ونحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة، فإن أذنت لنا انصرفنا، فجئنا بأموالنا، فواسينا المسلمين بها. فأذن فانصرفوا، فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين، فأنزل الله فيهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾. فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين. فلما سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن به قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ فخروا على المسلمين، فقالوا: يا معشر المسلمين، أما من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجران، ومن آمن منا بكتابنا فله أجر كأجوركم، فما فضلكم علينا؟ فنزل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ الآية، فجعل لهم أجرين، وزادهم النور، والمغفرة. ثم قال: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وقال الكلبي: كان هؤلاء أربعة وعشرين رجلًا، فقدموا من اليمن على رسول الله ﷺ وهو بمكة، لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وكانوا على دين الأنبياء، فأسلموا، فقال لهم أبو جهل: بئس القوم أنتم، والوفد لقومكم! فردوا عليه. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الآية، فجعل الله لهم، ولمؤمني أهل الكتاب، عبد الله بن سلام وأصحابه، أجرين اثنين، فجعلوا يفخرون على أصحاب رسول الله ﷺ، ويقولون: نحن أفضل منكم، لنا أجران، ولكم أجر واحد. فنزل ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى آخر السورة.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كانت له أمة فعلَّمها فأحسن تعليمها، وأدَّبها

---

(١) وفي نسخة: فنلمّ به بدل فنسلم به.

فأحسن تأديبها، وأعتقها وتزوجها، فله أجران». وأيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه عليه السلام، وآمن بمحمد ﷺ، فله أجران، وأيما مملوك أدى حق الله، وحق مواليه، فله أجران. وأورده البخاري ومسلم في «الصحيح».

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ أي: لأن يعلم، و«لا» مزيدة ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ يعني الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وحسدوا المؤمنين منهم ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ و«أن» هذه هي المخففة من الثقيلة، والتقدير: إنهم لا يقدرون، ومعناه: جعلنا الأجرَيْن لمن آمن بمحمد ﷺ، ليعلم الذين لم يؤمنوا أنهم لا أجر لهم، ولا نصيب لهم من فضل الله. ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فآتى المؤمنين منهم أجرين. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يتفضل على من يشاء من عباده المؤمنين. وقيل: إن المراد بفضل الله هنا النبوة، أي: لا يقدرون على نبوة الأنبياء، ولا على صرفها عمن شاء الله أن يخصّه بها، فيصرفونها عن محمد ﷺ إلى من يحبونه، بل هي بيد الله يعطيها من يشاء، ممن هو أهلها، ويعلم أنه يصلح لها. وقيل: إنما تدخل «لا» صلة في كل كلام دخل في أواخره أو أوائله، جحد وإن لم يكن مصرحاً به، نحو قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، عن الفراء. وقيل: إنّ «لا» هنا في حكم الثبات، والمعنى: لأن لا يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون أن يؤمنوا، لأن من لا يعلم أنه لا يقدر، يعلم أنه يقدر. فعلى هذا يكون المراد: لكي يعلموا أنهم يقدرون على أن يؤمنوا، فيحوزوا الفضل والثواب. وقيل: إن معناه: لئلا يعلم اليهود والنصارى أن النبي ﷺ والمؤمنين لا يقدرون على ذلك، فقد علموا أنهم لا يقدرون عليه، أي: إن آمنتم كما أمركم الله آتاكم الله من فضله، فعلم أهل الكتاب خلافه. وعلى هذا فالضمير في ﴿يَقْدِرُونَ﴾ ليس لأهل. وقال أبو سعيد السيرافي: معناه: إن الله يفعل بكم هذه الأشياء، لئلا يعلم، أي: ليتبيَّن جهل أهل الكتاب، وأنهم لا يعلمون أن ما يؤتيكم الله من فضله، لا يقدرون على تغييره وإزالته عنكم. ففي هذه الوجوه لا يحتاج إلى زيادة «لا».

---

(١) في نسختين: يعلّمها بدل فعلّمها.

(٢) وفي نسختين: يقدرون.

(٣) [ذلك ولم يعلموا].

(٤) [الكتاب].

سُورَةُ المجَادلة

مدنية/آياتها (٢٢)

● **عدد آيها:** إحدى وعشرون آية مكي والمدني الأخير، وآيتان في الباقين.

● **اختلافها:** آية ﴿فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ غير المكي، والمدني الأخير.

● **فضلها:** أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المجادلة، كتب من حزب الله يوم القيامة».

● **تفسيرها:** لما ختم الله سورة الحديد بذكر فضله على من يشاء من عباده، افتتح هذه السورة بذكر بيان فضله في إجابة الدعوة، كما أجاب دعاء تلك المرأة، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ عاصم: «يُظاهرون» بضم الياء وتخفيف الظاء، وقرأ أهل البصرة وابن كثير: «يظّهّرون» بتشديد الظاء، والهاء، وفتح الياء، وقرأ الباقون: «يُظّاهرون» بفتح الياء، وتشديد الظاء. وروي عن بعضهم: «ما هن أمهاتُهم» برفع التاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: ظاهر من امرأته، وظهر مثل ضاعف وضعف. وتدخل التاء على كل واحد منهما، فيصير تظاهر وتظهر، ويدخل حرف المضارعة فيصير يتظاهر ويتظهر. ثم تدغم الطاء في الظاء لمقاربتها لها، فتصير يظاهر ويظهر، بفتح الياء التي هي حرف المضارعة، لأنها للمطاوعة، كما تفتحها في يتدحرج، الذي هو مطاوع دحرجته فتدحرج. ووجه الرفع في قوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ أنه لغة بني تميم. قال سيبويه: وهو أقيس الوجهين، وذلك أن النفي

كالاستفهام، فكما لا يغير الاستفهام الكلام عما كان عليه في الواجب، ينبغي ألا يغير النفي عما كان عليه في الواجب. ووجه النصب أنه لغة أهل الحجاز، والأخذ بلغتهم في القرآن أولى، وعليها جاء ﴿ما هذا بشراً﴾.

● **اللغة:** الاشتكاء: إظهار ما بالإنسان من مكروه، والشكاية: إظهار ما يصنعه به غيره من المكروه. والتحاور: التراجع، وهي المحاورة، يقال: حاوره، أي: راجعه الكلام، وتحاورا، قال عنترة:

لو كان يدري ما المُحاورةُ اشتَكى، ولكانَ، لَوْ عَلِمَ الكلامَ، مُكَلِّمي

والمحادّة: المخالفة، وأصله من الحد، وهو المنع، ومنه الحد: الحاجز بين الشيئين، قال النابغة:

إلا سُلَيْمان إذ قالَ المليكُ لَهُ: قُمْ في البريةِ فاحْدُدْها عَنِ الفَنَدِ

الكبت: مصدر كبت الله العدو، أي: أذله وأخزاه.

● **النزول:** نزلت الآيات في امرأة من الأنصار، ثم من الخزرج، واسمها خولة بنت خويلد، عن ابن عباس. وقيل: خولة بنت ثعلبة، عن قتادة، ومقاتل. وزوجها أوس بن الصامت، وذلك أنها كانت حسنة الجسم، فرآها زوجها ساجدة في صلاتها، فلما انصرفت أرادها فأبت عليه، فغضب عليها، وكان أمرأ فيه سرعة ولمم، فقال لها: أنت علي كظهر أمي! ثم ندم على ما قال. وكان الظهار من طلاق أهل الجاهلية، فقال لها: ما أظنك إلا قد حرمت علي. فقالت: لا تقل ذلك، وائتِ رسول الله ﷺ فاسأله، فقال: إني أجد أني أستحيي منه أن أسأله عن هذا، قالت: فدعني أسأله، فقال: سليه. فأتت النبي ﷺ وعائشة تغسل شق رأسه، فقالت: يا رسول الله، إن زوجي أوس بن الصامت، تزوجني وأنا شابة غانية، ذات مال وأهل، حتى إذا أكل مالي، وأفنى شبابي، وتفرق أهلي، وكبر سني، ظاهر مني، وقد ندم، فهل من شيء يجمعني وإياه فتنعشني به؟ فقال ﷺ: ما أراك إلا حرمت عليه. فقالت: يا رسول الله، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً، وإنه أبو ولدي وأحب الناس إليّ، فقال ﷺ: ما أراك إلا حرمت عليه، ولم أؤمر في شأنك بشيء. فجعلت تراجع رسول الله ﷺ، وإذ قال رسول الله ﷺ: حرمت عليه، هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي، وحاجتي، وشدة حالي، اللهم فأنزل على لسان نبيك. وكان هذا أول ظهار في الإسلام، فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر، فقالت: انظر في أمري ـ جعلني الله فداك ـ يا نبي الله. فقالت عائشة: اقصري حديثك ومجادلتك، أما ترين وجه رسول الله ﷺ؟ وكان ﷺ إذا نزل عليه الوحي أخذه مثل السبات. فلما قضي الوحي، قال: ادعي زوجك، فتلا عليه رسول الله ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى تمام الآيات. قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها، إن المرأة لتجادل رسول الله ﷺ، وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها، ويخفى عليَّ بعضه، إذ أنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ﴾. فلما تلا عليه هذه الآيات، قال له: هل تستطيع أن تعتق رقبة؟

قال: إذاً يذهب مالي كله، والرقبة غالية، وإني قليل المال، فقال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ فقال: والله يا رسول الله إني إذا لم آكل ثلاث مرات، كَلَّ بصري، وخشيت أن تعشى عيني، قال: فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟ قال: لا والله إلا أن تعينني على ذلك يا رسول الله، فقال: إني معينك بخمسة عشر صاعاً، وأنا داع لك بالبركة. فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً، ودعا له بالبركة، فاجتمع لهما أمرهما.

● **المعنى:** ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ أي: تُراجِعُك في أمر زوجها، عن أبي العالية. ﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: وتظهر شكواها، وما بها من المكروه، فتقول: اللهم إنك تعلم حالي فارحمني، فإن لي صبية صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا. ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي: تخاطبكما ومراجعتكما الكلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: يسمع المسموعات، ويرى المرئيات، والسميع البصير من هو على حالة يجب لأجلها أن يسمع المسموعات، ويبصر المبصرات إذا وجدتا، وذلك إذا وجدنا، وذلك يرجع إلى كونه حياً لا آفة به. ثم قال سبحانه يذمُّ الظهار: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ أي: يقولون لهن: أنتن كظهور أمهاتنا ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ أي: ما اللواتي تجعلونهن من الزوجات كالأمهات بأمهات، أي: لسن بأمهاتهم. ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ أي: ما أمهاتهم إلا الوالدات، ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ يعني المظاهرين ﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ لا يعرف في الشرع ﴿وَزُورًا﴾أي كذباً لأن المظاهر إذا جعل ظهر امرأته كظهر أمه وليست كذلك، كان كاذباً. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ عفا عنهم وغفر لهم، وأمرهم بالكفارة.

ثم بيّن سبحانه حكم الظهار فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ يعني الذين يقولون القول الذي حكيناه ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ اختلف المفسرون والفقهاء في معنى العود هنا. فقيل: إنه العزم على وطئها، عن قتادة، وهو مذهب مالك وأبي حنيفة. وقيل: العود هو أن يمسكها بالعقد، ولا يتبع الظهار بطلاق، وذلك أنه إذا ظاهر منها فقد قصد التحريم، فإن وصل ذلك بالطلاق فقد جرى على ما ابتدأه ولا كفارة، وإذا سكت عن الطلاق بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلق فيه. فذلك الندم منه على ما ابتدأه، وهو عود إلى ما كان عليه، فحينئذٍ تجب الكفارة، وهو مذهب الشافعي. واستدل على ذلك بما روي، عن ابن عباس أنه فسر العود في الآية بالندم، فقال: يندمون ويرجعون إلى الإلفة. وقال الفراء: يعودون لما قالوا، وإلى ما قالوا وفيما قالوا، معناه: يرجعون عما قالوا. يقال: عاد لما فعل، أي: نقض ما فعل، ويجوز أن يقال: عاد لما فعل يريد فعله مرة أخرى. وقيل: إن العود هو أن يكرر لفظ الظهار، عن أبي العالية. وهو مذهب أهل الظاهر، واحتجوا بأن ظاهر لفظ العود يدل على تكرير القول. قال أبو علي الفارسي: ليس في هذا ظاهر كما ادعوا، لأن العود قد يكون إلى شيء لم يكن عليه قبل، وقد سميت الآخرة معاداً ولم يكن فيها أحد، ثم صار إليها. وقال الأخفش: تقدير الآية: والذين يظاهرون من نسائهم، فتحرير رقبة لما قالوا، ثم يعودون إلى نسائهم. أي: فعليهم تحرير رقبة لما نطقوا به من ذكر التحريم. والتقديم والتأخير كثير في التنزيل.

وأما ما ذهب إليه أئمة الهدى من آل محمد ﷺ، فهو أن المراد بالعود إرادة الوطء، ونقض القول الذي قاله، فإن الوطء لا يجوز له إلا بعد الكفارة، ولا يبطل حكم قوله الأول إلا بعد الكفارة. ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ أي: فعليهم تحرير رقبة ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ أي: من قبل أن يجامعها فيتماسا. والتحرير: هو أن يجعل الرقبة المملوكة حرة بالعتق، بأن يقول المالك لمن يملكه: أنت حر. ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾ أي: ذلكم التغليظ في الكفارة توعظون به، أي: إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار، قاله الزجاج. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي: عليم بأعمالكم، فلا تدعوا ما وعظكم به من الكفارة قبل الوطء، فيعاقبكم عليه.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾ أي: فمن لم يجد الرقبة فعليه صيام شهرين متتابعين قبل الجماع. والتتابع عند أكثر الفقهاء أن يوالي بين أيام الشهرين الهلاليين، أو يصوم ستين يوماً. وقال أصحابنا: إنه إذا صام شهراً، ومن الثاني شيئاً ولو يوماً واحداً، ثم أفطر لغير عذر فقد أخطأ، إلا أنه يبني عليه، ولا يلزمه الاستئناف، وإن أفطر قبل ذلك استأنف. ومتى بدأ بالصوم وصام بعض ذلك، ثم وجد الرقبة، لا يلزمه الرجوع إليها، وإن رجع كان أفضل. وقال قوم: إنه يلزمه الرجوع إلى العتق.

وقله: ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾ أي: فمن لم يطق الصوم لعلّة أو كبر، فإطعام ستين مسكيناً، فعليه إطعام ستين فقيراً، لكل مسكين نصف صاع، عند أصحابنا، فإن لم يقدر فمد. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: افترض ذلك الذي وصفناه ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ أي: لتصدقوا بما أتى به الرسول، وتصدقوا بأن الله أمر به. ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ يعني ما وصفه من الكفارات في الظهار، أي: هي شرائع الله وأحكامه. ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: وللجاحدين المتعدين حدود الله عذاب مؤلم في الآخرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يخالفون أمر الله ويعادون رسوله ﴿كُبِتُواْ﴾ أي: أذلوا وأخزوا ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي: كما أُخزي الذين من قبلهم من أهل الشرك. ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ﴾ أي: حججاً واضحات من القرآن، وما فيه من الأدلة والبيان ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ الجاحدين لما أنزلناه ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ يهينهم ويخزيهم. فأما الكلام في مسائل الظهار وفروعها فموضعه كتب الفقه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا

ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وحده: «ما تكون» بالتاء، والباقون بالياء. وقرأ يعقوب وسهل: «ولا أكثرُ» بالرفع، والباقون بالنصب. وقرأ حمزة ورويس عن يعقوب: «ينتجون»، والباقون «يتناجون»، وقرأ رويس أيضاً: «فلا تنتجوا».

● **الحجة:** قال ابن جني: التذكير في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ هو الوجه، لما هناك من الشياع، وعموم الجنسية، كقولك: ما جاءني من امرأة، وما حضرني من جارية. وأما «تكون» بالتاء فلاعتزام لفظ التأنيث، حتى كأنه قال: ما تكون نجوى ثلاثة. وقوله: «ولا أكثرُ» بالرفع معطوف على محل الكلام قبل دخول «من». فإن قوله: ﴿مِن نَّجْوَىٰ﴾ في محل رفع بأنه فاعل ﴿يَكُونُ﴾. و«من» زائدة، والقراءة الظاهرة «أكثرَ» بالفتح في موضع الجر. وقوله: «ينتجون» يفتعلون من النجوى، والنجوى: مصدر كالدعوى، والعدوى، ومثل ذلك في أنه على فعلى: التقوى، إلا أن الواو فيها مبدلة، وليست بلام. ولما كان مصدراً، وقع للجمع على لفظ الواحد في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي: هم ذوو نجوى، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ قال أبو علي: ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ يحتمل جره أمرين:

أحدهما: أن يكون مجروراً بإضافة «نجوى» إليه، كأنه ما يكون من إسرار ثلاثة إلا هو رابعهم، أي: لا يخفى عليه ذلك، كما قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾.

ويجوز أن يكون «ثلاثة» جراً على الصفة على قياس قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾، فيكون المعنى: ما يكون من متناجين ثلاثة.

وأما النجي، فصفة على الكثرة كالصديق، والرفيق، والحميم، ومثله الغويّ. وفي التنزيل ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ﴾.

وأما قول حمزة «ينتجون»، وقول سائرهم «يتناجون»، فإن يفتعلون ويتفاعلون قد يجريان مجرى واحد. ومن ثم قالوا: ازدوجوا، واعتوروا، فصحَّحوا الواو، وإن كانت على صورة يجب فيها الاعتلال، لما كان بمعنى: تعاوروا، وتزاوجوا، كما صح عور وحور لما كان بمعنى أفعال. ويشهد لقراءة حمزة قول النبي ﷺ في علي صلوات الرحمٰن عليه، لما قال له بعض أصحابه: أتناجيه دوننا؟ قال: «ما أنا انتجيته بل الله انتجاه».

● **اللغة:** النجوى: هي إسرار ما يرفع كل واحد إلى آخر، وأصله من النجوة: الارتفاع من الأرض، والنجاء: الارتفاع في السير، والنجاة: الارتفاع من البلاء.

● **الإعراب:** ﴿هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ مبتدأ وخبر، في محل جر بأنه صفة ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾، وتقول: فلان رابع أربعة: إذا كان واحد أربعة، ورابع ثلاثة: إذا جعل ثلاثة أربعة، بكونه معهم. ويجوز على هذا أن يقال: رابع ثلاثة ولا يجوز رابع أربعة، لأنه ليس فيه معنى الفعل. ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ في موضع نصب على الحال.

● **النزول:** قال ابن عباس: نزل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ الآية، في اليهود والمنافقين، إنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين، وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا، وإخواننا الذين خرجوا في السرايا، قتل أو مصيبة أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم. فلما طال ذلك، شكوا إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم ألا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك، وعادوا إلى مناجاتهم، فنزلت الآية.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه وقت ذلك العذاب، فقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: يحشرهم إلى أرض المحشر، ويعيدهم أحياء ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ أي: يخبرهم، ويعلمهم بما عملوه من المعاصي في دار الدنيا. ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ عليهم وأثبته في كتاب أعمالهم ﴿وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ معناه: إنه يعلم الأشياء كلها، من جميع وجوهها، لا يخفى عليه شيء منها. ومنه قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: علم الله. ثم بيَّن سبحانه أنه يعلم ما يكون في العالم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني جميع المعلومات، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد جميع المكلَّفين، وهو استفهام معناه التقرير، أي: ألم تعلم؟ وقيل: ألم تر إلى الدلالات المرئية من صنعته الدالة على أنه عالم بجميع المعلومات؟ ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ بالعلم، يعني أن نجواهم معلومة عنده، كما تكون معلومة عند الرابع الذي هو معهم. وقيل: السرار ما كان بين اثنين، والنجوى: ما كان بين ثلاثة. وقال بعضهم: النجوى كل حديث كان سراً أو علانية، وهو اسم للشيء الذي يتناجى به. ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ أي: ولا يتناجى خمسة إلا وهو عالم بسرهم، كسادس معهم. ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ المعنى: إنه عالم بأحوالهم، وجميع متصرفاتهم، فرادى وعند الاجتماع، لا يخفى عليه شيء منها، فكأنما هو معهم ومشاهد لهم. وعلى هذا يقال: إن الله مع الإنسان حيثما كان، لأنه إذا كان عالماً به، لا يخفى عليه شيء من أمره، حسنَ هذا الإطلاق لما فيه من البيان. فأما أن يكون معهم على طريق المجاورة، فذلك محال، لأنه من صفات الأجسام. وقد دلت الأدلة على أنه ليس بصفات الأجسام. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يخبرهم بأعمالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي: ألم تعلم حال الذين نهوا عن المناجاة، وإسرار الكلام بينهم دون المسلمين، بما يغم المسلمين ويحزنهم، وهم اليهود والمنافقون. ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ يعني: إلى ما نهوا عنه، أي: يرجعون إلى المناجاة بعد النهي ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ في مخالفة الرسول، وهو قوله: ﴿وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ وذلك أنه نهاهم عن النجوى فعصوه. ويجوز أن يكون الإثم والعدوان: ذلك السر الذي يجري بينهم، لأنه شيء يسوء المسلمين، ويوصي بعضهم

بعضاً بترك أمر الرسول والمعصية له. ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ وذلك أن اليهود كانوا يأتون النبي ﷺ، فيقولون: السَّامُ عليك، والسام: الموت. وهم يوهمونه أنهم يقولون: السلام عليك. وكان النبي ﷺ يرد على من قال ذلك، فيقول: وعليك. وقال الحسن: كان اليهوديُّ يقول: السأم عليك. إنكم ستسأمون دينكم هذا وتملونه فتدعونه. ومن قال: السأم: الموت، فهو سأم الحياة بذهابها. ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: يقول بعضهم لبعض. وقيل معناه: إنهم لو تكلموا لقالوا هذا الكلام، وإن لم يكن منهم قول ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: يقولون: لو كان نبياً كما يزعم فهلا يعذبنا الله، ولا يستجيب له فينا. قوله: وعليكم. يعني: السام، وهو الموت، فقال سبحانه: ﴿حَسْبُهُمْ﴾ أي: كافيهم ﴿جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ يوم القيامة ويحترقون فيها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: فبئس المرجع والمآل جهنم، لما فيها من أنواع العذاب والنكال.

ثم نهى المؤمنين عن مثل ذلك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: لا تفعلوا كفعل المنافقين واليهود. ﴿وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: بأفعال الخير والطاعة، والخوف من عذاب الله، واتقاء معاصي الله. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى جزائه ﴿تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني نجوى المنافقين والكفار بما يسوء المؤمنين، ويغمهم، ومن وساوس الشيطان، وبدعائه، وإغوائه، يفعل ذلك النجوى. ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا﴾ أي: نجواهم لا يضرهم شيئاً. وقيل: إن الشيطان لا يضرهم شيئاً ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يعني بعلم الله. وقيل: بأمر الله؛ لأن سببه بأمره، وهو الجهاد وخروجهم إليه. وقيل: بأمر الله لأنه لا يلحقهم الآلام والأمراض عقيب ذلك. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في جميع أمورهم دون غيره. وقيل: إن الآية المراد بها أحلام المنام التي يراها الإنسان في نومه فيحزنه. وورد في الخبر عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناج اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه». وعن ابن عمر عنه قال: «لا يتناج اثنان دون الثالث».

●●●

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ عاصم وحده: «في المجالس» على الجمع، والباقون: «في المجلس» على التوحيد. وقرأ أهل المدينة، وابن عامر، وعاصم، غير يحيى مختلف عنه، ﴿قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ بالضم، والباقون بالكسر.

● **الحجة:** قال أبو علي: «في المجلس» زعموا أنه مجلس رسول الله ﷺ، وإذا كان كذلك فالوجه الإفراد. ويجوز أن يجمع على هذا، على أن يجعل لكل جالس مجلساً، أي: موضع جلوس، ويكون المجلس على إرادة العموم، مثل قولهم: كثر الدينار والدرهم، فيشتمل على هذا جميع المجالس. ومثله قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾. وقوله: ﴿ٱنشُزُواْ﴾ أي: قوموا، والنشز: المرتفع من الأرض. قال:

تـرى الـثـعـلـبَ الـحَـوْلِيَّ فـيـهـا كـأنَّـهُ   إذا مـا عـلا نَـشْـزاً حِـصـانٌ مُـجَـلَّلُ(١)

ومنه: نشوز المرأة على زوجها، وينشُز وينشِز مثل: يعكُف ويعكِف، ويعرش ويعرُش.

● **اللغة:** التفسح: الاتساع في المكان، والتفسح والتوسع واحد. وفسح له في المجلس يفسح فسحاً، ومكان فسيح. وفي صفة النبي ﷺ، كان فسيح ما بين المنكبين، أي: بعيد ما بينهما، لسعة صلبه. والإشفاق: الخوف ورقة القلب. والنشوز: الارتفاع عن الشيء بالذهاب عنه.

● **النزول:** قال قتادة: كانوا يتنافسون في مجلس رسول الله ﷺ، فإذا رأوا من جاءهم مقبلًا، ضنُّوا بمجلسهم عند رسول الله ﷺ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض. وقال المقاتلان: كان رسول الله ﷺ في الصفة، وفي المكان ضيق، وذلك يوم الجمعة. وكان ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين، والأنصار. فجاء أناس من أهل بدر، وفيهم ثابت بن قيس بن شماس، وقد سبقوا في المجلس، فقاموا حيال النبي ﷺ، فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. فرد عليهم النبي ﷺ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك، فردوا(٢) عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فلم يفسحوا لهم. فشق ذلك على النبي ﷺ، فقال لمن حوله من المهاجرين، والأنصار، من غير أهل بدر: قم يا فلان، بقدر النفر الذين كانوا بين يديه من أهل بدر، فشق ذلك على مَنْ أُقِيم من مجلسه، وعرف الكراهية في وجوههم. وقال المنافقون للمسلمين: ألستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس؟ فوالله ما عدل على هؤلاء أن قوماً أخذوا مجالسهم، وأحبوا القرب من نبيهم، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنهم مقامهم، فنزلت الآية.

وأما قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ﴾، فإنها نزلت في الأغنياء، وذلك أنهم كانوا يأتون النبي ﷺ، فيكثرون مناجاته. فأمر الله سبحانه بالصدقة عند المناجاة. فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته، فنزلت آية الرخصة، عن مقاتل بن حيان. وقال أمير المؤمنين

---

(١) الثعلب الحولي أي: في السنة الأولى من العمر. والحصان: من فحل الخيل. والمجلل: الملبس جلًا.
(٢) في نسختين: وما ردوا.

صلوات الرحمٰن عليه: إن في كتاب الله لآية، ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ الآية. كان لي دينار فبعته بعشرة دراهم، فكلما أردت أن أناجي رسول الله ﷺ قدمت درهماً. فنسختها الآية الأخرى ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ﴾. فقال صلوات الله عليه: بي خفف الله عن هذه الأمة، ولم ينزل في أحد قبلي، ولم ينزل في أحد بعدي. وقال ابن عمر: وكان لعلي بن أبي طالب عليه السلام ثلاث، لو كانت لي واحدة منهن لكانت أحب إلي من حمر النعم: تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى. وقال مجاهد وقتادة: لما نهوا عن مناجاته صلوات الرحمٰن عليه حتى يتصدقوا، لم يناجه إلا علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلوات، قدم ديناراً فتصدق بها. ثم نزلت الرخصة.

● **المعنى:** لما قدَّم سبحانه النهي عن النجوى، لما فيه من إيذاء المؤمنين، عقَّبه بالأمر بالتفسح، لما في تركه من إيذائهم أيضاً فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ أي: اتّسعوا فيه، وهو مجلس النبي ﷺ، عن قتادة ومجاهد. وقيل: المراد به مجالس الذكر كلها. ﴿فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ أي: فتوسعوا يوسع الله لكم مجالسكم في الجنة. ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ أي: ارتفعوا، وقوموا، ووسعوا على إخوانكم ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ أي: فافعلوا ذلك. وقيل: معناه وإذا قيل لكم انهضوا إلى الصلاة، والجهاد، وعمل الخير، فانشزوا، ولا تُقصِّروا، عن مجاهد. وقيل: معناه وإذا قيل لكم ارتفعوا في المجالس، وتوسعوا للداخل، فافعلوا، فإن رسول الله ﷺ لا يقرِّب ولا يرفع إلا بإذن الله وأمره. وقيل: معناه وإذا نودي للصلاة فانهضوا، فإن رجالًا كانوا يتثاقلون عن الصلاة، عن عكرمة، والضحاك. وقيل: وردت في قوم كانوا يطيلون المكث عند رسول الله ﷺ، فيكون كل واحد منهم يحب أن يكون آخر خارج، فأمرهم الله أن ينشزوا أي: يقوموا، إذا قيل لهم: انشزوا. ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ قال ابن عباس: يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين، على الذين لم يؤتوا العلم درجات. وقيل: معناه لكي يرفع الله الذين آمنوا بطاعتهم لرسول الله ﷺ درجة، والذين أوتوا العلم بفضل علمهم وسابقتهم درجات في الجنة. وقيل: درجات في مجلس رسول الله ﷺ. فأمر الله سبحانه أن يقرب العلماء من نفسه فوق المؤمنين الذين لا يعلمون العلم، ليبيِّن فضل العلماء على غيرهم.

وفي هذه الآية دلالة على فضل العلماء، وجلالة قدرهم. وقد ورد أيضاً في الحديث أنه قال ﷺ: «فضل العالم على الشهيد درجة، وفضل الشهيد على العابد درجة، وفضل النبي على العالم درجة، وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، وفضل العالم على سائر الناس كفضلي على أدناهم»، رواه جابر بن عبد الله. وقال علي عليه السلام: من جاءته منيته وهو يطلب العلم، فبينه وبين الأنبياء درجة. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي: عليم.

ثم خاطب سبحانه المؤمنين مرة أخرى وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ أي: إذا ساررتم الرسول فقدموا قبل أن تسارُّوه صدقة، وأراد بذلك تعظيم النبي ﷺ، وأن يكون ذلك سبباً لأن يتصدقوا فيؤجروا عنه، وتخفيفاً عنه ﷺ.

قال المفسرون: فلما نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا، ضنَّ كثير من الناس، فكفوا عن المسألة، فلم يناجه أحد إلا علي بن أبي طالب، على ما مضى ذكره. قال مجاهد: وما كان إلا ساعة. وقال مقاتل بن حيان: كان ذلك ليالي عشراً، ثم نسخت بما بعدها. وكانت الصدقة مفوضة إليهم غير مقدرة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك التصدق بين يدي مناجاة النبي ﷺ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لأن فيه أداء واجب وتحصيل ثواب. ﴿وَأَطْهَرُ﴾ أي: وأدعى لكم إلى مجانبة المعاصي وتركها، وأزكى لكم، تتطهرون بذلك بمناجاته كما تقدم الطهارة على الصلاة. ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ ما تتصدقون به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر عليكم ترك ذلك ﴿رَّحِيمٌ﴾ يرحمكم وينعم عليكم.

ثم قال سبحانه ناسخاً لهذا الحكم: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ يعني: أخفتم الفاقة يا أهل الميسرة، وبخلتم بالصدقة بين يدي نجواكم؟ وهذا توبيخ لهم على ترك الصدقة إشفاقاً من العيلة. ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ لتقصيركم فيه ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿وَرَسُولَهُ﴾ أي: وأطيعوا رسوله أيضاً ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: عالم بأعمالكم من طاعة ومعصية، وحسن وقبح، فيجازيكم بها.

ثم قال سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ والمراد به قوم من المنافقين، كانوا يوالون اليهود ويفشون إليهم أسرار المؤمنين، ويجتمعون معهم على ذكر مساءة النبي ﷺ والمؤمنين، عن قتادة وابن زيد. ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ يعني: إنهم ليسوا من المؤمنين في الدين والولاية، ولا من اليهود. ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ أي: ويحلفون أنهم لم ينافقوا ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم منافقون ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: في الآخرة ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بئس العمل عملهم، وهو النفاق، وموالاة أعداء الله.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ محمد بن حبيب الشموني، عن الأعشى، عن أبي بكر: «أو عشيراتهم» على الجمع، والباقون: «أو عشيرتهم» على التوحيد. وفي الشواذ قراءة الحسن «اتخذوا إيمانهم» بكسر الهمزة. ورواية بعضهم عن عاصم: «كُتب» بضم الكاف، «في قلوبهم الإيمان» بالرفع.

● **الحجة:** من قرأ: «إيمانهم» حذف المضاف، أي: اتخذوا إظهار إيمانهم جنة. ومن قرأ ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ فهو على حذف المضاف أيضاً، أي: كتب في قلوبهم علامة الإيمان. ومن أسند الفعل إلى الفاعل، فلتقدم ذكر الاسم على ذلك، ويدل عليه قوله: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

● **اللغة:** الجنة: السترة التي تقي البلية، وأصله الستر، ومنه المجن: الترس. والاستحواذ: الاستيلاء على الشيء بالاقتطاع له، وأصله من حاذه يحوذه حوذاً، مثل حازه يحوزه حوْزاً.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه تمام الخبر عن المنافقين فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ التي يحلفون بها ﴿جُنَّةً﴾ أي: سترة وترساً يدفعون بها عن نفوسهم التهمة والظنة، إذا ظهرت منهم الريبة. ﴿فَصَدُّواْ﴾ نفوسهم وغيرهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو الحق والهدى؛ ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يهينهم ويذلهم ويخزيهم ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ التي جمعوها ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ الذين خلفوهم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ظاهر المعنى. ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي: يقسمون لله ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في دار الدنيا، بأنهم كانوا مؤمنين في الدنيا في اعتقادهم وظنهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن ما هم عليه هو الحق. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: ويحسب المنافقون في الدنيا أنهم مهتدون، لأن في الآخرة تزول الشكوك. وقال الحسن: في القيامة مواطن، فموطن يعرفون فيه قبح الكذب ضرورة فيتركونه، وموطن يكونون فيه كالمدهوش فيتكلمون بكلام الصبيان، الكذب وغير الكذب، ويحسبون أنهم على شيء من ذلك الموضع الذي يحلفون فيه بالكذب. ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ في أيمانهم وأقوالهم في الدنيا. وقيل: معناه أولئك هم الخائبون، كما يقال: كذب ظنه، أي: خاب أمله. ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: استولى عليهم وغلب عليهم، لشدة اتباعهم إياه ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يخافون الله ولا يذكرونه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: جنوده، ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ يخسرون الجنة ويحصل لهم بدلها النار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: يخالفونه في حدوده ويشاقونه وهم المنافقون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾ فلا أحد أذل منهم في الدنيا، ولا في الآخرة. قال عطاء: يريد الذل في الدنيا، والخزي في الآخرة. ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ أي: كتب الله في اللوح المحفوظ، وما كتبه فلا بد من أن يكون، أجرى قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ مجرى القسم، فأجابه بجواب القسم. قال الحسن: ما أمر الله نبياً قط بحرب إلا غلب، إما في الحال أو فيما بعد. وقال قتادة: كتب الله كتاباً فأمضاه ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾. ويجوز أن يكون المعنى: قضى الله ووعد ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ بالحجج والبراهين، وإن جاز أن يغلب بعضهم في الحرب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي:

غالب قاهر لمن نازع أولياءه. ويروى أن المسلمين قالوا لما رأوا ما يفتح الله عليهم من القرى: ليفتحنَّ الله علينا الروم وفارس، فقال المنافقون: أتظنون أن فارساً والروم كبعض القرى التي غلبتم عليها؟ فأنزل الله هذه الآية. ثم قال سبحانه:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يوالون من خالف الله ورسوله، والمعنى لا تجتمع موالاة الكفار مع الإيمان، والمراد به الموالاة في الدين. ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: وإن قربت قرابتهم منهم، فإنهم لا يوالونهم إذا خالفوهم في الدين.

وقيل: إن الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، حين كتب إلى أهل مكة ينذرهم بمجيء رسول الله إليهم، وكان ﷺ أخفى ذلك. فلما عوتب على ذلك، قال: أهلي بمكة أحببت أن يحوطوهم بيد تكون لي عندهم.

وقيل: إنها نزلت في عبد الله بن أُبيّ، وابنه عبيد الله بن عبد الله، وكان هذا الابن عند النبي ﷺ، فشرب النبي ﷺ، فقال: ابق فضلة من شرابك أسقها أبي لعل الله يطهِّر قلبه. فأعطاه فأتى بها أباه، فقال: ما هذا؟ فقال: بقية شراب رسول الله ﷺ، جئتك بها لتشربها لعل الله يطهر قلبك. فقال: هلا جئتني ببول أمك. فرجع إلى النبي ﷺ فقال: إئذن لي في قتله، فقال: بل ترفق به، عن السدي.

ثم قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أي: ثبت في قلوبهم الإيمان بما فعل بهم من الألطاف فصار كالمكتوب، عن الحسن. وقيل: كتب في قلوبهم علامة الإيمان، ومعنى ذلك أنها سمة لمن يشاهدهم من الملائكة على أنهم مؤمنون، كما أن قوله في الكفار: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ علامة يعلم من شاهدها من الملائكة أنه مطبوع على قلبه، عن أبي علي الفارسي. ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي: قوّاهم بنور الإيمان، ويدل عليه قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾، عن الزجاج. وقيل: معناه وقوّاهم بنور الحجج والبراهين، حتى اهتدوا للحق وعملوا به. وقيل: قواهم بالقرآن الذي هو حياة القلوب من الجهل، عن الربيع. وقيل: أيَّدَهُمْ بجبرائيل في كثير من المواطن، ينصرهم ويدفعهم عنهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بإخلاص الطاعة والعبادة منهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بثواب الجنة. وقيل: رضوا عنه بقضائه عليهم في الدنيا فلم يكرهوه ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ أي: جند الله وأنصار دينه، ودعاة خلقه. ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ «ألا» كلمة تنبيه إنَّ جنود الله وأولياءه هم المفلحون الناجون، الظافرون بالبغية.

سُورَةُ الحَشْرِ

مدنية/آياتها (٢٤)

● **عدد آيها:** وهي أربع وعشرون آية، بالإجماع.

● **فضلها:** أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن قرأ سورة الحشر، لم يبق جنة، ولا نار، ولا عرش، ولا كرسي، ولا حجاب، ولا السماوات السبع، ولا الأرضون السبع، والهوام، والرياح، والطير، والشجر، والدواب، والشمس، والقمر، والملائكة، إلا صلُّوا عليه، واستغفروا له، وإن مات من يومه أو ليلته مات شهيداً». وعن أبي سعيد المكاري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ إذا أمسى الرحمٰن والحشر، وكّل الله بداره مَلَكاً شاهراً سيفه حتى يصبح.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سورة المجادلة بذكر حزب الشيطان، وحزب الله، افتتح هذه السورة بقهره حزب الشيطان، وما نالهم بالجلاء من الخزي والهوان، ونصرة حزبه من أهل الإيمان، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم
مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ
يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَٰأُولِي الْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ
عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا
قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

القراءة: قرأ أبو عمرو: «يخرّبون» بالتشديد، والباقون: «يخربون» ساكنة الخاء وخفيفة الراء. وفي الشواذ: قراءة طلحة بن مصرف: «يشاقق الله» بقافين على الإظهار كالتي في الأنفال.

● **الحجة:** يقال: خَرِب الموضعُ وأخربتُه وخرّبته، قال الأعشى:

وأخـربـتَ مـن أرضِ قـومٍ دِيـاراً

وحكي عن أبي عمرو أن الإخراب: أن يترك الموضع خرباً. والتخريب: الهدم.

● **اللغة:** الحشر: جمع الناس من كل ناحية، ومنه: الحاشر: الذي يجمع الناس إلى ديوان الخراج. والجلاء: الانتقال عن الديار والأوطان لبلاء، يقال: جلا القوم عن منازلهم جلاء، وأجليتهم إجلاء. واللينة: النخلة، وأصله من اللون قلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها، وجمعها: ليان. قال امرؤ القيس:

وسـالِفَـةٍ كَـسَـحُـوقِ الـلِّيَـانِ أَضْـرَم فـيـهـا الـغـوِيُّ الـسُّـعُـرَ[١]

وقال ذو الرمة:

طِـراقُ الـخـوافـي واقـعٌ فَـوْقَ لِيـنـةٍ بـذي لَيْـلَةٍ فـي ريشـهِ يَـتَـرَقْـرَقُ[٢]

فكأن اللينة نوع من النخل، أي: ضرب منه، وقيل: هو من اللين للين ثمرها.

● **الإعراب:** ﴿مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾: ارتفع ﴿حُصُونُهُم﴾ بقوله: ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾؛ لأن اسم الفاعل جرى خبراً لـ«أنَّ»، فيرفع ما بعده.

● **النزول:** قيل: نزلت السورة في إجلاء بني النضير من اليهود، فمنهم من خرج إلى خيبر، ومنهم من خرج إلى الشام، عن مجاهد وقتادة. وذلك أن النبي ﷺ لما دخل المدينة، صالحه بنو النضير على ألا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، فقبل ذلك منهم. فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً، وظهر على المشركين، قالوا: والله إنه النبي الذي وجدنا نعته في التوراة، لا تُرد له راية. فلما غزا غَزاة أُحُد، وهزم المسلمون، ارتابوا ونقضوا العهد. فركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكة، فأتوا قريشاً وحالفوهم، وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد. ثم دخل أبو سفيان في أربعين، وكعب في أربعين من اليهود المسجد، وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبة. ثم رجع كعب بن الأشرف وأصحابه إلى المدينة، ونزل جبرائيل. فأخبر النبي ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان، وأمره بقتل كعب بن الأشرف، فقتله محمد بن مسلم[٣] الأنصاري، وكان أخاه من الرضاعة.

قال محمد بن إسحاق: خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير، يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر، اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف. فلما أتاهم النبي يستعينهم في الدية قالوا: نعم يا أبا القاسم! نعينك على ما أحببت. ثم خلا بعضهم ببعض فقال: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حالته هذه، ورسول الله إلى جانب جدار من بيوتهم قاعد، فقالوا: من رجل يعلو على هذا البيت يلقي عليه صخرة، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فأتاه الخبر من السماء بما أراد القوم.

---

(١) السالفة: ناحية مقدم العنق، والمراد هنا: العنق. والسحوق من النخل: الجرداء الطويلة. وأضرم النار: أوقدها وأشعلها. والغرض: تشبيه عنق فرسه بالنخلة الجرداء التي أشعل النار فيها بشدة.

(٢) ريش طراق: إذا كان بعضها فوق بعض. والخوافي: ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت. ويترقرق أي: يتحرك.

(٣) في نسخة: مسلمة.

فقام وقال لأصحاب: لا تبرحوا، فخرج راجعاً إلى المدينة. ولما استبطأوا النبي ﷺ قاموا في طلبه، فلقوا رجلًا مقبلًا من المدينة فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلًا المدينة، فأقبل أصحاب النبي ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما أرادت اليهود من الغدر. وأمر رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة بقتل كعب بن الأشرف، فخرج ومعه سلكان بن سلامة، وثلاثة من بني الحرث، وخرج النبي ﷺ على أثرهم، وجلس في موضع ينتظر وجوههم[(١)].

فذهب محمد بن مسلمة مع القوم إلى قرب قصره، وأجلس قومه عند جدار وناداه: يا كعب! فانتبه، وقال: من أنت؟ قال: أنا محمد بن مسلمة أخوك، جئتك أستقرض منك دراهم، فإن محمداً يسألنا الصدقة، وليس معنا الدراهم. فقال[(٢)]: لا أقرضك إلا بالرهن، قال: معي رهن، انزل فخذه. وكان له امرأة بنى بها تلك الليلة عروساً، فقالت: لا أدعك تنزل، لأني أرى حمرة الدم في ذلك الصوت، فلم يلتفت إليها. فخرج فعانقه محمد بن مسلمة، وهما يتحادثان حتى تباعدا من القصر إلى الصحراء، ثم أخذ رأسه ودعا بقومه، وصاح كعب، فسمعت امرأته فصاحت، وسمع بنو النضير صوتها، فخرجوا نحوه فوجدوه قتيلًا، ورجع القوم سالمين إلى رسول الله ﷺ.

فلما أسفر الصبح، أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بقتل كعب، ففرحوا. وأمر رسول الله ﷺ بحربهم والسير إليهم، فسار بالناس حتى نزل بهم، فتحصنوا منه في الحصن، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها. فنادوا[(٣)]: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفحشاء، فما بالك تقطع النخل وتحرقها؟ فأنزل الله ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ الآية. وهي البويرة في قول حسان:

وهانَ على سَراةِ بني لُؤَيٍّ حريقٌ بالبُوَيْرةِ مُسْتَطِيرُ

والبويرة: تصغير بؤرة، وهي إرَة النار، أي: حفرتها.

وقال ابن عباس: كان النبي ﷺ حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ، فأعطوه ما أراد منهم، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم، وأوطانهم، وأن يسيرهم إلى أذرعات بالشام. وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء، فخرجوا إلى أذرعات بالشام وأريحا، إلا أهل بيتين منهم، آل أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب، فإنهم لحقوا بخيبر، ولحقت طائفة منهم بالحيرة. وكان ابن عباس يسمي هذه السورة: سورة بني النضير.

وعن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بني النضير، وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاث ليال. وعن محمد بن إسحاق: كان إجلاء بني النضير مرجع النبي ﷺ من أُحُد، وكان فتح قريظة مرجعه من الأحزاب، وبينهما سنتان. وكان الزهري يذهب إلى أن إجلاء بني النضير كان قبل أُحُد، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر.

---

(١) في المخطوطة: رجوعهم.
(٢) فيها أيضاً: قال كعب.
(٣) في نسختين: فنادوه.

● **المعنى:** ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مضى تفسيره. ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: يهود بني النضير من ديارهم، بأن سلَّط الله للمؤمنين عليهم، وأمر نبيه ﷺ بإخراجهم من منازلهم، وحصونهم، وأوطانهم. ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ﴾ اختلف في معناه، فقيل: كان جلاؤهم ذلك أول حشر اليهود إلى الشام، ثم يحشر الناس يوم القيامة إلى أرض الشام أيضاً، وذلك الحشر الثاني، عن ابن عباس والزهري والجبائي. قال ابن عباس: قال لهم النبي ﷺ: اخرجوا، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر. وقيل: معناه لأول الجلاء، عن البلخي؛ لأنهم كانوا أول مَنْ أُجْلِيَ من أهل الذمة من جزيرة العرب. ثم أُجْلِيَ إخوانهم من اليهود لئلا يجتمع في بلاد العرب دينان. وقيل: إنما قال: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ﴾ لأن الله فتح على نبيه ﷺ في أول ما قاتلهم، عن يمان بن رباب. ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ﴾ أي: لم تظنوا أيها المؤمنون أنهم يخرجون من ديارهم، لشدتهم وشوكتهم، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: فظن بنو النضير أن حصونهم لوثاقتها تمنعهم من سلطان الله، وإنزال العذاب بهم على يد رسول الله ﷺ، حيث حَصَّنوها وهَيَّأوا آلات الحرب فيها. ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أتاهم أمر الله وعذابه ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ﴾ أي: لم يتوهموا أن يأتيهم لما قدروا في أنفسهم من المنعة، جعل الله سبحانه امتناعهم من رسوله امتناعاً منه. ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ﴾ وألقى سبحانه في قلوبهم الرعب بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يهدمون بيوتهم بأيديهم من داخل ليهربوا، إلا أنهم خربوا ما استحسنوا منها، حتى لا يكون للمسلمين، ويخربها المؤمنون من خارج ليصلوا إليهم، عن الحسن. وقيل: إن معنى تخريبها بأيدي المؤمنين، أنهم عرضوها لذلك، عن الزجاج. وقيل: إنهم كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم بنقض الموادعة، وبأيدي المؤمنين بالمقاتلة. ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: فاتعظوا يا أولي العقول والبصائر، وتدبروا وانظروا فيما نزل بهم. ومعنى الاعتبار: النظر في الأمور، ليعرف بها شيء آخر من جنسها. والمراد: استدلوا بذلك على صدق الرسول، إذ كان وعد المؤمنين أن الله سبحانه سيورثهم ديارهم وأموالهم بغير قتال، فجاء المخبر على ما أخبر، فكان آية دالة على نبوته، ولا دليل في الآية على صحة القياس في الشريعة؛ لأن الاعتبار ليس من القياس في شيء لما ذكرناه، ولأنه لا سبيل لأهل القياس إلى العلم بالترجيح، ولا يعلم كل من الفريقين علة الأصل للآخر، فإن علة الربا عند أحدهما الكيل والوزن والجنس، وعند الآخر الطعم والجنس، وفي الدراهم والدنانير؛ لأنما جنس الأثمان. وقال آخرون: أشياء أُخر، وليس هذا باعتبار، إذ لا سبيل إلى المعرفة به.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ أي: حكم عليهم أنهم يجلون عن ديارهم[1]، وينقلون عن أوطانهم ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ﴾ بعذاب الاستئصال[2] أو القتل، أو السبي، كما فعل ببني قريظة، لأنه تعالى علم أن كلا الأمرين في المصلحة سواء، وقد سبق حكمه بالجلاء. ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ مع الجلاء عن الأوطان ﴿عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾؛ لأن أحداً منهم لم يؤمن. وقيل: إن ذلك

---

(١) جملة «وينقلون عن أوطانهم» زائدة.

(٢) في المخطوطة ليست لفظة «أو».

مشروط بالإصرار، وترك التوبة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي فعلنا بهم ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللَّهَ﴾ أي: خالفوا الله ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾. ثم توعد من حذا حذوهم وسلك سبيلهم في مشاقة الله ورسوله، فقال: ﴿وَمَن يُشَآقِّ اللَّهَ﴾ أي: يخالفه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يعاقبهم على مشاقتهم أشد العقاب.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ أي: نخلة كريمة من أنواع النخيل، عن مجاهد، وابن زيد. وقيل: كل نخلة سوى العجوة، عن ابن عباس، وقتادة. ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ فلم تقطعوها، ولم تقلعوها ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بأمره، كل ذلك سائغ لكم، علم الله سبحانه ذلك وأذن فيه ليذل به أعداءه، ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَٰسِقِينَ﴾ من اليهود ويهينهم به، لأنهم إذا رأوا عدوهم يتحكم في أموالهم كان ذلك خزياً لهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ الْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَٰجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: «كي لا تكون» بالتاء، «دولةٌ» بالرفع. الباقون: «يكون» بالياء، «دولةً» بالنصب.

● **الحجة:** قال ابن جني: منهم من لا يفصل بين الدَّولة والدُّولة، ومنهم من يفصل بينهما، فقال: الدَّولة بالفتح: للملك، والدُّولة بالضم: في الملك. وتكون هنا هي التامة، أي: كيلا يقع دولة تحدث دولة. و﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَآءِ﴾ إن شئت كانت صفة لـ«دولة»، وإن شئت كانت متعلقة بنفس «دولة» أي: تداولًا بين الأغنياء. وإن شئت علقتها بنفس «تكون» أي: لا يحدث بين الأغنياء منكم، وإن شئت جعلتها كان الناقصة، وجعلت ﴿بَيْنَ﴾ خبراً عنها، والأول أوجه، ومعناه: كيلا تقع دولة فيه، أو عليه، يعني على المفاء من عند الله.

● **اللغة:** الفيء: رد ما كان للمشركين على المسلمين، بتمليك الله إياهم ذلك، على ما شرط فيه. يقال: فاء يفيء فيئاً إذا رجع، وأفأته أنا عليه أي: رددته عليه. والإيجاف: الإيضاع، وهو تسيير الخيل أو الركاب، من وجف يجف وجيفاً، وهو تحرك باضطراب. فالإيجاف: الإزعاج للسير. والركاب: الإبل، والخصاصة: الإملاق والحاجة، وأصله: الاختصاص، وهو الانفراد بالأمر، فكأنه انفراد الإنسان عما يحتاج إليه. وقيل: أصله الفرجة. يقال للقمر: بدا من خَصاص الغيم أي: فرجته، ومنه: الخص: البيت من القصب، لما فيه من الفرج، والشحّ والبخل واحد، وقيل: إن الشحّ بخل مع حرص.

● **النزول:** قال ابن عباس: نزل قوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ الآية، في أموال كفار أهل القرى، وهم قريظة، وبني النضير، وهما بالمدينة، وفدك وهي من المدينة على ثلاثة أميال. وخيبر وقرى عرينة وينبع، جعلها الله لرسوله، يحكم فيها ما أراد، وأخبر أنها كلها له، فقال أناس: فهلا قسمها، فنزلت الآية. وقيل: إن الآية الأولى بيان أموال بني النضير خاصة لقوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ الآية. والثانية بيان الأموال التي أصيبت بغير قتال. وقيل: إنهما واحد، والآية الثانية بيان قسم المال الذي ذكره الله في الآية الأولى.

وقال أنس بن مالك: أهدي لبعض الصحابة رأس مشويّ، وكان مجهوداً، فوجه به إلى جار له، فتداولته تسعة أنفس ثم عاد إلى الأول، فنزل ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾ الآية.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم بني النضير للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم، ودياركم، وتشاركونهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة». فقال الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا، ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها. فنزلت: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ الآية.

وقيل: نزلت في سبعة عطشوا في يوم أُحد، فجيء بماء يكفي لأحدهم، فقال واحد منهم: ناول فلاناً، حتى طيف على سبعتهم، وماتوا، ولم يشرب أحد منهم، فأثنى الله سبحانه عليهم.

وقيل: نزلت في رجل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أطعمني فإني جائع. فبعث إلى أهله فلم يكن عندهم شيء، فقال: من يضيفه هذه الليلة؟ فأضافه رجل من الأنصار، وأتى به منزله، ولم يكن عنده إلا قوت صبية له، فأتوا بذلك إليه وأطفأوا السراج، وقامت المرأة إلى الصبية فعللتهم حتى ناموا، وجعلا يمضغان ألسنتهما لضيف رسول الله ﷺ، فظن الضيف أنهما يأكلان معه حتى شبع الضيف، وباتا طاويين. فلما أصبحا، غدوا إلى رسول الله ﷺ، فنظر إليهما وتبسم، وتلا عليهما هذه الآية. وأما الذي رويناه بإسناد صحيح عن أبي هريرة، أن الذي أضافه، ونوّم الصبية، وأطفأ السراج علي عليه السلام، وفاطمة عليها السلام.

● **المعنى:** ثم بيّن سبحانه حال أموال بني النضير، فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ أي: من اليهود الذين أجلاهم، وإن كان الحكم سارياً في جميع الكفار الذين حكمهم حكمهم

﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ والإيجاف: دون التقريب. وقيل: الإيجاف في الخيل، والإيضاع في الإبل. وقيل: هما مستعملان فيهما جميعاً، أي: فما أوجفتم عليه خيلاً ولا إبلاً. المعنى: لم تسيروا إليها على خيل ولا إبل، وإنما كانت ناحية من(١) المدينة مشيتم إليها مشياً. وقوله: ﴿عَلَيۡهِ﴾ أي: على ما أفاء الله. والركاب: الإبل التي تحمل القوم، واحدتها: راحلة. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: يمكنهم من عدوهم من غير قتال، بأن يقذف الرعب في قلوبهم. جعل الله أموال بني النضير لرسوله خالصة، يفعل بها ما يشاء، فقسمها رسول الله ﷺ بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئاً، إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة، وهم: أبو دجانة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

ثم ذكر سبحانه حكم الفيء فقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي: من أموال كفار أهل القرى ﴿فَلِلَّهِ﴾ يأمركم فيه بما أحب، ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ بتمليك الله إياه ﴿وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ يعني أهل بيت رسول الله وقرابته، وهم بنو هاشم، ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ منهم، لأن التقدير: ولذي قرباه، ويتامى أهل بيته، ومساكينهم، وابن السبيل منهم. وروى المنهال بن عمرو عن علي بن الحسين عليه السلام قال: قلت: قوله: ﴿وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال: هم قربانا ومساكيننا، وأبناء سبيلنا. وقال جميع الفقهاء: هم يتامى الناس عامة، وكذلك المساكين، وأبناء السبيل. وقد روي أيضاً ذلك عنهم عليهم السلام، وروى محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: كان أبي يقول لنا: سهم رسول الله ﷺ، وسهم ذي القربى، ونحن شركاء فيما بقي. والظاهر يقتضي أن ذلك لهم، سواء كانوا أغنياء أو فقراء، وهو مذهب الشافعي. وقيل: إن مال الفيء للفقراء من قرابة رسول الله ﷺ، وهم بنو هاشم، وبنو المطلب. وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: نحن قوم فرض الله طاعتنا، ولنا الأنفال، ولنا صفو المال، يعني: ما كان يصطفى لرسول الله ﷺ، من فره الدواب، وحسان الجواري، والدرة الثمينة، والشيء الذي لا نظير له.

ثم بيَّن سبحانه أنه لِمَ فعل ذلك فقال: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ والدولة: اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم، يكون لهذا مرة، ولهذا مرة، أي: لئلا يكون الفيء متداولاً بين الرؤساء منكم، يعمل فيه كما كان يعمل في الجاهلية. وهذا خطاب للمؤمنين دون الرسول وأهل بيته عليهم السلام. قال الكلبي: نزلت رؤساء المسلمين، قالوا له: يا رسول الله، خذ صفيك والربع، ودعنا والباقي، فهكذا كنا نفعل في الجاهلية. وأنشدوا:

لكَ المِرْباعُ منها، والصفايا، وحُكْمُك، والنشيطةُ، والفُضُولُ(٢)

فنزلت الآية، فقالت الصحابة: سمعاً وطاعة لأمر الله وأمر رسوله.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ أي: ما أعطاكم

(١) في نسخة: من نواحي المدينة.

(٢) النشيطة ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل الوصول إلى الموضع الذي قصدوه.

الرسول من الفيء فخذوه، وارضوا به، وما أمركم به فافعلوه، وما نهاكم عنه فانتهوا عنه، فإنه لا يأمر ولا ينهى إلا عن أمر الله. وهذا عام في كل ما أمر به النبي ﷺ، ونهى عنه، وإن نزل في آية الفيء. وروى زيد الفحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما أعطى الله نبياً من الأنبياء شيئاً إلا وقد أعطى محمداً ﷺ، قال لسليمان: ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وقال لرسول الله ﷺ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في ترك المعاصي وفعل الواجبات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه وترك أوامره. وفي هذه الآية إشارة إلى تدبير الأمة إلى النبي ﷺ، وإلى الأئمة القائمين مقامه. ولهذا قسم رسول الله ﷺ أموال خيبر، ومَنَّ عليهم في رقابهم، وأجلى بني النضير، وبني قينقاع، وأعطاهم شيئاً من المال، وقتل رجال بني قريظة، وسبي ذراريهم ونسائهم، وقسم أموالهم على المهاجرين، ومنَّ على أهل مكة.

ثم قال سبحانه ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، ومن دار الحرب إلى دار السلام. ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ التي كانت لهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أي: يطلبون ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: وينصرون دين الله ﴿وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ في الحقيقة عند الله العظيمو المنزلة عنده. قال الزجاج: بيَّن سبحانه مَنْ المساكين الذين لهم الحق، فقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ ثم ثنى سبحانه بوصف الأنصار ومدحهم، حتى طابت أنفسهم عن الفيء، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ يعني المدينة وهي دار الهجرة، تبوَّأها الأنصار قبل المهاجرين. وتقدير الآية: والذين تبوَّأوا الدار من قبلهم ﴿وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ لأن الأنصار لم يؤمنوا قبل المهاجرين، وعطف الإيمان على الدار في الظاهر لا في المعنى؛ لأن الإيمان ليس بمكان يتبوأ، والتقدير: وآثروا الإيمان. وقيل: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل قدوم المهاجرين عليهم. وقيل: معناه قبل إيمان المهاجرين، والمراد به أصحاب ليلة العقبة، وهم سبعون رجلًا بايعوا رسول الله ﷺ على حرب الأبيض والأحمر، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، لأنهم أحسنوا إلى المهاجرين، وأسكنوهم دورهم، وأشركوهم في أموالهم. ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: لا يجدون في قلوبهم حسداً، وحزازة، وغيظاً، مما أُعطِي المهاجرون دونهم من مال بني النضير. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ويؤثرون المهاجرين، ويقدمونهم على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: فقر وحاجة. بيَّن سبحانه أن إيثارهم لم يكن عن غنى عن المال، ولكن كان عن حاجة، فيكون ذلك أعظم لأجرهم وثوابهم عند الله. ويروى أن أنس بن مالك كان يحلف بالله تعالى ما في الأنصار بخيل، ويقرأ هذه الآية: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ أي: ومن يدفع عنه، ويمنع عنه بخل نفسه. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: المنجحون الفائزون بثواب الله ونعيم جنته. وقيل: من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه، ولم يمنع شيئاً أمره الله بأدائه، فقد وقى شح نفسه، عن ابن زيد. وقيل: شح النفس هو أخذ الحرام، ومنع الزكاة، عن سعيد بن جبير. وفي الحديث: «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب رجل مسلم، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف رجل مسلم».

وقيل في موضع قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ قولان:

أحدهما: إنه رفع على الابتداء، وخبره: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ إلى آخره، لأن النبي ﷺ لم يقسم لهم شيئاً من الفيء إلا لرجلين أو لثلاثة، على اختلاف الرواية فيه.

والآخر: إنه في موضع جر عطفاً على الفقراء والمهاجرين، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ وما بعده في موضع نصب على الحال.

ثم ثلث سبحانه بوصف التابعين فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني من بعد المهاجرين والأنصار، وهم جميع التابعين لهم إلى يوم القيامة، عن الحسن. وقيل: هم كل من أسلم(١) بعد انقطاع الهجرة، وبعد إيمان الأنصار، عن الأصم وأبي مسلم. والظاهر أن المراد: والذين خلفوهم، ويجوز أن يكون المراد: من بعدهم في الفضل. وقد يُعبَّر بالقبل والبعد عن الفضل، كقول النبي ﷺ: «نحن الآخرون السابقون» أي: الآخرون في الزمان، السابقون في الفضل. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ أي: يدعون ويستغفرون لأنفسهم ولمن سبقهم بالإيمان. ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: حقداً أو غشاً وعداوة، سألوا الله سبحانه أن يزيل ذلك بلطفه. وهاهنا احتراز لطيف، وهو أنهم أحسنوا الدعاء للمؤمنين، ولم يرسلوا القول إرسالاً، والمعنى: أعصمنا ربنا من إرادة السوء بالمؤمنين، ولا شك أن من أبغض مؤمناً، وأراد به السوء لأجل إيمانه، فهو كافر، وإذا كان لغير ذلك فهو فاسق. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: مُتعطِّف على العباد مُنعِم عليهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

● **القراءة**: قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «من وراء جدار» على التوحيد، والباقون ﴿مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ على الجمع. وفي الشواذ قراءة أبي رجاء، وأبي حية: «جدْر» بسكون الدال.

● **الحجة**: قال أبو علي: المعنى في الجمع أنهم لا يصحرون معكم للقتال، ولا يبرزون

(١) في المخطوطة: من أسلم قبل...

لكم، ولا يقاتلونكم حتى يكون بينكم وبينهم حاجز من حصن أو سور. فإذا كان كذلك فالمعنى على الجمع، إذ ليس المعنى: يقاتلونهم من وراء جدار واحد، ولكن من وراء جدر، كما لا يقاتلونكم إلا في قرى محصَّنة. فكما أن القرى جماعة، كذلك الجدر ينبغي أن تكون جمعاً، فكان المراد في الإفراد الجمع، لأنه يعلم أنهم لا يقاتلونهم من وراء جدار واحد. قال ابن جني: ويجوز أن يكون «جدار» تكسير: جدار فتكون ألف جدار في الواحد كألف كتاب، وفي الجمع كألف ضرام وكرام، ومثله: وناقة هجان، ونوق هجان، ودرع دلاص، وأدرع دلاص. قال: ومثله قوله سبحانه: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ كون إماماً جمع إمام على ما شرحناه.

● **الإعراب:** ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: من رهبتهم من الله، فحذف ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: مثلهم كمثل الذين من قبلهم، فحذف المبتدأ، وكذلك قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

● **المعنى:** لما وصف سبحانه المهاجرين الذين هاجروا الديار والأوطان، ثم مدح الأنصار الذين تبوَّأوا الدار والإيمان، ثم ذكر التابعين بإحسان، وما يستحقونه من النعيم في الجنان، عقَّب ذلك بذكر المنافقين وما أسرُّوه من الكفر والعصيان، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ فأبطنوا الكفر، وأظهروا الإيمان، ﴿يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ﴾ في الكفر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني يهود بني النضير: ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ﴾ من دياركم وبلادكم ﴿لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾ مساعدين لكم، ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ﴾ أي: في قتالكم ومخاصمتكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾، يعنون محمداً ﷺ وأصحابه ووعدوهم النصر بقولهم: ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾ أي: لندفعن عنكم. ثم كذَّبهم الله في ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما يقولونه من الخروج معهم، والدفاع عنهم. ثم أخبر سبحانه أنهم يُخلِفُونهم ما وعدوه من النصر والخروج بقوله: ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ﴾ أي: ولئن قدَّر وجود نصرهم؛ لأن ما نفاه الله تعالى لا يجوز وجوده. ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ أي: ينهزمون ويسلمونهم. وقيل: معناه ولئن نصرهم من يفي منهم لولَّوا الأدبار. فعلى هذا لا تنافي بين قوله: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمۡ﴾ وقوله: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ﴾ فقد أخبر الله تعالى في هذه الآية عما لا يكون منهم أن لو كان، كيف كان يكون. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: ولو كان لهم هذه القوة، وفعلوا، لم ينتفع أولئك بنصرتهم، فنزلت الآية قبل إخراج بني النضير، وأُخرِجوا بعد ذلك وقوتلوا، فلم يخرج معهم منافق، ولم ينصروهم، كما أخبر الله تعالى بذلك. وقيل: أراد بقوله: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمُ﴾ بني النضير وبني قريظة، فأخرج بنو النضير ولم يخرجوا معهم، وقوتل بنو قريظة فلم ينصروهم.

ثم خاطب سبحانه المؤمنين فقال: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةً﴾ أي: خوفاً ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ أي: في قلوب هؤلاء المنافقين ﴿مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾. المعنى: إن خوفهم منكم أشد من خوفهم من الله، لأنهم يشاهدونكم ويعرفونكم ولا يعرفون الله، وهو قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ الحق ولا يعلمون عظمة الله وشدة عقابه. ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ معاشر المؤمنين ﴿جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي: ممتنعة حصينة، والمعنى أنهم لا يبرزون لحربكم، وإنما يقاتلونكم متحصنين بالقرى، ﴿أَوۡ مِن

﴿وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ أي: يرمونكم من وراء الجدران بالنبل والحجر. ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌۚ﴾ أي: عداوة بعضهم لبعض شديدة، يعني أنهم ليسوا بمتفقي القلوب. وقيل: معناه قوتهم فيما بينهم شديدة، فإذا لاقوكم جبنوا، ويفزعون[1] منكم بما قذف الله في قلوبهم من الرعب. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين في الظاهر ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ﴾ أي: مختلفة متفرقة، خذلهم الله باختلاف كلمتهم. وقيل: إنه عنى بذلك قلوب المنافقين، وأهل الكتاب، عن مجاهد. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ ما فيه الرشد مما فيه الغي، وإنما كان في قلوب من يعمل بخلاف العقل شتى، لاختلاف دواعيهم وأهوائهم، وداعي الحق واحد، وهو العقل الذي يدعو إلى طاعة الله، والإحسان في الفعل. ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ﴾ أي: مثلهم في اغترارهم بعددهم، وبقوتهم، وبقول المنافقين، كمثل الذين من قبلهم، يعني المشركين الذين قتلوا ببدر، وذلك قبل غزاة بني النضير بستة أشهر، عن الزهري وغيره. وقيل: إن الذين من قبلهم قريباً هم بني قينقاع، عن ابن عباس. وذلك أنهم نقضوا العهد مرجع رسول الله ﷺ من بدر، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا. وقال عبد الله بن أبيّ: لا تخرجوا فإني آتي النبي ﷺ فأكلمه فيكم، أو أدخل معكم الحصن. فكان هؤلاء أيضاً في إرسال عبد الله بن أبيّ إليهم، ثم ترك[2] نصرتهم كأولئك. ﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: عقوبة كفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

● **اللغة:** أصل غد: غدو، إلا أنه لم يأت في القرآن إلا محذوف الواو، وجاء الشعر بحذف الواو، وإثباتها[3]:

وما الناسُ إلا كالديارِ، وأهلِها، بها يَوْمَ حلُّوها وغدوا بلاقِعُ

وقال آخر:

لا تَقْلُواها وادلُوَاها دَلْوا إن مع اليوم أخاها غَدْوا[4]

---

(١) في نسخة: تفرقوا، وفي أخرى: يفرقون بدل «يفزعون».
(٢) في المخطوطة: ثم تركه.
(٣) [قال الشاعر في اثباتها].
(٤) قلا الإبل: طردها، وساقها. ودلا الناقة: سيرها رويداً.

● **المعنى:** ثم ضرب سبحانه لليهود والمنافقين مثلاً فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: مثل المنافقين في غرورهم لبني النضير وخذلانهم إياهم كمثل الشيطان ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ وهو عابد بني إسرائيل، عن ابن عباس قال: إنه كان في بني إسرائيل عابد اسمه برصيصا، عبد الله زماناً من الدهر، حتى كان يؤتى بالمجانين يداويهم، ويعوذهم فيبرأون على يده، وإنه أتي بامرأة في شرف قد جنت، وكان لها إخوة فأتوه بها، فكانت عنده. فلم يزل به الشيطان يزين له حتى وقع عليها فحملت، فلما استبان حملها قتلها ودفنها. فلما فعل ذلك ذهب الشيطان حتى لقي أحد إخوتها، فأخبره بالذي فعل الراهب، وأنه دفنها في مكان كذا، ثم أتى بقية إخوتها، رجلاً ورجلاً، فذكر ذلك له. فجعل الرجل يلقى أخاه فيقول: والله لقد أتاني آت، فذكر لي شيئاً يكبر عليَّ ذكره. فذكر بعضهم لبعض حتى بلغ ذلك ملكهم، فسار الملك والناس فاستنزلوه(١)، فأقر لهم بالذي فعل، فأمر به فصلب. فلما وقع على خشبته تمثل له الشيطان. فقال: أنا الذي ألقيتك في هذا، فهل أنت مطيعي فيما أقول لك أخلصك مما أنت فيه؟ قال: نعم، قال: اسجد لي سجدة واحدة، فقال: كيف أسجد لك وأنا على هذه الحالة؟ فقال: أكتفي منك بالإيماء. فأومى له بالسجود فكفر بالله، وقتل الرجل. فهو كقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾. ضرب الله هذه القصة لبني النضير حين اغتروا بالمنافقين، ثم تبرأوا منهم عند الشدة وأسلموهم.

وقيل: أراد كمثل الشيطان يوم بدر، إذ دعا إلى حرب رسول الله ﷺ، فلما رأى الملائكة رجع القهقرى، وقال: إني أخاف الله.

وقيل: أراد بالشيطان والإنسان اسم الجنس لا المعهود، فإن الشيطان أبداً يدعو الإنسان إلى الكفر، ثم يتبرأ منه وقت الحاجة، عن مجاهد. وإنما يقول الشيطان: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يوم القيامة.

ثم ذكر سبحانه أنهما صارا إلى النار بقوله: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ يعني: عاقبة الفريقين الداعي والمدعو، من الشيطان ومن أغواه، من المنافقين واليهود، أنهما معذبان في النار ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: وذلك جزاؤهم.

ثم رجع إلى موعظة المؤمنين فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني ليوم القيامة، والمعنى: لينظر كل امرىء ما الذي قدَّمه لنفسه، أعملاً صالحاً ينجيه، أم سيئاً يوبقه ويرديه؟ فإنه وارد عليه. قال قتادة: إن ربكم قرَّب الساعة حتى جعلها كغد، وأمركم بالتدبر والتفكر فيما قدمتم. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إنما كرَّر الأمر بالتقوى، لأن الأولى للتوبة عما مضى من الذنوب، والثانية لاتقاء المعاصي في المستقبل. وقيل: إن الثانية تأكيد للأولى. ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: تركوا أداء حق الله ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن حرمهم حظوظهم من الخير والثواب. وقيل: نسوا الله بترك ذكره بالشكر والتعظيم،

---

(١) في نسخة: فاستزلوه.

فأنساهم أنفسهم بالعذاب الذي نسي به بعضهم بعضاً، كما قال ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: ليسلم بعضكم على بعض، عن الجبائي. ويريد به: بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، عن ابن عباس. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الذين خرجوا من طاعة الله إلى معصيته. ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: لا يتساويان لأن هؤلاء يستحقون النار، وأولئك يستحقون الجنة، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بثواب الله الظافرون بطلبتهم.

●●●

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

● **فضلها:** عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الحشر غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر». وعن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاث آيات من آخر الحشر، وكَّل الله به سبعين ألف مَلَك يصلون عليه حتى يمسي، فإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قاله حين يمسي كان بتلك المنزلة». وعن أبي هريرة قال: سألت حبيبي رسول الله ﷺ، عن اسم الله الأعظم، فقال: «عليك بآخر سورة الحشر وأكثر قراءتها». فأعدت عليه فأعاد عليّ. وعن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ خواتيم الحشر، من ليل أو نهار، فقبض في ذلك اليوم أو الليلة، فقد أوجبت له الجنة» وعن أنس عن النبي ﷺ: «من قرأ لو أنزلنا هذا القرآن إلى آخرها، فمات من ليلته، مات شهيداً».

● **اللغة:** التصدع: التفرق بعد التلاؤم، ومثله التفطر. يقال: صدعه يصدعه صدعاً، ومنه الصداع في الرأس. والقدوس: المعظم بتطهير صفاته من أن تدخلها صفة نقص. قال ابن جني: ذكر سيبويه في الصفة السبوح والقدوس بالضم والفتح، وإنما باب الفعُول للاسم، كشُبُّوط وسمّور وتنّور وسفّود. والمهيمن: أصله: مئيمن على مفيعل من الأمانة، فقلبت الهمزة هاء لتفخيم اللفظ بها.

● **المعنى:** ثم عظم سبحانه حال القرآن فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ تقديره: لو كان الجبل مما ينزل عليه القرآن، ويشعر به مع غلظه، وجفاء طبعه، وكبر جسمه؛ لخشع لمنزله، وتصدع من خشية الله تعظيماً لشأنه، فالإنسان أحق بهذا لو عقل الأحكام التي فيه. وقيل: معناه لو كان الكلام ببلاغته، يصدع الجبل لكان

هذا القرآن يصدعه. وقيل: إن المراد ما يقتضيه الظاهر، بدلالة قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وهذا وصف للكافر بالقسوة، حيث لم يَلِنْ قلبه لمواعظ القرآن الذي لو نزل على جبل لتخشع. ويدل على أن هذا تمثيل قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: ليتفكروا ويعتبروا.

ثم أخبر سبحانه بربوبيته وعظمته فقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو المستحق للعباد، الذي لا تحق العبادة إلا له، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: عالم بما يشاهده العباد، وعالم بما يغيب عنهم علمه. وقيل: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ معناه: عالم بما لا يقع عليه الحس، من المعدوم والموجود الذي لا يدرك مما هو غائب عن الحواس، كأفعال القلوب وغيرها. ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: عالم بما يصح عليه الإدراك بالحواس. وقيل: معناه عالم السر والعلانية، عن الحسن. وفي هذا وصفه سبحانه بأنه عالم بجميع المعلومات، لأنها لا تعدو هذين القسمين. وعن أبي جعفر عليه السلام قال: الغيب: ما لم يكن، والشهادة: ما كان. ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ﴾ أي: المنعم على جميع خلقه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

ثم أعاد سبحانه قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ يعني: السيد المالك لجميع الأشياء، الذي له التصرف فيها، على وجه ليس لأحد منعه منه. وقيل: هو الواسع القدرة.

﴿الْقُدُّوسُ﴾ أي: الطاهر من كل عيب ونقص وآفة، المُنزَّه عن القبائح. وقيل: هو المُطهَّر عن الشريك والولد، لا يوصف بصفات الأجسام، ولا بالتجزئة والانقسام. وقيل: هو المبارك الذي تنزل البركات من عنده، عن الحسن.

﴿السَّلَامُ﴾ أي: الذي سلم عباده من ظلمه. وقيل: هو المسلم من كل عيب، ونقص، وآفة. وقيل: هو الذي من عنده ترجى السلامة، عن الجبائي. وهو اسم من السلامة، وأصله مصدر، فهو مثل الجلال والجلالة.

﴿الْمُؤْمِنُ﴾ الذي أمن خلقه من ظلمه لهم، إذ قال: ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، عن ابن عباس.[1] وقيل: الذي آمن بنفسه قبل إيمان خلقه به، عن الحسن، وأشار إلى قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية. والمعنى أنه بيَّن لخلقه توحيده، وإلهيته بما أقام لهم من الدلائل. وقيل: معناه المُصدِّق لما وعد، المُحقِّق له، كالمؤمن الذي يصدق قوله فعله. وقيل: هو الذي أمن أولياؤه عذابه. وقيل: هو الداعي إلى الإيمان الآمر به، الموجب لأهله اسمه، عن أبي مسلم.

﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ أي: الأمين حتى لا يضيع لأحد عنده حق، عن ابن عباس، والضحاك، والجبائي. وقيل: هو الشاهد، عن مجاهد، وقتادة. كأنه شهيد على إيمان من آمن به. وقيل:

---

(١) في نسخة: والجبائي.

هو المؤمن في المعنى، لأن أصله المؤيمن، إلا أنه أشد مبالغة في الصفة. وقيل: هو الرقيب على الشيء، يقال: هيمن يهيمن فهو مهيمن: إذا كان رقيباً على الشيء.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القادر الذي لا يصح عليه القهر. وقيل: هو المنيع الذي لا يرام، ولا يمتنع عليه مرام.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ وهو العظيم الشأن في الملك والسلطان، ولا يستحق أن يوصف به على هذا الإطلاق إلا الله تعالى، فإن وصف به العباد فإنما يوضع اللفظ في غير موضعه، ويكون ذماً. وقيل: هو الذي يذل له من دونه، ولا تناله يد. وقيل: هو الذي يقهر الناس ويجبرهم على ما أراد، عن السدي، ومقاتل، وهو اختيار الزجاج. فيكون من جبره على كذا إذا أكرهه. وقيل: هو الذي يجبر الفقير، من قولهم: جبر الكسير إذا أصلحه، عن واصل بن عطاء.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أي: المستحق لصفات التعظيم. وقيل: هو الذي يكبر عن كل سوء، عن قتادة. وقيل: هو المتعال عن صفات المُحْدَثين، المُتَعَظِّم عما لا يليق به. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزيهاً له عما يشرك به المشركون من الأصنام وغيرها.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ للأجسام والأعراض المخصوصة. وقيل: المُقْدِر للأشياء بحكمته، المُحْدِث للأشياء على إرادته ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ المنشيء للخلق، الفاعل للأجسام والأعراض. ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الذي صوَّر الأجسام على اختلافها مثل الحيوان، والجماد. ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ نحو: الله، الرحمٰن، الرحيم، القادر، العالم، الحي، وقد مرَّ بيانه في سورة الأعراف.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يُنزِّهُه جميع الأشياء، فالحي يصفه بالتنزيه، والجماد يدل على تنزيهه. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اسم الله الأعظم في ست آيات في آخر سورة الحشر».

سُورَةُ المُمتَحِنَة

مدنية/آياتها (١٣)

وقيل: سورة الامتحان. وقيل: سورة المودة. مدنية، وهي ثلاث عشرة آية بالإجماع.

● **فضلها:** أُبَيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «ومَن قرأ سورة الممتحنة، كان المؤمنون والمؤمنات له شفعاء يوم القيامة». أبو حمزة الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام قال: من قرأ سورة الممتحنة في فرائضه ونوافله، امتحن الله قلبه للإيمان، ونور له بصره، ولا يصيبه فقر أبداً، ولا جنون في ولده، ولا في بدنه.

● **تفسيرها:** وجه اتصالها بما قبلها، أنه لما ذكر سبحانه في سورة الحشر الكفار والمنافقين، افتتح هذه السورة بذكر تحريم موالاتهم، وإيجاب معاداتهم، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو: «يُفْصَل بينكم» بضم الياء وفتح الصاد على التخفيف. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: «يُفَصِّل» بضم الياء وكسر الصاد مشدداً. وقرأ عاصم ويعقوب وسهل: «يَفْصِل» بفتح الياء وكسر الصاد مخففاً، وقرأ ابن عامر: «يُفَصَّل» بضم الياء وفتح الصاد مشدداً. وفي الشواذ قراءة عيسى بن عمرو «أنا براء منكم» على مثال فعال.

● **الحجة:** قال أبو علي: ذهب أبو الحسن في هذا النحو [إلى] أن الظرف أقيم مقام

الفاعل، وترك على الفتح الذي كان يجري عليه في الكلام، لجريه في أكثر الكلام منصوباً، وكذلك تقول في قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ وكذلك يجيء قياس قوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾. فاللفظ على قوله مفتوح والموضع رفع، كما كان اللفظ في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، وما جاءني من رجل، مجروراً، والموضع رفع. والقول في قراءة ابن عامر «يُفصَّل» مثل القول في «يُفصِّل». وقول عاصم «يَفْصِل» حسن، والضمير يرجع إلى اسم الله تعالى. ودل عليه قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ وكذلك قول من قرأ «يُفْصَل» و«بريء» في تكسيره أربعة أوجه: براء كالشريف والشرفاء، وهو قراءة الجماعة، وبراء نحو ظريف وظراف وأبرياء كصديق وأصدقاء، وبراء كقِوام ورَباب، وعليه بيت الحارث بن حلزة:

فـإنَّـا مـنْ قـتـلِهـم لـبـرَاءُ

قال الفراء: أراد بُرآء فحذف الهمزة التي هي لام تخفيفاً، وأخذ هذا الموضع من أبي الحسن في قوله: «إن أشيياء أصله أشياء». وهذا المذهب يوجب ترك صرف بُرآء، لأنها همزة التأنيث.

● **الإعراب:** ذهب الزجاج إلى أن التقدير: إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي، فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء. وقيل: إن الكلام قد تم عند قوله: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، ثم قال: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم﴾ على تقدير: أتلقون؟ فحذف الهمزة كقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ وتقديره: أو تلك نعمة. وقيل: إن قوله: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ في موضع النصب على الحال من الضمير في ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾، والباء مزيدة، والتقدير: تُلقُون إليهم المودة، كما قال الشاعر:

فلما رَجَتْ بالشُّربِ هزَّ لها العصا   شحيحٌ له عِندَ الإزاءِ نَهِيمُ(١)

أي: رجت الشرب. ويجوز أن يكون مفعول ﴿تُلْقُونَ﴾ محذوفاً، والباء تتعلق به، أي: تلقون إليهم ما تريدون بالمودة التي بينكم وبينهم. ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟﴾ جملة في موضع نصب على الحال من «العدو» أو من «الهاء والميم» في قوله: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم﴾. ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ منصوب بالعطف على ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ وجواب الشرط محذوف، لدلالة ما تقدمه من الكلام عليه، أي: إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي، فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء. و﴿جِهَٰدًا﴾ مفعول له أي: للجهاد، ويجوز أن يكون مصدراً وضع موضع الحال. ﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ معطوف عليه على الوجهين، والتقدير للحال: خرجتم مجاهدين في سبيلي مبتغين مرضاتي. ﴿وَحْدَهُۥٓ﴾ يجوز أن يكون مصدراً محذوف الزوائد، والتقدير: توحدونه توحيداً، أو توحدونه إيحاداً، فيكون مصدراً وضع موضع الحال، ويجوز أن يكون مصدر فعل ثلاثي تقديره: يحد وحده، والتقدير: حتى تؤمنوا بالله واحداً. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ منصوب على الاستثناء، والمستثنى منه الضمير المستكن فيما يتعلق به اللام في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، والتقدير: ثبتت لكم في إبراهيم إلا في قوله لأستغفرن لك.

---

(١) الإزاء: مصب الماء في الحوض. ونهم الأكل في الطعام: شره وحرص وإفراط الشهوة فيه. وكان لا تمتلىء عينه، ولا تشبع.

● **النزول**: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام، أتت رسول الله ﷺ، من مكة إلى المدينة بعد بدر بسنتين، فقال لها رسول الله ﷺ: أمسلمة جئت؟ قالت: لا، قال: أمهاجرة جئت؟ قالت: لا، قال: فما جاء بك؟ قالت: كنتم الأصل والعشيرة والموالي، وقد ذهب موالي واحتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني، وتكسوني، وتحملوني، قال: فأين أنت من شبان مكة؟ وكانت مغنية نائحة. قالت: ما طلب مني بعد وقعة بدر. فحث رسول الله ﷺ عليها بني عبد المطلب، فكسوها، وحملوها، وأعطوها نفقة، وكان رسول الله ﷺ يَتَجَهَّز لفتح مكة، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة، وكتب معها كتاباً إلى أهل مكة، وأعطاها عشرة دنانير، عن ابن عباس. وعشرة دراهم، عن مقاتل بن حيان. وكساها برداً على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة، وكتب في الكتاب: «من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة: إن رسول الله يريدكم، فخذوا حذركم!» فخرجت سارة، ونزل جبرائيل فأخبر النبي ﷺ بما فعل، فبعث رسول الله ﷺ علياً، وعماراً، وعمر، والزبير، وطلحة، والمقداد بن الأسود، وأبا مرثد، وكانوا كلهم فرساناً، وقال لهم: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها. فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول الله ﷺ، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحوها، وفتشوا متاعها، فلم يجدوا معها كتاباً، فهموا بالرجوع. فقال علي عليه السلام: والله ما كُذِبْنا، وسلَّ سيفه، وقال لها: أخرجي الكتاب، وإلا والله لأضربن عنقك. فلما رأت الجد أخرجته من ذؤابتها، قد أخبأته في شعرها. فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إلى حاطب فأتاه، فقال له: هل تعرف الكتاب، قال: نعم، قال: فما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته، وكنت عريراً فيهم، أي: غريباً. وكان أهلي بين ظهرانيهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدقه رسول الله ﷺ وعذره. فقام عمر بن الخطاب وقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك يا عمر؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فغفر لهم. فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن عبد الله بن أبي رافع قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: بعثنا رسول الله ﷺ أنا والمقداد، والزبير. وقال: انطلقوا ختى تأتوا روضة خاخ، فإنّ بها ظعينة معها كتاب. فخرجنا، وذكر نحوه.

● **المعنى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ خاطب سبحانه المؤمنين، ونهاهم أن يتخذوا الكافرين أولياء، يوالونهم، ويستنصرونهم، وينصرونهم. و﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: تلقون إليهم المودة، وتبذلون لهم النصيحة، يقال: ألقيت إليك بسري. وقيل: معناه تلقون إليهم أخبار رسول الله ﷺ بالمودة التي بينكم وبينهم، عن الزجاج. ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو القرآن والإسلام ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ من مكة ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: لأن تؤمنوا وكراهة أن تؤمنوا، فكأنه قال: يفعلون ذلك، لإيمانهم بالله ربكم الذي خلقكم

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ والمعنى: إن كان غرضكم في خروجكم وهجرتكم الجهاد، وطلب رضاي، فأوفوا خروجكم حقه من معاداتهم، ولا تلقوا إليهم بالمودة، ولا تتخذوهم أولياء. ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: تعلمونهم في السر أن بينكم وبينهم مودة. وقيل: الباء للتعليل، أي: تعلمونهم بأحوال الرسول في السر، بالمودة التي بينكم وبينهم، فعل من يظن أنه يخفى عليَّ ما يفعله. ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ لا يخفى عليَّ شيء من ذلك فأُطلع رسولي عليه. ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي: ومن أسرَّ إليهم بالمودة، وألقى إليهم أخبار رسولي منكم، يا جماعة المؤمنين بعد هذا البيان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عدل عن طريق الحق، وجار عن سبيل الرشد. وفي هذه الآية دلالة على أن الكبيرة لا تخرج عن الإيمان، لأن أحد المسلمين لا يقول: إن حاطباً قد خرج من الإيمان بما فعله من الكبيرة الموبقة.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ يعني أن هؤلاء الكفار إن يصادفوكم مقهورين ويظفروا بكم ﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: يمدوا إليكم أيديهم بالضرب، والقتل، ويبسطوا إليكم ألسنتهم بالشتم، والمعنى: إنهم يعادونكم، ولا ينفعكم ما تلقون إليهم، ولا يتركون غاية في إلحاق السوء بكم، باليد واللسان. ﴿وَوَدُّوا۟﴾ مع ذلك ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ بالله كما كفروا، وترجعون عن دينكم ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ أي: ذوو أرحامكم، والمعنى: قراباتكم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ أي: لا يحملنكم قراباتكم، ولا أولادكم التي بمكة على خيانة النبي ﷺ والمؤمنين، فلن ينفعكم أولئك الذين عصيتم الله لأجلهم. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ﴾ الله ﴿بَيْنَكُمْ﴾ فيدخل أهل الإيمان والطاعة الجنة، وأهل الكفر والمعصية النار، ويميز بعضكم من بعض ذلك اليوم، فلا يرى القريب المؤمن في الجنة قريبه الكافر في النار. وقيل: معناه يقضي بينكم من فصل القضاء ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: عليم بأعمالكم. علم الله سبحانه بما عمله حاطب من مكاتبة أهل مكة حتى أخبر نبيه ﷺ بذلك.

ثم ضرب سبحانه لهم إبراهيم مثلًا في ترك موالاة الكفار فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: اقتداء حسن ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ خليل الله ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ ممن آمن به واتبعه. وقيل: الذين معه من الأنبياء، عن ابن زيد. ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ﴾ الكفار ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ فلا نواليكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: وبراء من الأصنام التي تعبدونها. ويجوز أن يكون ما مصدرية، فيكون المعنى: ومن عبادتكم الأصنام. ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: يقولون لهم: جحدنا دينكم وأنكرنا معبودكم، ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ فلا يكون بيننا موالاة في الدين ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ أي: تصدقوا بوحدانية الله، وإخلاص التوحيد والعبادة له. قال الفراء: يقول الله تعالى: أفلا تأتسي يا حاطب بإبراهيم وقومه، فتبرأ من أهلك كما تبرَّأوا منهم أي: من قومهم الكفار. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي: اقتدوا بإبراهيم في كل أموره إلا في هذا القول، فلا تقتدوا به فيه، فإنه عليه السلام إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه بالإيمان، فلما تبين له أنه عدو الله تبرَّأ منه. قال الحسن: وإنما تبين له ذلك عند موت أبيه، ولو لم يستثن ذلك لظن أنه يجوز الاستغفار للكفار مطلقاً، من غير موعدة بالإيمان منهم، فنهوا أن يقتدوا به في هذا خاصة، عن مجاهد، وقتادة، وابن زيد. وقيل: كان آزر ينافق إبراهيم، ويريه أنه مسلم، ويعده إظهار

الإسلام فيستغفر له، عن الحسن والجبائي. ثم قال: ﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ إذا أراد عقابك، ولا يمكنني دفع ذلك عنك. ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا﴾ أي: وكانوا يقولون ذلك ﴿وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾ أي: إلى طاعتك رجعنا ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: إلى حكمك المرجع، وهذه حكاية لقول إبراهيم وقومه. ويحتمل أن يكون تعليماً لعباده أن يقولوا ذلك، فَيُفَوِّضوا أمورهم إليه، ويرجعون إليه بالتوبة. ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ معناه: لا تعذبنا بأيديهم، ولا ببلاء من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق لما أصابهم هذا البلاء، عن مجاهد. وقيل: معناه ولا تسلطهم علينا، فيفتنونا عن دينك. وقيل: معناه الْطُف بنا حتى نصبر على أذاهم ولا نتبعهم، فنصير فتنة لهم. وقيل: معناه اعصمنا من موالاة الكفار، فإنا إذا واليناهم ظنوا أنا صوبناهم. وقيل: معناه لا تخذلنا إذا حاربناهم، فلو خذلتنا لقالوا: لو كان هؤلاء على الحق لما خذلوا. ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآ﴾ ذنوبنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب، و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا الحكمة والصواب. وفي هذا تعليم للمسلمين أن يدعوا بهذا الدعاء.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٦ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾.

● **النزول:** نزل قوله: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية في خزاعة، وبني مدلج، وكانوا صالحوا رسول الله على ألا يقاتلوه، ولا يعينوا عليه أحداً، عن ابن عباس.

● **المعنى:** ثم أعاد سبحانه في ذكر الأسوة فقال: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ﴾ أي: في إبراهيم ومن آمن معهم ﴿أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ أي: قدوة حسنة. وإنما أعاد ذكر الأسوة لأن الثاني منعقد بغير ما انعقد به الأول، فإن الثاني فيه بيان أن الأسوة فيهم كان لرجاء ثواب الله وحسن المنقلب، والأول فيه بيان أن الأسوة في المعاداة للكفار. وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ بدل من قوله: ﴿لَكُمۡ﴾، وهو بدل البعض من الكل، مثل قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾. وفيه بيان أن هذه الأسوة لمن يخاف الله، ويخاف عقاب الآخرة، وهو قوله: ﴿وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ﴾. وقيل: يرجو ثواب الله وما يعطيه من ذلك في اليوم الآخر. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: ومن يعرض عن هذا الاقتداء بإبراهيم، والأنبياء، والمؤمنين، والذين معه، فقد أخطأ حظ نفسه، وذهب عما يعود نفعه عليه، فحذفه لدلالة الكلام عليه وهو قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي: الغني عن ذلك، المحمود في جميع أفعاله، فلا يضره توليه، ولكنه ضرَّ نفسه.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم﴾ أي: من كفار مكة ﴿مَّوَدَّةً﴾ بالإسلام. قال مقاتل: لما أمر الله سبحانه المؤمنين بعداوة الكفار، عادوا أقرباءهم، فنزلت هذه الآية. والمعنى: إن موالاة الكفار لا تنفع، والله سبحانه قادر على أن يوفقهم للإيمان، وتحصل المودة بينكم وبينهم، فكونوا على رجاء وطمع من الله أن يفعل ذلك، وقد فعل ذلك حين أسلموا عام الفتح، فحصلت المودة بينهم وبين المسلمين. ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على نقل القلوب من العداوة إلى المودة، وعلى كل شيء يصح أن يكون مقدوراً له. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوب عباده ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم إذا تابوا وأسلموا.

﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ أي: ليس ينهاكم الله عن مخالطة أهل العهد، الذين عاهدوكم على ترك القتال، وبرهم، ومعاملتهم بالعدل. وهو قوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ أي: وتعدلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد، عن الزجاج. وقيل: إن المسلمين استأمروا النبي ﷺ في أن يبرُّوا أقرباءهم من المشركين، وذلك قبل أن يؤمروا بقتال جميع المشركين، فنزلت هذه الآية، وهي منسوخة بقوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة. وقيل: إنه عنى بالذين لم يقاتلوكم مَنْ آمن مِنْ مكة، ولم يهاجر، عن قتادة. وقيل: هي عامة في كل من كان بهذه الصفة، عن ابن الزبير. والذي عليه الإجماع أن: بر الرجل من يشاء من أهل الحرب، قرابة كان أو غير قرابة، ليس بمحرم، وإنما الخلاف في إعطائهم مال الزكاة، والفطرة، والكفارات، فلم يجوِّزه أصحابنا، وفيه خلاف بين الفقهاء. وقوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ في موضع جر بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وهو بدل الاشتمال، وتقديره: لا ينهاكم الله عن أن تبروا الذين لم يقاتلوكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي: العادلين. وقيل: يحب الذين يجعلون لقراباتهم قسطاً مما في بيوتهم من المطعومات.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ من أهل مكة وغيرهم ﴿وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ أي: منازلكم وأملاككم ﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ﴾ أي: عاونوا على ذلك، وعاضدوهم، وهم العوام والأتباع عاونوا رؤساءهم على الباطل ﴿أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ﴾ أي: ينهاكم الله عن أن تولوهم وتوادوهم وتحبوهم، والمعنى: إن مكاتبتكم بينهم[1] بإظهار سر المؤمنين، موالاة لهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ﴾ منكم، أي: يوالهم وينصرهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يستحقون بذلك العذاب الأليم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠﴾

(١) في نسختين: مكاتبتهم بدل مكاتبتكم بينهم.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة: «ولا تمسكوا» بالتشديد، والباقون: «ولا تمسكوا» بالتخفيف. وفي الشواذ قراءة الأعرج: «فعقَّبتم» بالتشديد، وقراءة النخعي، والزهري، ويحيى بن يعمر بخلاف: «فعقَبتم» خفيفة القاف من غير ألف. وقراءة مسروق: «فعقِبتم» بكسر القاف من غير ألف، والقراءة المشهورة: «فعاقبتم» وقرأ مجاهد «فأعقَبتم».

● **الحجة:** حجة من قرأ: «لا تمسكوا» قوله: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾، ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾، ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ وحجة من قال: «ولا تمسَّكوا» قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ يقال: أمسكت بالشيء، ومسكت به، وتمسكت به. قال ابن جني: روينا عن قطرب، قال: «فعاقبتم» أصبتم عقبى منهن، يقال: عَاقب الرجُل شيئاً إذا أخذ شيئاً، وأنشد لطرفة:

فعقبتم بذنوبٍ غير مَرِّ

جمع مرّة، فسروه على[1] أعطيتم وعدتم. وقال في قوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: لم يرجع، وحكي عن الأعمش أنه قال: عقِبتم غنِمتم، وقد يجوز أن يكون «عقبتم» بوزن غنمتم وبمعناه جميعاً. روي أيضاً بيت طرفة: فعقبتم بكسر القاف. وحكى أبو عوانة، عن المغيرة قال: قرأت على إبراهيم ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ فأخذها على «فعقبتم» خفيفة، ومعنى أعقبتم: صنعتم بهم مثل ما صنعوا بكم.

● **النزول:** قال ابن عباس: صالح رسول الله ﷺ بالحديبية مشركي مكة، على أنَّ مَنْ أتاه منْ أهل مكة رَدّه عليهم، ومَنْ أتى أهل مكة مِنْ أصحاب رسول الله ﷺ فهو لهم، ولم يردوه عليه. وكتبوا بذلك كتاباً وختموا عليه، فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية مسلمة بعد الفراغ من الكتاب، والنبي ﷺ بالحديبية، فأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم، وقال مقاتل: هو صيفي[2] بن الراهب، في طلبها، وكان كافراً. فقال يا محمد! اردد عليَّ امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا، وهذه طينة الكتاب لم تجفّ بعد. فنزلت الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾.

قال ابن عباس: امتحانهن أن يستحلفن ما خرجت من بغض زوج، ولا رغبة عن أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، وما خرجت إلا حباً لله ولرسوله. فاستحلفها رسول الله ﷺ ما خرجت بغضاً لزوجها، ولا عشقاً لرجل منا، وما خرجت إلا رغبة في الإسلام، فحلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك. فأعطى رسول الله ﷺ زوجها مهرها، وما أنفق عليها، ولم يردها عليه، فتزوجها عمر بن الخطاب. فكان رسول الله ﷺ يرد من جاءه من الرجال، ويحبس من جاءه من النساء إذا امتحنّ، ويعطي أزواجهن مهورهن.

---

(١) في نسخة: ما أعطيتم بدل أعطيتم. (٢) في نسختين: صيف بدل صيفي.

قال الزهري: ولما نزلت هذه الآية وفيها قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ طلّق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا له بمكة مشركتين: قرنية[1] بنت أبي أمية بن المغيرة، فتزوجها بعده معاوية بن أبي سفيان، وهما على شركهما بمكة[2]، والأخرى أم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية، أم عبد الله بن عمر، فتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غانم، رجل من قومه، وهما على شركهما، وكانت عند طلحة بن عبد الله أروى بنت ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب. ففرق بينهما الإسلام حين نهى القرآن عن التمسك بعصم الكوافر. وكان طلحة قد هاجر وهي بمكة عند قومها كافرة، ثم تزوجها في الإسلام بعد طلحة، خالد بن سعيد بن العاص بن أمية. وكانت ممن فرت إلى رسول الله من نساء الكفار، فحبسها وزوجها خالداً، وأميمة بنت بشر، كانت عند ثابت بن الدحداحة، ففرت منه وهو يومئذٍ كافر إلى رسول الله ﷺ، فزوَّجها رسول الله سهل بن حنيف، فولدت عبد الله بن سهل.

قال الشعبي: وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن الربيع، فأسلمت ولحقت بالنبي ﷺ في المدينة، وكان أبو العاص مشركاً بمكة. ثم أتى المدينة فأمنته زينب، ثم أسلم فردها عليه رسول الله.

وقال الجبائي: لم يدخل في شرط صلح الحديبية إلا رد الرجال دون النساء، ولم يجر للنساء ذكر، وإن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، جاءت مسلمة مهاجرة من مكة، فجاء أخواها إلى المدينة، فسألا رسول الله ﷺ ردها عليهما، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشرط بيننا في الرجال لا في النساء». فلم يردها عليهما. قال الجبائي: وإنما لم يجر هذا الشرط في النساء، لأن المرأة إذا أسلمت لم تحل لزوجها الكافر، فكيف ترد عليه، وقد وقعت الفرقة بينهما؟.

● **المعنى**: لما قطع سبحانه الموالاة بين المسلمين والكافرين، بيَّن حكم النساء المهاجرات وأزواجهن، فقال ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ بالإيمان، أي: استوصفوهن الإيمان، وسماهن مؤمنات قبل أن يؤمن، لأنهن اعتقدن الإيمان. ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ﴾ أي: كنتم تعلمون بالامتحان ظاهر إيمانهن، والله يعلم حقيقة إيمانهن في الباطن. ثم اختلفوا في الامتحان على وجوه:

أحدها: إن الامتحان أن يشهدنَ أنْ لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، عن ابن عباس.

وثانيها: ما روي عن ابن عباس أيضاً في رواية أخرى: إن امتحانهن أن يحلفن ما خرجن إلا للدين، والرغبة في الإسلام، ولحب الله ورسوله، ولم يخرجن لبغض زوج ولا لالتماس دِينٍ،. وروي ذلك عن قتادة.

وثالثها: إن امتحانهن بما في الآية التي بعد وهو: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية، عن عائشة.

---

(١) في المخطوطة: قريبة بدل قرنية.

(٢) ليس في بعضها لفظة: «بمكة».

ثم قال سبحانه: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ يعني في الظاهر ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: لا تردوهن إليهم ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. وهذا يدل على وقوع الفرقة بينهما بخروجهما مسلمة، وإن لم يطلق المشرك ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ أي: وآتوا أزواجهن الكفار عليهن من المهر، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. قال الزهري: لولا الهدنة لم يُرد إلى المشركين الصداق كما كان يفعل قبل. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: ولا جناح عليكم معاشر المسلمين أن تنكحوا المهاجرات، إذا أعطيتموهن مهورهن التي يستحل بها فروجهن، لأنهن بالإسلام قد بنَّ من أزواجهن. ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ أي: لا تمسكوا بنكاح الكافرات، وأصل العصمة المنع، وسمي النكاح عصمة لأن المنكوحة تكون في حبال الزوج وعصمته. وفي هذا دلالة على أنه لا يجوز العقد على الكافرة، سواء كانت حربية أو ذمية، وعلى كل حال، لأنه عام في الكوافر، وليس لأحد أن يخص الآية بعابدة الوثن لنزولها بسببهن، لأن المعتبر بعموم اللفظ لا بالسبب.

﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ أي: إن لحقت امرأة منكم بأهل العهد من الكفار مرتدة، فاسألوهم ما أنفقتم من المهر إذا منعوها ولم يدفعوها إليكم، كما يسألونكم مهور نسائهم إذا هاجرن إليكم، وهو قوله: ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ﴾ يعني: ما ذكر الله في هذه الآية ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأشياء، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل ويأمر به. قال الحسن: كان في صدر الإسلام تكون المسلمة تحت الكافر، والكافرة تحت المسلم، فنسخته هذه الآية. قال الزهري: ولما نزلت هذه الآية آمن المؤمنون بحكم الله، وأدوا ما أمر به من نفقات المشركين على نسائهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما أمرهم به، من أداء نفقات المسلمين، فنزل ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ أي: أحد من أزواجكم ﴿إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، فلحقن بهم مرتدات ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ معناه: فغزوتم وأصبتم من الكفار عقبى، وهي الغنيمة. فظفرتم، وكانت العاقبة لكم. وقيل: معناه فخلفتم[1] من بعدهم وصار الأمر إليكم، عن مؤرج. وقيل: إن عقب وعاقب مثل صغر وصاغر بمعنى، عن الفراء. وقيل: عاقبتم بمصير أزواج الكفار إليكم، إما من جهة سبي، أو مجيئهن مؤمنات، عن علي بن عيسى. ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم﴾ أي: نساؤهم من المؤمنين ﴿مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ من المهور عليهن من رأس الغنيمة، وكذلك من ذهبت زوجته إلى من بينكم وبينه عهد، فنكث في إعطاء المهر، فالذي ذهبت زوجته يعطي المهر من الغنيمة، ولا ينقص شيئاً من حق، بل يعطي كاملًا، عن ابن عباس والجبائي.

وقيل: معناه إن فاتكم أحد من أزواجكم إلى الكفار الذين بينكم وبينهم عهد، فغنمتم، فأعطوا زوجها صداقها الذي كان ساق إليها من الغنيمة. ثم نسخ هذا الحكم[2] في براءة، فنبذ إلى كل عهد عهده، عن قتادة. وقال علي بن عيسى: معناه فأعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من المهور، كما عليهم أن يردوا عليكم مثل ما أنفقتم لمن ذهب من أزواجكم.

---

(١) في نسخة فلحقتم بدل فخلفتم.

(٢) في المخطوطة سورة براءة.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: اجتنبوا معاصي الله الذي أنتم تصدقون به، ولا تجاوزوا أمره. وقال الزهري: فكان جميع من لحق المشركين من نساء المؤمنين المهاجرين، راجعات عن الإسلام، ست نسوة: أم الحكم بنت أبي سفيان، كانت تحت عياض بن شداد الفهري. وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة، أخت أم سلمة، كانت تحت عمر بن الخطاب. فلما أراد عمر أن يهاجر، أبت وارتدت. وبروع[1] بنت عقبة، كانت تحت شماس ابن عثمان. وعبدة بنت عبد العزى بن فضلة، وزوجها عمرو بن عبدود. وهند بنت أبي جهل بن هشام، كانت تحت هشام بن العاص بن وائل. وكلثوم بنت جرول، وكانت تحت عمر. فأعطاهم رسول الله ﷺ مهور نسائهم من الغنيمة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

● **الإعراب:** ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي: من بعث أصحاب القبور، فحذف المضاف. ويجوز أن يكون ﴿مِنْ﴾ تبييناً للكفار، والتقدير: كما يئس الكفار الذين هم من أصحاب القبور من الآخرة.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه بيعة النساء، وكان ذلك يوم فتح مكة، لما فرغ النبي ﷺ من بيعة الرجال، وهو على الصفا، جاءته النساء يبايعنه، فنزلت هذه الآية. فشرط الله تعالى في مبايعتهن أن يأخذ عليهن هذه الشروط، وهو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ على هذه الشرائط وهي ﴿لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ من الأصنام والأوثان ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ لا من أزواجهن ولا من غيرهم ﴿وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ على وجه من الوجوه لا بالوأد، ولا بالإسقاط، ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ﴾ أي: بكذب يكذبنه في مولود يوجد ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي: لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم، عن ابن عباس. وقال الفراء: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هذا ولدي منك. فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن، وذلك أن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها. وليس المعنى على نهيهن من أن يأتين بولد من الزنا، فينسبنه إلى الأزواج، لأن الشرط بنهي الزنا قد تقدم. وقيل: البهتان الذين نهين عنه قذف المحصنات، والكذب على الناس، وإضافة الأولاد إلى الأزواج على البطلان، في الحاضر

---

(١) في نسخة: «برزع».

والمستقبل من الزمان ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ وهو جميع ما يأمرهن به، لأنه لا يأمر إلا بالمعروف، والمعروف نقيض المنكر، وهو كل ما دل العقل والسمع على وجوبه أو ندبه. وسمي معروفاً لأن العقل يعترف به، من جهة عظم حسنه ووجوبه. وقيل: عنى بالمعروف النهي عن النوح وتمزيق الثياب، وجز الشعر، وشق الجيب، وخمش الوجه، والدعاء بالويل، عن المقاتلين والكلبي. والأصل أن المعروف كل بر، وتقوى، وأمر وافق طاعة الله تعالى ﴿فَبَايِعۡهُنَّ﴾ على ذلك ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ﴾ أي: اطلب من الله أن يغفر لهن ذنوبهن ويسترها عليهن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ أي: صفوح عنهن ﴿رَّحِيمٞ﴾ منعم عليهن.

وروي أن النبي ﷺ بايعهن، وكان على الصفا، وكان عمر أسفل منه، وهند بنت عتبة متنقبة متنكرة مع النساء خوفاً أن يعرفها رسول الله ﷺ، فقال: أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً. فقالت هند: إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال. وذلك أنه بايع الرجال يومئذٍ على الإسلام والجهاد فقط، فقال ﷺ: ولا تسرقن. فقالت هند: إن أبا سفيان رجل ممسك، وإني أصبت من ماله هنات، فلا أدري أيحل لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من مالي فيما مضى وفيما غبر، فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال لها: وإنك لهند بنت عتبة؟ قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك، فقال ﷺ: ولا تزنين، فقالت هند: أو تزني الحرة؟ فتبسم عمر بن الخطاب لما جرى بينه وبينها في الجاهلية، فقال ﷺ: ولا تقتلن أولادكن، فقالت هند: ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً، وأنتم وهم أعلم. وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتله علي بن أبي طالب عليه السلام يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى، وتبسم النبي ﷺ، ولما قال: ولا تأتين ببهتان، فقالت هند: والله إن البهتان قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد، ومكارم الأخلاق. ولما قال: ولا يعصينك في معروف، فقالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء.

وروى الزهري عن عروة، عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يبايع النساء بالكلام بهذه الآية ﴿لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾، وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، إلا امرأة يملكها. رواه البخاري في «الصحيح».

وروي أنه ﷺ كان إذا بايع النساء، دعا بقدح ماء فغمس فيه يده، ثم غمسن أيديهن فيه. وقيل: إنه كان يبايعهنّ من وراء الثوب، عن الشعبي.

والوجه في بيعة النساء، مع أنهن لسن من أهل النصرة بالمحاربة، هو أخذ العهد عليهن بما يصلح من شأنهن في الدين، والأنفس، والأزواج، وكان ذلك في صدر الإسلام، ولئلا ينفتق بهن فتق، لما وضع من الأحكام، فبايعهن النبي ﷺ حسماً لذلك.

ثم خاطب سبحانه المؤمنين فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: لا تتولوا اليهود. وذلك أن جماعة من فقراء المسلمين، كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين، يتواصلون إليهم بذلك، فيصيبون من ثمارهم، فنهى الله عن ذلك، عن المقاتلين. وقيل: أراد جميع الكفار، أي: لا تتخذوا كافراً من الكفار أولياء. ثم وصف الكفار فقال: ﴿قَدۡ

يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: من ثواب الآخرة ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ يعني أن اليهود بتكذيبهم محمداً ﷺ، وهم يعرفون صدقه، وأنه رسول، قد يئسوا من أن يكون لهم في الآخرة حظ وخير، كما يئس الكفار الذين ماتوا وصاروا في القبور، من أن يكون لهم في الآخرة حظ، لأنهم قد أيقنوا بعذاب الله، عن مجاهد، وسعيد بن جبير. وقيل: كما يئس كفار العرب من أن يحيا أهل القبور أبداً، عن الحسن. وقيل: كما يئس الكفار من أن ينالهم خير من أصحاب القبور. وقيل: يريد بالكفار هاهنا الذين يدفنون الموتى، أي: يئس هؤلاء الذين غضب الله عليهم من الآخرة، كما يئس الذين دفنوا الموتى منهم.

● **النظم:** ختم الله سبحانه السورة بالأمر بقطع الموالاة من الكفار، كما افتتحها به.

سُورَةُ الصَّفِّ

مدنية/آياتها (١٤)

وتسمى سورة الحواريين، وسورة عيسى عليه السلام، مدنية، وهي أربع عشرة آية بلا خلاف.

● **فضلها:** أُبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة عيسى عليه السلام، كان عيسى مصلياً عليه، مستغفراً له، ما دام في الدنيا، وهو يوم القيامة رفيقه». أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ سورة الصف وأدمَن قراءتها في فرائضه ونوافله، صَفَّه الله مع ملائكته، وأنبيائه المرسلين.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سبحانه السورة بقطع موالاة الكفار، افتتح هذه السورة بإيجاب ذلك ظاهراً وباطناً، ثم بالأمر بالجهاد، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا
تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ
مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ
ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

● **اللغة:** المقت: البغض. والرَّصُّ: إحكام البناء، يقال: رَصَصتُ البناء، أي: أحكمته، وأصله من الرصاص، أي: جعلته، كأنه بُني من الرصاص لتلاؤمه، وشدة اتصاله.

● **الإعراب:** ﴿لِمَ﴾ حذفت الألف من «ما» لشدة الاتصال، مع ضعف حرف الاعتلال آخر الكلام، لأنه حرف تغيير في موضع تغيير. ﴿مَقْتًا﴾ نصب على التمييز. و﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ في موضع رفع بأنه فاعل ﴿كَبُرَ﴾، والتقدير: كبر هذا القول مقتاً عند الله. وقيل: إن الفاعل مضمر فيه، والتقدير: كبر المقت مقتاً عند الله، نحو: نعم رجلًا زيد، والمخصوص بالذم ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾. ﴿صَفًّا﴾ مصدر في موضع الحال، أي: مصطفين.

● **النزول:** نزل قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ في المنافقين، عن الحسن. وقيل: نزل في قوم كانوا يقولون: إذا لقينا العدو لم نفر، ولم نرجع عنهم، ثم لم يفوا بما قالوا وانْفَلُّوا يوم أحد، حتى شجَّ وجه رسول الله صلى الله عليه وآله، وكسرت رباعيته، عن مقاتل والكلبي. وقيل: نزلت

في قوم قالوا: جاهدنا وأبلينا وفعلنا، ولم يفعلوا وهم كذَبة، عن قتادة[١]. وقيل: لما أخبر الله سبحانه رسوله بثواب شهداء بدر، قالت الصحابة: لئن لقينا بعد قتالًا لنُفرغنّ فيه وُسعنا. ثم فرُّوا يوم أحد، فعيَّرهم الله تعالى بذلك، عن محمد بن كعب. وقيل: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: وددنا لو أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به. فأخبرهم الله أن أفضل الأعمال إيمان لا شك فيه، والجهاد، فكرِه ذلك ناس وشق عليهم، وتباطأوا عنه، فنزلت الآية، عن ابن عباس. وقيل: كان رجل يوم بدر قد آذى المسلمين، فقتله صهيب في القتال، فقال رجل: يا رسول الله، قتلت فلاناً، ففرح بذلك رسول الله ﷺ، فقال عمرو عبد الرحمن لصهيب: أخبر النبي ﷺ أنك قتلته، وأن فلاناً ينتحله، فقال صهيب: إنما قتلته لله ولرسوله، فقال عمرو[٢] عبد الرحمن: يا رسول الله، إنما قتله صهيب، فقال: كذلك يا أبا يحيى؟ قال: نعم يا رسول الله. فنزلت الآية، والآية الأخرى، عن سعيد بن المسيب.

● **المعنى:** ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مرَّ تفسيره. وإنما أعيد هاهنا، لأنه استفتاح السورة بتعظيم الله، من جهة ما سبح له بالآية التي فيه، كما يستفتح ببسم الله الرحمن الرحيم. وإذا دخل المعنى في تعظيم الله حسن الاستفتاح به. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قيل: إن الخطاب للمنافقين، وهو تقريع لهم بأنهم يظهرون الإيمان ولا يبطنونه. وقيل: إن الخطاب للمؤمنين، وتعيير لهم أن يقولوا شيئاً ولا يفعلونه. قال الجبائي: هذا على ضربين:

أحدهما: أن يقول: سأفعل، ومن عزمه ألا يفعله، فهذا قبيح مذموم.

والآخر: أن يقول: سأفعل، ومن عزمه أن يفعله، والمعلوم أنه لا يفعله، فهذا قبيح، لأنه لا يدري أيفعله أم لا. وينبغي في مثل هذا أن يقرن بلفظة: إن شاء الله.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: كبر هذا القول وعظم مقتاً عند الله وهو أن تقولوا ما لا تفعلون. وقيل معناه: كبر أن تقولوا ما لا تفعلونه، وتعِدوا من أنفسكم ما لا تفون به مقتاً عند الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ أي: يصفُّون أنفسهم عند القتال صفاً. وقيل: يقاتلون في سبيله مصطفين. ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ كأنه بني بالرصاص لتلاؤمه، وشدة اتصاله. وقيل: كأنه حائط ممدود، رُصَّ على البناء في إحكامه واتصاله واستقامته. أعلم الله سبحانه أنه يحب من ثبت في القتال ويلزم مكانه كثبوت البناء المرصوص، ومعنى محبة الله إياهم أنه يريد ثوابهم ومنافعهم.

ثم ذكر سبحانه حديث موسى في صدق نيته، وثبات عزيمته على الصبر في أذى قومه، تسلية للنبي ﷺ في تكذيبهم إياه، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ هذا إنكار عليهم إيذاءه، بعد ما علموا أنه رسول الله، والرسول

---

(١) في نسخة: مقاتل بدل قتادة.

(٢) في نسخة عمرو بن عبد الرحمن في الموضعين.

يُعَظَّم ويُبَجَّل ولا يؤذى. وكان قوم آذوه بأنواع من الأذى، وهو قولهم: اجعل لنا إلٰهاً، واذهب أنت وربك فقاتلا، وما روي في قصة قارون أنه دس إليه امرأة وزعم أنه زنى بها، ورموه بقتل هارون. وقيل: إن ذلك حين رموه بالأدرة، وقد ذكرنا ذلك عند قوله: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾، الآية. ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: فلما مالوا عن الحق والاستقامة، خلاهم وسوء اختيارهم، ومنعهم الألطاف التي يهدي بها قلوب المؤمنين، كقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، عن أبي مسلم. وقيل: أزاغ الله قلوبهم عما يحبون إلى ما يكرهون، ولا يجوز أن يكون المراد: أزاغ الله قلوبهم عن الإيمان، لأن الله تعالى لا يجوز أن يزيغ أحداً عن الإيمان. وأيضاً فإنه يخرج الكلام عن الفائدة، لأنهم إذا زاغوا عن الإيمان فقد حصلوا كفاراً، فلا معنى لقوله: أزاغهم الله عن الإيمان. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا يهديهم الله إلى الثواب، والكرامة والجنة التي وعدها المؤمنين. وقيل: لا يفعل بهم الألطاف التي يفعلها بالمؤمنين، بل يخلّيهم واختيارهم، عن أبي مسلم.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (٩)﴾.

● **القراءة:** فتح أهل البصرة، والحجاز، وأبو بكر «الياء» من قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾، ولم يفتحه الباقون. وقرأ ابن كثير وأهل الكوفة غير أبي بكر: «مُتِمُّ نورِه» مضافاً، والباقون: «مُتِمٌّ نُورَهُ» بالنصب والتنوين.

● **الحجة:** الإضافة ينوي بها الانفصال، كما في قوله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ و﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، والنصب في ﴿مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ على أنه في حال الفعل وفيما يأتي.

● **الإعراب:** قوله: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ في موضع جر لكونه وصفاً للرسول، كما في قوله: ﴿يَأْتِى﴾ في موضع جر أيضاً. وتقديره: اسمه قول أحمد، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وكذلك قوله: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: يجدون ذكره مكتوباً ألا ترى أن الشخص لا يكتب، كما أن «أحمد» عبارة عن الشخص، والاسم قول، والقول لا يكون الشخص. وخبر المبتدأ يكون المبتدأ في المعنى. ومفعول قوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾ محذوف، وتقديره: يريدون ذم الإسلام، أو يريدون هذا القول ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أي: لإطفاء نور الله. ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ في موضع نصب على الحال.

● **المعنى**: ثم عطف سبحانه بقصة عيسى عليه السلام، على قصة موسى، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: واذكر إذ قال عيسى بن مريم لقومه الذين بعث إليهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ المنزلة على موسى ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ يعني نبينا محمداً صلى الله عليه وآله، كما قال الشاعر:

صلّى الإله ومَنْ يَحُفُّ بعرشه ... والطَّيِّبون على المُبارك أحْمَدِ

ولهذا الاسم معنيان:

أحدهما: أن يجعل ﴿أَحْمَدُ﴾ مبالغة من الفاعل، أي: هو أكثر حمداً لله من غيره.

والآخر: أن يجعل مبالغة من المفعول، أي: يحمد بما فيه من الأخلاق والمحاسن أكثر مما يحمد غيره.

وصحت الراية عن الزهري، عن محمد بن جبير بن المطعم، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن لي أسماء: أنا أحمد، وأنا محمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي». أورده البخاري في «الصحيح».

وقد تضمنت الآية أن عيسى بشر قومه بمحمد صلى الله عليه وآله، وبنبوته، وأخبرهم برسالته. وفي هذه البشرى معجزة لعيسى صلى الله عليه وآله عند ظهور محمد صلى الله عليه وآله، وأمر لأمته أن يؤمنوا به عند مجيئه. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أحمد ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالدلالات الظاهرة، والمعجزات الباهرة ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: من أشد ظلماً ممن اختلق الكذب على الله، وقال لمعجزاته: سحر، وللرسول: إنه ساحر كذاب. ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ الذي فيه نجاته. وقيل: يدعى إلى الاستسلام لأمره، والانقياد لطاعته. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بفعل الكفر والمعاصي. قال ابن جريج: هم الكفار والمنافقون، ويدل عليه قوله بعد: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: يريدون إذهاب نور الإيمان، والإسلام، بفاسد الكلام الجاري مجرى تراكم الظلام، فمثلهم فيه كمثل من حاول إطفاء نور الشمس بفيه. ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أي: مظهر كلمته ومؤيد نبيه، ومعلن دينه وشريعته ومبلغ ذلك غايته. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمداً صلى الله عليه وآله ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ من التوحيد وإخلاص العبادة له، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو دين الإسلام وما تعبد به الخلق ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ بالحجة والتأييد والنصرة ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ وفي هذه دلالة على صحة نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وآله، لأنه سبحانه قد أظهر دينه على جميع الأديان، بالاستعلاء والقهر، وإعلاء الشأن، كما وعده ذلك في حال الضعف، وقلة الأعوان. وأراد بالدين جنس الأديان، فلذلك أدخل الألف واللام. وروى العياشي بالإسناد عن عمران بن ميثم، عن عباية، أنه سمع أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أظهر بعد ذلك؟ قالوا: نعم، قال: كلا، فوالذي نفسي بيده حتى لا تبقى قرية إلا وينادي فيها بشهادة أن لا إله إلا الله بكرة وعشياً.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر: «تنجّيكم» بالتشديد، والباقون: «تنجيكم» بالتخفيف. وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو: «أنصاراً» بالتنوين، «لله» بغير ألف، والباقون: ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ بالإضافة إلى الله.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ: «تنجّيكم» بالتشديد قوله: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. وحجة التخفيف ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

● **اللغة:** التجارة: طلب الربح في شراء المتاع، واستعير هنا لطلب الربح في أعمال الطاعة. والجهاد: مقاتلة العدو.

● **الإعراب:** إنما جاز ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ مع أنه محمول على ﴿تِجَٰرَةٍ﴾ وخبر عنها، ولا يصح أن يقال للتجارة: تؤمنون، وإنما يقال[1]: وأن تؤمنوا بالله، لأنه جاء على طريق ما يدل على خبر التجارة لا على نفس الخبر. إذ الفعل يدل على مصدره، وإنما انعقاده بالتجارة في المعنى لا في اللفظ. وفي ذلك توطئة لما يبنى على المعنى في الإيجاز[2]، والعرب تقول: هل لك في خير تقوم إلى فلان فتعوده، وأن تقوم إليه. وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ في كونه مجزوماً وجهان:

أحدهما: إنه جواب «هل أدلكم» وهو قول الفراء، وأنكره أصحابنا البصريون، وقالوا: إن الدلالة على التجارة لا توجب المغفرة.

والآخر: إنه محمول على المعنى، لأن قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ معناه: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيله، وهو أمر جاء على لفظ الخبر. ويدل على ذلك قراءة عبد الله بن مسعود «آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا» ولا يمتنع أن يأتي الأمر بلفظ الخبر، كما أتى بلفظ الأمر في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ المعنى: فمد له الرحمن مداً، لأن القديم تعالى لا يأمر نفسه، ومثل نفسه. ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ لفظه أمر ومعناه خبر.

---

(١) كذا في النسخ والظاهر زيادة الواو.

(٢) في المخطوطة: «الإتجار» بدل «الإيجاز».

ويجوز أن يكون قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ مرفوعاً بسقوط أن. والموصول والصلة في موضع جر على البدل من ﴿تِجَٰرَةٍ﴾، وتقديره: هل أدلكم على تجارة إيمان بالله. وقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ في موضع جر بأنها صفة لموصوف محذوف، مجرور بالعطف على تجارة، تقديره: على تجارة أخرى محبوبة.

وقال الزجاج: تقديره: لكم تجارة أخرى، فعلى هذا يكون ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ صفة موصوف محذوف مرفوع بالابتداء. ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ صفة بعد صفة. ﴿نَصْرٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي نصر من الله. ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: ﴿إِلَى﴾ هاهنا بمعنى: مع، أي: مع الله.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر الرسول، عقَّبه سبحانه بذكر الدعاء إلى قبول قوله ونصرته، والعمل بشريعته، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهو خطاب للمؤمنين على العموم. وقيل: هو خطاب لمن تقدم ذكرهم في أول السورة. ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ صورته صورة العرض، والمراد به الأمر على سبيل التلطف في الاستدعاء إلى الإخلاص من الطاعة. والمعنى: هل ترغبون في تجارة منجية من العذاب الأليم، وهو الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، ، وذلك قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾. وإنما أنزل هذا لما قالوا: لو نعلم أيَّ الأعمال أفضل وأحبُّ إلى الله لعملنا؟ فجعل الله سبحانه ذلك العمل بمنزلة التجارة؛ لأنهم يربحون فيها رضى الله، والفوز بالثواب، والنجاة من العقاب. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما وصفته وذكرته لكم أنفع لكم، وخير عاقبة لو علمتم ذلك واعترفتم بصحته. وقيل أن معناه: إن التجارة التي دللتكم عليها خير لكم من التجارة التي أنتم مشتغلون بها، لأنها تؤدي إلى ربح لا يزول ولا يبيد، وهذه تؤدي إلى ربح يزول ويبيد. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مضار الأشياء ومنافعها. ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: فإنكم إلى عملتم بذلك ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: مواضع تسكنونها مستلذة مستطابة ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة لا تبغون عنها حولاً، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لا ما يعده الناس فوزاً من طول البقاء، وولاية الدنيا.

وسأل الحسن عمران بن الحصين وأبا هريرة عن تفسير قوله: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ فقالا: على الخبير سقطت، سألنا رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «قصر من لؤلؤ في الجنة، في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء، في كل بيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون، على كل فراش امرأة من الحور العين، في كل بيت سبعون مائدة، على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام، في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة. قال: ويعطي الله المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله».

ثم قال سبحانه: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي: وتجارة أخرى، أو خصلة أخرى تحبونها عاجلاً مع ثواب الآجل. وهذا من الله تعالى زيادة ترغيب، إذ علم سبحانه أن فيهم من يحاول عاجل النصر، إما رغبة في الدنيا، وإما تأييداً للدين، فوعدهم ذلك بأن قال: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾

أي: تلك الخصلة أو تلك التجارة، نصر من الله لكم على أعدائكم، وفتح قريب لبلادهم، يعني النصر على قريش، وفتح مكة، عن الكلبي. وقيل: يريد فتح فارس والروم، وسائر فتوح الإسلام على العموم، عن عطاء. و﴿قَرِيبٌ﴾ معناه: قريب كونه. وقيل: قريب منكم يقرب الرجوع إلى أوطانكم. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بَشِّرهم بهذين الثوابين عاجلًا وآجلًا على الجهاد، وهو النصر في الدنيا، والجنة في العقبى.

ثم حضَّ سبحانه المؤمنين على نصرة دينه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصار دينه وأعوان نبيه، وإنما أضاف إلى نفسه، كما يقال للكعبة: بيت الله. وقيل لحمزة بن عبد المطلب: أسد الله. المعنى: دوموا على ما أنتم عليه من النصرة. ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: مثل قول عيسى بن مريم للحواريين، وهم خاصة الأنبياء، وسموا بذلك لأنهم أخلصوا من كل عيب، عن الزجاج. وقيل: سموا بذلك لبياض ثيابهم. وقيل: لأنهم كانوا قصارين. ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والمعنى: قل يا محمد: إني أدعوكم إلى هذا الأمر، كما دعا عيسى قومه، فقال: من أنصاري مع الله، ينصرني مع نصرة الله إياي وقيل: إلى الله، أي: فيما يقرّب إلى الله، كما يقال: اللهم منك وإليك. ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصار دين الله وأولياء الله. وقيل: إنهم إنما سموا نصارى، لقولهم: نحن أنصار الله. ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: صدقت بعيسى ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ به. قال ابن عباس: يعني في زمن عيسى عليه السلام، وذلك أنه لما رُفِعَ تفرق قومه ثلاث فرق، فرقة قالت: كان الله فارتفع، وفرقة قالت: كان ابن الله فرفعه إليه، وفرقة قالوا: كان عبد الله ورسوله فرفعه إليه، وهم المؤمنون . واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس، فاقتتلوا وظهرت الفرقتان الكافرتان على المؤمنين، حتى بعث محمد صلى الله عليه وآله؛ فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرين. وذلك قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ أي: عالين غالبين. وقيل معناه: أصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة، بتصديق محمد صلى الله عليه وآله، بأن عيسى كلمة الله وروحه، عن إبراهيم. وقيل: بل أيدوا في زمانهم على من كفر بعيسى، عن مجاهد. وقيل معناه: فآمنت طائفة من بني إسرائيل بمحمد صلى الله عليه وآله، وكفرت طائفة به، فأصبحوا قاهرين لعدوِّهم بالحجة والقهر والغلبة. وبالله التوفيق.

تم المجلد التاسع من كتاب مجمع البيان

ويليه المجلد العاشر والأخير

الفهرس

الموضوع	الصفحة
سورة فصلت	٥
سورة الشورى	٢٨
سورة الزخرف	٥١
سورة الدخان	٧٨
سورة الجاثية	٩١
سورة الأحقاف	١٠٥
سورة محمد	١٢٢
سورة الفتح	١٣٩
سورة الحجرات	١٦٤
سورة ق	١٧٨
سورة الذاريات	١٩٣
سورة الطور	٢٠٧
سورة النجم	٢١٨
سورة القمر	٢٣٦
سورة الرحمن	٢٥٠
سورة الواقعة	٢٧٢
سورة الحديد	٢٩٣
سورة المجادلة	٣١٣
سورة الحشر	٣٢٥
سورة الممتحنة	٣٤٠
سورة الصف	٣٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم